بنو إسرائيل

بداية النهاية

وحتمية التّبار

دراسة تحليلية لإفسادي بني إسرائيل
من خلال سورة الإسراء

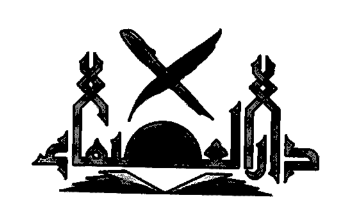
تأليف
د. عامر الزوبعي

تقديم
الدّكتور عماد الدّين خليل



الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧ م



سوريا دمشق-برامكة
مقابل كراج الانطلاق الموحد - دخلة الحلبوني
هاتف : ٢٢٢٤٢٧٩ - تلفاكس: ٢٤٥٧٥٥٤
خليوي: ٠٩٤/٣٤٩٤٣٤ ص.ب : ٣٦٢٦٧



من هدي كتاب الله

- ﴿إنَّ هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل﴾
- ﴿أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾
- ﴿وانه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾

النمل / ٧٦

❁ ❁ ❁

من هدي رسول الله ﷺ

عن أبي إمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تــزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، ولا ما أصابهم من الأعداء، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك».

قالوا يا رسول وأين هم؟

قال: «ببيت المقدس... وأكناف بيت المقدس»...

أحمد في مسنده: ٢٦٩/٥



كلمة للذكرى

لمـــا جـــيء بحيي بن أخطب... ليقتل... نظر إلى النبي ﷺ بعينين واجفتين فقال:

«أمـــا والله مـــا لُمتُ نفسي في عداوتك.. ولكنه من يخذل الله يُخذل..».

ثم أقبل على الناس فقال: «أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله...».

كتاب وقدر... وملحمة كتبها الله على...

بني إسرائيل...



الإهداء

* إلى الذي أحبته السماء حين سرى فيها نجماً وعاد يتلألأ...

* وإلى الذي أحبته الجبال... فاهتزت حين سما عليها.. فتهافتت ثم سكنت حين قال لها ... أثبتي ...

رسول الله محمـــد ﷺ

* إلى من كانوا أشداء على الكفار... رحماء بينهم ... فاستحقوا شرف النسبة في عبـــاداً لنا أولي بأسٍ شديد...

* إلى الذيـــن هـــم منهم ولّما يلحقوا بهم... ثلة من الآخرين ... وهم على الدرب سائرون...

* إلى الذين استكبروا في الأرض وقالوا من أشد منا قوة ... وعلو علواً كبيرا ...

* إلى الذين – يتلمسون معالم الطريق ... ليثوبوا ... ثقة بوعده ... ويقيناً بنصره

لو تقبلوا مني إهداءً.. أهديتهم كتابي هذا..

مع أشجاني...

وأشواقي...

وانتظاري المرّ

الباحث



إقترح البعض واعتذر إليهم

١/ "اليهود وبنوا إسرائيل"

ربما كان الأولى أن يكون العنوان – كما اقترح البعض – [اليهود... بداية النهاية وحتمية التبار] باعتبار أن اليهود وراء كلّ جريمة – كما هو في الحقيقة – وأن اليهود قد علو في الأرض اليوم علوا كبيرا – كما هو الواقع – إلا أني أعتقد أن تخصيص العموم هنا يخلّ بالمعنى، كما أن تقييد المطلق يقصره، فمصطلح (بني إسرائيل) أطلقه القرآن على اليهود والنصارى على حدٍ سواء ولم يخص به أحدهما، وإن كان اليهود يدخلون فيه بصورة أعم لاتساع إفسادهم وشدّة عداوتهم، والواقع يشهد أن النصارى قد شاركوا اليهود بل وأعانوهم على كثيرمن هذا الإفساد والعلو فيه فالصهيونية، ما طغت اليوم لولا جهود الصليبية ومساعيها، وهذه ما نجحت لولا دفع اليهودية العالمية لها... فـ(بنوا إسرائيل) بالتالي أصح وأشمل...

٢/ "التبار والدمار"

قالوا: لولا جعلت العنوان "بداية النهاية وحتميّة الدمار" لكان أوضح وأفهم، فالدمار واضح والتبار غير مفهوم... وأعتذر إليهم من حيث أننا لا ينبغي أن نعتمد عدم الفهم أساساً لعرض قضيتنا بل ينبغي أن يكون الفهم وليس القراءة فقط رائدنا، فحين استعمل القرآن هذه المفردة الغريبة "وليتبّروا... تتبيرا" إنما يقصد شيئاً آخر أبعد من التدمير، إذ أن التدمير له معنى أعم منه التتبير فما دمّرته قد يمكن إصلاحه أما التتبير فلا سبيل إلى إصلاحه بوجه ما، والقرآن يعلو ولا يعلى عليه.

٣/ "بداية النهاية"

قالوا لو جعلته "حتميّة التبار وبداية النهاية" فقلت: إن البداية دائماً تسبق النهاية وذكر السبب مقدم على النتيجة فما كان مقدماً قدمناه ولو أخرناه لتأخر المعنى إدراكاً، ولما فهم الكثير أن استعلاء بني إسرائيل كان قد ابتدأ من زمن بعيد واليوم قد بدأت نهايته، وإن كنا اليوم نعيش غمراته فإنما هي زفرات زهوقه وتخبطات تردّيه، وهو يمضي إلى مصيره الحتمي المرتقب، والدلائل تشير إلى قيام العباد من الزحف وارتقاءهم مرتبة البأس الشديد وإعلان النهاية لهذا الجبروت الأجوف وحتمية تباره في الأرض، تلك حقيقة ترهص بها جلّ المعطيات القرآنية والأحداث الدامية في الأرض اليوم...

تقريظ

بقلم

الدكتور: عماد الدين خليل

بسم الله والصلاة على رسول الله وبعد:

فقد كتب كثيراً عن سورة الإسراء وإفسادي بني إسرائيل، بدءاً بمفسرينا القدماء وانتهاءاً بالمفسرين والباحثين المحدثين.

ومن بين هذا الذي كتب تبرز دراستان قيمتان تمثلان أكثر تلك المحاولات دقة وإحكاماً وهما:

* كتاب: (حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية للدكتور صلاح الخالدي، صدرت طبعته الأولى عام / ١٩٩٤م).

* ورسالة (سورة الإسراء وبنو إسرائيل - دراسة تحليلية في إفسادي بني إسرائيل - والتي حاز بها الأخ الشيخ عامر نايف الزوبعي - درجة الماجستير في العلوم الإسلامية / التفسير وعلوم القرآن من جامعة بغداد عام / ١٩٩٧م)

وفي الحالتين فإن اعتماد منهج التفسير الدلالي الذي يتابع دلالات المفردات القرآنية أي ما يصطلح عليه أحيانا بالتفسير الموضوعي. وآخر بالتفسير البياني وثالثة بتفسير القرآن بالقرآن. قادهما إلى تقديم تصور عن إفسادي بني إسرائيل يملك قدراً كبيراً من الموضوعية والمقاربة للمعطى القرآني.

والحق إن انفجار الدراسات العليا في جامعاتنا العربية والإسلامية جاء بمثابة فرصة طيبة لإشباع النص القرآني بالدراسات الدلالية في سياقيها اللغوي والبياني - أو البلاغي - وقدّم للمكتبة القرآنية رسائل على قدر كبير من الأهمية.

والرسالة التي بين أيدينا لهي واحدة من بين هذه الثمار. وبإحالة ما قاله المفسرون القدماء والمحدثون عن - الإفسادين - على هذه الرسالة يبدو البون شاسعا بين الطرفين. حيث تتحدد في هذه الرسالة إلى حدّ بعيد الأبعاد التأريخية للآيات الواردة في صدر سورة الإسراء عن الموضوع. ويجد القرئ نفسه يخرج من دائرة الإحتمال والتخمين والتنبؤ إلى استقراء دلالي داخل النص القرآني يقوده إلى نتائج منضبطة إلى حدّ كبير.

لقد كان الإفساد الأول في جزيرة العرب قبل عصر الرسالة وأثناءها حيث بعث الله سبحانه وتعالى عباده الصالحين - من الصحابة. ليجوسوا خلال الديار، وسيكون الإفساد الثاني في زمن قادم سيُمَكَّنْ خلاله لبني إسرائيل في الأرض بحبل من الناس، وستجيء بهما الإرادة الإلهية من الشتات لفيفا إلى فلسطين لحكمة يريدها الله سبحانه، حيث يتحقق الوعد الحق وتكون المعركة الحاسمة بين الأمّة الإسلامية وأعداؤها من بني إسرائيل ويدخل العباد الصالحون الذين ابتعثهم الله سبحانه وتعالى المسجد الأقصى كما دخله آباؤهم أول مرّة. فيما ترهص به جلّ المعطيات المعاصرة في الساحة الفلسطينية والعالمية على السواء.

إن إحدى ميزات الدراسات الأكاديمية العليا أنها تمنح الطالب فرصة اختيار موضوع محدد لكي ينفذ إزاءه دراسة معمّقة قد يصل - الباحث - من خلالها إلى نتائج لا تتأتى للدراسات ذات الطابع الشمولي. وإن الرسالة التي بين أيدينا تعطينا شاهداً على هذا.

لقد أوغل الباحث في دراسة الآيات الخاصة بالموضوع من صدر سورة الإسراء وتمكّن من الإمساك بخيوطه كافة، وبالتالي تقديم هذا الذي يجده القارئ بين يديه فيما لم تطرق إليه أي دراسة أخرى للموضوع. إذا استثنينا مرّة أخرى دراسة الدكتور صلاح الخالدي المشار إليها قبل قليل.

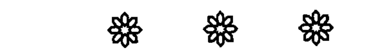
وبمرور الوقت ومن خلال تعامل هذه الرسالة الجامعية أو تلك مع سورة ما من سور القرآن، أو مقطع ما من مقاطعه، أو عدد من آياته البينات التي تعالج نقطة ما أو مفردة من مفرداته الغنية المتشابكة سيكشف الباحثون ومن خلال دراساتهم المعمّقة لهذه

الجوانب المحددة من النص القرآني عن معاني وقيم وحقائق قرآنية لم تكن التفاسير القديمة والحديثة قد كشفت عنها النقاب.

وفـــي كلّ الأحوال فإن المكتبة القرآنية ستزداد غنا وخصبا بما سيصبّ فيها من هـــذه الدراســـات التي يقدمها طلبة الدراسات العليا والتي أخذ المهتمّون بعلوم القرآن يـــلحظونها عـــبر العقديـــن الأخيرين، رغم أن تأسيساتها المبكرة ـــ إذا أردنا أن نكون منصـــفين - كانت قد أومضت بها وأرست قواعدها محاولات سابقة تنظيرا وتطبيقا من مثل ما قدّمه الدكتور أمين الخولي، والدكتورة عائشة عبد الرحمن، والشهيد سيّد قطب، وغيرهم من الرّواد الذين لا يتسع المجال لذكرهم.

ويظلّ القرآن الكريم قبل هؤلاء وأولئك وبعدهم ذلك الكتاب المدهش الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الردّ

عماد الدين خليل
أستاذ التأريخ الإسلامي
جامعة الموصل



مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـــد لله الـــذي بنعمـــته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من بعثه الله بالهدى والبيّنات، فكان أن أخرج الناس إلى النور من الظلمات، ولعلّ ما جاء في سورة الإسراء قبساً مـــن ذلك النور، بدى نجماً وليداً يتلألأ وعاد وقد غدا كوكباً درّي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربيّة لأنه كلام الله، إلا أن إشراقات وحيه قد عمّت الآفاق من المشارق والمغـــارب ولا زالـــت تنموا وتتسع وتتفجر إذ لا منتهى لكلمات وحي الله ولو كانت كل أشـــجار الدنيا أقلاماً والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ثم كتبت به كلمات الله: ﴿**لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا**﴾.

إن مـــا انبـــثق من نور من سورة الإسراء وحياً يهدي وروحاً يحيي هذه الأمة ويهيدها بعدمـــا ظلت وضاعت في الدروب الحالكات تتخبط من الحيرة وهي على مفترق الطرق فلا ســـبيل واضـــح ولا دلـــيل ناصـــح، وجماجم المكر اليهودية لا تفتر تغيّر العلامات وتطمِس الإشارات وتُلبس الحق بالباطل وتكتم الحق بعدما تبين.

ودينا صـــور الكفر اليهودي العالمي يقف معترضاً سبيل المؤمنين بالإرهاب المنظم تدعمه التكنولوجـــيا والأفكار الهدامة والنظريات التي ما من وراءها إلا التمزق والضياع والتيه، وكل أبـــواق الإعـــلام في اتجاه معاكس لصدى الحق وذهب الأرض ينفق في محاولة تحقيق أسطورة التلمود، وجنود الباطل ينشرون الظلام محاولين أن يطفئوا نور الله بأفواههم من كل اتجاه وفي كـــل مكان، وهيهات ونور الله ثاقب والحق المبين يرتكز في الأرض رغم كل ما يبذله الأقزام من جهد ومال وعدّة ودماء، وليس غير القرآن ﴿**يهدي للتي هي أقوم**﴾ وبريق سورة الإسراء يشتد ليدلل على أن القرآن هو الخلاص وفيه النجاة وأن الذين يعتقدون أن ما فيه يخص الزمن الماضي – حصراً – مخطئون فالزمن المعاصر لتروله ما سما وارتقى إلا به وذلك السمو والارتقاء كان ينبغي أن يكون أساساً لارتقاء المستقبل الذي نعيشه اليوم، ولأن الأمة لم تجعله كذلك ما ارتقـــت ولا حتى اهتدت بل كان التيه والتمزّق والضياع نصبها جزاءاً وفاقاً بما جعلت كتاب الله يقرأ ويقرأ ولكن دون أن تتجاوز هذه القراءة الحناجر والتراقي، ومن ثم حاولت أن تهتدي بغيره من نظم ونظريات صاغتها جماجم المكر اليهودية لتصدّ الناس عن سبيل الله وعن المسجد الحرام الذي جعله الله مثابة للناس كلما ظلوا وأمناً كلما ظُلموا.

إن سورة الإسراء لترسم للأمة السبيل الذي يريد الله منها أن تسلكه وهي تواجه ديناصور الكفر اليهودي العالمي في استعلاءه المعاصر الذي تفرّدت سورة الإسراء ببيان مقوماته ومقتضياته في صـــورة قد رسمتها وفصلت جوانبها بمثال سابق وتجربة حيّة عاشتها الأمة واقعاً ملموساً حين كانت جزأ من سيرة النبي ﷺ ومرحلة حيّة في تأريخ التصدّي والمواجهة المسلحة مع بني إسرائيل في المديـــنة عـــند قيام دولة الإسلام على يد النبي ﷺ وأصحابه الذين كانوا بحق ﴿**عباداً لنا أولي بـــأس شديد... جاسوا خلال الديار... ودخلوا المسجد أول مرة... وكان وعداً مفعولا**﴾ أولاً، والتصدي للنصارى في بعث أسامة ابتداءاً وانتهاءاً بمن دخل المسجد الأقصى الفاروق وأبي عبيدة وجنودهما الدخول الأول، وعليه فمن سار على دربهم وتلمّس خطا جهادهم وكان على مـــا كـــانوا علـــيه فإنه مرشّح في أن يكون من الذين سيبعثهم الله عليهم مرّة أخرى ﴿**ليسوؤا وجوههم... وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة... وليتبّروا ما علوا تتبيرا**﴾.

والـــيوم قد أذن الله لهذا النور أن ينبثق ولهذه الصرخة أن تعلو والتي أسأله سبحانه أن لا تكـــون صـــرخة في واد ولا نفخة في رماد، وإنما صاعقة على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق ومقهـــور، ولتستبين بها سبيل المجرمين لكلّ من كان مخدوعاً من التائهين وليستقين الذين آمنوا أنهم كانوا وما زالوا قدر الله الغالب.

ثقة بوعده... ويقيناً بنصره!!!

وأنهم على الطريق ماضون سبقتهم ﴿**ثلّة من الأولين**﴾!!!

وهم اليوم ﴿**ثلّة من الآخرين**﴾!!!

لأنهم بلا شك ﴿**وآخرين منهم لّما يلحقوا بهم**﴾!!!

وإنما ﴿**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**﴾!!!

فاجعلنا اللهم بفضلك من الآخرين فإنك

﴿**والله ذو الفضل العظيم**﴾!!!.

وخـــالص شكري لأستاذي **الدكتور العالم عماد الدين خليل** لتقريظه وتقديمه الذي أعتز به تقديـــراً وإكراماً، كما وأشكر أخي **الدكتور الفاضل مثنى حارث الضاري** على توجيهاته القيمة وأســـأل الله أن يـــديم فضله على **دار العصماء** في المساهمة بنشر هذا الكتاب وكان لها قدم السبق فيه. فما كان فيه من خير فمن الله بتوفيقه وما كان فيه من قصور فمني فأرجو المعذرة والدعاء.

المؤلف

بين يدي الكتاب

في أهمية الموضوع.. وأسباب اختياره.. وخطة البحث الموضوعة له.. والصعوبات التي واجهتني فيه.

أحمـــدك ربي على ما أنزلت إلينا من عظيم قرآن، على خير من اصطفيت من إنسان، في أقدس ما شرفت من مكان، وفي خير ما اخترت من زمان واصلي واسلم على سيد الخلق وحبيب الحق محمد، وعلى آله أصحابه، ومن دعا بدعوته واستن بسنته إلى يوم الدين.

وبعد: فإن الأمة التي تعيش على حساب الحق وعلى حساب التأريخ، من دون أن تنصـــر الحق وتصنع لنفسها تأريخاً هي – بلا شك – أمة حمقى، أمة مضيعة، لا تستحق إلا أن تعيش على هامش التأريخ – جزاءً وفاقاً – بما جعلت الحق على هامش حياتها.

وأمة الإسلام اليوم والتي كانت خير أمة أخرجت للناس بدأت – والحمد لله – تـــدرك هذه الحقيقة جيداً، كما أدركت حقائق غيرها – بفضل الله ورحمته – حقائق غابت عن الأمة أو غُيِّبت عنها عن عمدٍ وقصدٍ سابق بغية إخفاء الحق وإعلاء الباطل في الأرض.. كل الأرض.

ولئن كانت أمة الإسلام تعيش في إغفاءةٍ قد سألنا الله تعالى أن تزول ولا تطول... فلقد بدأت الآن – بحمد الله – بصحوة إيمانيةٍ نسأل الله تعالى أن تطول ولا تزول.

ولقد شاءت حكمة الله سبحانه أن لا يكشف للناس آيات الحق الدالة عليه كلها مـــرة واحدة، وإنما يفتح الله لهم بابا بعد باب، ويريهم آياته في الآفاق آية بعد أخرى، جـــرياً عـــلى سنته التي لا تبديل لها ولا تحويل ﴿**ولا تجد لسنتنا تحويلاً**﴾ الإسراء/٧٧.

وعـــلى قـــدر ما تستحق الأمة من فتح يفتح الله لها، وعلى قدر ما تفتح الأمة بصرها وبصـــيرها لـــنور الله يفتح الله لها ويريها من آياته المنظورة والمقروءة ... مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ فصلت/٥٣.

وكما قال الزركشي «إن القرآن كتاب الله وكلامه وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كتابه إنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه»[1].

وما من شيء - صغر أم كبر - فيما يخص الحياة الإنسانية على هذه الأرض إلا له من الله بيان شافٍ وحكم منزل: ﴿**ما فرطنا في الكتاب من شيء**﴾ وفي أمم السابقين وقصص الأولين عبرة[2] وحكمة لا ينبغي أن تغفل عنها الأمة وإلا وقعت فيما وقعت به الأمم قبلها.. فلكل ظلم وبغي في الأرض سوء عاقبة، ولكل تكبر وطغيان خسف من الله وخذلان، ولكل فساد في الأرض دمار خراب وذلك قانون وصدق الله إذ يقول: ﴿**فكل أخذنا بذنبه**﴾ العنكبوت/٤٠ و﴿**فأخذهم الله بذنوبهم**﴾ آل عمران/١١.

كما أن لكل إيمان صادق نصراً من الله ورضوانا..نصر من الله للمؤمنين وللرسول وصدق الله: ﴿**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون وأن جندنا لهم الغالبون**﴾ الصافات /١٧٨.

أما عن أهمية موضوع هذا الكتاب: فأقول - هذه سورة من كتاب الله الذي ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**﴾ فصلت/٤٢. والذي قال عنه رسول الله ﷺ: «**فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل**»[3].

---

(١) البرهان للزركشي ١/٨.

(٢) قال تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الألباب. ما كان حديثاً يفترى**﴾ يوسف/١١١.

(٣) الحديث رواه الإمام الترمذي في مسنده عن علي بن أبي طالب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**ستكون فتن كقطع الليل المظلم**» قلت: وما المخرج منها يا رسول الله.. قال: «**كتاب الله تعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم.. هو الفصل ليس بالهزل.. من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدي بغيره أضله الله.. هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم والصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعن معه الآراء ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقض عجائبه.. لا مجلة لاتقياء ولا يشبع منه العلماء وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً.. من علم علمه سبق لله قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عجل به اجر ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم**».
أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في فضل القرآن عن الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب به مرفوعاً انظر (٥/١٥٨/٢٩٠٦).

هــذه سورة من كتاب الله الكريم تبين ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من استعداد إزاء ما يعاصره من أحداث، وما ينبغي أن يكون موقفه تجاه أعداء الله والأمة والتأريخ.. ذلك السرطان البغيض الذي ما فتئ ينخر في عروق الأمة ويمزقها، ويستنــزف طاقاتها، لا يكــل ولا يمــل حتى يفجّر الأرض تحتها تفجيرا، أو يسقط السماء عليها كسفاً، أو يطفئ نور الله ويرد المؤمنين عن دينهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا كما قال تعالى:

﴿**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا**﴾ البقرة/ ٢١٧.

إن أهمية سورة الإسراء - دراسة وتحليلاً - تكمن في أهمية الموضوع الذي اشتملت علــيه السورة... ذلك الموضوع الذي هو ما ينبغي أن يعرفه المسلم من مسؤولية ملقاة عــلى عاتقــه - وقد كُلّف بحملها - تجاه دينه وعقيدته وأمته بل وأهل الأرض جميعاً، وكذلــك ما ينبغي أن يكون عليه من استعداد دائم ومتكامل في كل شيء وهو يواجه أخبث وحش يمكر في الليل ويتبسم في النهار، وأدهى ذئب يأكل يوسف الأمة دون أن يمــزق قميصه.. وألئم أفعى تريك من نعومة جلدها ما ينسيك أو يشغلك عن سمّ نابها اللئيم ... نابها النابت في جنب الأمة عبر التأريخ.

أما عن أسباب اختيار الموضوع فأقول:

أني لمــا رأيــت المصــائب والفتن تزداد وتثقل على أمة الإسلام اليوم حتى باتت تعتصــرها إلى درجة لا تقوى على الفكاك منها ولا تهتدي إلى الطريق المنقذ لها رغم أن كــتاب الله بين يديها.. وما رأيت من إفساد بني إسرائيل في الأرض واستعلاؤهم فيها وســيطرتهم عــلى مقدرات الشعوب حتى ما بقي - كما أظن - جانباً من الأرض إلا ومــدّوا إلــيه أيديهم بالفساد والإفساد ابتغاء الفتنة وابتغاء العلو فيه... بشتى الوسائل والرايات التي تجمع من انطوى تحتها في دروب الدجل والخداع وهي تلوّح لهم برغيف الخبز حينا... وبالسعادة والرفاهية حيناً آخر وبالعدالة الاجتماعية ثالثاً كل ذلك لتحكم قبضتها على الأمم والشعوب بنظام - عالمي - جديد صنعته وتحاول تنفيذه أدمغة المكر اليهودية عبر التأريخ.. يسلب الأرض ويهين أهلها، بقتل الأطفال والنساء، ويدسُّ السم ويصــنعه لأمم - العالم الثالث - والتي جعلها سوقاً لما ينتجه، وينشر الرذيلة والشذوذ

والكفـــر والإلحــــاد ... وليخنق الوعي والقيام من الزحف وليمزق الوحدة والتصدي لـــرايات الدجـــل وضلال المبطلين.. كل هذا وذاك ما جعلني أعكف على دراسة هذه القضية التي جاءت بها آيات من سورة الإسراء والتي هداني الله إليها فقد أيقنت أولاً ثم ازددت يقيناً آخراً بأن قوله تعالى:

﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾

إنما هو الحق الذي أنزله الله ... و**﴿بالحق نزل﴾**

إن مـــا يمـــر بالأمـــة اليوم من أحداث جسام متلاحقة متسارعة تكشف النوايا والأهداف بعد ما تساقطت عن الوجوه كل الأقنعة.

إن ما يمر بالأمة اليوم من محن وفتن كقطع الليل المظلم ما يجعل بعض من ينتسب إلى هـــذه الأمة يتساقط من الضعف والإعياء، بينما البعض الآخر يتشبث بالحبل الذي ليس غيره متين.

إن كل هذا وذاك ما جعلني أفتح عيني وقلبي على كتاب الله أبتغي فيه الهدى ومنه الضـــياء، لأستدل على الدرب الصحيح في هذه الظلمات التي لفّت هذه الأمة من كل اتجاه، فإذا بي أسمع وأرى وأجد.. وأحس بالقلب والفكر والجنان طريق الإيمان واضحاً جلـــياً ، وها هي ذي آثار الأنبياء وسجدات الصديقين وتلك دماء الشهداء أنها تضوع مسكٌ وضياء... فلأصوّرن تلك الآثار والسجدات بهذا المداد من دماء الشهداء في هذه الصفحات.. وسأعود - إن شاء الله - لأنثرها في تلك الدروب الحالكات لعلها تكون معالم على الطريق لهذه الأمة التي ظمئت وقد تعبت، حين تصحو - وقد كادت - والله أسأل أن يتقبلها بقبول حسن وينبتها نباتاً حسناً، ويهيئ لها من يكفلها - إن لم أصل بها - إنه سميعٌ بصير، نعم المولى ونعم النصير.

وقد استعنت بالله تعالى وجعلت له فصولاً أربعة:

• الفصل الأول:

أهم المواضيع الرئيسية في سورة الإسراء.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول – (التعريف بسورة الإسراء)

فقد فصلت القول فيه من حيث أسمائها وآياها ونسبتها وفضلها وأهم موضوعاها ومحورها الرئيس ومكاها من الترتيب التزولي للمكي والمدني والغاية من ذلك وموقفها من بني إسرائيل من ثمّ.

المبحث الثاني – (عن خارقة الإسراء)

وكيف كانت في أنسب وأدق فترة حرجة كان يعيشها النبي ﷺ وهو(يجاهد كي يتم بعث الأمة التي شاء الله أن تكون عقوبة بني إسرائيل على يديها)، فكان الإسراء نقلة بعيدة في آفاق غيب الله عبر أبعاد الزمان والمكان ليرسم آفاق المستقبل لهذا الدين ودوره في القضاء على إفساد بني إسرائيل وإعادة المسجد الأقصى إلى حظيرة الإسلام وتتبير كل ما علاه اليهود تتبيرا وقد بينت ما يعنيه الإسراء في اللغة والاصطلاح وأوردت أهم الروايات التي وردت فيه وما كان لبني إسرائيل دور فيها ومناسبته وأسبابه والحكمة منه ومن ثم علاقته ببني إسرائيل.

المبحث الثالث – (بنو إسرائيل من خلال سورة الإسراء)

فقد حصرت الحديث فيه عن أهم القضايا التي طرحتها سورة الإسراء ضمن الإطار العام الذي تحدثت به السورة عن بني إسرائيل، وقد اخترت ثلاث قضايا جعلت لكل قضية منها مطلب خاص بها فكان:

المطلب الأول – أصل بني إسرائيل.

المطلب الثاني – أسماء بني إسرائيل.

المطلب الثالث – الكتب المقدسة عند بني إسرائيل.

وقد اثبتُ من خلاله كذب ادعاء اليهود انهم من سام وحده وإنما هم أخلاط من قبائل وأمم شتى كانوا مقطعين في الأرض وقد جيء بهم لفيفاً لتحقيق الوعد الآخر بهم بعد إفسادهم الحالي بإذن الله تعالى[1].

• الفصل الثاني:

سورة الإسراء بين الحقائق والقواعد والأصول التفسيرية

فقد كان المدخل أو الأساس الذي بنيت عليه الفصول الثلاثة الباقية من حيث أنها جاءت دراسة تحليلية لإفسادي بني إسرائيل في القرآن الكريم ولأن هذه الدراسة كان ميدانها كتب التفسير واللغة وعلوم القرآن والحديث وحقائق التأريخ كان من الضروري - باعتقادي - أن أضع لها أساساً من الأصول التفسيرية والحقائق اللغوية والقواعد التي قعّدها المتقدمون في مجال التفسير عموماً وفي مجال التفسير اللغوي والتفسير البياني خصوصاً وعليه فقد جاء هذا الفصل مشتملاً على مبحثين:

المبحث الأول- (سورة الإسراء بين الحقائق القرآنية والقواعد التفسيرية)

بينت فيه موقع سورة الإسراء المتفرد بين الحقائق القرآنية والتي جاءت مثل فلق الصبح و لم تكن كذلك من قبل وبين القواعد التفسيرية التي لم تعامل بها سورة الإسراء وكانت في معزل منها أو تكاد.

والمبحث الثاني- جاء في (بعض أصول التفسير وقواعده) مما ينبغي أن تكون نصب العين وبين اليد ونحن نتعرض لتفسير سورة فريدة في ايحائها كسورة الإسراء من حيث المنقول والمعقول في التفسير وأسباب ضعف التفسير بالمأثور وعدم إهمال بعض مصادر التفسير وبعض قواعده وأن هناك اختلاف في التفاسير ينبغي أن يقدر.

• الفصل الثالث:

إفسادا بني إسرائيل عند أهل التفسير

المبحث الأول - قد جعلته في (أقوال المفسرين ومناقشتهم فيها).

---

(١) اضطررت إلى حذف هذا المبحث في هذه الطبعة اختصاراً.

المطلب الأول - معنى القضاء والكتاب في قوله تعالى:

﴿وقضـــينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً﴾.

المطلب الثاني - معنى الإفساد الوارد ذكره في الآية.

المطلب الثالث - معنى العلو الوارد ذكره في الآية أيضاً.

المبحث الثاني - فقد جاء في أقوال المفسرين في الإفسادين ومناقشتهم فيها.

المطلب الأول - أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الأول ومناقشتها.

المطلب الثاني - أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الثاني ومناقشتها.

المطلب الثالث - أقوال المفسرين المحدثين في الإفسادين الأول والثاني ومناقشتها.

• الفصل الرابع:

إفسادا بني إسرائيل كما أوحت بهما المعطيات القرآنية

ففي:

المبحث الأول - تحدثت فيه عن الإفساد الأول والعقوبة عليه.

المبحث الثاني - عن الإفساد الثاني والعقوبة عليه وكلاهما من خلال تحقق مقومات الإفساد الأول والثاني.

• الفصل الخامس:

بيان مستقبل بني إسرائيل من خلال سورة الإسراء

حيث جاء:

المبحث الأول - في بيان قانوني العقوبة على بني إسرائيل.

المبحث الثاني - جاء في بيان أن مجيء الجمع اللفيف إنما هو تمهيد لإيقاع العقوبة عليهم في الوعد الآخر.

لأخلص بعد ذلك لمنهج التصدي لإفساد بني إسرائيل واستعلاؤهم فيه.

• الخاتمة:

ثم جاءت الخاتمة بعد ذلك في بيان مسألتين:

الأولى– الاستنتاجات المتحصلة من خلال هذه الدراسة المكثفة لهذه القضية.

الثانية– التوصيات التي قدمتها بناءاً على ما توصلت إليه من حقائق جاءت كالشمس لا يمارى فيها.

ثم ختمت الرسالة بملحقين..

الأول: عن الجدول الزمني لترول القرآن وبينت فيه ترتيب السور المكية والمدنية حسب الترول والغرض منه بيان زمن الخبر ونوعه والآيات التي ورد بها وذلك لإثبات أن السور المكّية إنما جاءت لتخبر عن فساد بني إسرائيل الماضي – غالبا – وان السور المدنية جاءت لتعالج إفساد بني إسرائيل المعاصر للنبي – غالبا – بينما تفردت سورة الإسراء بالإنباء عن مستقبل إفساد بني إسرائيل في الأرض..

الثاني: جعلته جدولا ومخططا توضيحيا لبيان تسلسل الأنبياء إلى بني إسرائيل وتسلسل الملوك الذين تعرضوا لهم والمراحل التي مروا بها والغرض منه بيان وتحديد الإفسادين حسب ما ورد في أقوال المفسرين وكذلك بيان وتحديد الإفاسدين كما أوحت به المعطيات القرآنية..

أما عن منهج البحث ...

فقبل ذي بدء أقول..

إنه لمما يتعجب له المرء أن تترك قضية كقضية بني إسرائيل على ما نراه من اختلاف عند جمهور المفسرين الكرام – مدّة اثني عشر قرناً من الزمان – دون أن تدرس أو يحاط بها علماً.. ويُحلَّ الخلاف الواقع فيها على ما يحبهُ الله ويرضاه طيلة هذه المدة والتي ما أظنها قصيرة أبداً من يوم أن تعرّض الإمام الجهبذ ابن جرير الطبري وأورد في تفسيره لها عدّة روايات لا تقوى – في الأغلب الأعم – أن تكون أساساً يعتمد عليه في التوصل إلى (**فهم صحيح لهذه القضية**) لإمور سنذكرها إن شاء الله تعالى...

ومـــن ثمّ فـــإن كل من جاء بعده من المفسرين إنما أخذها عنه - كلاً أو جزءاً - فأوردها في تفسيره كما فعل السيوطي في الدر المنثور مثلاً، أو ربما حذف الأسانيد منها وتخيّر ما رآه راجحاً عنده كما فعل الماوردي وتبعه ابن الجوزي رحمهم الله، بينما البعض الآخر نجده أعرض كلياً عن هذه الروايات وقال إنها من الإسرائيليات ولا علاقة للنص القرآني بها كما فعل صاحب أضواء البيان.

بينما نجد القسم الرابع قد ترك النص والمأثور واعتمد على ما في التوراة أو التأريخ من قريب أو بعيد كما فعل ابن عاشور في هذه القضية التي نحن بصددها في الوقت الذي يشهد تفسيره القيم بسعة علمه في غير هذه القضية.

والـــذي أريد أن أخلص إليه أن هذه القضيّة - قضيّة إفساد بني إسرائيل - والتي جـــاءت الآيـــات في صدر سورة الإسراء تتحدث عنها لم تلق حظها من العناية دراسة وتحقيقاً طيلة هذه القرون الطويلة. ....

ولعل ذلك له علاقة بإعجاز القرآن..

* فلماذا يا ترى حين بيّن النبي ﷺ بعض ما في آي القرآن لم يبيّن هذه الآيات؟.

* فمتى كان هذين الإفسادين أو متى سيكونان؟.

* ومن هم المبعوثون عليهم عقب كل إفساد؟.

* ولماذا لم تتفق أقوال الصحابة في هذه القضية..؟.

* ولمـــاذا زادت شـــقة الخلاف عند التابعين وقد سألوا أهل الكتاب عن أخبارهم؟.

● ولماذا تضاربت الأقوال واختلفت اختلافاً كثيراً عند من جاء بعدهم؟.

وذي كتب التفسير و التأريخ تعج بالأخبار المتناقضة عن هذين الإفسادين حتى لا يصدر عنها القارئ لها إلا وقد اختلط الأمر عليه وزيد في حيرته ...

لماذا هذا الاختلاف؟

أهي قضية في القرآن من القضايا التي استأثر الله تعالى بعلمها كقضية الروح مثلاً.

فلا ينالنا من العلم فيها إلا قليلاً؟..

أم إنها قضية لم يبينها النبي ﷺ وهو الذي جعل الله مهمته أن يبين للناس كما. قال تعالى:

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ النحل/٤٤.

أكـــان تقصـــيراً مـــنه وحاشاه - عليه الصلاة والسلام - وهو الذي كان يأخذ الشهادة من الناس أمام الله في كل وقت بقوله (ألا هل بلغت) فيقول الناس (بلى) فيقول اللهم فاشهد.

أم أن العربية لم تسعف أساطينها؟ وقد نزل القرآن بها.

فقال تعالى: **﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾** يوسف/٣.

أم قعد بالمفسرين الإجتهاد والسعي عن إدراك وبلوغ المرام وهم الذين نشروا هدي هـــذا الدين في الأرض حتى اجتاز المشرقين؟ وأوصلوه إلى من سكن الآفاق. بعد ذلك الانفجار الإسلامي الذي هز الدنيا وأودعوا مكاتب التأريخ بالذخائر والنفائس حتى لم يجد الحاقدون شيئاً يظهرون به سواد قلوبهم إلا أن يصبغوا مياه الأنهار بسواد مدادها.

أم أن الـــتأريخ وقـــف عاجزاً عن أن يخبرهم عن إفساد بني إسرائيل في الأرض؟ الـــتأريخ الذي يكاد لم يخبر عن شيء كما أخبر عن إفساد بني إسرائيل في الأرض على مدار فصوله؟.

ولذلك كان عليّ أن أحصر هذا الخلاف - كمرحلة أولى - فحصرته في قضيتين.

الأولى: هي تحديد هذين الإفسادين ووقت وقوعهما.

الثانية: بيان هوية المبعوثين عليهم عقب كل إفساد منهما..

أمـــا عن القضية الأولى فقد اختلف المفسرون في تحديد هذين الإفسادين غير أنهم اتفقوا على أنهما وقعا قبل الإسلام وقبل نزول القرآن..

وأمـــا عـــن القضية الثانية فقد اختلفوا في هوية المبعوثين عليهم عقب كل إفساد اختلافاً كبيراً.

قلت: إنه إن كان ولا بد من حصر هذا الاختلاف فبعد الدراسة المستفيضة والمتابعة الكثيرة وجدت بفضل الله تعالى أن المسألة لا تعدو أكثر من انقسام العلماء إلى فريقين ولكل فريق قول اعتمده على ما ترجح عنده من أدلة توصل بها إلى ما قال..

الفريق الأول: قالوا إن هذين الإفسادين اللذين ذكرهما سورة بني إسرائيل إنما وقعا منهم قبل الإسلام وقبل نزول القرآن... وهو ما قال به أكثر المفسرين - رحمهم الله - غير أنهم اختلفوا في تحديد هذين الإفسادين وفي هوية المبعوثين عليهم عقب كل إفساد إختلافاً كبيراً وسأعرض تفاصيل هذا القول وأصحابه الذين قالوا به وأدلتهم وما ترجح منها وسأسقط ما ضعف وبان شذوذه من أدلتهم..

الفريق الثاني: قالوا إن هذين الإفسادين إنما وقعت العقوبة على الأول منهما في الإسلام وعلى يد النبي ﷺ وأصحابه الذين استحقوا شرف الانتساب إليه في ﴿**عباداً لنا**﴾.. والإفساد الثاني سيكون منهم مستقبلاً وستكون العقوبة أيضاً على يد عبادٍ يبعثهم الله ليسؤوا وجوه اليهود وليدخلوا المسجد كما دخله سلفهم أول مرة.. ولكن لن يكتفوا هذه المرّة بالجوس خلال الديار وإنما سيتبروا ما علاه اليهود - تتبيراً - وبهذا قال بعض العلماء المحدثين الذين تعرضوا لتفسير هذه الآيات.. وسأعرض تفاصيل هذا القول أيضاً وأصحابه الذين قالوا به وأدلتهم وما ترجح منها عندهم..

والمنهج الذي اتبعته في معالجة هذه القضية إنما كان:

أولاً: جمع أقوال المفسرين وتوحيدها وحصرها ضمن محاور ثلاثة:

المحور الأول - أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الأول ومناقشتهم فيها مبيناً:

أ: - من قتل فيه من الأنبياء.

ب: - من بعث عليهم فيه.

المحور الثاني - أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الثاني ومناقشتهم فيها كذلك مبيناً: أ: - من قتل فيه من الأنبياء. ب: - من بعث عليهم فيه.

المحور الثالث - أقوال المفسرين المحدثين في الإفسادين ومناقشتها.

ثانياً: إرجاعها إلى أصل الروايات التي أوردها الإمام الطبري حيث أنه - رحمه الله - قد أورد كل الروايات - على ما أظن - فيما يخصّ هذا الموضوع و لم يترك شيئاً، يفهم هذا من كثرة ما أورده الطبري من روايات والتي كان منها روايات موضوعة أصلاً كما ذكر ذلك الإمام ابن كثير في تفسيره،(*) ومنها ضعيفة السند وشاذة المتن ومنها ما كان صحيح الإسناد وشاذة المتن كذلك.

ثالثاً: تحرّيت الأقوال التي رجّحها المفسرون الذين أوردوا الروايات التي اعتمدوها بعد حذفهم لأسانيدها فوجدت أن لها أصلاً في تفسير الطبري وقد أوردوها في تفاسيرهم بصورة مختصرة.

رابعاً: حققت هذه الأسانيد والطرق التي أوردها الإمام الطبري في تفسيره فاخترت الصحيح وأسقطت الضعيف - للأمانة العلمية - من ناحية السند، أما من ناحية المتن فقد عدت إلى كتب التاريخ لأتثبت من حقيقة هذا القول أو ذاك فوجدت في تلك الروايات من الشذوذ ما يسقط قيمتها العلمية لمخالفتها الحقائق التاريخية الثابتة.

خامساً: أما الأقوال التي قال بها أصحابها والتي لم يعتمدوا فيها على الروايات المأثورة وإنما استنتجوها من خلال دراستهم أو ما توصلوا إليه من علم فقد عرضتها على الحقائق القرآنية وحقائق التاريخ ومن ثَمّ فما وافقتها أخذته وإلا فتركته.

ثم بعد ما رأيت في النهاية أنه ليس ثمة ما يعتمد عليه أو يصلح أن يكون فيه تفسيراً لهذه الآيات تفسيراً مقبولاً ينسجم مع أبعاد ومعطيات النص القرآني وليس له في الواقع الذي نعيشه أي تأثير.. إذ ما تأثير آيات حُصِر معناها في ماضي الزمان دون الحاضر والمستقبل..؟

عدت إلى القرآن، قرأته، تدبّرتُه، بحثاً واستقصاءاً، فوجدت من الآيات ما لها علاقة وثيقة بالآيات في صدر سورة الإسراء وأضنها مما تقتضيه الوحدة الموضوعية في القرآن.. واستعنت بكتب ومعاجم اللغة لأصل إلى المعنى الأمثل للمفردة القرآنية.. فاتسعت دائرة الفهم وقويت الروابط بين الآيات.

(*) كما سنبين ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

وكأن هاجساً يدعوني إلى مراجعة كتب السيرة في بعض مفاصلها.. وشيئاً فشيئاً تبينت لي معطيات قرآنية ثرّة بإشراقات فيّاضة ... بدت وكأنها حيّة تنبض ... أخذتها للمتها من هنا وهناك، ثم نظمتها فانسجمت واتسقت مع حركة الإسلام الفتي يوم أن قوي عوده فكان دولة في المدينة وتصدّى للفساد والإفساد اليهودي الذي تجمّع وتكاثف وعاند وتطاول، فظهر في أبشع صورة يوم أن واجه الإسلام ونبي الإسلام بذلك الوجه القبيح من الكفر والغدر ونقض العهود وتأليب أعداء الله من الكافرين والمنافقين على نبي الإسلام ودولته التي قامت قبل حين..

ثم ومـــن خلال هذه الدراسة للمفردات القرآنية ومطابقتها للواقع التاريخي الذي عاشــه بــنو إسرائيل في القديم والواقع المعاصر للنبي ﷺ برزت معطيات قرآنية أعطت صورة مقبولة جدا وليس من السهل إنكارها - غير أني لا أجزم بها بشدّة - لاعتقادي بان هذا القرآن معجز وأن الجزم بمعنىً ما حجرٌ عليه في زمن ما، وهذا غير صحيح فمن يــدري ربما سيكون هذا الفهم الذي توصلتُ إليه قاصرا وسيأتي بعدُ من يُظهر الله على يديه حقائق ومعطيات أشمل وأجل مما ظهر من خلال هذه الدراسة من معطيات قرآنية أعطت صورة مقبولة ترجّحت عندي وما وجدت لها نكيرا في مجال الفكر والاعتقاد أو في مجـــال التحليل العلمي للمفردات القرآنية للوصل للحقائق القرآنية التي تؤيدها بشدة حقـــائق الـــتاريخ الذي عاشه بنو إسرائيل في الزمن الماضي والذي سبق مبعث النبي من قريب أو بعيد والتاريخ الذي عاصروا فيه النبي ﷺ وما كان دورهم فيه وفي التاريخ الذي هم فيه اليوم.

ويـــبقى ادعاء الكمال أول النقص كما أن ادعاء العلم أول الجهل إذ هما لا يليقان إلا بالله تعالى القادر على كل شيء والعليم بكل شيء سبحانه وصدق الله:

﴿**وفوق كل ذي علم عليم**﴾ يوسف/ ٧٦.

أما عن الصعوبات:

فلقـــد عانيـــت من عقبات وجدت فيها من الصعوبات الشيء الكثير بسبب سعة الموضوع وتشعب أطرافه وخطورة المسالة التي أُقحمت في التعرض لها والتي اختلفت فيها

أقوال الجهابذة من المفسرين والعلماء الإجلاء حتى لقد سودت فيها صحائف كثيرة من كتـــب التفسير والتأريخ والسير من الإسرائيليات والأخبار العجيبة والروايات الضعيفة المخالفة للنص القرآني من قريب أو بعيد والتي جاءت الحقائق التأريخية مخالفة لها كذلك.

إن ســـورة الإسراء بحد ذاتها بحر خضم لا تكاد تجد له من ساحل لاشتمالها على كـــثير مـــن الحقائق القرآنية والتي أعظمها خارقة الإسراء التي حدثت للنبي ﷺ وهذه بدورهـــا - والتي لم يتحدث عنها القرآن بأكثر من آية - لكنها في الحقيقة لا تكفيها كتـــب ومجلدات كيما يحاط بها، وإلا من يملك أن يواكب نجماً سما في الآفاق واخترق الســـبع الطباق - لكي يرى - ثم عاد في جزءٍ من الليل يسير وقد ﴿**رأى من آيات ربه الكبرى**﴾ النجم/١٨.

وبنو إسرائيل الذين لم يسع التاريخ فسادهم، أفتسعهم صحائفي؟ فقد ضاقت بهم - عـــلى اتساعها - الدنيا، وجاء ذكرهم في ثلاثة أرباع سور القرآن تقريبا بين مكيّه ومدنـــيّه، حتى شمل الحديث عن فسادهم في كل صوره وجوانبه - وكذا مراحله - في السور ذوات العدد فما ظنك بإفسادين في الأرض واستعلاء على الناس - علواً كبيراً - جـــاء الإنـــباء عـــنهما في آيات قليلة في سورة سميت باسمهم — سورة بني إسرائيل - اضـــطربت في بيانهما أقوال كبار المفسرين واختلطت فيها مذاهب العلماء والمفكرين.. حتى زخرت بالحديث عنها كتب وصحائف كثيرة لا يكاد العليل يجد فيها بِلّة لريق، أو شفاء لصاد أو نجدة لغريق.

إذ أن كـــل ما اعتُمِد عليه في تفسير هذه الآيات إنما كان في الأغلب الأعم من الروايات الضعيفة بحيث أني أنفقت من الجهد الكثير قبل الوصول إلى ما وصلت إليه في تحقـــيق تلـــك الروايات وذلك بالرجوع إلى كتب الحديث المعتمدة وتراجم الرجال في كتب الجرح والتعديل وكذلك دراسة النصوص والتثبت من حقائق التأريخ في مضانها، كل ذلك من أجل الوصول إلى تفسير مقبول في فهم معنى هذه الآيات، مع الأخذ بنظر الاعتبار صعوبة الحصول على المراجع والمصادر في هذا الظرف الذي يمر به بلدنا الكريم من حصار فرضه أعداء الله والدين..

ولا يخفى على كل ذي لبٍّ أن من يُطلَب إليهِ حلَّ معضلة ينبغي أن يتفرغَ أو يُفرّغ لها فكيف وقد عشتُ السنوات الأخيرة في دراسة هذه القضية وأنا كمن تجنّد لحربهِ شياطين من الإنس والجن؟ حتى ما عدت أعرف من أين تأتي المشاغل والفتن يجر بعضها بعضا ولولا أن الله ثبّت هذا العقل برحمته وثبّت ذلك القلب بالإيمان به لما توصلتُ إلى ما وصلت إليه من نتائج كانت في ظهورها كالشمس لا يمارى فيها.. فلله الحمد أولاً وآخراً.

فوجدت الطريق من خلال آيات فيها من العطاءات القرآنية ما كانت - ولا تزال - ثرّة وستبقى، لأنها من نور، وفيها من الوحي المتفجر الذي يكتسح ظلمات كل القرون، ترسم المنهج وتعطيك الزاد وتبعثك من الموت ومن الضياع ومن التخاذل - بعثاً - لتكون قدراً من أقدار الله في ﴿**عباداً لنا أولي بأسٍ شديد..**﴾..

وبفضل الله ورحمته استطعت أن اجمع حقائق من كتاب الله ... تفجرت من خلال آيات من سورة الإسراء.. حقائق لا أقول أني استوفيتها من أقطارها فهذا شيء غير ممكن لأسباب كثيرة أهمها أنها من كتاب الله الذي هو كلام الله المعجز.. الذي ليس كمثله شيء، وكما أنه سبحانه لا تحدُّه الحدود ولا يسعهُ كل الوجود.. فكذلك كلامه سبحانه لا نهاية لوحيه ولا ساحل لبحره بل ﴿**لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي، ولو جئنا بمثله مددا**﴾ الكهف/١٠٩.

وكل شجر الدنيا لو كان أقلاما وأصبح البحر حبرا لهذه الأقلام وأمِد بسبعة أبحر أخرى، ما نفدت كلمات الله... وصدق الله: ﴿**ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله**﴾ لقمان/ ٢٧.

لا.. وإنما هي إشراقات من وحي القرآن المتجدد والتي اتسعت واتسعت حتى بلغت الآفاق لأنها من الآفاق جاءت لتصبَّ في كلِّ قلبٍ تهيأ لها بعد ما تدّبر آياته على مكثٍ دون أن يتعجل طامعاً بهدي الله ليقضى إليه وحيه، داعياً من الله كما أمر ولا يزال يدعو ﴿**ربي زدني علماً**﴾ ربي زدني بما علمت عملاً وفهماً.

هذه الآيات ما جاءت لتخبر فقط بل لتنبئ أيضا، إذ أنها من الآيات التي أوحى إلى النبي بها وقيل له ﴿**تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين**﴾ هود/٤٩.

وما جاءت لتوضح فحسب بل لترسم كذلك، إن خطوات من مضوا في الطريق قد درست.. وخطوات من بقوا على الطريق فقد قضيت ﴿**تلك أمة قد خلت**﴾ البقرة/ ١٣٤.

و﴿**من يرتد منكم عن دينه، فسوف يأت الله بقوم يحبه ويحبونه أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله**﴾ المائدة/٥٤.

﴿**فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم**﴾ هود/١١٦.

﴿**ونريد أن نُمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين - ونمكّن لهم في الأرض - ونري فرعون وهامان وجنودهما - منهم - ما كانوا يحذرون**﴾ القصص/٥-٦.

وليس ثمة ما يحذرون اكثر من بعث عباد لله أولي بأس شديد ليسوؤا وجوههم ﴿**وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرّةٍ وليتبروا ما علوا تتبير**﴾ الإسراء/٧.

كل تلك مشاعل وكل مشعل منها كفيل أن ينير جانبا من الجوانب التي ادلهمت على أمة فقدت - أو كادت - الاتجاه الصحيح.

* تلك الصفحات التي من الضياء انطلقت.
* بأدلة من الحق والتاريخ والواقع قد أُيّدت.
* كتبتها بقلب مطمَئن إلى قدر الله رغم اضطراب كل شيء من حولي..
* وبفكرٍ عرف الطريق رغم ضياع العقول بين الدروب..
* وبعبارة صادقة رغم طوفان نفاق الكاذبين اليوم..

بإســـلوب سهل وجزيل، قاصدا البيان والتبيين، فيه تفصيل غير ممل على ما به من اختصار غير مخل ...

والله أرجو أن أكون عند حسن ظنهِ بي.. وظنُّه ليس إلا حسنا سبحانه..

فهو ربي..

وهو حسبي...

ونعم الوكيل...

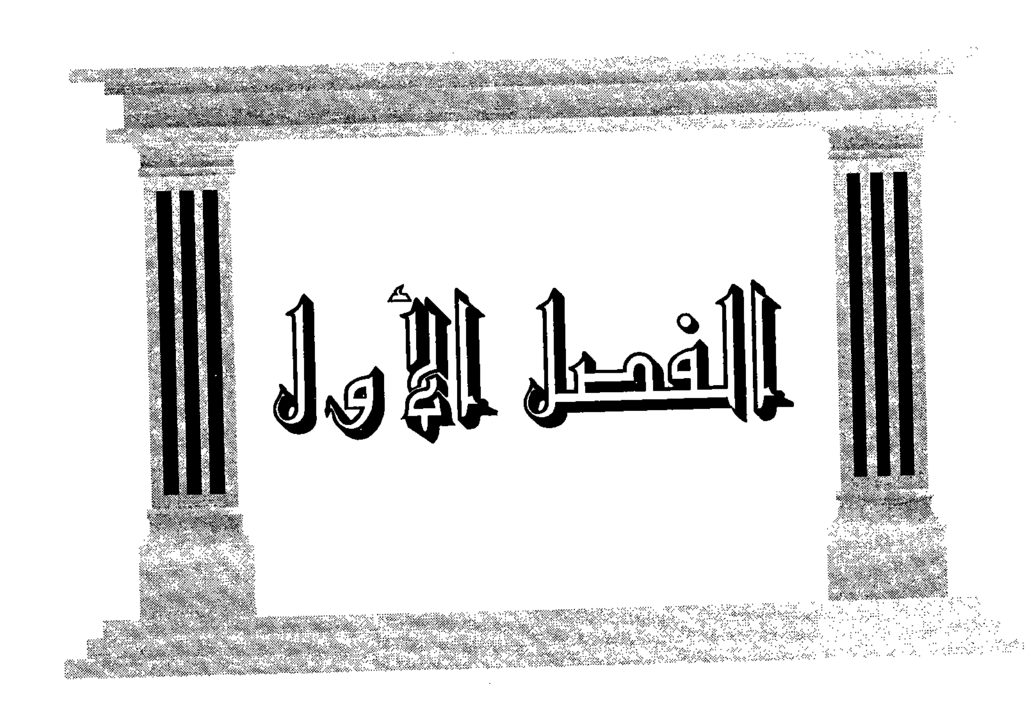
اللهم تقبل مني...

واقبلني عندك في الشهداء..

أو في الشاهدين...

الباحث





أهم المواضيع الرئيسية في سورة الإسراء

المبحث الأول

التعريف بسورة الإسراء

المطلب الأول:

أسمائها - آياتها - نسبتها - وقت نزولها - فضلها عند النبي ﷺ والصحابة.

المطلب الثاني:

موضوعاتها - أغراضها - محورها الرئيسي أهميتها في علاج واقع المسلمين اليوم

المطلب الثالث:

علاقتها ببني إسرائيل

المبحث الأول

التعريف بسورة الإسراء

المطلب الأول

أسماؤها - آياتها - نسبتها - وقت نزولها

فضلها عند النبي ﷺ والصحابة

١- أسمائها:

لسورة الإسراء عدة أسماء ذكرها المفسرون هي:

أولاً- سورة الإسراء[١]:

وذلك نسبة إلى حادثة الإسراء التي ذكرت في أول آية منها.. تلك الخارقة[٢] العجيبة التي اختص بها النبي ﷺ واختصت بذكره، وقد سميت في كثير من المصاحف بـ«سورة الإسراء»[٣].

ثانياً- سورة بني إسرائيل:

عن عبد الله بن مسعود انه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: «إنهن من العتاق الأول وهنّ تلادي». وبذلك ترجم لها البخاري في كتاب التفسير ووجه ذلك أنها ذكر فيها من أحوال بني إسرائيل ما لم يذكر في غيرها[٤].

---

(١) انظر الآلوسي (١٥-٢).

(٢) أختلف في الإسراء أهو خارقة أم هو معجزة للنبي ﷺ والراجح انه خارقة ولذلك أثبته هنا، وقد فصلت القول في مبحث الإسراء فانظر هناك.

(٣) وانظر التحرير والتنوير لابن عاشور (١٥/٥).

(٤) انظر فتح القدير ١٩٨/٣ وانظر ابن عاشور ١٥/٥ والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير انظر فتح الباري ٤٩٥/٨.

ثالثاً - سورة سبحان[1]:

قيل لأنها ابتدأت بتنزيه الله سبحانه عن النقائص وختمت به كذلك وجاءت كثير من آياتها تتحدث عن كمال الله تعالى ونفي النقص عنه سبحانه. ولا يوجد في القرآن سورة مبدوءة بما بدئت به[2].

٢- آياتها:

الجمهور على أنها (١١١)[3] غير أن الشوكاني قال إنها (١١٠) مائة وعشر آيات وعند الكوفيين أنها (١١١) مائة وإحدى عشرة[4] «وهي ١٥٣٣» ثلاثة وثلاثون وخمسمائة وألف كلمة و«٦٤٦٠، وستون وأربعمائة وستة الآف حرف»[5]. «ولم تثبت البسملة إلا لأبي ذر»*.

٣- نسبتها:

جاء في فتح القدير عن أبن عباس قال «نزلت سورة بني إسرائيل بمكة»[6] وذكر الإمام الرازي في تفسيره «أنها مكية إلا الآيات ٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧ ومن الآية ٨٠ فمدنية»[7] أما الإمام الآلوسي فقال: «وهي كما اخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن

---

(١) الآلوسي ١٥/٢.

(٢) تفسير بيان المعاني عبد القادر ملا حويش/ القسم المكي ج/١.

(٣) قلت في تفسير الرازي الذي بين يدي الطبعة الثانية لدار الكتب العلمية أورد مرة أنها «١١١» ومرة قال: «عددها مائة آية وعشر آيات دون أن يبين لعله خطأ مطبعي» انظر «١٤٥/٢٠».

(٤) فتح القدير ١٩٨/٣. قلت هي في كل المصاحف (١١١) آية ولم أجد أحداً من المفسرين أيد ما قال الشوكاني. أو ذكر الآية المختلف فيها.

(٥) تفسير بيان المعاني على ترتيب النزول ج/١ القسم المكي.

* غير انه جاء في عمدة القاري إن البسملة لم تثبت إلا لأبي ذر. قلت ولعلها هي - الآية - التي أختلف فيها... انظر عمدة القاري «٢٣٥/١٩ رقم الحديث/٣٩١».

(٦) انظر فتح القدير ١٩٨/٣.

(٧) التفسير الكبير للرازي ١٤٥/٢٠.

الـــزبير رضي الله عنهما أنها مكية وكونها كذلك بتمامها قول الجمهور»[١] وقد نزلت بعد القصص[٢].

٤- وقت نزولها:

نزلت سورة الإسراء بمكة بعد حادثة الإسراء التي حدثت للنبي ﷺ، وهي من أوائل الســور المكية الطويلة حيث كان ترتيب نزولها الخمسين. وقد سبقتها سورة القصص التاســعة والأربعون ونزلت بعدها سورة يونس وهي الحادية والخمسون حسب ترتيب نزول القرآن الكريم[٣].

٥- فضلها عند النبي ﷺ وأصحابه:

روى الإمام احمد في مسنده عن وائلة بنت الاسقع: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله أعطـــاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المئين مكان الإنجيل، وأعطاني مكان الزبور المثاني.. وفضلني ربي بالمفصل..**»[٤].

لقـــد كان لسورة الإسراء فضل عند النبي ﷺ، فقد ذكر الإمام الشوكاني في فتح القدير.

أخـــرج الإمام احمد والترمذي وحسنه والنسائي والحاكم وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر»[٥].

وقال الإمام القرطبي عن ابن مسعود ﷺ، عن بني إسرائيل والكهف ومريم - إنهن من العتاق الأول - وهن من تلادي يريد من قديم كسبه[٦].

---

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ٢/١٥.

(٢) تفسير بيان المعاني ج/١ القسم المكي.

(٣) انظر تفسير ابن عاشور ٧/١٥. وانظر الجدول الزمني لنزول القرآن ملحق رقم/١ وانظر أسباب النزول للواحدي ص/٢١٦ وما بعدها.

(٤) رواه الطبري في التفسير ٤٤/١ والهيتمي في مجمع الزوائد ١٥٨/٧.

(٥) انظر فتح القدير ١٩٨/٣.

(٦) القرطبي ٢٠١/١٠، والحديث رواه الإمام البخاري في كتاب التفسير انظر فتح الباري ٤٩٥/٨.

وجـــاء في روح المعـــاني للآلوسي قوله: أخرج ابن جرير عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: أن التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل وذكر تعالى فيها عصـــيالهم وإفسادهم وتخريب مسجدهم واستفزازهم للنبي ﷺ وأرادهم إخراجه من المدينة وسؤالهم إياه عن الروح ثم ختمها جل شأنه بآيات موسى التسع، وخطابه مع فرعون.

وأخبر تعالى إن فرعون أراد أن يستفزهم من الأرض فأُهلِكَ. وورث بنوا إسرائيل من بعده. وفي ذلك تحريض بهم·اهم سينالهم ما نال فرعون.. حيث أرادوا بالنبي ﷺ ما أراد هو بموسى عليه الصلاة والسلام وأصحابه[1].

المطلب الثاني

موضوعاتها وأغراضها ومحورها الرئيس

ســـورة الإســـراء مـــن الســـور التي ركزت على قضايا العقيدة وأصول الدين، كالوحدانـــية والرسالة والبعث والحساب. شأنها كشأن غيرها من السور المكية، ولكن العنصـــر الـــبارز فيها هو شخصية الرسول ﷺ وما أيده الله به من المعجزات الباهرات والحجج القاطعة الدالة على صدقه.

وموضوعات سورة الإسراء وأغراضها كثيرة أجملها في نقاط اختصاراً:

● إثـــبات وقوع معجزة الإسراء للنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعودتـــه إلى مكانـــه في جزء من الليل.. حين أرسل الله إليه استضافة في جنابه وكلمه مباشرة وأعطاه ما لم يعطِ غيره من الأنبياء، وكان هذا مظهراً من اعظم مظاهر التكريم له ﷺ.

● إثـــبات نبوة محمد ﷺ وان الله شرّفه بنسبته إليه بصفة العبودية له سبحانه فقال «بعبده» ثبت الكمال له ﷺ بتحقيق العبودية لله دون سواه.. وأنه شرّفه بالحديث معه مباشرة في مكان لم يصل إليه أحد قبله ولا بعده.

---

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ٢/١٥، وانظر الأساس في التفسير لسعيد حوى ٦/٣٠٢٣.

● إثبات أن القرآن وحي من الله تعالى.. وإثبات فضله – على الكتب – وإثبات أنـــه معجز وأنه فيه وحده الهداية والصلاح، فكان اختصاصه بالهداية للتي هي أقوم من غيرها، وأنه يبشر المؤمنين وينذر الكافرين..

● بينـــت السورة أن الله قضى على بني إسرائيل أهم سيفسدون في الأرض مرتين وســـيعلون علواً كبيراً وما سيصيبهم من ذلة ودمار وإساءة لوجوههم عقب كل إفساد وعلو في الأرض بالظلم والطغيان.

● بينت السورة فضائل الآداب الاجتماعية والأخلاقية الكريمة فحثت عليها ودعت إلى التحلي بها ليكون المجتمع المثالي الفاضل من قوله تعالى ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه**﴾ الآية ٢٣ إلى قوله تعالى ﴿**ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة**﴾ آية/٣٩.

● إن الله تعـــالى عـــندما يترل وحيا على أمة، ويختارها لحمل رسالته فهذه نعمة يستوجب كفرها عقابه. وقد انزل الله وحيا على بني إسرائيل فكفروه فاستحقوا عقابه. وقـــد انـــزل الله على هذه الأمة هذا الإسلام، وأمرهم بالدخول فيه كله، ونهاهم عن اجتناب خطوات الشيطان وعليهم أن يتعظوا بما حدث لبني إسرائيل من تسليط غيرهم عليهم عندما ابتعدوا عن دينه.

● وذكـــرت كذلك ضلالات المشركين وكيف رد الله عليهم شبهاتهم عند قوله تعالى ﴿**أفأصفاكم ربكم بالبنين**﴾ الآيات/٤٠-٤٣.

● وتحدثـــت عن تتريه الكون كله والسماوات السبع والأرض ومن فيهن لله تعالى وما من شيء إلا يسبح بحمده غير إنكم تظلمون فلا تترهونه كما ينبغي لكم. ومع هذا كله كان حليماً غفوراً.

● وتحدثـــت عن إعراض الذين لا يؤمنون بالآخرة وجعل الحجب عليهم والاكنة عـــلى قلوبهـــم والوقـــر في آذانهم فلا يفقهون ما في هذا القرآن من هدي فيضلون فلا يستطيعون سبيلا.

● وتسجل سورة الإسراء عجبهم من إمكان خلقهم من جديد بعد أن يكونوا عظاما ورفاتا وتخيرهم أن يكونوا ما شاءوا حجارة أو حديدا أو أي خلق مما يكبر في صدورهم.. فسيعيدهم.

● وتحذر من نزغ الشيطان بينهم عدوهم المبين.

● وتقرر أن الله قد فضل بعض النبيين على بعض فإبراهيم اتخذه الله خليلا وجعله إماماً وموسى أعطاه تسع آيات بينات وعيسى جعله من روحه وجعله آية للناس وأرسله إلى بني إسرائيل، ومحمد ﷺ قد اكمل له الفضائل فلم يفته منها فائت ومن أجل ذلك شرفه بضيافته إلى بساط قدسه في أعلى وأجل مكان كما أجله على الأرض بالمكان المقدس الذي تداولته الرسل من قبل فلم يستأثرهم بالحلول بذلك المكان - دونه - والذي هو مهبط الشريعة الموسوية ورمز أطوارها - وأحداث تاريخ بني إسرائيل وأسلافهم.

● وفيها التهديد بالهلاك للقرى إذا ظلمت وفسقت عن أمر الله وان ذلك سنة الله في خلقه سطّرها الله في كتابه.

● وبيّنت السورة رعاية الله لعباده المؤمنين باعتباره وكيلاً لهم وتحدت كل أعدائهم من المشركين والكافرين من أهل الكتاب وخاطبتهم من خلال مخاطبتها للشيطان باعتبارهم أعوان الشيطان وأولياءه فقالت لهم وله: واستفزز من استطعت منهم بكل ما تملك من إعلام وصحافة وخيل وقوة وو.. ولكن عبادي ليس لك عليهم سلطان ما دمت أنا وليهم.

● وتبيّن السورة طرفاً من فضل الله عليهم وانجائه لهم من مصائب البر والبحر ومن عدم إرسال العذاب عليهم بالحصباء من السماء أو الرياح العاتية أو الغرق ولن تجدوا لكم تبيعاً... فقد كرمكم ورزقكم من الطيبات وفضلكم على كثير ممن خلق تفضيلاً.

● وتقرر السورة إن كل أمة تدعى بإمامها وسوف يشهد لها أو عليها.. فمن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.. ومن اهتدى فلأنفسهم يمهدون.

● وبيّنت السورة كيف أنهم كادوا يفتنون النبي ﷺ عن الذي أوحاه الله إليه ليفتري غيره ولو فعل ذلك لاتخذوه خليلاً لكن الله ثبته ونصره.

● كذلـــك بيّنت كيف كادوا يقتلون النبي ﷺ ليخرجوه من الأرض ولو فعلوا لما لبثوا خلفه إلا قليلاً.. وتلك سنة الله في الذين أرسلهم قبله ولن تجد لسنة الله تبديلاً..

● وتعلـــن سورة الإسراء مجيء الحق بقوة وزهوق الباطل واختناقه وان من طبيعته أنه كان زهوقاً..

● وتعرض السورة لصور من إفساد بني إسرائيل في سؤال النبي ﷺ أسئلة لتحرجه به وتشكك أصحابه بكتابه الذي تحداهم بأن يأتوا بمثله ولو كان الجن والإنس بعضهم لبعض ظهيراً.

● وتعـــرض السورة عناد أعداء هذا الدين من المشركين واليهود وطلبهم تفجير الينابـــيع في الأرض أو ملك جنان من نخيل أو إسقاط الكسف عليهم من السماء أو ان يكون له بيت من زخرف أو يرقى في السماء أمام أعينهم فيأتي بكتاب يقرؤونه يشهد لهم أنه رسول من الله.. وسبحان الله هل كان إلاّ بشراً رسولاً.

● وتبين السورة أنموذجاً آخر من إفساد بني إسرائيل هو أمر المسلمين بعدم الإنفاق عـــلى مـــن عـــند رســـول الله وأنهـــم يأمرون الناس بالبخل حتى لو ملكهم خزائن رحمته..لأمسكوا وبخلوا خشية الإنفاق.

● وأخـــبرت كيف آتى الله موسى تسع آيات بصائر لفرعون وقومه فاستكبر هو وجنوده فأراد أن يقتلهم فأغرقه الله ومن معه جميعاً.

● ثم تعلـــن أن الله أكرم بني إسرائيل بسكنى الأرض لحين الوعد الآخر ليأتي بهم لفيفا من كل مكان.

● وتقـــرر حقـــيقة إنزال هذا القرآن بالحق مفرقاً على فترة ومنزلا تنزيلاً.. ويخير الناس في الإيمان به أو عدم الإيمان فكلٌ ميسر لما خلق له.

وتعلن حقيقة في بني إسرائيل ما كانت تعرف لولا نزول هذا القرآن هي أن الذين أوتـــوا العلم من أهل الكتاب حين يتلى عليهم هذا القرآن يخرون للأذقان سجداً يبكون ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً.

● وقد ختمت السورة كما بدأت بتتريه الله تعالى عن الشريك والولد وعن صفات النقص.. وإعلان الحمد له إذ لم يتخذ ولداً و لم يكن له شريك في الملك.. و لم يكن له ولي من الذل سبحانه.. فكبره تكبيراً[1].

● أمـــا عـــن تضمن سورة الإسراء لأحكام التوراة فعن ابن عباس قال: «**التوراة كـــلها في خمس عشرة آية من سورة الإسراء**». وفي رواية له ثمان عشرة آية من قوله تعالى: ﴿**ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً**﴾ آية/٢٢ إلى قوله تعالى: ﴿**ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً**﴾ آية/٣٩[2].

● أما عن محور موضوعاتها الأصيل الذي يُعَدُّ العنصر البارز في كيان السورة إنما هو [**شخص رسول الله ﷺ**] وموقف القوم منه في مكة.. ومن القرآن الكريم الذي جاء به، وطبيعة هذا القرآن وما يهدي إليه...واستقبال القوم له.. (كما ذكر ذلك سيد قطب).

واستطرد بهذه المناسبة إلى طبيعة الرسالة والرسل.. والى امتياز الرسالة المحمدية بطابع غـــير طابع الخوارق الحسية وما يتبعها من هلاك المكذبين بها والى تقرير التبعة الفردية في الهدي والضلال الإعتقادي والتبعة الجماعية في السلوك العملي في محيط المجتمع.

كـــل ذلـــك بعـــد أن يعذر الله سبحانه إلى الناس فيراسل إليهم الرسل بالتبشير والتحذير والبيان والتفصيل ﴿**وكل شيء فصلناه تفصيلاً**﴾[3].

على إن أغلب المفسرين يرحمهم الله تعالى، لم يُعيروا كبير اهتمام لموضوع مهم جداً تفـــردت به سورة الإسراء ألا وهو قضاء الله إلى بني إسرائيل بالإفساد في الأرض مرتين وانهـــم سيعلون علواً كبيراً.. ومن ثم فقد تحقق وعد الله بأن يبعث عليهم، كلما فسدوا واســـتعلوا وجعلوا العلوا وسيلةً للإفساد، عباداً له يسومونهم سوء العذاب، مع إن هذه القضية تكاد تكون لها الميزة البارزة في السورة فيما يتعلق ببني إسرائيل..

---

(١) انظر صفوة التفاسير للصابوني ٢/١٥٠.

(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٨/١٥ بتصرف.

(٣) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/٧.

حيث إن سورة الإسراء مكية، قد تفرّدت بها دون باقي السور المكية.. إذ أن كل السـور - المكية والمدنية - قد تحدثت عن جانب من جوانب فساد بني إسرائيل والذي شمل كل جوانب الحياة الإنسانية في أغلب مراحل التأريخ الماضي والمعاصر لنزول القرآن والذي كان يمثل الحاضر الذي كان يعيشه النبي ﷺ وصحابته الأخيار..

بينما تفردت سورة الإسراء بالحديث أو بالأنباء عن إفساد بني إسرائيل المستقبلي، في الأرض كما سنرى إن شاء الله تعالى.

أهمية سورة الإسراء في علاج واقع المسلمين اليوم:

لقد سبق وان قلت في المقدمة: إن أهمية سورة الإسراء - تفسيراً وتحليلاً - تكمن في أهمـية الموضـوع الذي اشتملت عليه سورة الإسراء.. ذلك الموضوع الذي هو: ما ينـبغي أن يعـرفه المسلم من مسؤولية ملقاة على عاتقه، وقد كُلِّف بحملها، تجاه دينه وعقيدته وأمته بل وأهل الأرض جميعاً.

إن سـورة الإسراء تميزت عن غيرها من السور المكية، أنها جاءت بشيء جديد لم تـأت بـه سـورة قبلها فيما يخص مستقبل هذا الدين مع بني إسرائيل أو بعبارة أصح مسـتقبل بـني إسرائيل مع هذا الدين والمهتدين بهديه.. إنها شخّصت الداء ومن ثم فقد وصفت الدواء، ومنهج العلاج.

لقد رسمت سورة الإسراء لهذه الأمة الطريق الصحيح لعلاج الانحراف الذي ابتليت به فضاعت في الدروب المعوجة، وها هي ذي تقف حائرة عند مفترق الطرق، لا تدري إلى أين تتجه.. والى من تستجيب.. ولا إلى أين ينبغي لها أن تسير.

إنها تخاطب المؤمنين اليوم بلغة المستقبل كما خاطبت المؤمنين بالأمس بلغة الحاضر، لتعلمنا كما علمتهم، كيف يكون بناء الأمة والتأريخ على دين الله وشرعه وهداه.

إنها ذي تقول لنا كما قالت لهم: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾.

وأن وحي القرآن هو أصدق وأنفع العلم، أنه العلم بآيات الله التي شاء الله أن يريها للـنبي ﷺ، حيـث أسرى به فقال ومن ثم لتراها الأمة من بعده وحياً يتدفق كلما نظر

مؤمــن إلــيه بــنور الله، وليسير على هداه كما سار النبي ﷺ وليهتدي به كما اهتدى ولينتصر كما انتصر فإنه ﴿**كان وعداً مفعولا**﴾.

إنها تبين للمؤمنين كيف يعملون وماذا عليهم أن يعملوا إذا تعرضوا لإفسادٍ من بني إســرائيل كــبير. كيف يستعدون، كيف يجاهدون، كيف يمكن أن يسوءوا وجوههم، كيف يدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة،

وكيف يتبّرّون ما علاه اليهود تتبيرا..

إنها تعلمهم كيف يبتغون فظلاً من ربهم يستعينون به في جهادهم.. وكيف ينبغي أن يكونــوا عالمين بتفاصيل كل شيء - كما هو الحال - إذ أن الله لم يدعهم بغير أن يفصّل لهم كل شيء تفصيلا.. إنها تخبرهم بأن الله الرحيم يمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطائه إذ ما كان عطاء ربك محظورا فلا تقصر أيديكم عن عطائه طمعاً في عطاء غيره..

ثم كيف ينبغي أن لا يجعلوا مع الله إلهاً آخر وإلا قعدوا مذمومين مخذولين - كما هــو اليوم - والواقع يشهد.كيف ينبغي أن يكون منهج التغيير الذي لابد منه فــ ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ الرعد/١١.

ابــتداء من النواة في عالم الضمير ومن الخلية في عالم الأسرة، على أساس الإقرار بالعــبودية لله وحده دون سواه ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا**﴾ الإسراء/٢٣ وكيف يكون خفض الجناح من الرحمة والدعاء بطلب الخير، والإنفاق بلا إسراف ولا تبذير، وان لا يقربوا الزنى، ولا يقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، وان لا يقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن وأن يكون الوزن بينهم بالقسطاس المستقيم.

فان كل ذلك من الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً...

إنهــا على وجه الإجمال تبين كيف ينبغي أن تصنع الرجال وكيف يكون الرجال أبطالاً.

وكــيف يدخــل هؤلاء الأبطال التأريخ لا لكي يستعلوا على الناس ويفسدوا في الأرض كمــا يفعل الظالمون بل لكي يمسكوا بخطامه فيكبحوا جماحه ولتكون بأيديهم قياده وليوجهوه الوجهة التي أمر الله بها وأراد..

إن سورة الإسراء تعلن على المدى، مجيء الحق وزهوق الباطل إذ ان الباطل - دوماً - كان زهوقاً وان علا وعربد وقام يتبجح.. فكيف تسمحون له بالقيام والتبجح وأنتم الأعلون والله معكم.

إنها تخبرهم إن الله - دائماً - ينزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين. بينما هو لا يزيد الظالمين - كل الظالمين - إلا خساراً.

«إن الله تعالى عندما ينزل وحياً على أمة أو يختارها لحمل رسالته فهذه نعمة يستوجب كفرها عقابه».

وقد أنزل الله وحياً على بني إسرائيل فكفروه فاستحقوا عقابه. وقد أنزل الله على هذه الأمة هذا الإسلام وأمرهم بالدخول فيه كله، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وعليهم أن يتعظوا لما حدث لبني إسرائيل من تسليط غيرهم عليهم عندما ابتعدوا عن دينه.

فالسورة إذن تخدم الدخول في الإسلام، وترك اتباع خطوات الشيطان من خلال التذكير بما جرى ويجري لبني إسرائيل، ومن خلال التعريف على الله بأنه شديد العقاب لمن بدل نعمته[1].

وأخيراً.. إنها لترسم - المنهج - الذي ينبغي لهم أن يلتزموه لإعلان «الحقيقة التي غابت بل وأُخفيت عن الأمة والتأريخ... الحقيقة التي لا تختلف عن المنهج.. والمنهج الذي هو ليس غير الحقيقة أبداً» يقول صاحب الضلال: «إن المنهج في الإسلام يساوي الحقيقة ولا انفصام بينهما.. وكل منهج غريب لا يمكن أن يحقق الإسلام في النهاية.. والمناهج الغربية يمكن ان تحقق أنظمتها البشرية ولكن لا يمكن أن تحقق منهجنا..فالتزام المنهج ضروري كالتزام العقيدة، وكالتزام النظام في كل حركة إسلامية.. ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**..﴾ الإسراء/٩[2].

---

(١) الأساس في التفسير سعيد حوى ٦/٣٠٢٦.

(٢) معالم في الطريق سيد قطب ص/٥١.

المطلب الثالث

علاقتها ببني إسرائيل

أما عن علاقة السورة ببني إسرائيل فان لها عدة جوانب سأتكلم عنها باختصار.

١- كون الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي كان قبلة بني إسرائيل، ومكان تنزيل رسالتهم على يد أنبيائهم الذي كان عشاً لهم وميدان جهاد فيه مع بني إسرائيل وكانوا سبباً من أسباب حلول البركة فيه وحوله.. الآية الأولى.

٢- أعلنت السورة إيتاء موسى الذي هو أبرز أنبياء بني إسرائيل التوراة التي أراد الله أن تكون لهم هدى ونوراً.. لكنهم نسوا حظاً مما ذكروا به واشتروا بالباقي ثمناً قليلاً ﴿**وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل**﴾ آية/٢.

٣- ذكرهم بعظيم فضل الله عليهم أن جعلهم من ذرية من حمل الله مع نوح في السفينة لعلهم يكونون من عباده الشاكرين له كما كان نوح عبدا شكوراً ﴿**ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً**﴾ آية/٣.

٤- أعلنت إن الله تعالى قد كتب عليهم في اللوح المحفوظ قدرهم بأنهم سيفسدون في الأرض إفسادين عظيمين وسيعلون في الأرض علواً كبيراً. وقضى كذلك بان يبعث عليهم عقب كل إفساد منهما عباداً له أولي باس شديد يذلونهم ويسوءون وجوههم ويدمرونهم تدميراً. الآية ٤/٧.

٥- بينت السورة إن رحمة الله قريبة من المحسنين فان أحسنوا رحمهم الله وأن أساؤوا أعاد الله عليهم السوء على أنفسهم ﴿**إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم. وان أسأتم فلها**﴾ الآية/٧ ﴿**عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا**﴾ الآية/٨.

٦- حذرهم ضمنا كما حذرت غيرهم من الفسوق عن أمر الله وإلا كان مصيرهم الهلاك والتدمير ﴿**وإذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً**﴾ الآية/١٦.

٧- حذرهم من الشرك بالله واتخاذ غير الله وكيلاً وألا يعبدوا أحداً غير الله قال تعالى: ﴿**لا تتخذوا من دوني وكيلاً**﴾ الآية/٢.

٨- إن كــل ما جاء في آيات الحكمة[١] التي نصت عليها سورة الإسراء أو التي جاءت مفرقة في كتاب الله تعالى قد خوطب بها بنو إسرائيل ضمناً.

ذكر هذا ابن عاشور - رحمه الله - في تفسيره فقال:

عن ابن عباس ﷺ أنه قال: التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل.

وفي روايــة عنه: ثماني عشرة آية منها كانت في ألواح موسى، أي من قوله تعالى: ﴿**لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً**﴾ /٢٢، إلى قوله تعالى: ﴿**ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً**﴾ /١٣٩.

ويعني بالتوراة الألواح المشتملة على الوصايا العشر، وليس مراده أن القرآن حكى ما في التوراة ولكنها أحكام قرآنية موافقة لما في التوراة.."[٢].

إن كــل ما جاء في سورة الإسراء في آيات الحكمة إنما أمر به بنو إسرائيل ضمناً سواء في نفس السورة أو في غيرها فمثلاً:

* حين يقول تعالى في سورة الإسراء: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا**﴾ /٣٢ وقال تعالى: ﴿**وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل**﴾ /٢٦.

* قــال في ســورة الــبقرة: ﴿**وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين**﴾ /٣٨.

* وقال في الإسراء: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط**﴾ / ٢٩، كناية عن البخل والإسراف.

* فقال في سورة الحديد: ﴿**الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل**﴾ الحديد/٢٤.

---

(١) من قوله تعالى: ((وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه... إلى قوله: ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة)) ٢٣-٣٩.

(٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ١٥/٨.

* وقـــال عن بخل اليهود: ﴿**ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم**﴾ آل عمران/١٨٠.

* وقال في الإسراء: ﴿**ولا تقتلوا أولادكم**﴾ /٣١، وقال: ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**﴾ /٣٣.

* وقـــال في الـــبقرة: ﴿**وإذ أخذنـــا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفســـكم مـــن ديـــاركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم**﴾/ ٨٤.

* قال في الإسراء: ﴿**وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً**﴾/٣٦.

* وقال في البقرة: ﴿**أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم**﴾ البقرة/١٠٠. وقال في الأنفال: ﴿**الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة**﴾ الأنفال/٥٦.

وقد نهى عن عدة قضايا من الفساد منها:

* ﴿**ولا تقربوا الزنى**﴾/٣١.

* ومنها: ﴿**ولا تقربوا مال اليتيم**﴾ /٣٤.

* ومنها: ﴿**وأوفوا الكيل إذا كلتم**﴾ /٣٢.

* ومنها: ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم**﴾ / ٣٦.

* و﴿**ولا تمش في الأرض مرحاً**﴾ /٣٧.

وقال تعالى: ﴿**ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً محسوراً**﴾/٣٩.

لأن: ﴿**كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها**﴾ / ٣٨.

* فقال في غير موضع:

﴿**ودَّ كـــثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم**﴾ البقرة/١٠٩.

﴿**ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلّونكم**﴾ آل عمران/٦٩.

﴿**فإن تولوا فان الله عليم بالمفسدين**﴾ آل عمران/٦٣.

﴿**منهم من إن تأمنه بدينارلا يؤدّه إليك**﴾ آل عمران/٧٥.

و﴿**يا أهل الكتاب لِمَ تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عمّا تعملون**﴾ آل عمران/٩٩.

ولقد ذكرت سورة الإسراء الآيات البينات التي أوتيها موسى فكانت بصائر ذكرها على جهة الإجمال والتي قال عنها ابن عباس ومجاهد: «هي يداه وعصاه والسنين، ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع، والدم».

قال ابن كثير: (وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي، وجعل الحسن البصري السنين ونقص الثمرات واحدة، وعنده أن التاسعة هي تلقف العصا ما يأفكون)[1].

وقد فصلّت في مواضع من القرآن ...

منها في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿**فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين**﴾ ١٠٧/١٠٨.

وعند قوله: ﴿**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلّهم يذكرون**﴾/١٣٠.

وعند قوله: ﴿**فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين**﴾ /١٣٣.

وكذلك بيّنت السورة كيف أن الله قضى لبني إسرائيل أن يسكنوا الأرض حتى يجيء وعد الآخرة فيجيء الله بهم لفيفاً من كل قبيلة ومن كل مكان ليحق الله وعده الذي كان مفعولاً.

وقررت السورة أن بعض علماء بني إسرائيل ليؤمنون بما نزّل على محمد وأنهم ليخرُّون ساجدين وهم يبكون وهم: (من صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم و لم يبدلوه ولا حرفوه)[2] عندما يسمعون كلام الله ويقولون: ﴿**سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا**﴾ /١٠٨.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٦٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٦٨.

وقـــد أكـــدت سور أخرى أن ليس كل بني إسرائيل سواء: ﴿**فمنهم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه**﴾ النساء/٥٥.

وقال تعالى في آل عمران: ﴿**ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين**﴾ ١١٣/١١٤.



المبحث الثاني

خارقة الإسراء وبنو إسرائيل

المطلب الأول:

الإسراء

المطلب الثاني:

علاقة الإسراء ببني إسرائيل

المبحث الثاني

خارقة الإسراء وبنوا إسرائيل

لمــا كــان موضوع بحثنا (بنو إسرائيل في سورة الإسراء) كان التركيز على بني إسرائيل هو الذي ينبغي إن يبسط الحديث فيه غير أن حادثة الإسراء التي جاء ذكرها في بدايــة السورة تجعلنا نتمهل قليلاً لنتحدث عن الإسراء باعتباره الحدث الأكبر بروزاً الذي تضمنته السورة حتى سمّيت به. وكذلك للصلة الوثيقة بين خلفية أحداث الإسراء وبني إسرائيل، هذه الصلة المتمثلة بالمكان الذي جرت فيه تفاصيل حادثة الإسراء والذي أمكــن أن يقال عنه أنه خارطة[1] الإسراء إن صح التعبير. هذا المكان (بيت المقدس وما حوله) كان عاملا مشتركا في حكاية الأحداث المتعلقة بالإسراء وبني إسرائيل.

ومــن هــنا - فــيما نرى - جاء الإنباء على أهم مرحلة من مراحل إفساد بني إسرائيل. ألا وهو إفسادهم في المستقبل في هذه السورة التي سميت بإسمهم. في حين جاء الإخــبار عن فسادهم الماضي مع أنبياءهم وملوكهم في السور المكية الأخرى، وتفصيل إفســادهم المعاصر للنبي ﷺ في السور المدنية غالباً فلأجل هذا التلازم بين سورة الإسراء وما جاء فيها من إخبار عن أحداث مهمة وعلى رأسها الإخبار عن إفسادي بني إسرائيل في الأرض مرتين.. لزم الكلام عن الإسراء بشيء من الإحاطة مع الاختصار..

ولذا فسأتحدث عن خارقة الإسراء في المطلبين الآتيين.

---

(١) أنظر الرسم الذي يوضح سير النبي ﷺ في اسرائه في نهاية هذا المبحث.

المطلب الأول

الإسـراء

معناه في اللغة: هو السير ليلاً[1].

يقال أسرى.. وسرى لغتان.

قال الشاعر:

سـريت من حرم ليـلاً إلى حرم   كما سرى البدر في داجٍ من الظلم[2]

والإسراء - سير الليل.

قيل.. أسرى.. سار من أول الليل.

وسرى.. سار من آخره.. والأول أعرف[3].

(وأمـا - سار - فالجمهور على أنه عام لا اختصاص له بليلٍ أو نهار.. وقيل أنه مختص بالنهار)(٤).

أما استعماله في الاصطلاح:

فـيمكن تعريفه أنه (هو تلك الرحلة الخارقة للعادة للنبي ﷺ ليلاً من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس في فلسطين ثم عودته إلى مكة في نفس الليلة على دابة بيضـاء كانت تضع حافرها عند منتهى طرفها دون البغل وفوق الحمار إسمها - البراق - وكان ذلك بروحه وجسده يقظة لا مناماً فقد أجمع العلماء على وقوعه ليلاً بدلالة الآية في كـون لفظ الإسراء من (سرى وسُرى وأسرى) لا تكون إلا ليلاً وبذكره صريحاً في الآية وبإخباره عليه الصلاة والسلام في ذلك في جميع ما روي عنه من أحاديث.

---

(١) أنظر مفردات الراغب ٢٣١. أنظر صفوة التفاسير للصابوني ٢/١٥٨١.

(٢) البيت من قصيدة البردة للبوصيري.

(٣) تفسير القرطبي ١٠/٢٠٣.

(٤) أنظر روح المعاني للآلوسي ١٥/٤.

فقـــد تحدثت سورة الإسراء صراحة عن خارقة الإسراء بطريقة تنفي أي شكٍّ في إمكـــان وقوعها. إذ أن نسبتها إلى الله الذي لا يعجزه شيء وتتزهه على كل ملا يليق به سبحانه. فقال تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده**﴾ وإن معنى – سبحان الله – أن الله مترّه في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله عن كل نقص وعيب لا يليق به سبحانه.

إذ أن أصـــل كلمة – سبحان –[1] مأخوذة من السبح في الأرض أو في الماء وهو البعد والتوغل فإن فيها معنى البعد والتتريه عن النقائص وصفات العجز.

وفي هذا يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي:

(فإذاً يجب إن أنزهه أنا عن القوانين البشرية التي لا تخلو من نقصٍ أو عيب. والا أُخضِــع فعل الله سبحانه وتعالى إلى قانون فعلي. ثم بعد ذلك ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده**﴾ فالله سبحانه وتعالى هو الذي أسرى. ومحمد ﷺ هو الذي أُسري به)[2].

و(لقـــد كانت حكمة الإسراء والمعراج أن – يُري – الله رسوله من آياته الكبرى توطـــئة لمرحلة المجابهة المسلّحة، فمن حكمة الله أنه عندما كُلِف موسى بمواجهة فرعون أراهُ مـــن آياتـــه الكبرى فقال تعالى بعد ذكر العصا واليد: ﴿**لنريك من آياتنا الكبرى أذهب إلى فرعون أنه طغى**﴾ (طه/٢٤)، لأنها مواجهة تحتاج إلى مزيد من يقين فكانت رؤيـــة الآيـــات الكبرى توطئة للأمر بمواجهة فرعون.. وكان الإسراء والمعراج توطئة لـــلهجرة، ولأعظـــم مواجهة على مدى التأريخ للكفر والضلال والفسوق)[3] في أمتين إحداهمـــا أميّة جاهلة وهي أمة العرب... والأخرى أمة عالمة بالحق الذي في كتابها غير جاهلة بما جاء به محمد ﷺ مصدقاً لما جاء به موسى وعيسى إلى بني إسرائيل قال تعالى: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾ (الأنعام/٢٠).

لكنهم آثروا الكفر والفسوق والعصيان والفساد في الأرض على الإيمان بينما هم كانوا كما قال الله تعالى:

---

(١) انظر مفردات الراغب الأصفهاني ص٢٢١.

(٢) الإسراء والمعراج – محمد متولي الشعراوي ص١٩.

(٣) الأساس في السنة – سعيد حوى ٢٩١/١ بتصرف. وانظر الأساس في التفسير – للمؤلف ٣٠٣٤/٦.

﴿وكـــانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ (البقرة/٨٩).

إن الإســـراء والمعراج - كما هو معلوم - في زمن واحد.. ليس بينهما مُدّة زمنية تذكـــر وهذا ما دلّت عليه الأحاديث الصحيحة وإجماع المسلمين. لكن سورة الإسراء تحدثت عن الإسراء فقط وقد نزلت بعد حادثة الإسراء بقليل.

أما المعراج فقد أشارت إليه سورة النجم التي نزلت قبل سورة الإسراء بكثير حيث إن ترتيـــب نـــزول سورة الإسراء هو الخمسون، أما سورة النجم فترتيبها التزولي هو الثالث والعشرون[1].

فكيف أخبرت عن المعراج وهو لم يقع بعد؟ بل كيف أخبرت عنه بصيغة الماضي التي تدل على انقضاء الفعل فقالت: **﴿لقد رأى﴾**. بل إنها لتستنكر على الذين يجادلونه فيما رأى فتقول لهم:

﴿أفـــتمارونه على ما يرى؟... ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربه الكـــبرى﴾ وقد أقسم الله في مطلع السورة بالنجم إذا هوى أنه **﴿ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى﴾** إذ أنه **﴿رأى من آيات ربـــه الكبرى﴾**.

تلـــك الآيات التي كان منها آيات أرضية هنا ومنها آيات سماوية هناك في رحاب غيـــب الله.. فالإسراء الذي حدث للنبي ﷺ كآية أرضية حدثت على الأرض تحمل معها أدلتها المادية المصدقة لها من مشاهدات تثبت أن قانون الزمان والمكان قد خرقا لرسول الله ﷺ وهو في انطلاقته بهذه الرحلة العجيبة التي كانت في جزء يسير من الليل.. بدأت من المســـجد الحرام بمكة في جنوب الجزيرة العربية إلى المسجد الأقصى في أقصى الشام تقريباً مروراً بطيبة ثم بوادي الطور بمدين في جنوب سيناء ثم ببيت لحم ثم المسجد الأقصى.

تلـــك خارطة[2] الإسراء التي رسمتها هذه الرحلة المباركة والتي كانت في حقيقتها تمهيداً لرحلة المعراج إلى السموات والى سدرة المنتهى.

---

(١) على ما جاء في الرواية التي ذكرها الإمام السيوطي في الاتقان انظر ٩٦/١.

(٢) سنبين فيما بعد أن حركة الإسراء لم تكن بخط مستقيم «مباشرة» إلى المسجد الاقصى وإنما كما ذكرنا.

يقول صاحب الظلال... .

(إن الإسـراء آية صاحبتها آيات - لنريه من آياتنا - والنقلة العجيبة بين المسجد الحـرام والمسـجد الأقصى في البرهة الوجيزة التي لم يبرد فيها فراش رسول الله ﷺ أياً كانـت صـورها وكيفيتها.. آية من آيات الله، تفتح القلب على آفاق عجيبة في هذا الوجود، وتكشف عن الطاقات المخبوءة في كيان هذا المخلوق البشري والاستعدادات البدنية التي يتهيأ بها لاستقبال فيض القدرة في الأشخاص المختارين من هذا الجنس الذي أكرمه الله وفضلهُ على كثير من خلقه وأودع فيه هذه لأسرار اللطيفة - أنه هو السميع البصـير - يسمع ويرى كل ما لطف ودق وخفي على الأسماع والأبصار من اللطائف والأسرار)[1].

أما المعراج الذي كان فيه ما فيه من الآيات السماوية الكبرى الغيبية التي لا يمكن أن تقـام علـيها أدلـة ماديّة لإثباتها، وليس إلا الخبر الصادق الذي هو أساس الإيمان بالغيـب والذي يوكل أمر تصديقه والإيمان به إلى القلب في درجات اليقين الثلاث[2] التي ينبغي للمؤمنٍ أن يرتقيها.

ولذلـك جاء الإخبار بالمعراج - قبل وقوعه - في سورة النجم ضمناً وإشارة وبخبر الواحد في السنة بينما جاء الإسراء في القرآن صراحة وبالسنة المتواترة وإجماع المسلمين[3].

---

(١) انظر في ظلال القرآن - سيد قطب ٣٠٤/٥.

(٢) لليقين بالحق درجات ثلاث ينبغي إن يرتقيها المؤمن حتى يبلغ درجة المحسنين: الأولى: علم اليقين - والثانية: عين اليقين. والثالثة: حق اليقين. قال تعالى: ﴿**لو تعلمون علم اليقين. ثم لترونها عين اليقين**﴾ الـتكاثر. وقال تعالى ﴿**إن هذا لهو حق اليقين**﴾ الواقعة/٩٠. انظر تفسير القرآن العظيم للشيخ محمد متولي الشعراوي ١٩٢/١ تفسير سورة التكاثر. المكتبة الشرقية.

(٣) لقـد جاء الإسراء صراحة في القرآن ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً**﴾ فهو ثابت بالكتاب والسنة المتواترة واجماع المسلمين.

أمـا المعـراج فقد ثبت في القرآن إشارة في قوله تعالى «والنجم إذا هوى....لقد رآى من آيات ربه الكبرى» النجم/١-١٧ من المسجد الاقصى الى السموات السبع ومنها الى الجنة. ثم الى سدرة المنتهى أو العرش بخبر الواحد، لذا لا يكفر منكره بل يفسق، انظر الأساس في السنة - سعيد حوى «٢٩٣/١».

ومن ثم كان على المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقوا بوقوعه كأي قضية إيمانية غيبية أخــرى تستقر في القلب فلا تطفوا إلى الذهن لتناقش من جديد. ذلك لأن الإيمان هو التصــديق بالقلــب بقضية ما، فإذا طفت إلى الذهن لتناقش أو يعاد النظر فيها لم يكن التصــديق كــاملاً وإنما فيه شك. فإذا استقرت كان إيماناً وتصديقاً ظهر على اللسان إقراراً وعلى الجوارح عملاً وسلوكاً.

ولهــذا قــيل (إن الإيمــان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمــية.. وجماعــة الماديين في هذا الزمان كجماعة الماديين في كل زمان يريدون إن يعــودوا بالإنسان القهقرى إلى عالم البهيمة الذي لا وجود فيه لغير المحسوس، ويسمّون هذا تقدميّة وهو النكسة العظمى التي وقى الله المؤمنين إياها فجعل صفتهم المميزة صفة ﴿**والذين يؤمنون بالغيب**﴾[1].

ثم بعــد ذلك يقول: إن كل الآيات التي رآها النبي ﷺ في السماء كرؤيته لبعض الأنبــياء ورؤية الغيب الذي دعا إليه الأنبياء والمرسلين من الملائكة والجنة والنار ونماذج مــن النعــيم والعــذاب. وبذلك يكون قد شاهد عياناً ما دعا إليه الناس[2] من الإيمان بالغــيوب وكــان بذلك الشاهد المبصر على أمر الغيوب: ﴿**يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً**﴾ (الأحزاب/٤٦).

فإذاً – مبشراً ونذيراً – بالخبر الصادق المبلّغ عن الله في أمر الغيب الذي لم يطلع عليه أحد ولا يمكن إن يؤيد بالدليل المادي كما هو الحال في آيات الإسراء.

يقــول الشــيخ الشعراوي: (الإسراء آية أرضية أمكن أن يقام الدليل عليها، وإذا أمكن إقامة الدليل المادي المرئي بواسطة البشر عليها[3]. فهمت العقول أولاً أن المسافة قد اختصرت لرسول الله ﷺ وأن قانون الزمن قد الغي عنده. إذاً خُرِق له الناموس. فإذا أدركــنا أن الناموس قد خرق له في أمر عادي نعلمه ونستدل عليه بعقولنا، فإذا حدّث

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب ٤١/١.

(٢) انظر الأساس في التفسير – سعيد حوى ٣٠٣٥/٦ فقد أجاد التعليق على هذه المسألة.

(٣) سنضرب أمثلة من هذه الأدلة المادية البشرية المرئية عبر أبعاد الزمان والمكان.

رسول الله ﷺ بعد ذلك أن قانون السماء قد خرق له فاخترقه - فمن الممكن للعقل أن يستأنس بأن الذي خرق له الناموس فيما نعلم وفيما استدللنا عليه - قادر - على أن يخرق له الناموس فيما لا نعلم.

إذاً.. إن آية الإسراء كانت إيناساً لعملية الإيمان بالمعراج، فالله سبحانه وتعالى الذي خرق القانون لمحمد ﷺ في المسافة والزمن - على الأرض - خرق له القانون في - المعراج - للسموات السبع ولما لم يكن أيضاً في الطريق إلى سدرة المنتهى قافلة ما.. فلا يمكن أبداً إن يقام الدليل من المخلوقين الذين يسمعون ذلك إلا بصفة أمر حسي له وهو الإسراء، ولذلك كانت آية الإسراء إيناساً للعقول بإمكانية الإيمان بما يحدّث به الرسول الكريم ﷺ[1].

وقبل أن أورد الروايات التي وردت في الإسراء أحب إن أنبه إلى أمر مهم:

وهو أني سوف أركز هنا على أهم الروايات التي وردت وفيها من المشاهد التي لها علاقة ببني إسرائيل مقتصراً على ما يناسب الموضوع الذي نحن بصدده تاركاً ما لا علاقة لـه ببني إسرائيل بسبب ضيق المجال أولاً ولكون موضوع الإسراء هو ليس الموضوع الرئيس في بحثنا هذا ثانياً.

وإنما تعرّضت له هنا استئناساً لكونه ذكر في أول السورة التي سميت باسمهم ولكونه كان انطلاقاً للدخول في أهم قضية تعرضت لها السورة وهي قضية:

(إفساد بني إسرائيل في الأرض مرتين).

وقد آثرت إن تكون الروايات في تسلسل موضوعي حتى أرسم صورة وحركة الإسراء وأسلط الضوء على المحاور التي كان لبني إسرائيل أثرٌ فيها والتي كانت المرائي والمشاهد رمزاً لها ودليلاً عليها وربما كانت هي من الآيات التي أريد للنبي ﷺ أن يراها - فرآها - وربما لتراها الأمة من بعده — والله أعلم -.

أولاً: أورد الإمام القرطبي في تفسيره (عن أبي سعيد الخدري) في قوله تعالى: **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾** (الإسراء/١).

---

(١) انظر الإسراء والمعراج - محمد متولي الشعراوي ٤٨-٥٠.

قال أبو سعيد: حدثنا رسول الله ﷺ عن ليلة أسرى به. قال النبي ﷺ أُتيت بدابةٍ هي أشبه الدواب بالبغل.. له أذنان يضطربان، وهو البراق الذي كانت الأنبياء تركبه قبل، فركبته فانطلق تقع يداه عند منتهى بصره، فسمعت نداءً عن يميني: يا محمد على رسلك حتى أسألك.. فمضيت و لم أعرّج عليه. ثم سمعت نداءً عن يساري: يا محمد على رسلك فمضيت و لم أعرّج عليه. ثم استقبلتني امرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رسلك حتى أسألك، فمضيت و لم أعرّج.. ثم أتيت بيت المقدس الأقصى فنزلت عن الدابة فأوثقته في الحلقة التي كانت الأنبياء توثق بها. ثم دخلت المسجد وصليت فيه..

فقال جبريل (عليه السلام): ما سمعت يا محمد؟ فقلت: سمعت نداءً عن يميني: يا محمد على رسلك حتى أسألك فمضيت و لم أعرّج فقال: ذلك داعي اليهود، ولو وقفت لتهودت أمتك.

قال: ثم سمعت نداءً عن يساري على رسلك حتى أسألك فمضيت و لم أعرّج عليه فقال: ذلك داعي النصارى أما أنك لو وقفت لتنصرت أمتك.

قال: ثم استقبلتني امرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رِسلِك فمضيت و لم أعرّج عليها، فقال تلك الدنيا لو وقفت لاخترت الدنيا على الآخرة. قال: ثم أتيت بإناءين أحدهما فيه لبن والآخر فيه خمر فقيل لي خذ فاشرب أيهما شئت فأخذت اللبن فشربته، فقال لي جبريل: أصبت الفطرة ولو أنك أخذت الخمر غوت أمتك. ثم جاء المعراج الذي تعرج فيه أرواح بني آدم فإذا هو أحسن ما رأيت.. وذكر الحديث»[1].

ثانياً: روى الإمام الترمذي عن شداد بن أوس قال: قلنا يا رسول الله كيف أسري بك؟

قال: صلّيت لأصحابي صلاة العتمة[2] بمكة معتماً فأتاني جبريل عليه السلام بدابةٍ

---

(١) تفسير القرطبي ٢٠٦/١٠ والحديث رواه البيهقي في دلائل النبوة ٣٩٠/٢ ورواه الطبري كذلك في تفسيره من طريق محمد بن اسحاق ١٣/١٥-١٤.

(٢) يعني العشاء – ومعنى عتماً – أي متأخر عن وقتها حتى يعتم الليل.

أبيض - أو قال - بيضاء، فوق الحمار ودون البغل فقال: اركب، فاستعصت عليّ، فرازها بأذنها ثم حملني عليها، فانطلقت تهوي بنا.. يقع حافرها حيث انتهى طرفها، حتى بلغنا أرضاً ذات نخلٍ فأنزلني، فقال: صلِّ، فصليتُ ثم ركبت. فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال صلّيت بيثرب، صلّيت بطيبة. فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها عند منتهى طرفها ثم بلغنا أرضاً قال: أنزل، ثم قال: صلِّ، فصلّيت ثم ركبنا فقال: أتدري أين صلّيت؟ قلت الله أعلم، قال صلّيت بمدْين عند شجرة موسى. ثم انطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها. ثم بلغنا أرضاً بدت لنا قصور، فقال: إنزل فنزلت فقال: صلِّ، فصلّيت، ثم ركبنا فقال: أتدري أين صلّيت؟ قلت الله أعلم، قال صلّيت ببيت لحم حيث ولد عيسى بن مريم ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليماني فأتى قبلة المسجد فربط فيه دابته، ودخلنا المسجد من باب تميل فيه الشمس والقمر، فصلّيت في المسجد حيث شاء الله، وأخذني العطش ما أخذني، فأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر عسل أرسل إلي بهما جميعاً. فعدلت بينهما ثم هداني الله عز وجل فأخذت اللبن فشربت حتى عرقت به جبيني، وبين يدي شيخ متكئ على مثوات له فقال: أخذ صاحبك الفطرة إنه ليهدى، ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي فيه المدينة فإذا بجهنم تنكشف عن مثل الروابي، قلت: يا رسول الله كيف وجدتها؟ قال: وجدتها مثل اللحمة السنخة.. ثم انصرف بي فمررت بعيرٍ لقريش بمكان كذا قد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان، فسلّمتُ عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد !! ثم أتيت أصحابي قبل الصبح[1] بمكة.

فأتاني أبو بكر رضي الله عنه فقال يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمستك في منامك، فقد علمت أنك أتيت بيت المقدس الليلة، فقال: يا رسول الله إنه مسيرة شهر، فصفه لي، قال: ففتح لي صراط كأني أنظر إليه لا يسألون عن شيء إلا أنبأتهم به، فقال أبو بكر أشهد إنك رسول الله. وقال المشركون: أنظروا إلى ابن أبي كبشة يزعم انه أتى بيت المقدس الليلة!! قال فقال: إن من آية ما أقول لكم أني مررت بعير لكم في مكان كذا

(١) لعل المقصود قبل وضوح النهار - والله أعلم -.

وكـــذا وقـــد أضـــلوا بعيراً لهم فجمعه لهم فلان، وأن مسيرهم يترلون بكذا ثم بكذا، ويـــأتوكم يوم كذا وكذا، يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان، فلما كـــان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حين كان قريباً من نصف النهار، حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ(١).

ثالـــثاً: عـــن أنس بن مالك قال: لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكأنها حرّكـــت ذنبها فقال لها جبريل: مه يا براق فوالله ما ركبك مثله.. وسار رسول الله ﷺ فـــإذا هو - بعجوز - على جانب الطريق فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال: سر يا محمد، قال: فسار ما شاء الله إن يسير فإذا شيء يدعوه متنحياً عن الطريق، فقال: هلّم يا محمد، فقـــال لـــه جبريل: سِرْ يا محمد، فسار ما شاء الله إن يسير، قال: فلقيه من خلق الله.. فقـــالوا السلام عليك يا أول.. السلام عليك يا آخر.. السلام عليك يا حاشر، فقال له جـــبريل: أردد السلام يا محمد. فرد السلام، ثم لقيه الثانية فقال له مثل مقالته الأولى، ثم الثالثة كذلك حتى انتهى إلى بيت المقدس، فعرض عليه الخمر والماء واللبن، فتناول رسول الله اللـــبن. فقال له جبريل: أصبت الفطرة، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت أمتك، ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام فـــأمهم رسول الله ﷺ تلك الليلة. ثم قال له جبريل: أما العجوز التي رأيت على جانب الطـــريق فلم يبقَ من الدنيا إلا كما بقي من عمر تلك العجوز. وأما الذي أراد إن تميل إلـــيه فذاك عدو الله إبليس أراد إن تميل إليه. وأما الذين سلّموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام(٢).

ومـــن خـــلال الربط بين سياق آيات الإسراء وأحاديثه نخلص إلى أن تلك المرائي والمشـــاهد هـــي في حقيقتها علامات ودلائل وآيات أُريها النبي ﷺ لتكون معالم على الطـــريق. قعـــد الشـــيطان في وسطه وقام على جانبيه اليهود وتهيأ في ثناياه النصارى،

---

(١) أخرجه ابن كثير في تفسيره وقال إسناده صحيح وقال "وهذا الحديث مشتمل على ما هو صحيح كما قال البيهقي انظر ١٤/٣ وقد رواه البيهقي في دلائل النبوة انظر ٣٨٢/٢.

(٢) أخرجه ابن جرير ورواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة ٣٨٢/٢.

ونشرت زينتها الدنيا على كل خطوة فيه تدعو الناس إليها. ورسول الله ماضٍ قدماً، لا يلتفت ولا يعرّج. إن الطريق طويل، يمتد أمامه عبر أبعاد رؤياه، يرقب الأفق وخطوات الـــبراق التي يضعها عند منتهى طرفه تنبئ عن طول الطريق وتنبئ عن عقباته التي صنعها اليهود والنصارى إذ أن بعضهم أولياء بعض في ظل راية الشيطان وزينة الدنيا.

ماذا يعني كل هذا غير أن اتركوا اليهود واتركوا النصارى فما عندكم يكفيكم إن أي استجابة لهم في أي شيء مهما صغر يعني منكم محاولة استكمال لنقص عندكم والله أكمل الدين وأتمّ النعمة ورضي لكم الإسلام ديناً ومنهجاً للحياة:

﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات إن تميلوا ميلاً عظيم﴾ (النساء/٢٧).

﴿إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدوّاً﴾ (فاطر/٦).

ومحطات على الطريق عبر مراحله.. صلاة بطيبة.. وصلاة بمدين، وأخرى ببيت لحم وخاتمة المطاف المسجد الأقصى.

كل تلك معالم ودلائل ينبغي إن تعيها الأمة، فالمسجد الأقصى الذي أقصاه اليهود وقسى عليه النصارى يحتاج لمسجد أدنى تنبثق منه جحافل البأس الشديد في عبودية خالصة لله لتردّه إلى حظيرة الإسلام فكان بطيبة وقد أريه النبي قبل أن يكون وصلى فيه.

المسجد الأول في الإسلام كان بطيبة انطلقت منه الجيوش فيه السابقون الأولون من خير القرون من المهاجرين والأنصار تقودهم فتّوة الإسلام[1] للقضاء على مومياء اليهود حول صلبان النصارى.

وهناك في الأفق كان الركب الكريم ينتظر ليسلّم على النبي الأمي.. الآتي في آخر الــزمان ــ كالــبرق ــ لم يصمد له اليهود ولا النصارى وما غلبه الشيطان ولا أغرته الدنــيا. وقف الركب من أولي العزم يستقبلون الأول والآخر والحاشر: إبراهيم وموسى وعيسى.. ويحشر له إخوانه من الأنبياء بعد عودته من سدرة المنتهى وتشرفه بلقاء الله.. يجتمعون له في بيت المقدس فيصلي بهم إماماً.

---

(١) إشارة الى قيادة أسامة بن زيد لجيوش المسلمين.

شهادة بأنهم على دينه وقد سلّموه إرثهم ومقدسا لهم والتي منها المسجد الأقصى. والولاية على من بقي من أتباعهم. ممن يقرؤون ويجدون صفته ومخرجه في كتبهم..

ويعود إلى مكة بغلس.. وفي طريق العودة كانت مشاهد أخرى..

حيث كانت المشاهد التي رآها رسول الله ﷺ والمواقف التي أخبر المشركون عنها بمثابة أدلة واقعية على صدق ما أخبرهم به ﷺ من إسرائه إلى المسجد الأقصى في تلك الليلة من سلامه على بعضهم ودلالته لهم عن الجمل الذي ندَّ عنهم وشربه الماء الذي غطوه ومعرفة صوته واثبات صفة الجمل الذي يتقدمهم وموعد وصولهم. وكلها أدلة واقعية بشرية تثبت صدقه ﷺ فيما أخبرهم به. بل إن الأمر ليزداد يقيناً عندما يثبت صدق ما أخبرهم به حين يشهد له الأبعدون في ديار بيت المقدس، فلقد أورد الأمام محمد الشنقيطي في أضواء البيان قوله: (وذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى، في آخر كلامه على هذه الآية الكريمة: ﴿**لنريه من آياتنا**﴾ فائدتين قال في:

أولاهما: فائدة حسنة جليلة، وروى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب «دلائل النبوة» من طريق محمد بن عمر الواقدي:

حدثني مالك بن أبي الرجال، عن عمر بن عبد الله عن محمد بن كعب القرضي قال: بعث رسول الله ﷺ دِحية بن خليفة إلى قيصر.. فذكر وروده عليه وقدومه إليه، وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل، ثم استدعى من بالشام من التجار فجيء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم كما سيأتي بيانه، وجعل أبو سفيان يجتهد إن يحقر أمره ويصغّره عنده.

قال في هذا السياق عن أبي سفيان: والله ما منعني أن أقول عليه قولاً أسقطه به من عينه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها عليّ ولا يصدقني في شيء. قال: فذكرت قوله ليلة أسرى به. قال فقلت أيها الملك، ألا أخبرك خبراً تعرف به إنه قد كذب؟ قال: وما هو، قال: قلت إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء، ورجع إلينا قبل الصباح. قال: وبطريق إيلياء عند رأس قيصر، فقال بطريق إيلياء: قد علمت تلك الليلة.

قال: فنظر إليه قيصر، قال: وما علمك بهذا؟ قال إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبـــواب المســـجد، فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فغلبنا فلم نستطع إن نحركه، كأنما نزاول به جـــبلاً فدعـــوت إليه النجاجرة فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجّاف والبنـــيان ولا نستطيع إن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى ! قال: فرجعت وتركت الـــبابين مفتوحين، فلما أصبحت غدوت عليها فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب وإذا فيه أثر مربط الدابة،

قـــال: فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي وقد صلى الليلة في مسجدنا. أهـــ[1].

والأحاديـــث كثيرة في هذا الباب لا أجد المجال لذكرها. وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس.. وتواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مســـعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمر، وجابر، وحذيفة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة ابن جندب، وصهيب الرومي، وأم هانيء، وعائشة، رضي الله عنهم أجمعين.

ومـــنهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد وإن لم تكن روايـــة بعضهم على شرط الصحة. فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون. وأعرض عنه الـــزنادقة المـــلحدون ﴿**يـــريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون**﴾[2].

وقد ثبت بالكتاب والسنة المتواترة.

قال القرطبي: (ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث وروي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه).

---

(١) انظر أضواء البيان للشنقيطي ٣٩٦/٣. وانظر الأساس في التفسير - سعيد حوى ٣٠٣٣/٦.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢٤/٣.

وذكر النقاش ممن رواه عشرين صحابياً[1]. وقال في موضع آخر (وفي نصوص الأخبار الثابته دلالة واضحة على إن الإسراء كان بالبدن، وإذا ورد الخبر بشيء هو مجوز في العقل في قدرة الله تعالى فلا طريق إلى الإنكار)[2].

إذ إن الإسراء من أعظم معجزاته[3] ﷺ التي حدثت له في حياته لا مناص من قبولها ولا مجال لردها، لأنها نقلت إلينا بالأسانيد الصحيحة المتواترة التي ترتقي بالفكر والعقل إلى درجة القطع واليقين.

---

(١) انظر القرطبي ١٠/٢٠٥-٢٠٩.

(٢) انظر القرطبي ١٠/٢٠٥-٢٠٩.

(٣) من المفسرين من ذهب الى إن (هذه الخوارق التي امتنعت في هذه الرسالة لإن الأولين الذين جاءهم كذبوا بها و لم يهتدوا فحق عليهم الهلاك. والهلاك لم يقدر على امة محمد ﷺ لذلك لم يرسله بالخوارق المادية، وما كانت الخوارق إلا تخويفاً للامم الخالية مما يحل بها من الهلاك إذا كذبت بعد مجيئها. وقد كانت الخوارق تصاحب الرسالات لتصديق الرسل وتخويف الناس من عاقبة التكذيب. وهي الهلاك بالعذاب. ولكن لم يؤمن بهذه الخوارق إلا المستعدة قلوبهم للايمان.. أما الجاحدون فقد كذبوا بها في زمانهم. ومن هنا جاءت الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بهذه الخوارق: ﴿**وما منعنا إن نرسل بالآيات إلا إن كذب بها الأولون. وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً**﴾ الإسراء/٥٩.

إن معجزة الاسلام هي القرآن، وهو كتاب يرسم منهجاً كاملا للحياة ويخاطب الفكر والقلب، ويلبي الفطرة القويمة، ويبقى مفتوحاً للأجيال المتتابعة تقرؤه وتؤمن به الى يوم القيامة. أما الخارقة المادية فهي تخاطب جيلا واحدا من الناس، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل. هذه التجارب البشرية اقتضت أن تجيء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق، لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها لا رسالة جيل واحد يراها. ولأنها رسالة الرشد البشري تخاطب مدارك الانسان جيلا بعد جيل، وتحترم ادراكه الذي تتميز به بشريته والذي من أجله كرمه الله على كثير من خلقه.

أما الخوارق التي وقعت للرسول ﷺ وأولها خارقة الإسراء والمعراج فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة، انما جُعلت فتنة للناس وابتلاء: ﴿**وإذ قلنا لك: إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الروءيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً**﴾ الإسراء/٦٢.

ولقد ارتد بعض من كان آمن بالرسول ﷺ بعد حادثة الإسراء كما ثبت بعضهم وازداد يقينا. ومن ثم كانت الرؤيا التي أراها الله لعبده في تلك الليلة «فتنة للناس»، وابتلاء لايمانهم. أما احاطة الله بالناس فقد كانت وعداً من الله لرسوله وبالنصر وعصمة له من إن تمتد أيديهم اليه.=

فمن ذلك حديث نبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ، حيث أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، ومسلم في كتاب الفضائل، ومالك في الموطأ في كتاب الطهارة، وغيرهم من أئمة الحديث بطرق مختلفة كثيرة. حتى نقل الزرقاني قوله: (إن نبع الماء من بين أصابعه ﷺ، تكرر في عدة مواطن في مشاهد عظيمة، وورد من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي. ومن ذلك حديث انشقاق القمر على عهده ﷺ حينما سأله المشركون ذلك. فقد أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، وأخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة، وأخرجه غيرهما من علماء الحديث).

قال ابن كثير: (ووردت بذلك الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وأمر الإسراء متفق عليه بين العلماء أنه وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات).

والذي نسوق هذا البحث بمناسبته وهو حديث متفق عليه لا تنكر قطعية ثبوته التي وردت بالقرآن والسنة المتواترة وإجماع المسلمين وبشارة الكتب السماوية السابقة.

= ولقد أخبرهم بوعد الله له وبما اطلعه الله عليه في روءياه الكاشفة الصادقة. ومنه شجرة الزقوم التي يخوف الله بها المكذبين. فكذبوا بذلك حتى قال ابو جهل متهكماً: هاتوا لنا تمراً وزبداً وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول: تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا !.

فماذا كانت الخوارق صانعة مع القوم لو كانت هي آية رسالته كما كانت علامة الرسالات قبله ومعجزة المرسلين؟ وما زادهم خارقة الإسراء ولا زادهم التخويف بشجرة الزقوم إلا طغياناً كبيراً؟

وظل القرآن – معجزة الاسلام – كتاباً مفتوحاً لجيل – محمد – ﷺ وللأجيال بعده، فآمن به من لم يشهد الرسول وعصره وصحابته، انما قرأ القرآن أو صاحب من قرأه. وسيبقى القرآن كتاباً مفتوحاً للأجيال، يهتدي به من هم بعد في ضمير الغيب. وقد يكون منهم من هو أشد ايماناً وأصلح عملاً، وأنفع للاسلام من كثير سبقوه "انظر – في ظلال القرآن – سيد قطب ٣٤١/٥.

ويعلق الشيخ سعيد حوى على هذه المسألة بقوله: "إن الإسراء والمعراج يذكر أن في باب المعجزات من كتب الحديث والسيرة والدلائل، والمعجزة ما به تقوم الحجة على الناس، وقد قامت الحجة عليهم بالإسراء من حيث انهم امتحنوا الرسول ﷺ بعد اخباره لهم بالإسراء امتحانات متعددة للتأكد من صدق الحادث، وكان إن وجدوا في كل امتحإن ما يدلل على صدقه ﷺ.. وبهذا قامت الحجة على الناس بالمعجزة وحدوثها" انظر الأساس في التفسير – سعيد حوى ٣٠٣٤/٦.

من ذلك ما جاء في إنجيل برنابا إشارة واضحة وضوح الشمس وهي تنطق بالحق علـــى الرغم من أنها صدرت في ذلك العمق الزمني الذي يؤكد ما جاء به موسى كان حقـــاً وكان فيه هدى لبني إسرائيل. وإن ما جاء به عيسى إنما كان مصدقاً لما بين يديه من التوراة ومبشراً بمن سيأتي من بعده وأنه سيهيمن على ما كان قبله على الرغم من أنه يصدر من مشكاة واحدة.

يخـــبر برنابا بإن رحمة الله ستصيب كل العالمين حتى أهل جهنم إكراماً لرسول الله ﷺ وليتحقق أمر الله في كونه رحمة الله للعالمين. يقول برنابا في الإصحاح /١٣٧ فقرة/٦ من إنجيله مخبراً عن إسراء النبي ﷺ، ومعراجه.

يقـــول: (أفيدكم.. أنه حتى رسول الله يذهب إلى هناك ليشاهد عدل الله. فترتعد ثمة الجحيم لحضوره وبما أنه ذو جسد بشري يرفع العقاب عن كل ذي جسد بشري من المقضي عليهم بالعقاب. فيمكث بلا عقاب، مدة إقامة رسول الله لمشاهدة الجحيم. لكنه لا يقـــيم هناك طرفة عين. وإنما يفعل الله هذا ليعرف كل مخلوق أنه نال نفعاً من رسول الله ﷺ. ومـــتى ذهب إلى هناك ولولت الشياطين وحاولت الاختباء تحت الجمر المتقد. قائلاً لبعضهم البعض.. أهربوا أهربوا فإن عدونا محمد قد أتى...

فمتى سمع الشيطان ذلك يضع وجهه بكلتا كفيه ويقول صارخاً.. ذلك بالرغم عني لأشرف مني.. وهذا إنما فعل ظلماً..).

المطلب الثانـي

علاقة الإسراء ببني إسرائيل

لبـــيان هـــذه العَلاقة التي يمكن إن نستشفها من الجو العام لسورة الإسراء ومن مجمـــوع الـــروايات التي توحي بان بني إسرائيل لهم - علاقة وثيقة - بقضية الإسراء، وكذلـــك مـــن خلال تتبع خارطة الإسراء في الأرض المقدسة سواء في البعد الزماني أم المكاني، ومن ثم حال اليهود في زمن الإسراء وحال المسجد الأقصى كذلك، أقول لبيان هذه العلاقة نورد الحقائق الآتية..

الحقيقة الأولى:

هي كون سورة الإسراء مكيّة وأنها نزلت في مكة قبل الهجرة بعام ونصف تقريباً بعد إسراء النبي ﷺ يعني إن النبي لم يكن قد تعرض لبني إسرائيل بعد، وجهاً لوجه، حيث كـانوا يسكنون بيثرب وهو لم يهاجر إليها بعد فقد كان يسكن بمكة ويسعى مجاهداً فيها وفي أطرافها في سبيل دعوته لا يكل ولا يمل رغم كل ما كان يعانيه فيها.

ومـع هذا كان في الإسراء حيّزٌ كبير لبني إسرائيل. وجاءت سورة الإسراء تؤكد هذا كما رأينا سابقاً.

الحقيقة الثانية:

إن بيت المقدس الذي كان منتهى إسرائه إليه ﷺ والذي كان قد توجه إليه النبي بالصـلاة فكان أولى القبلتين، حدث هذا منذ بداية دعوته ونبوته. يعني لم يكن مجاملة، لليهود بعد الهجرة، وإنما كان منذ الأيام الأولى لولادة الإسلام وهو ﷺ لم يزل في مكة الـبلد الذي كان مهداً للحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل.. فكأن الله وهو العليم سبحانه أراد إن يكسر حاجزاً كان أو سيكون بين الإسلام وبين بني إسرائيل. حتى قبل إن يتصل بهم النبي ﷺ ومنذ كان في مكة

الحقيقة الثالثة:

إن من المسلّم به تأريخياً إن بيت المقدس لم يكن له من الاحترام والتقدير لا عند اليهود ولا عند النصارى شيء يذكر، فاليهود الذين كانوا يعدونه قبلتهم كثيراً ما دنسوه بالشرك وبالفساد والظلم حتى قيل إن كل ما أصابه من تخريب إنما كان بسبب فسادهم وظلمهم لأنفسهم وللناس.

بـل وحتى من النصارى الرومان الذين جعلوا الصخرة التي فيه مكاناً يرمون فيه أقذارهـم وأوساخهم[1] احتقاراً لليهود، وتذكر كتب السيرة ذلك حيث عندما ذهب

---

(١) حتى يقال إن المرأة كانت ترسل خرقة حيضتها لتلقى في الصخرة استخفافاً لليهود لأنها قبلتهم. انظر البداية والنهاية لابن كثير ٥٧/٧.

الفاروق عمر ﷺ ليصالح أهل إيلياء دخل من الباب الذي دخل منه النبي ﷺ ليلة إسرائه فوجد أكوام النفايات والقاذورات والأتربة على الصخرة، فأخذ يحمل منها على رداءه وساعده المسلمون حتى نظفوها وتحرى عن محراب داود فصلى فيه(١).

و لم يُعدْ إليه احترامه وتقديره إلا الإسلام ورسول الإسلام حين توجه إليه بالصلاة أولاً وشرّفه الله بإسراء عبده محمد ﷺ إليه والصلاة فيه والعروج منه إلى سدرة المنتهى.. ثانياً.

الحقيقة الرابعة:

لقـــد تأكد لليهود بما لا يحتمل الشك إن هذا النبي المبعوث في مكة هو النبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم وعلموا أنه توجه إلى قبلتهم في صلاته فكان هذا خيطاً مـــن الصلة بينه وبينهم كان من الممكن إن يُفتل ليكون حبلاً يرفعون فيه الحواجز بينه وبينهم حتى قبل إن توجد بل وحتى قبل إن تظهر فيما بعد.. فإن ظهور نبي بشّرت به كتـــبهم وعـــرفوا زمان ظهوره فجاءوا من أقصى الأرض يبحثون عن أرض بين حرتين ذات نخـــيل فترلوا فيها ينتظرون مبعثه وعرفوا صفاته وعلاماته فكان من الأجدر بهم أن ينصروه ويتبعوا النور الذي أنزل معه ويقاتلوا أعداءه من الكافرين والمشركين وأعداءهم من النصارى.

ولكـــن الـــذي حدث غير هذا.. إنهم افتروا على الله كذباً وكذّبوا بما في كتبهم وكذّبـــوا رســـول الله ﷺ وكتموا الحق الذي كان واضحاً جليّاً في كتبهم(٢) بل قالوا لمشـــركي مكة حينما وفدوا عليهم إلى يثرب ليسألوهم عن هذا النبي باعتبار أن عندهم علماً من الكتاب فقالوا لهم أنتم خير منهم وأهدى(٣) فضلّوا وأضلوا.

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ٥٧/٧.

(٢) انظـــر قصة إسلام عبد الله بن سلام وكتم اليهود الحق الذي عرفوه في سيرة ابن هشام ١٨٦/٢-١٨٧. وقصة اسلام مخيريق أحد أحبار يهود كذلك في سيرة ابن هشام ١٨٨/٢ وانظر تأريخ الطبري ٥٣١/٢.

(٣) قـــال تعالى: **﴿ألم تر الى الذين اؤتو نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾** (النساء/٥١). والقصة أوردها ابن هشام في سيرته انظر ٢٤١/٢.

الحقيقة الخامسة:

بعد هذا فإن الإسراء كان نقلة سريعة لرسول الله ﷺ عبر حدود الزمان والمكان ليرى من آيات الله التي ستحدث في المستقبل منها مع مشركي مكة وأغلبها مع بني إسرائيل فكان الإسراء حدثاً ليطلع رسول الله ﷺ على الخيوط والعلائق التي ينسج منها القدر تأريخ الفساد الذي أحدثه بنو إسرائيل والذي سيحدثونه في الأرض مستقبلاً، ومن ثم ليكون واضحاً للنبي ولأمته من بعده كيف كان اليهود وكيف سيكونون وكيف ينبغي إن يكون المسلمون معهم.

لقد أهمل بنو إسرائيل شأن إسماعيل ومشاركته لأبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بناء الكعبة والتي كانت المسجد الحرام من بعد - أهملوا ذكره في التوراة كتماناً للحق وتحريفاً لكتاب الله وأظهروا ذكر بناء الهيكل لداود وسليمان ويخفون أنه بني ليكون بيتاً لله وأنه بُني في حياة إبراهيم أيضاً - وربما بمساعدة ابنه إسحاق - ومع هذا فلم يراعوا حرمة بيت المقدس فكان ظلمهم وفسادهم وطغيانهم حتى على أنبيائهم فكم قتلوا على الصخرة نفسها من الأنبياء ودنسوا حرمة البيت وما حوله وهو وضع أصلاً ليكون طاهراً من نجاسات الشرك والوثنية وليكون مقدساً أي مطهراً لهم منها[1].

فجاء الإسراء ليجمع بين بيتي الله الّذين بناهما إبراهيم بمساعدة إسماعيل في مكة وإسحاق في الشام. وقد فرق الشيطان وأعوانه من اليهود بينهما. جاء الإسراء ليعيد ربط هذين البيتين برباط عقيدة التوحيد على يدي خاتم النبيين محمد ﷺ تماماً كما أراد الله من إبراهيم إن يغرس جذور عقيدة التوحيد في طرفي الأرض المباركة - البيت الحرام في الحجاز بفرعه إسماعيل، وبيت المقدس في الشام بفرعه إسحاق ' وقد ابتلاه الله بهذا فأتمه على ما أحب الله وأراد فكان جزاؤه: ﴿**إني جاعلك للناس إماماً**﴾ (البقرة/١٢٤).

كان الإسراء برسول الله ﷺ بين هذين البيتين إيماءاً وإيحاءاً إلى أن الرباط بينهما واحد. وقد قطّعهُ اليهود تقطيعاً كما تقطّعوا بينهم أمرهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون وكما قطّعوا أمر دينهم بينهم فآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض فقطّعوا ما

---

(١) انظر معنى التقديس في مفردات الراغب ص٣٩٦.

جاءهم على يد أنبيائهم إلى توراة وإنجيل وإنما أنزل الثاني ليكمل الأول.

وكان الإسراء ليقرر حقيقة رسالة النبي ﷺ وحقيقة مهمته في هداية أبناء إسماعيل الذين تركوا دين أبيهم وعبدوا الأصنام، وليهدي أبناء إسحاق ويعقوب - بني إسرائيل - الذين تركوا دين آبائهم وعبدوا الأصنام ذريّة بعضها من بعض منهم الظالم لنفسه ومنهم المقتصد ومنهم السابق بالخيرات، فأمر إن يبلغهم بنداء الحق: ﴿**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب**﴾ (المائدة/١٥).

كما أمر أن يقول: ﴿**قل يا أهل الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾ (الأعراف/١٥٨).

الحقيقة السادسة:

إن الإسراء من المسجد الحرام الذي صلى فيه النبي ﷺ العتمة بالصحابة إماماً ثم عروجه إلى سدرة المنتهى وتشرفه بلقاء الله في جناب قدسه، وأعطاه هدية القرب للقرب ... ووسيلة الوصل للوصال ... ثم عاد إلى المسجد الأقصى مشفوعاً بالأنبياء الذين صلى بهم الصبح - إماماً - فيه. ثم عاد إلى مكة قبل إن يطلع الصبح.

هذه الصلاة في مكة ثم في المدينة ثم في مدين وبيت لحم ثمّ في المسجد الأقصى إنما ترمز إلى مدى الصلة التي كانت تربطه بالأنبياء قبله فإن الناظر في خط سير النبي ﷺ في إسرائه يجد شيئاً غريباً.

وهو أنه عليه الصلاة والسلام قد ذهب في طريق وعاد في طريق آخر غير الذي ذهب فيه. وربما كانت تلك سنة له عليه الصلاة والسلام.

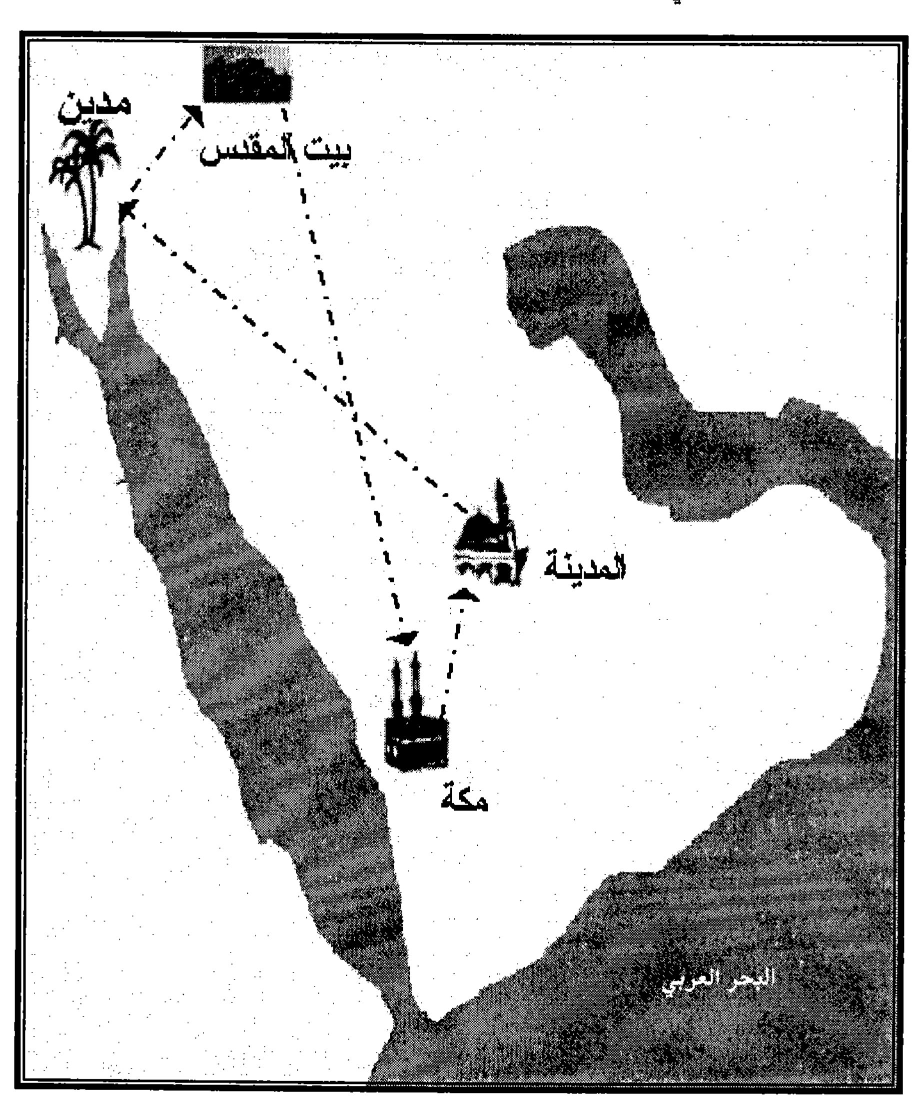
أي أنه حينما انطلق من المسجد الحرام لم يقصد المسجد الأقصى مباشرة - كما قد يظن - وإنما كان طريقه من المسجد الحرام حيث صلى بأصحابه العتمة إلى طيبة ذات النخيل فصلى فيها ركعتين ثم منها إلى مدْين في جنوب سيناء حيث صلى عند شجرة موسى ركعتين ثم منها إلى بيت لحم حيث ولد عيسى فصلى فيها ركعتين ثم منها إلى المسجد الأقصى[١] فصلى فيه ركعتين حيث كان يصلّي الأنبياء.

---

(١) استدللنا على خط سير النبي ﷺ بالحديث الذي رواه الامام الترمذي عن شداد بن أوس. وقال عنه البيهقي اسناده صحيح. انظر تفسير ابن كثير ١٤/٣ وانظر دلائل النبوة للبيهقي ٢٨٢/٢.

وحيـــث صـــلى بالأنبياء إماماً بعد نزوله من سدرة المنتهى وكانوا قد رافقوه إلى المسجد الأقصى، ولعل في ذلك إيحاءاً على أنه سيدهم وأفضلهم وهم - مع أممهم - له تابعون.

بيـــنما نجد طريق العودة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ربما مباشرة، كما في هذا المخطط التوضيحي ...



ماذا يعني هذا؟ ...

غير أن النبي ﷺ قبل أن يتسلّم ميراث الأنبياء قد اطّلع على أركان الأرض المقدسة والتي كانت مهد الرسالات والتي شهدت حركة ذلك الركب الإيماني الذي قاده الأنبياء قبله بدءاً بإبراهيم ومروراً بإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وانتهاءً بعيسى ...

كـــل ذلـــك الركب الإيماني الذي جاهد في كل تلك الأرض المباركة، وكل من يعـــيش علـــيها سيكونون إما أتباعاً أو أنصاراً أو معزّرين لك ... وستعلوا.. وسيكون ملك أمتك من بعدك مازوي لك من مشرقها إلى مغربها[1].

كـــل ذلك كان في إسراء كلمح البرق أو كبرق الشهاب ... لقد كانت كل آية رآها، وكل مشهد أُظهِر له ولو كان رمزاً، كل ذلك كان فيه من العلم والإيحاء ما لا يخفى على رسول الله ﷺ معناه والحكمة منه. وكل صلاة صلاها في مكة والمدينة ومدين وبيت لحم ومن ثم بالمسجد الأقصى كانت دليلاً على توحيد هذه المناطق المقدسة ووصل بعضها ببعض بالصلاة التي هي في أخصّ معانيها أنها (صلة معنوية مادية، ورابطة روحية وجســـدية بين عالمي الغيب والشهادة وبين الماضي والحاضر). ومن ثم كانت العهد بين الحاضر والمستقبل، بين هذا المكان وذاك، وكأنها إشارة إلى تسلّم هذه البلاد وما حولها، كمـــا يُسلّم البلد المفتوح إلى الفاتحين. سُلّمت هذه البلاد إلى رسول الله ﷺ، فصلى في مراكزها وعواصمها ركعتين شكراً لله تعالى على إكمال فضله وإتمام نعمته، وقد رضي لـــه الإسلام ديناً كما رضيه للأنبياء المرسلين قبله. كل هذا حدث في لحظات خُرقت له فيها أبعاد الزمان والمكان، وهو لا يزال بمكة وقد أوحشه ﷺ ما يلاقيه من أقرب الناس إليه وهو في أول الطريق.

---

(١) إشارة الى الحديث الذي رواه الامام مسلم في صحيحه عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها**» أخرجه الامام مسلم في الفـــتن بـــاب اهـــلاك هذه الامة بعضهم ببعض برقم ٨٨٩. وابو داود في الفتن والملاحم ٤٢٥٢ والترمذي ٢٢٠٣ في الفتن وابن ماجة ٣٩٥٢ في الفتن كذلك كله من حديث ثوبان ﷺ.

نقلة بعيدة جداً في آفاق الزمان والمكان رأى فيها من آيات الله الكبرى، ثم أعيد إلى مكانه - الزماني والمكاني - وقد أيقن بأنه على طريق الحق المبين. فكان ما رأيناه من عزمه على التبليغ وثباته على الحق حين تشبثت بثيابه أم هانئ وهو يهم بالخروج فتقول له لا تحدث قومك بهذا فيكذبوك...

فيقول بعزم الموقن بأنه على الحق المبين (والله لأحدثنهموه).

إن تلك الصلاة التي صلاها رسول الله إنما كانت شحنات إيمانية يستعين بها على مشاق الطريق التي كادت إن تؤثر على عزمه ويقينه والتي اشتدت عليه - قبل الإسراء - حتى لكأنه ﷺ بات منشغلاً فكره، قد جفاه النوم في بيت أم هانئ فخرج إلى البيت فاضطجع هناك فجاءه جبريل بالبراق فكان الإسراء دعوة من الله سبحانه لهذا النبي الكريم الذي لم يَرَ غير التكذيب والصدّ والإعراض من قومه وعشيرته الأقربين والأبعدين[1].

وتبعاً لهذا الصدّ والإعراض - فلربما - أحسّ النبي بشيء من الإحباط واليأس من إيمان قومه به، وتلك حالة تصيب الرسل أخبر عنها القرآن في قوله تعالى: ﴿**حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا**﴾ (يوسف/١١٠).

فجاء الإسراء ليوضح للنبي حقيقةً ربما كانت قد غابت عنه خلف غيوم الهموم وليريه ربه من آياته التي توصله إلى يقين بأنه على الحق المبين وأنه ليس مكة وحدها هي ما ينبغي عليه إن يدعوها، وإنما هي ذرية إسماعيل التي كانت مكة مسكناً لها، وذرية إسحاق التي كان الشام مسكناً لهم حول بيت المقدس. إنها ليست فقط - أم القرى (مكة) مجال دعوتك وإنما هي كل الأرض المباركة (المسجد الأقصى - بيت المقدس -) وما حوله، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿**إنما أنت منذر ولكلّ قومٍ هاد**﴾ (الرعد/٧).

فلا وارث لهذه المقدسات سواك وليس هادياً لذرية إسماعيل وإسحاق إبني أبيك إبراهيم غيرك.

---

(١) وفي هذا يقول سيد قطب «والراجح من مجموع الروايات إن رسول الله ﷺ ترك فراشه في بيت أم هانيء الى المسجد فلما كإن في الحجر عند البيت بين النائم واليقظإن أسري به وعرج ثم عاد الى فراشه قبل إن يبرد» انظر الظلال ٣٠٢/٥.

لقد قيل لرسول الله ﷺ انطلق، وانظر كل هذه الأرض التي كانت مهداً لرسالات إخوانك من الأنبياء والمرسلين وكل هذه الأمم التي ظلّت عن هديهم وكتبهم، ينبغي أن تديـن لك بالولاء والاتباع. ولتجمعهم على عقيدة التوحيد ولتربط بين البيتين مكة في الحجاز التي بناها إبراهيم وإسماعيل وبيت المقدس في الشام الذي بناه إبراهيم وإسحاق[1] وعلى يديك ستتجدد دعوة أبيك إبراهيم الذي أتمّ كلمات الله فكان للناس إماماً ... وستكون أنت صاحب رايته التي تهدي بها أبناءه من بعده وتلك حقيقة قد غيبها الشيطان تحت ركام أوهام وخرافات الجاهلية وضلالات الشياطين ...

وإلا فما المناسبة بين هذين البيتين حتى يُسرى بالنبي ﷺ بينهما في ليلة واحدة، يصلي فيها النبي في المسجد الحرام العتمة بأصحابه[2] إماماً، ويصلي في المسجد الأقصى بالأنبياء الصبح إماماً كذلك؟ وفي الليلة نفسها بعدما يشرفه الله بلقاءه في جناب قدسه ليعطيه هدية القرب للقرب صلاةً يستعين بها على مشاق الطريق، وزاداً إيمانياً يتصل بقوة الأزل رغم كل الحواجز والآفاق.

وفي هذا يقول صاحب أضواء البيان:

(وفي هذا اعتناء بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط الأنبياء معه فصلى بهم لما حانت الصلاة ويحتمل أنها الصبح من يومئذ... ومن الناس من يزعم أنه أمّهم في السماء !

والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مرّ بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق: لأنه كان مطلوباً إلى الجناب العلوي

---

(١) كما يوحي بذلك حديث ابي هريرة ﷺ قال قلت يا رسول الله !! أي مسجد وضع في الارض أول؟. قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الاقصى. قلت كم بينهما. قال: أربعون سنة وأينما أدركت الصلاة فصل فهو مسجد.رواه الامام مسلم في كتاب المساجد الحديث الأول برقم ٥٢٠/١/ ٣٧٠ وقد سبق تخريجه.

(٢) قال ابن كثير رواه الترمذي والبيهقي وقال اسناده صحيح انظر تفسير ابن كثير ١٤/٣.

لـــيفرض عليه وعلى أمته ما شاء الله تعالى. ثم لما فرغ من الذي أُريد به إجتمع به[1] هو وإخوانـــه من النبيين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة..ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس)[2].

(إنهـــا حكمة الله عز وجل من وراء الغيب البعيد تطلعنا على هذا الارتباط الوثيق بـــين مكة وبيت المقدس لتغرس في أعماق قلوبنا هذه الصلة التي لا تنفصم بين البلدتين المقدســـتين التين بارك الله تعالى فيهما إشارة إلى أن هذه الأرض هي أرض النبوات وأنها هي القاعدة الأساسية للأيمان والتي لا شركة فيها لكفر أو الحاد وأنها هي المنطلق الخالد والحصن الدائم لدعوة التوحيد التي هي دعوة الأنبياء في كل الرسالات)[3].

وهـــو (الإيمـــاء إلى أن الله تعالى قد جعل هذا الإسراء رمزاً إلى أن الإسلام جمع ما جاءت به شرائع التوحيد والحنيفية من عهد إبراهيم - عليه السلام - الصادر من المسجد الحرام إلى ما تفرع عنه من الشرائع التي كان مقرها بيت المقدس ثم إلى خاتمتها التي ظهرت من مكة أيضاً فقد صدرت الحنيفية من المسجد الحرام وتفرعت في المسجد الأقصى... ثم عادت إلى المسجد الحرام كما عاد الإسراء إلى مكة لأن كلّ سُرى يعقبه تأويب)[4].

وفي هذا يقول صاحب الضلال: (الرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلـــة مخـــتارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعـــيل - عليهما السلام - إلى محمد خاتم النبيين ﷺ وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً. وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدســـات الرســـل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات.. وارتباط رسالته بها جمـــيعاً، فهـــي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان، وتشمل آماداً وآفاقاً

---

(١) أي في المسجد الأقصى.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣٦٢/٢ وانظر أضواء البيان لمحمد الشنقيطي ٣٩٤/٣.

(٣) مـــن مقال بعنوإن ظلال وأنداء من ذكر الإسراء والمعراج للأستاذ عبد اللطيف الشيرازي المنشور في مجلة حضارة الاسلام العدد/٥ لسنة /٤ ص/٧٧.

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٥/١٥.

أوســع من الزمان والمكان، وتتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تتكشف عنها للنظرة الأولى..

وهــذا الإســراء آية من آيات الله وهو نقلة عجيبة بالقياس إلى مألوف البشر.. والمسجد الأقصى هو طرف الرحلة..

والمسجد الأقصى هو قلب الأرض المقدسة التي أسكنها الله بني إسرائيل ثم أخرجهم مــنها.. فســيرة موسى وبني إسرائيل تجيء هنا في مكانها المناسب من سياق السورة في الآيات التالية ﴿**آتينا موسى الكتاب... وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً**﴾.

فإن هذه الحلقة من سيرة بني إسرائيل لا تذكر في القرآن إلا في هذه السورة وهي تتضــمن نهايــة بني إسرائيل التي صاروا إليها ودالت دولتهم بها. وتكشف عن العلاقة المباشرة بين مصارع الأمم وتفشي الفساد فيها، وفاقاً لسنة الله التي ستذكر بعد قليل في السورة ذاتها.. وذلك أنه إذا قدر الله الهلاك لقرية جعل إفساد المترفين فيها سبباً لهلاكها وتدميرها..)[1].



(١) في ظلال القرآن - سيد قطب ٥/٣٠٤ - ٣٠٥.

المبحث الثالث

بنو إسرائيل من خلال سورة الإسراء

المطلب الاول:

أصل بني إسرائيل

المطلب الثاني:

أسماء بني إسرائيل

المطلب الثالث:

كتب بني إسرائيل

المبحث الثالث

بنو إسرائيل من خلال سورة الإسراء

المطلب الأول

أصل بني إسرائيل

قال تعالى مخاطباً بني إسرائيل الذين كانوا يعاصرون النبي ﷺ بـيا:

﴿**ذرية من حملنا مع نوح، إنه كان عبداً شكوراً**﴾ (الإسراء/٣).

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: ﴿**ذرية من حملنا مع نوح**﴾ تقديره يا ذرية من حملنا مع نوح، فيه تهييج وتنبيه على المّنة أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم:﴿**إنه كان عبداً شكوراً**﴾[١].

والتعميم هنا واضح إذ لم يخصص القرآن من أي أولاد نوح كنتم يا بني إسرائيل يا ذرية من حملنا مع نوح.. وقد كان مع نوح أولاده الثلاثة (سام وحام ويافث) وفي هذا يقول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي:

(سام أبو العرب ويافث أبو الروم وحام أبو الحبش)[٢].

ففي هذا الحديث يوضح النبي ﷺ أصل الأجناس المتكاثرة بعد الطوفان ويتبين لنا كذب ادعاء اليهود بأن أصلهم من سام فقط وأن من حارهم إنما هو معادٍ للسامية.. علماً بأن منهم من هو من نسل حام أبي الحبش، ومنهم من هو من نسل يافث أبي الروم وليس فقط من نسل سام كما يدعون[٣].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٤.

(٢) رواه الترمذي في سننه من طريق الحسن البصري عن سمرة بن جندب مرفوعا وقال عنه «حديث حسن» انظر ٥/٦٨١ وانظر قصص الأنبياء - الحسن بن محمد الكسائي ١/٥/٣٠.

(٣) سيتبن لنا زيف هذه القضية بما توصل إليه العلماء من حقائق.

والتوراة التي بين أيدينا تركز على قضية تريد أن تجعلها حقيقة مسلَّماً بها بينما هي محض افتراء على الله سبحانه وعلى الناس والتاريخ.. تلكم هي جعل حام أبا الكنعانيين، والكنعانيون هم العرب، وتنسب إليه لعن أبيه نوح فتقول: (أما أبناء نوح الذين خرجوا معه في الفلك فكانوا: ساماً وحاماً ويافث.. وحام هو أبو الكنعانيين. هؤلاء كانوا أبناء نوح الذين تفرعت منهم شعوب الأرض كلها...)(١).

ثم تعلل التوراة سبب كون موقف نوح من ابنه حام يختلف عن موقفه من أخويه سام ويافث، لتجعل ذلك مسوَّغاً للعن نوح حاماً وجعله وذريته - الكنعانيين - بزعمهم - عبيداً لسام ويافث كما يدعون فتقول التوراة..

(واشتغل نوح بالفلاحة وغرس كرماً.. وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خيمته، فشاهد حام أبو الكنعانيين عريَّ أبيه، فخرج وأخبر أخويه اللذين كانا خارجاً، فأخذ سام ويافث رداءً ووضعاه على أكتافهما ومشيا القهقري إلى داخل الخيمة وسترا عُري أبيهما من غير أن يستديرا بوجهيهما نحوه فيبصرا عُريه، وعندما أفاق نوح من سُكره وعلم ما فعله به أبنه الصغير قال: (ليكن كنعان ملعوناً، وليكن عبد العبيد لأخوته) ثم قال: (تبارك الله إله سام، وليكن كنعان عبداً له. ليوسع الله ليافث فيسكن في خيام سام. وليكن كنعان عبداً له)(٢).

وهكذا يُطرد حام من رحمة الله وتُلعن ذريته وتكون عبيداً لذريّة أخويه، مع العلم أن الثابت تأريخياً أن حاماً ليس أبا الكنعانيين وإنما هو سام، فهم يريدون أن يلحقوا العرب الذين يرجعون بنسبهم إلى كنعان إلى حام الذي هو أبو الحبش كما ثبت ذلك من حديث رسول الله ﷺ. وكما هو الثابت تأريخياً فهم لا يريدون أن يشاركهم غيرهم في نسبٍ إلى سام الذي هو أبو العرب..

هذا من جهة النسب الذي لم يتوان اليهود في تحريفه ويكذبون حتى في هذه

---

(١) انظر سفر التكوين ٩/١٨-١٩ و٩/٢٠-٢٧.

(٢) انظر سفر التكوين ٩/١٨-١٩ و٩/٢٠-٢٧. انظر كيف يفترون الكذب من أدرى نوح أن ابن حام اسمه كنعان وهو لا يزال صغيراً كما تذكر الرواية ذاتها.

النبوءات ويفترون على الله الكذب وهم يعلمون[1].

أمـــا مـــن جهـــة الديـــن والعقيدة فإن ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: قـــال رسول الله ﷺ: «**أنا أولى بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة**».. قالوا: كيف يا رسول الله؟.. قال: «**الأنبياء أخوة من علاّت، وأمهاتهم شتى.. ودينهم واحد، وليس بيننا نبي**»[2].

ومعـــنى الحديـــث إن أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة فأنهم متفقون في أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع فكان فيها اختلاف[3].

وحين يقرر النبي ﷺ أنه أولى بعيسى ممن يدعى اتباعه يعني أن هناك صلة قربى ليس في الدين والعقيدة فحسب وإنما في النسب أيضاً بالإضافة إلى أنه لا نبي بينهم – صلوات الله عليهم وسلامه.

هذه قضية لها خطورتها وهي جديرة بالاهتمام والتبيين.. ولاسيما أننا بصدد أصل بـــني إســـرائيل فلا يجوز إخفاء شيء من حقائق الدين والاعتقاد ولا من حقائق التأريخ والاجـــتماع الـــتي لها علاقة وثيقة بقضية.. الذرّية والنسب.. فاليهود يعلمون جيداً إن أصلهم لا يعود إلى سام بن نوح فقط والذي هو أبو العرب – كما يدعون – هذا.

وإنما هم في الحقيقة مزيج من ذرية أولاد نوح فمنهم من يعود نسبه إلى سام ومنهم مـــن يعـــود إلى حام ومنهم إلى يافث.. ولذلك حين تحدث القرآن عنهم أخبر بصيغة الإجمـــال فقـــال: ﴿**ذرية من حملنا مع نوح**﴾ أي يا ذرية من حملنا مع نوح.. أما أن يحصروا نسبهم في سام الذي هو أبو العرب وينسبوا العرب الذين هم أبناء كنعان – إلى حـــام – تحـــريفاً حـــتى يثبتوا إن لهم حقاً في الأرض عن طريق ميراث إبراهيم لأرض كنعان، ولذلك نجد أن التوراة حين تحدثت عن أبناء نوح وجعلت اللعنة خاصة بحام لأنه

---

(١) انظر الوعد الحق والوعد المفترى – للشيخ سفر الحوالي ص٨.

(٢) اخـــرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب ﴿**واذكر في الكتاب مريم...**﴾ وأخرجه مسلم في الفضائل باب فضائل عيسى عليه السلام وانظر ١٨٣٧/٤ حديث رقم ٢٣٦٥ واللفظ له.

(٣) انظر شرح النووي على صحيح مسلم للحديث نفسه ١٨٣٧/٤.

رأى عُـرِيّ أبـيه كان هذا سبباً لعزل حام عن ميراث الأرض وأن قدره أن يكون عبد العبـيد لإخوانه ثم ألحقوا به الكنعانيين أي أبناء كنعان الذي هو أبو العرب. والعجيب أنهم عرفوا اسم ابنه قبل أن يولد كنعان ويتكرر اللعن ثلاث مرات..

قلـت: إننا نجد التوراة حين ذكرت هذه القصة ذكرت بعدها قطع الرب العهد لإبراهيم بميراث الأرض[1]. تقول التوراة: (أترك أرضك وعشيرتك وبيت أبيك واذهب إلى الأرض التي أريك..)[2].

وتقول: (وقال الرب لإبرام بعد أن أعتزل عنه لوط: "أرفع عينيك وتلفت حولك مـن الموضع الذي أنت فيه، شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، فأن هذه الأرض التي تراها، سأعطيها لك ولذريتك إلى الأبد)[3].

وتـزيد الـتوراة الوعد بالأرض توضيحاً وتحديداً فتقول: (في ذلك اليوم عقد الله ميـثاقاً مع إبرام قائلاً: «سأعطي نسلك هذه الأرض من وادي العريش إلى النهر الكبير نهر الفرات..»[4].

وأنهـا لتقرّ أن أرض كنعان إنما هي أرض غربة بالنسبة لإبراهيم لكنها مع ذلك تقول: «وأهبك أنت وذريّتك من بعدك جميع أرض كنعان التي نزلت فيها غريباً – ملكاً أبدياً – وأكون لهم إلهاً»[5].

وتمضي التوراة حتى يصل الأخبار فيها عن إسحاق فتقول لإبراهيم: «لا يسوء في نفسـك أمر الصبي أو أمر جاريتك» أي إسماعيل وأمه هاجر[6] «واسمع لكلام سارة في كل ما تشير به عليك لأنه بإسحاق يدعى لك نسل»[7]. – أي وليس بإسماعيل –.

---

(١) وذلك لكي يربطو بين حلقات العهد عن طريق النسب ولو اضطرهم ذلك إلى الترحيف والتبديل كما سنرى.

(٢) تكوين ١/١٢.

(٣) تكوين ١٣/١٤–١٧.

(٤) تكوين ١٢/١٨.

(٥) تكوين ١٧/٨.

(٦) انظر التأكيد على عبودية هاجر وانها ليست اكثر من جارية.

(٧) تكوين ٢١/١٢.

وتمضي التوراة لتخبر عن يعقوب إبن إسحاق فتقول إن الرب ظهر ليعقوب في الحلم فقال له: «أنا هو الرب إله أبيك إبراهيم وإله إسحاق وأن الأرض التي ترقد عليها الآن أعطيها لك ولذريتك التي ستكون كتراب الأرض..»[١]، وفي موضع آخر تقول وظهر الله ليعقوب مرة أخرى.. وقال له: لن يدعى اسمك يعقوب في ما بعد بل إسرائيل.. وقال له: «والأرض التي وهبتها لإبراهيم وإسحاق أعطيها لك ولذريتك من بعدك أيضاً..»[٢].

ولا ندري إلى أين ستصل هذه الوعود ومن هم النسل والذرية التي ستكون كتراب الأرض، صاحبة الحظ بامتلاك هذه الأرض؟.

ولكن اليهود يعلمون أنهم يريدون أن يجعلوا الناس يصدقون أنهم هم ذرية إسرائيل وأنهم ذرية من حمل الله مع نوح، أما غيرهم فلاحظّ لهم بامتلاك الأرض ولاسيما ذرية حام - الكنعانيون - فهم ليسوا أكثر من عبيد لهم وهذا - كما علم - ادعاؤهم أنهم شعب الله المختار وغيرهم ليس أكثر من عبيد - جويم[٣] - لهم..

تلك هي القصة وذلك هو المقصود من إرجاعهم أصل نسبهم إلى يعقوب فإسحاق فإبراهيم ثم إلى سام بن نوح عليه السلام.

بينما الذي ثبت أنهم ليسوا كلهم من بني إسرائيل أي من يعقوب فهنالك من ينتمون إلى أجناس أخرى..

فقد: كشفت حقائق البحث العلمي إن يهود أوربا ليسوا من ذرية بني إسرائيل.. وأنهم يمثلون تسعة أعشار يهود العالم وأغلبهم من منطقة بولونيا وحوض نهر الراين: وهم الاشكنازم، ولغتهم «بدش» وهم الذين كانوا يعيشون في الخزر، وهم من سلالة جرمانية أوربية محضة ابتدأت تتكاثر منذ القرن الثالث الميلادي، إعتنق أجدادهم قبل الميلاد بأكثر من قرنين الدين اليهودي الموسوي..وهؤلاء غير اليهود الذين هربوا من الشرق إلى

---

(١) تكوين ٢٨/١٣-١٤.

(٢) تكوين ٣٥/٩-١٢.

(٣) انظر اليهودية - أحمد شلبي ص٢٠٨ وما بعدها ط/٣ ١٩٧٣ مكتبة النهضة المصرية.

جنوب أوربا وشمال أفريقيا.. وقد بحث علماء الأجناس ((ريبلي - لامبروزو - رنيان)) وتتبعوا هذه القضية فقال لامبروزو: إن يهود العالم الجديد أدنى إلى الجنس الآري منهم إلى الجنس السامي وهم عبارة عن طائفة دينية تميّزت بميزات اجتماعية واقتصادية، وأنظم إليهم في جميع العصور أشخاص شتى من الأجناس ومن مختلف صنوف البشر منهم الفلاشا (سكان الحبشة) والألمان والتأمل (اليهود السود من الهند) ومنهم الخزر (من الجنس التركي).. وأشاروا إلى أنه لا يعقل أن يكون اليهود الموجودون الآن في العالم وعددهم (١٦،٠٠٠،٠٠٠) مليوناً هم من سلالة الخمسين ألفاً الذين شُرِّدوا من عهد أوريانوس..

والمعروف إن شعب الخزر لم يسكن فلسطين، ولا الجماعات العبرانية جميعاً ذهبت إلى هناك..

قال الأستاذان - ربلي وتيار -: (إن اليهود في ألمانيا يشبهون الألمان شبهاً واضحاً وان اليهود السلاف لا يختلفون عن مواطنيهم السلافيين... وكذلك قرر علماء الأجناس: إن بعض الصفات التي يزعم اليهود أنها خاصة بهم - كالأنف البارز - قد لوحظ أنه ليس شائعاً بين جميع الجماعات اليهودية... ويقول: إن تسعة أعشار يهود العالم يختلفون عن سلالة أجدادهم اختلافاً واسعاً ليس له نظير.

وأن الزعم بان اليهود جنس نقي حديث خرافة..)[1].

أما من ناحية المعتقد فقد دلّت الأحداث التي تمخّضت عن حالة التمزّق والضياع ورحلة الشتات إلى أن:

اليهودية يهوديتان هي:

أولاً: يهودية التوراة... المتمثلة بالجماعات التي هاجرت من المشرق وتدفقت على أوربا..

---

(١) المخططات التلمودية الصهيونية اليهودية غزوا الفكر الإسلامي المعاصر لأنور الجندي ص٣٨ ط/٢-١٩٧٤م - دار الاعتصام.

ثانياً: يهودية التلمود... وهي تلك الجماعات التي نشأت في بولونيا وحوض نهر الراين وهم يهود أوربا الإشكنازيون اللذين ليسوا من نسل إسرائيل والذين يمثلون الآن تسعة أعشار يهود العالم..

أما يهود التوراة فيطلق عليهم اسم «السيناريون» وليهود التوراة في أوربا رحلة بدأت في عصر الدولة الرومانية ثم تجددت بعد سقوط القدس حيث تشتتوا في إنجلترا وفرنسا وألمانيا ثم أزيلوا عنها بعد ذلك فاعتصموا بالدولة الإسلامية في الأندلس حتى خرج العرب منها عام/١٤٩٢ فلجؤوا إلى الدولة العثمانية في سالونيك حيث كانت مؤامراتهم الخطيرة في إسقاط الخلافة والوصول إلى القدس...[١].

ولا بد من التفرقة التامة بين يهود التوراة ويهود التلمود.. (يهود التوراة الذين هم يهود الشتات الذين انطلقوا في القرن الأول الميلادي إلى أوربا والى أجزاء مختلفة أخرى.. أما يهود التلمود فهم الذين نشأوا في بيئات أخرى في الغرب لا صلة لهم بالنسبة ليهود بني إسرائيل..).

اليهودي العربي الحديث - كما يقول فرنك لي بريتون: (لا يؤمن حقيقة بالتوراة بل بالتلمود وهو لا يتكلم العبرية بل اليهودية الدارجة وهو ليس من نسل بني إسرائيل بل من حثالة شرقي البحر المتوسط..)[٢].

يقول السيد «س. ناجي»:[٣] تزعم المصادر اليهودية أن منشأ بني إسرائيل هو بلاد الكلدان، باعتبار أن مسقط رأس جدهم إبرام هو أور إحدى المدن الكلدانية «اوركلدان» ويعتمد اليهود في زعمهم هذا على ما جاء في سفر التكوين...

ولكن هذا الادعاء يفتقر إلى أدلة تأريخية وبراهين علمية، علماء التأريخ ينفونه بصورة تكاد تكون جازمة، وآراؤهم في هذا الموضوع تختلف كلياً عما ذهبت إليه

---

(١) المخططات التلمودية - أنور الجندي ص٣١-٣٢.

(٢) المصدر السابق ص٣٥ بتصرف.

(٣) صاحب كتاب المفسرون في الأرض - أو جرائم اليهود السياسية والاجتماعية عبر التأريخ ط/١/ ١٩٦٥ دمشق.

المصادر اليهودية، إذ لكل عالم منهم رأيه الخاص في هذا المنشأ... ومن بين هؤلاء العلماء يحدثنا العالم الأمريكي «جورج بارتون» عن اليهود فيقول:

«إنهم من القبائل السامية الرحّل التي كانت تتجول في صحارى شبه الجزيرة العربية منذ أقدم العصور. ولقد عرفت باحتراف تربية المواشي والتنقل الدائم، و لم يعرف لها قط بلد أو وطن، حتى ظهرت في فلسطين قبل مولد المسيح بعدة قرون...»[1].

ولقد أيده في هذا الرأي كل من المؤرخين «روجر وبروني»[2]... ومن العلماء الذي اشتهروا بتوسعهم في هذا البحث وبتجردهم في جميع أبحاثهم العالم الفرنسي المعاصر (أدولف لودس) حيث أنه - عند بحثه عن اليهود - لا يعترض على أنهم كانوا قبائل رحّل تجوب الصحارى العربية، ولكنه يشك كثيراً في نسبتهم إلى السامية، ويحبذ انتماءهم للآرامية. ويدعم نظريته هذه بدلالة عما بين اليهود والآراميين من تقاليد مشتركة، كتطبيق كل من الشعبين نظام الضريبة العشرية التي تقدم للآلهة، أو على ما في التراتيل القديمة من الإشارة إلى قرابة اليهود من الآراميين، ويستشهد لذلك بالترتيل اليهودي الشهير القائل (كان أبي آرامياً تائهاً).. ويضيف إلى ما سبق دليلاً آخر هو التقارب الوثيق الكائن بين اللغتين ويستخلص من كل هذا فكرة نفي السامية عن اليهود[3].

يتبين لنا مما سبق إن اليهود لا ينتمون إلى السامية بصورة خالصة وإنما يختلط نسبهم بمن كان مع نوح اختلاطاً ينفي عنهم كونهم أنهم شعب مختار ومميز وصاحب دم نقي كما يدعون بل إنهم أخلاط شعوب وصعاليك أمم وقبائل ورثوا عن أسلافهم رذائلهم دون محاسنهم وإلا لما زيفوا التأريخ والواقع وكتب السماء ليخادعوا الله والناس.

﴿وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ (البقرة/٩).

---

(١) نقلا عن كتاب G.A.Barton Asketeh of Simitic Origines New york, 1902.

(٢) المفسدون في الأرض - س. ناجي ص١١.

(٣) المصدر السابق ص١٣.

المطلب الثـاني

أسماء بني إسرائيل

سأتناول هنا أسماؤهم التي وردت في القرآن فحسب - متخطياً أسمائهم التي جاءت في كتبهم إلا إشارات سريعة إتماماً للفائدة.

١- أسماؤهم:

أطلق على بني إسرائيل عدّة تسميات منها ما يشار بها إلى أصلهم ومنها ما كانت صفة لهم ومنها ما كان تمييزاً عن غيرهم. وقد وردت في القرآن منها عدّة تسميات، بعضها في كتبهم أو في كتب التأريخ.

فأسماؤهم التي وردت في القرآن الكريم هي:

أولاً- أهل الكتاب:

فقد جاءت هذه التسمية في كثير من آيات القرآن الكريم حتى بلغت أربعاً وعشرين مرّة موزعة في كثير من آيات القرآن الكريم. منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿**ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردوكم**﴾ (البقرة/١٠٩). ومنها ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا...**﴾ (الروم/٦٤).

و﴿**يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله..**﴾ (آل عمران/٧٠).

ويعود أصل هذه التسمية إلى أنهم قد تميزوا بها عن باقي الأمم والشعوب بأنهم كانوا أهل كتاب منزل عليهم من الله سبحانه عن طريق أنبيائهم.

وتطلق هذه التسمية على اليهود والنصارى ولا تخص أحدهما على انفراد.

ثانياً- بنو إسرائيل:

وهي تسمية أطلقها القرآن الكريم عليهم في كثير من آياته الكريمة. ويعود أصل هذه التسمية «نسبة إلى أبيهم إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم الصلاة والسلام».

و«إسرائيل» كلمة عبرانية مركبة من «إسرا» بمعنى عبد أو صفوة، ومن «إيل» وهو الله، فيكون معنى الكلمة «عبد الله» أو «صفوة الله»[1].

وقد صرح القرآن في كثير من آياته باسم يعقوب منها أنه سبحانه قد وهب لإبراهيم إسحاق ويعقوب فقال: ﴿**ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب**﴾ (العنكبوت/٢٨). ومنها ﴿**أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق**﴾ (البقرة/١٣٤).

ومنها ما يثبت أن تسمية يعقوب بـ «إسرائيل» في موضعين من كتاب الله.

الأول: قوله تعالى: ﴿**كلُّ الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة**﴾ (آل عمران/٩٣).

الثاني: قوله تعالى: ﴿**وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا**﴾ (مريم/٥٨). وقد أجمع المفسرون أن المقصود بـ«إسرائيل» هو يعقوب[2].

أما لفظة «بني إسرائيل» فقد وردت في القرآن الكريم في واحد وأربعين موضعاً موزعة على سور القرآن منها على سبيل المثال: ﴿**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم**﴾ (البقرة/٤٠) ومنها:

﴿**ورسولاً إلى بني إسرائيل**﴾ (آل عمران/٤٩).

ومنها قوله: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب**﴾ (الإسراء/٤).

وبنو إسرائيل هم أولاد يعقوب الذكور الإثنا عشر ولداً وذلك أنه أعقب عن زوجته «ليئة» ستة أولاد هم: «رأوبين - شمعون - لاوي - يهوذا - يشاكر — زبولون» وأعقب عن زوجته «راحيل» إثنين هما «يوسف — بنيامين» وأعقب من «زلفا» جارية «ليئة» إثنين هما «جاد — أشير» وأعقب من: بلها «جارية راحيل» إثنين هما «دان — نقتالي».

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة - محمد سيد طنطاوي ٦١/١ط/٢ - ١٩٧٣م.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للأمام القرطبي ١٢٠/١١ ط/٢/١٩٥٤ مكتبة الأندلس ليبيا مصر.

ومن أبناء يعقوب عليه السلام وذرياتهم من بعدهم تكونت أمة بني إسرائيل ونسبت إليه[1].

ثالثاً- يهود:

كذلك استعمل القرآن هذه التسمية وقصد بها «بني إسرائيل» في ثمانية مواضع موزعة في سورة البقرة والمائدة والتوبة منها قوله تعالى: ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى**﴾ (البقرة/١١٠). ومنها: ﴿**لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا**﴾ (المائدة/٨٢). ومنها: ﴿**قالت اليهود عزيرٌ ابن الله**﴾ (التوبة/٣٠).

وجاء هذا اللفظ في سورة آل عمران ولكن في معرض الحديث عن نفي صفة اليهودية عن إبراهيم فقال تعالى: ﴿**ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً**﴾ (آل عمران/٦٧).

وأصل هذه التسمية مأخوذة من هاد يهود إذا تاب ورجع.

قال صاحب لسان العرب: «الهود.. التوبة، هاد - يهود — هوداً» تاب ورجع إلى الحق فهو هائد.. قال تعالى: ﴿**واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك**﴾ أي تبنا ورجعنا إليك. وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير(٢).

وقال الراغب «هَوْد..الهَوْدُ، الرجوعُ برفقٍ ومنه التهويدُ» وهومشيٌ كالدبيب وصار «الهوْدُ» في المتعارف «التوبة» قال تعالى: ﴿**إنا هدنا إليك**﴾ أي «تبنا» (الأعراف/٥٦).

قال بعضهم: يهودُ في الأصل من قولهم هُدْنا إليك، وكان اسم مدح ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لهم. وإن لم يكن فيه معنى المدح. كما أن النصارى في الأصل من قوله: ﴿**من أنصاري إلى الله**﴾ (الصف/١٤). ثم صار لازماً لهم بعد نسخ شريعتهم. ويقال: هاد فلان إذا تحرّى طريقة اليهود في الدين. قال الله عز وجل: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا**﴾ (البقرة/٦٢).

---

(١) بنو إسرائيل - طنطاوي ١/٧.

(٢) لسان العرب لأبن منظور ١٥-٤٣٩ بتصرف - بيروت.

ويقـــال: تهـــوّد في مشـــيه، إذا مشى مشياً رفيقاً تشبيهاً باليهود في حركتهم عند القراءة. وهود في الأصل جمع هائد أي تائب. «وهو اسم نبي»[1] أُرسل لعاد قال تعالى: ﴿**والى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله**﴾ (هود/٥٠).

وقد وردت هذه اللفظة «هود» إسماً لهـــذا النبي الكريم في القرآن في سبعة مواضع منها: ﴿**ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثـــل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح**﴾ (هود/٨٩).

ووردت في القرآن "علماً لليهود" في ثلاثة مواضع منها قوله تعالى: ﴿**وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا**﴾ (البقرة/١٣).

ومـــن ثم جـــاءت لفظة «هادوا» علما وصفة لليهود في عشرة مواضع في القرآن الكـــريم منها قوله تعالى: ﴿**فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم**﴾ (النســـاء/١٦٠). وقولـــــه: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى**﴾ (الحج/١٧). أي الذي دخلوا اليهودية. وهاد يهود إذا صار يهوديّاً.

قـــال ســـيبويه: وفي الحديـــث «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه**». معناه أنهما يعلمانه اليهودية أو النصرانية ويدخلانه فيه[2].

«وقيل إنهم سُموا بذلك لأنهم يتهوّدون، أي يتحركون عند قراءة التوراة».

وقـــيل إنهـــم سموا يهوداً نسبة إلى «يهوذا» الابن الرابع ليعقوب عليه السلام وقد رجّح بعض العلماء هذا القول واقتصر عليه.

قـــال الإمـــام البيروني مؤيداً هذا القول «وإنما سمّوا باليهود نسبة إلى يهوذا أحد الأسباط فان الملك استقر في ذريته، وأبدلت الذال المعجمة دالاً مهملة، لأن العرب كانوا إذا نقلوا أسماء أعجمية إلى لغتهم غيّروا بعض حروفها»[3].

---

(١) انظر المفردات للراغب ص٥٤٦ – طبعة دار المعرفة.

(٢) راجـــع لسان العرب لأبن منظور – ٤٣٩/١٥ والحديث رواه البخاري كتاب الجنائز باب اذا اسلم الصـــبي فمـــات هل يصلى عليه؟. وأخرجه مسلم واللفظ له كتاب القدر باب معنى كل مولود /٤/ ٢٠٤٧ رقم الحديث ٢٦٥٨.

(٣) أنظر بنو إسرائيل – ٨/١ وقد نقل السيد طنطاوي هذا الرأي عن تأريخ الملل والنحل ٤/٢ لأمين الخولي.

قــال الساموك: «وأطلقت تسمية «اليهود» على بقايا جماعة يهوذا الذين رحلهم نبو خذ نصر إلى بابل في القرن السادس قبل الميلاد إلى مملكة يهوذا المنقرضة»[1].

غــير أننا نميل إلى أن السبب في تسمية بني إسرائيل بــ«اليهود» هو ما أخبر عنهم القــرآن في قوله: ﴿**إنا هُدْنا إليك**﴾ الأعراف/١٥٦. من أنهم تابوا ورجعوا إلى الله من عبادة العجل. وبقيت هذه التسمية لازمة لهم حتى بعد نسخ شريعتهم بشريعة الإسلام. ولعــلّ هــذا مما يحرص عليه «يهود» في أن يكون اسمهم رمزاً وإشارة لمعنى يريدون أن يوهموا الناس بأنهم أصحاب فضل في كونهم عائدين وتائبين ويهود راجعين إلى الله. بينما رأى أصحاب الحق أن هذه التسمية كالسخرية بهم.

فكــلمة «هادوا» وإن كانت تعني عادوا ورجعوا فان عودهم عن عبادة العجل لم تــدم فسرعان ما عصوا موسى وتمرّدوا عليه وعبدوا من دون الله آلهةً شتى ماديّة وذهبية وخرافية. والقرآن والتأريخ يشهدان بهذا ويصدق أحدهما الآخر في ذلك.

ولــو كان السبب في تسميتهم بــ«يهود» نسبة إلى «يهوذا» لنسبهم القرآن إليه كما نسب الأقوام إلى أنبيائهم «قوم نوح» و«قوم صالح» ولقال «قوم هوذا» ولكنه قال «وعــلى الذيــن هــادوا» نسبة إلى فعل الرجوع منهم. قال تعالى: ﴿**من الذين هادوا يحــرفون الكــلم عن مواضعه**﴾ (النساء/٤٦). أي من الذين عادوا يحرفون الكلم عن مواضعه. وقال تعالى: ﴿**يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا**﴾ (المائدة/٤٤). أي للذيــن رجعــوا وتابوا وقد أجمع المفسرون على هذا وانتصر لهم كثير من العلماء منهم الدكتور عفيف عبد الفتاح طبّارة الذي نَهِجَ نهج المفسرين القدماء وأعاد كلمة «يهود» إلى الفعــل «هــاد ويهود» وهو يأتي بهذه النتيجة من الدراسات المتعلقة بالعهد القديم والجديد يدعونه اثباتاً لما يقول القرآن[2].

---

(١) تأريخ الديانتين اليهودية والمسيحية - الساموك - عليان ١٦. ط/٨٨ جامعة بغداد.

(٢) الرؤية العربية اليهودية - الحداد/٣٥، وانظر اليهود في القرآن - عفيف طبارة ٦١ وانظر ينو إسرائيل - طنطاوي ١/٤-٥.

قلت: هذه هي الأسماء الثلاثة التي أطلقها القرآن على بني إسرائيل، أما الأسماء التي وردت في كتبهم كالعبرانيين[1] والموسويين[2] لم أتناولها بشيء من التفصيل هنا حيث لا

---

(١) «العبرانيون» جاءت هذه التسمية في الكتب المقدسة وعلى لسان العلماء وكتّاب التأريخ ويعدّونها أقدم تسمية اطلقت على بني إسرائيل - بزعمهم - وان كانوا قد اختلفوا في سبب اطلاقها عليهم على أقوال، نوردها باختصار:

الأول - «أنهم سُمّوا بالعبرانية نسبة إلى إبراهيم نفسه، فقد ذكر في سفر التكوين - إبراهيم العبراني - لانه عبر نهر الفرات وانهاراً أخرى» انظر بنو إسرائيل في القرآن والسنة - سيد طنطاوي ٣/٤.

الثاني - «أنهم سُمّوا بالعبرانية نسبة إلى «عِبرْ» وهو الجد الخامس لإبراهيم المصدر السابق.

الثالث - قيل أن سبب التسمية «إن كلمة عبري ترجع إلى الموطن الأصلي لبني إسرائيل، وذلك انهم كانوا في الأصل من الامم البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان، بل ترحل من بقعة إلى أخرى بإبلها وماشيتها للبحث عن الماء والمرعى. وكلمة «عبري» في الأصل مشتقة من الفعل الثلاثي «عبر» بمعنى قطع مرحلة من الطريق، أو الوادي أو النهر من «عَبْرة إلى عَبْرة»، أو عبر السبيل: شقها. وكل هذه المعاني موجودة في الفعل سواء في العربية أو العبرية" انظر تأريخ اللغات السامية - إسرائيل ولفنسون ص٧٧ - وانظر اليهودية - أحمد شلبي ص٤٧.

الرابع - يرجع سبب هذه التسمية إلى ان هناك قبائل كانت تنتقل في شمال الجزيرة وأرض كنعان كانت تسمى بقبائل «العبيروا أو الهبيروا» وهي كلمة كانت تطلق على القبائل العربية الرحل التي كانت تجوب الجزء الشمالي من الجزيرة العربية أيضاً. وقد انضمت إلى القبائل الآرامية. وصارت هذه الكلمة بعد ان صحفت إلى عبري وعبراني تطلق على اتباع موسى. انظر العرب واليهود في التأريخ - أحمد سوسة ص١٦١.

(٢) مصطلح اطلق على اتباع موسى عليه السلام بعدما جاءهم منقذاً لهم ومخلصاً من ظلم فراعنة مصر الذين كانوا يسومون بني إسرائيل سوء العذاب. والظاهر ان هذه التسمية قد اطلقت عليهم بعد ايمان السحرة وبعض بني إسرائيل بما جاء به موسى من الايات وخروجهم معه. وقد كانوا قبل ذلك يسمّون - بني إسرائيل - فلما تبعوه وخرجوا معه اطلقت عليهم هذه التسمية «الموسويون» وبقيت هذه التسمية تطلق عليهم إلى ان ابدلت بتسمية «اليهود» عندما تابوا وهادوا وعادوا عن عبادة العجل. وينوه الدكتور أحمد سوسة بهذه التسمية ويعدها "مصطلحاً يمكن اطلاقه على جماعات خليطة من احفاد بني إسرائيل ومن بقايا الهكسوس وهؤلاء كانوا يدينون قبل موسى عليه السلام بدين التوحيد الذي ورثوه عن إبراهيم عليه السلام أو الذي دعا إليه - اخناتون - فرعون مصر الموحد، ولعل اخناتون قد تأثر بدعوة يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام، بعدما نشر عقيدة التوحيد في مصر. وقد آمنوا برسالة موسى عليه السلام" انظر تأريخ الديانتين: الساموك وعليان ١٥-١٦.

يتسع المجال لها أولاً ولأن الموضوع يخص بني إسرائيل في سورة الإسراء ثانياً. ويمكن الرجوع إلى الكتب التي تناولتها كاليهودية لأحمد شلبي وتأريخ اللغات السامية لإسرائيل ولفنسون.

مصداقية أسمائهم:

بعد ذلك نقول ما مصداقية هذه الأسماء لمن تسموا بها أو أطلقت عليهم؟ ماذا (تغني) الأسماء عن قوم فقدوا مصداقيتها ومعناها. فماذا ينفع ظالماً سُمّيَ عادلاً، وماذا يفيد رجلاً ذليلاً اسمه أمير.

إن تسمية «بني إسرائيل» التي سماهم القرآن بها كان ينبغي أن يعتزوا بها ويعتزوا بالقرآن الذي شرفهم بها وأراد أن يرفعهم من وهدتهم التي نزلوا إليها. وذلك شرف عظيم أن ينسبهم إلى رجل اسمه «إسرائيل» أي «عبد الله أو صفوة الله» لكنهم أبوا أن يتقبلوا هذا الشرف الشريف وقطعوا هذه الصلة يوم أن قطعوا صلة العقيدة – عقيدة التوحيد – التي جاء بها الأنبياء والتي جعل الحق سبحانه لها القيمة الحقيقية في الارتباط والقربى: ﴿**إنما المؤمنون أخوة**﴾ (الحجرات/١٠). و: ﴿**إن ابني من أهلي... إنه ليس من أهلك**﴾ (هود/٤٥)[1] لا قيمة لصلة النسب والقربى أمام صلة العقيدة والإيمان؟ فهل راعى اليهود صلة النسب الإيماني بأبيهم يعقوب «إسرائيل» حتى يفتخروا بصلتهم به عن طريق النسب؟ لقد فقدوا صلة الإيمان من يوم أن قطعوا رحمهم وغدروا بأخيهم وألقوه في غياهب الجب حتى ابيضت عين أبيهم عليه من الحزن وهو كظيم.

ليس لهم من تسمية «بني إسرائيل» إلا الإسم الذي ينبغي لهم أن يخجلوا من أنفسهم حين يطلق عليهم، أن لا يكونوا على دينه ويقينه وإيمانه بالله وهم قد وصفوه بما لم يصفه به غيرهم فقالوا: ﴿**إن أبانا لفي ضلال مبين**﴾ يوسف/٨.

أما تسمية «يهود» التي أطلقت عليهم حين عادوا ورجعوا تائبين إلى الله من عبادتهم لعجل ذهبي لم ينصر نفسه و لم ينصره من عبدوه وقد حرقه موسى وألقاه في

---

(١) انظر تفسير هذه الآية في ظلال القرآن ٥٥١/٤ فقد تكلم فيها وأجاد.

اليمّ. رجعوا فقالوا: ﴿**إنا هدنا إليك**﴾. فإلى كم بقوا على توبتهم وعودهم إلى الله. إنهم عبدوا غير الله آلهة أخرى - شتى - ما أنزل الله بها من سلطان، إن تسمية - اليهود - أطلقت عليهم يوم أن عادوا ورجعوا عن عبادة العجل وغيره من دون الله وكان ينبغي أن تُطلق عليهم يوم عادوا عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام التي وجدوها في الطريق وفاقوا أصحاب القرى التي قاتلوا أهلها واحتلوها حتى نافسوهم فيها.

أما «أهل الكتاب» التسمية التي لم تطلق على أمة قبلهم والتي كان عليهم - بمقتضاها- أن يحرصوا حرصاً شديداً على الالتزام بكل ما جاءهم فيه وان لا يسمحوا لأحد منهم أن يكسر شيئاً من تعاليم الكتاب أو يترك العمل به بعدما نزلت في ألواح من الله لنبيهم موسى فقيل له: ﴿**فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأُريكم دار الفاسقين**﴾ (الأعراف/١٤٥). لكن الذي حدث لا يصدق:

أ - حرفوا كتابهم من بعد ما عقلوه كما قال تعالى: ﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كتاب الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون**﴾ (البقرة/٧٥).

ب - نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون**﴾ (آل عمران/١٨٧).

ج - أنكروا كل ما أنزل الله: ﴿**وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً**﴾ (الأنعام/٩١).

سقطت كل الأسماء بعد ما بان زيف كل المسميات إلا تسمية واحدة أثبتها الكتاب الحق جعلها صفة لهم وينبغي أن تكون لهم تسمية دائمة ما دامت هذه الصفة فيهم هي: «المغضوب عليهم» فلقد أطلق القرآن عليهم هذه التسمية وجعلها ثابتة عليهم وخاصة بهم يعرفون بها بداهة وعلى ذلك جمهور المفسرين.

قال القرطبي: (اختلف «في المغضوب عليهم» من هم؟ فالجمهور أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين والنصارى، وجاء ذلك مفسراً عن النبي ﷺ من حديث عدي بن حاتم وقصة إسلامه[1]. وقد أخرجه ابن كثير في تفسيره فقال: روي عن عدي بن حاتم أنه قال سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿**غير المغضوب عليهم**﴾ قال هم اليهود ﴿**ولا الضالين**﴾ «قال النصارى»[2].

ويؤكد الآلوسي ذلك بقوله (والمراد بالمغضوب عليهم - اليهود - وبالضالين - النصارى -.. واستدل بعضهم على أن المغضوب عليهم بقوله تعالى: ﴿**من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير**﴾ (المائدة/٦٠) وعلى أن الضالين النصارى بقوله: ﴿**ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل**﴾ (المائدة/٧٧). ثم قال: والأولى الاستدلال بالحديث لان الغضب والضلال وردا جميعاً في القرآن لجميع الكفار على العموم فقد قال تعالى: ﴿**ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله** ﴾ (النحل/١٠٦)، وقال تعالى: ﴿**إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً**﴾ (النساء/١٦٧) ووردا لليهود والنصارى جميعاً على الخصوص - كما في آية «من لعنه» وآية «ولا تتبعوا» وإنما قدّم سبحانه المغضوب عليهم على الضالين.. لتقدم زمان المغضوب عليهم وهم اليهود على زمان.. الضالين وهم النصارى)[3].

غير إن ابن عاشور يتوسع في المراد فيقول: (فالمغضوب عليهم - جنس - للفرق التي تعمدت ذلك واستخفت بالديانة عن عمد أو تأويل بعيداً جداً، والضالون - جنس - للفرق التي أخطأت الدين عن سوء فهم و قلة إصغاء وكلا الفريقين مذموم.. ويقول في

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٤٩/١.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢٩/١ والحديث قال عنه الترمذي حسن غريب لا نعرفه الا من حديث سماك بن حرب انظر تحفة الأحوذي ٢٩٠/٢ رقم الحديث ٤٠٢٩.

(٣) انظر ما قاله الامام ابن جرير الطبري في تفسيره للمغضوب عليهم وما أورده من روايات ١٨٠/١-١٨٩، في الطبعة المنقحة من محمود وأحمد شاكر. وانظر روح المعاني للألوسي ٩٦/١.

موضع آخر (فالمراد المغضوب عليهم غضباً شديداً لان ضلالهم شنيع، فاليهود مثلٌ للفريق الأول والنصارى من جملة الفريق الثاني.. فاليهود تمردوا على أنبيائهم وأحبارهم غير مرة وبدلـــوا الشريعة عمداً فلزمهم وصف المغضوب عليهم والنصارى ضلوا بعد الحواريين وأساءوا فهم معنى التقديس في عيسى عليه السلام فزعموه ابن الله على الحقيقة. وما ورد في الأثر مما ظاهره تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى فهو إشارة إلى أن في الآية تعريضاً بهاذين الفريقين اللذين حق عليهما هذان الوصفان لان كلاً منهما صار علما فيما أريد التعريض به فيه..)[1].

وهكذا صار هذا الوصف علماً لمن استحق هذه التسمية من غير ظلم إذ كانوا له أهلاً...

المطلب الثالث

كتب بني إسرائيل

قـــال تعـــالى: ﴿**وآتيـــنا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل**﴾ ،قال ابن عاشـــور: عطـــف على جملة: ﴿**سبحان الذي أسرى**﴾ الخ فهي ابتدائية.. والتقدير: الله أســـرى بعـــبده محمد وآتى موسى الكتاب، فهما منتان عظيمتان على جزء عظيم من البشر، وهو انتقال إلى غرض آخر لمناسبة ذكر المسجد الأقصى... - وكذلك - لمناسبة قوله ﴿**لنريه من آياتنا**﴾ فإن من آيات الله التي أوتيها النبي ﷺ آية القرآن، فكان ذلك في قوة أن يقال: وآتيناه القرآن وآتينا موسى الكتاب (أي التوراة)...

والكـــتاب: هـــو المعهـــود إيتاؤه موسى عليه السلام وهو التوراة... وضمير الغائب في (جعلـــناه) للكـــتاب... وخـــص بـــني إسرائيل لأنهم المخاطبون بشريعة التوراة دون غيرهم[2]...

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ١/١٩٦-٢٠٠ بتصرف.

(٢) تفسير ابن عاشور ١٥/٢٤ بتصرف.

ثم إن لبني إسرائيل عدّة كتب «مقدسة» يؤمنون بها ويكفرون بما وراءها ولو كان مـــا وراءها هو الحق من ربهم مصدقا لما بين أيديهم - وهي تقسم إلى قسمين الأول - التوراة والثاني - التلمود.

أولاً: (العهد القديم)

«هو الكتاب المعروف بالتوراة، وقد ترجم إلى أكثر اللغات الحية».

وقـــيل «العهد القديم» هو التسمية العلمية لأسفار اليهود وليست التوراة إلا جزءاً مـــن العهد القديم، وقد تطلق «التوراة على الجميع من باب اطلاق الجزء على الكل، أو لأهمية التوراة. نسبتها إلى موسى»[١].

وقـــيل إن «العهـــد القديم» - تناخ -[٢] هو مجموعة الأسفار التي جمعها رجال السهندرين الذي تأسس عقب رحلة أحفاد المرحلين إلى بابل الذين رغبوا في الهجرة إلى أورشـــليم بعـــد ســـقوط بابل على يد كورش الملك الفارسي سنة ٥٣٨ ق.م. وكان الســـهندرين مؤلفـــا من مائة وعشرين عضواً[٣].. وأول من أطلق لفظ العهد القديم هو بولس الرسول في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس[٤] والعهد القديم مقدس لدى اليهود ولدى المسيحيين[٥] وهو يتكون من ثلاثة أقسام:

القسم الأول - التوراة[٦].

وتعرف في العبرانية بـــ ((تورا)) وهو علم يدل على الوحي الذي نزل على موسى - عليه السلام - وهو قول الشافعي رحمه الله، ومنهم من قال من الوري أي الزند يرى

---

(١) انظر اليهودية - شلبي ص٢٣٠.

(٢) مصـــطلح تناخ مأخوذ من الحروف الاولى لاقسام الكتاب الثلاثة - وهي التوراة - الأنبياء - الكتب المقدسة - الأخبار.

(٣) تأريخ الديانتين - الساموك ص٣٥. نقلاً عن عرفان عبد الحميد.

(٤) انظر التوراة الهيروغليفية - اصحاح ٣/١٤.

(٥) انظر اليهودية - شلبي ٢٣٠.

(٦) انظر بنو إسرائيل - طنطاوي ١/٨٣-٨٤.

وريـــا إذا خرجـــت ناره أي ان التوراة ضياء ونور معتمدا على قوله تعالى ﴿**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور**﴾ وهذا رأي الفرّاء. أما القاسمي في تفسيره ٧٤٩/٤ فقد قال بان التوراة اسم عبراني بمعنى «الشريعة» وهذا هو الصواب كما نص عليه علماء الكتابين في مصنفاتهم[١] وهي تشمل خمسة أسفار هي:

أولاً: ســـفر الـــتكوين او الخليقة Genese – ففيه قصة تاريخ العالم منذ تكوين السموات والأرض وحتى إستقرار أولاد يعقوب أو إسرائيل في أرض مصر.

ثانـــياً: ســـفر الخروج Exode – فيعرض تاريخ بني إسرائيل في مصر ثم خروج موســـى مع قومه إلى سيناء ورحلة التيه التي قضوها في الصحراء والتي استغرقت أربعين عاماً والتي ذكرها القرآن[٢].

ثالــثاً: سفر اللاويين Kevltyues – فيتناول شؤون العبادات ولا سيما ما تعلق منها بالأضحية والقرابين والمحرمات من الحيوانات والطيور.

رابعاً: سفر العدد Nombres – ومعظمه إحصائيات لقبائل بني إسرائيل وجيوشهم وأموالهم وكثير مما يمكن إحصاؤه من شؤونهم من العبادات والمعاملات وغيرها.

خامســاً: سفر التثنية Deuteronome – ويضم أحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحروب والسياسة وشؤون الاقتصاد والمعاملات والعقوبات والعبادات وغيرها[٣].

القسم الثاني – الأنبياء:

وهي نوعان:

الأول – أسفار الأنبياء المتقدمين وتشمل الأسفار الآتية:

(١) – سفر يشوع. (٢) – سفر القضاة.

(٣) – سفر صموئيل الأول (٤) – سفر صموئيل الثاني.

(٥) – سفر الملوك الأول. (٦) – سفر الملوك الثاني.

---

(١) انظر تأريخ الديانتين – الساموك وعليان ٣٦.

(٢) قال تعالى: ﴿**فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض**﴾ المائدة/٢٦.

(٣) تاريخ الديانتين – الساموك وعليان ص٣٦.

الثاني – أسفار الأنبياء المتأخرين – وتشمل الأسفار الآتية:

(سفر أشعيا – أرميا – حزقبيال – هوشع – يوئيل – عاموس – عوبديا – يونان – ميخا – ناحوم – حيقوّق – صفنيا – حجّي – زكريا – ملاخي)[1].

القسم الثالث – الكتابات:

وهو على ثلاثة أنواع:

الأول – الكتب العظيمة – وتشمل الأسفار الآتية:

١- المزامير: الزبور. ٢- الأمثال (مثال سليمان). ٣- أيوب.

الثاني – المجلات الخمس – وتشمل الأسفار الآتية:

الأناشيد – راعوث – المراثي (مراثي أرميا) – الجامعة – أستير.

الثالث – الكتب – ويشمل الأسفار الآتية:

دانيال – عزرا – نحميا – أخبار الأيام الأول – أخبار الأيام الثاني[2].

وتجمع المصادر على إن اليهود أعادوا كتابة التوراة على النحو الذي هو قائم الآن في منفى بابل بين ٥٨٦-٥٣٨ قبل الميلاد حيث فجرت العنصرية على الحقد والكراهية للعالم وانبعثت منها الصهيونية بمعنى التطلع السياسي الديني إلى العودة إلى أرض الميعاد وتأسيس دولة داود فيها جغرافياً وسياسياً ومادياً.

لقد أعاد اليهود كتابة التوراة على النحو الذي رسموه في منهجهم وأخلاقهم وجعلوها منطلقا لهذا الهدف.. معارضا أساساً للتوراة الموحى بها – إلى موسى – على أساس تتريه بني إسرائيل من العيوب، وجعلوا وجهة نظر اليهود للانسانية، كلها على أساس العنصرية بحيث تأخذ موقف العداء لكل من يخالفهم في اعتقاداتهم[3].

---

(١) اليهودية – أحمد شلبي ص٢٣٠.

(٢) اليهودية – شلبي ص٢٣١.

(٣) المخططات التلمودية الصهيونية اليهودية في غزوا الفكر الاسلامي – انور الجندي ص١٩ – دار الاعتصام الطبعة الثانية ١٩٧٧.

وتقول المصادر الحديثة للدراسات الخاصة بالتوراة.. إن التوراة الموسوية كانت قد فقـــدت من المجتمع اليهودي لعدة قرون بحيث صار من المحتمل أن يكون نصفها الذي كتبه عزرا (عزير عند العرب) مختلفا جدا عما نزل على موسى، فبين الرجلين ما يقرب ألف سنة من الزمان.

بل إن الأغلب إن العبريين بعد موسى لم يحتفظوا من ذكراه بشيء فأضاعوا الرجل واضـــاعوا مواريثه بحيث مرت أجيال لا يذكره منهم أحد ولا يعرفون حتى مكان قبره. هذا فضلاً عن أن اللغة العبرية لموسى تختلف عن نصوص العهد القديم الذي كتبه عزرا.

وتشـــير الأبحاث إلى أن القسيس الفرنسي «رتشارد سيمون» وضع عام ١٦٧٨ مؤلفـــا مبـــتكراً في نقد التوراة عنوانه (تاريخ انتقادي للعهد القديم) أشار إلى أن العهد القـــديم كما هو متداول معروف يعتمد على مخطوطات ترجع إلى القرون الوسطى وان كثيرا منها ذات مصدر مجهول أو مشكوك فيه. وان النساخ من الرهبان قد أدخلوا فيها كثيراً من الأخطاء والتحريفات.

وأشار الباحثون كذلك إلى إن النتائج التي حققتها العلوم الحديثة والعلوم الطبيعية قـــد أثبتـــت خطأ وزيف كل ما أوردته التوراة من معلومات عن عمر الأرض وفلك الشمس والجنس البشري وأصل الإنسان وان التوراة في نظر هؤلاء الباحثين لم تعد أكثر مـــن أثـــر أدبي وليس من كلام الله المنـــزل وإنما كتبت وفق أهواء اليهود ومطامعهم ورسمت طريقتهم في الحياة إلى آخر الدهر[1].

وبعـــد.. فإن التوراة تقع في ١١٢٨ صفحة، وحجمها يقارب أربعة أضعاف حجم القـــرآن الكريم وان من يقرأها يجد ثلاثة أرباعها حروباً ومعارك دامية وسفك دماء ومجازر رهيبة من حرق وإبادة وتمثيل وقتل بالفؤوس ونشر الخصوم بالمناشير وهتك للأعراض.

يـــتعرض لذلك خصومهم الغرباء واليهود أنفسهم في حروب الإبادة مع بعضهم البعض. ولو أحصي مجموع القتلى في توراقم لبلغت الملايين. قتل إبادة واستئصال. أما

---

(١) المصدر السابق ص٢٣-٢٤.

الـــربع الآخر من التوراة فنصفه مجون واستهتار وغزل وتحدث بالزنا والدعارة ووصف لجسد المرأة والرجل وقصص أقرب إلى الخيال منه إلى التصديق عن الزنا بالمحارم. ودور الأنبياء ورجالهم المقربين إلى الله في ذلك. أما ثُمن التوراة وهو النصف الثاني من الربع، فيتحدث عن الخليقة والتكوين وقصص مقبولة عن الأنبياء والملوك ووصايا خليقة ولكنها موجزة ومتناثرة وتتضاءل وتفقد قيمتها إزاء الإباحية وحروب الإبادة ومواقف أنبيائهم المخجلة كذباً عليهم وكفر بني إسرائيل وطرد الله إياهم من رحمته(١).

الإسلام والعهد القديم:

يعـــترف الإسلام بالتوراة التي أنزلها الله على موسى ولا يعترف بسواها من أسفار العهـــد القـــديم. قال تعالى ﴿**الله لا اله إلا هو الحي القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس**﴾ (آل عمران/٢-٣).

وقال تعالى ﴿**ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً**﴾ (هود/١٧).

وفيما عدى ما أنزله الله على موسى فإن الإسلام لا يعترف به. فسفر يشوع والقضاة والملـــوك، ليســـت من الكتب المقدسة في نظر الإسلام والأنبياء السبعة عشر الذين لم يرد ذكرهم في القرآن هم أنبياء في نظر اليهود وزعمهم الذي ما أنزل الله به سلطاناً(٢).

وسؤال يطرح نفسه: يا ترى أين هي التوراة التي أنزلها الله على موسى؟.

ويجيبـــنا القرآن الكريم على هذا التساؤل بأن اليهود أهملوا بعضها فضاع وحرّفوا بعضاً على نحو ما أرادوا. قال تعالى ﴿**يحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكّروا به**﴾ (المائدة/١٣).

وقال تعالى ﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون**﴾ (البقرة/٧٥).

---

(١) الوعي الاسلامي من مقالة للاستاذ عابد توفيق الهاشمي - بعنوان الفضائح الكامنة بين دفتي التوراة ص ٥٢ من العدد ٣٢ السنة ٣ عام/١٩٦٧.

(٢) اليهودية - شلبي ص٢٤٨ بتصرف.

وفي الذكر الحكيم ما يوضح أن القرآن الكريم حوى الأصول الصحيحة التي جاءت بها الأديان السابقة. قال تعالى ﴿**شَرَعَ لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾ (الشورى/١٣).

يقول المفسرون (إن الله شرع للمسلمين ديناً يحوي ما جاء به الأنبياء من نوح وعيسى)[١].

وقال تعالى ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه**﴾ (المائدة/٤٨).

وقالوا في تفسير هذه الآية «إن القرآن هو الصورة الأخيرة لكتاب الله الواحد.. الأصل والوجهة، المساير لحاجات البشر، حتى إذا كشف الناس عن الحقائق الكبرى التي تقوم عليها أسس الحياة، انقطع الوحي ليتصرف العقل البشري في حدود تلك الحقائق الكبرى بلا خوف من الزلل ما دام يرعى تلك الحدود، ومن ثم فكل الحكم يجب - أن يرجع إلى هذا الكتاب الأخير الذي يتضمن الباقي من شريعة الله كلها في كل الكتاب - ويضعها في الصورة الأخيرة الباقية إلى يوم القيامة»[٢].

أما عن كتاب العهد القديم الذين تنسب إليه أسفاره فيقرر الأستاذ أحمد شلبي أن «الحقيقة في هذه التسمية غير صحيحة، وان الذين نسبت إليهم الأسفار أو أكثرهم لم يكتبوها ولم يكتبوا حرفاً منها، بل إن بعض من نسبت إليهم الأسفار ليس لهم وجود في التاريخ، وإنما وضعت قصصهم وضعاً، ولهدف معين، وبعض الأسفار ليست في الحقيقة إلا أساطير وأغنيات شعبية لصقها الكتاب ببعض الأنبياء من اليهود» وقال «وحقيقة القول إن اليهود بعد أن انحرفت اعتقاداتهم وطباعهم تخلصوا من أسفار موسى الحقيقية لأنها كانت تختلف عما باشروا من طباع وخلق، وكتبوا سواها مما يتناسب مع ما يريدون من تاريخ ومن عقيدة»[٣].

---

(١) انظر الكشاف - للزمخشري /٤٨٥.

(٢) في ظلال القرآن - سيد /٦-٦٦.

(٣) اليهودية - أحمد شلبي ص٢٥١ وما يليها وقد أورد أدلة على ذلك.

ويقــــرر الباحث العلامة «ول يورانت» أنه لم يبق لدينا من شريعة موسى سوى الوصايا العشر..[1].

أما عن مصادر العهد القديم فسوف لا نتحدث عنها لعدم الحاجة إليها، ولكن لا بـــأس هـــنا من التنويه باختصار إلى إن (الوحي ليس هو المصدر الحقيقي لأسفار العهد القـــديم، وإنما هو أولاً ما سمعه وتلقاه كهنة اليهود من أخبار وأساطير وأقوال وما كان يجـــيش في صدورهم وعقولهم من خيالات وأوهام يتخذ صور الحقائق المقررة كما جاء مـــثل هذا في سفر صموئيل الإصحاح الثامن الفقرة الثالثة من أن داود قد ذهب ليسترد سلطته عند نهر الفرات)[2].

ومـــنها ثانياً (أساطير الجزيرة العربية التي كانت معينا غزيراً لأسفار العهد القديم)[3]. ومنها ثالثاً تشريع حمورابي الذي نجد فيه شبهاً شديداً بينه وبين القوانين اليهودية ومنها رابعاً المأثورات الفارسية التي أخذت من الفكر البابلي كما يؤكد هذا الدكتور العقاد)[4].

ومن المصادر المهمة خامساً للأسفار قرارات المحافل الماسونية فعلى مرّ التاريخ كان زعماء اليهود يدفعون بقراراتهم لتصير جزءاً من الأسفار المقدسة[5].

وبعد.. لقد كان هدفهم من كتابة التوراة تحقيق غرضين رئيسيين..

أولهـــا.. تمجيدهم لأنفسهم ليكونوا صفوة الأقوام البشرية والشعب المختار الذي اصطفاه الرب من دون بقية الشعوب، ولتحقيق ذلك كان لا بد من إرجاع أصلهم إلى أقـــدس شخصـــية قديمة، أي شخصية إبراهيم الخليل عليه السلام وقد حالفهم الحظ في سرد تـــاريخهم حسب أهوائهم مسبغين عليه صبغة دينية ليضمنوا قبوله من اتباعهم فأرجعوا تاريخهم إلى إبراهيم الخليل وإلى حفيده يعقوب إسرائيل.

---

(١) قصة الحضارة - ول ويورانت ٢/٢٧١.

(٢) اليهودية - شلبي ص٢٥٦.

(٣) قصة الحضارة ٢/٣٦٨.

(٤) كتاب الله - عباس العقاد ص١١٧.

(٥) انظر الصهيونية والماسونية - عبد الرحمن سامي ص٦١.

وابتدعوا فكرة الشعب المختار والتي أصبحت عقيدة المسيحيين فيما بعد يقول العهد القديم (أما انتم فجنس مختار، أمة مقدسة شعب اقتناء.. الذين قبلاً لم يكونوا شعبا وأما الآن فانتم شعب الله)(١)..

وجعل اليهود من تاريخهم الموضوع الرئيس الذي تدور حوله جميع الحوادث الواردة في التوراة فعدّهم التوراة موجودين في كل الادوار التي سبقت ظهور يعقوب(عليه السلام) إلى عالم الوجود أو الأدوار التي حدثت بعد أربعمائة وخمسين عاما ونسبت كل الذين دخلوا إلى ديانة موسى(عليه السلام) في عهد الملوك والانقسام وزمن الترحيل البابلي إلى بني إسرائيل(٢).

أما الهدف الثاني.. فهو جعل فلسطين وطناً لهم لتكون مطالبتهم بها صيغة دينية شرعية فجعلوا من ميثاق منح الرب أرض كنعان إلى إبراهيم (عليه السلام) وذريته إذنا لهم بإبادة الكنعانيين هم وأطفالهم وشيوخهم ونساؤهم ليحلوا محلهم وكذلك إبادة جميع أعدائهم على مرّ الزمان.. ولقد كان إسماعيل من ذرية إبراهيم أيضاً فلماذا تقتصر التوراة على عقيدة منح الأرض إلى إسحاق وأولاده دون إسماعيل (عليه السلام)؟..

أليس ذلك دليلاً على إن كتبة التوراة قد اخترعوا هذا الوعد ليجعلوا من أرض فلسطين.. موطناً لهم؟(٣).

---

(١) انظر رسالة بطرس الرسول ٢/٩-١١.

(٢) انظر تأريخ العرب واليهود في التأريخ-لأحمد سوسة ص٩٠.

(٣) تأريخ الديانتين - رشدي عليان والساموك ص١٧-١٨ بتصرف - قلت لم أتعرض للقسم الثاني من الكتاب المقدس والذي هو العهد الجديد - باعتباره ليس من كتب اليهود وإنما هو اناجيل النصارى التي حوت ما له علاقة بما جاء به عيسى عليه السلام وينقسم العهد الجديد إلى اناجيل اربعة قانونية وشرعية معترف بها من قبل كل المسيحين والاناجيل هي انجيل متي - ومرقص - ولوقا - ويوحنا.
وكان مؤتمر نيقية المنعقد سنة/٣٢٥م - قد أقر هذه الاناجيل وحرّم ما يربو على الثلاثمائة انجيل آخر - كان من أهمها انجيل برنابا الذي بشر برسول الله ﷺ باسمه وصفاته ومخرجه.
ثم أقرت الكنيسة عام/٣٦٤م - مجموعة من رسائل الحواريين لتطلق عليها اسم رسائل الرسل وتضمها إلى الاناجيل الاربعة ليتشكل منها العهد الجديد من الكتاب المقدس - انظر المسيح في مصادر العقائد المسيحية ١/١٥.
وهناك ما يسمى رؤى يوحنا اللاهوتي التي تتألف من اثنين وعشرين اصحاحاً وقد جعل آخر قسم من اقسام العهد القديم - انظر تاريخ الديانتين الساموك وعليان ص٢٥.

ثانياً: (التلمود):

وهـــو المصدر الثاني من مصادر الفكر والاعتقاد اليهودي وهو «عبارة عن الوصايا التي كتبها الأحبار.. ويعتقد اليهود إن العهد القديم أي «الناموس المكتوب» ناقص ومبهم في كثير من المواضيع ولا يكون اليهودي عندهم مؤمنا كاملاً إذا صدق بالتلمود»[1].

ويوجد مؤلف في تفسير التلمود اسمه «الكتر المرصود في قواعد التلمود» للدكتور «روهلنج» وهناك مرجع آخر وثيق الصلة به وهو «التلمود شريعة إسرائيل»[2].

ما هو التلمود؟

قلـــنا إن الـــتوراة ليست إلا جزءاً من الكتاب المقدس. وان هناك روايات شفوية تناقـــلها الحاخامات من جيل إلى جيل وتلك الروايات هي التي تعرف بـــ«التلمود».. وبعـــد المســـيح بمائة وخمسين سنة خاف أحد الحاخامات المسمى «يوضاس» أن تلعب أيـــدي الضـــياع بهذه التعاليم الشفوية وتلك الروايات المتناقلة فجمعها في كتاب سماه «المشـــنا» ومعـــنى كلمة «المشنا» الشريعة المكررة لان المشنا تكرار لما ورد في توراة موسى، وليس المشنا ايضاحاً وتفسيراً وتكميلاً لهذه الشريعة.

واستعصـــت المشـــنا على بعض القراء فأخذ علماء اليهود يكتبون عليها حواشي كثيرة وشروحا مسهبة، سميت هذه الحواشي وتلك الشروح باسم «جمارا».

ومـــن المشنا والجمارا يتكون التلمود، فالتلمود تعليم ديانة اليهود وآدابهم.. ويعتبر أكـــثر اليهود التلمود كتاباً منزلاً ويضعونه في منزلة التوراة ويرون ان الله أعطى موسى التوراة على طور سيناء مدونة ولكنه أرسل على يده التلمود شفاهاً..

ويعتقد اليهود «إن التلمود التي هي أقوال الحاخامات هي قول الله الحي، وأن الله يستشـــير الحاخامات عندما توجد مسالة معضلة لا يمكن حلها في السماء، وإذا خالف أحد اليهود أقوال الحاخامات يعاقب اشد العقاب، لأن الذي يخالف شـــريعة موســـى

(١) راجع المخططات التلمودية – انور الجندي ص٢٥ وما بعدها بتوسع – فان فيها احاطة.

(٢) انظر اليهودية – أحمد شلبي ص٢٥٦. وانظر الكتر المرصود ص٢٩.

خطيئته قد تغتفر، أما من يخالف التلمود فيعاقب بالقتل»[1].

---

(١) انظر بتوسع كتاب اليهودية - أحمد شلبي ص٢٦٦ للأستزادة في شأن التلمود وكذلك خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية - لعبد الله التل ص٦٩-٧٦.. قلت ان البعض يعدُّ بروتوكولات حكماء صهيون من كتبهم غير الها ليست كذلك..

«..فان البوتوكولات معناها محاضر جلسات ويسميها بعض الباحثين «قرارات».. وتدل الظواهر على وجود علاقة زمنية بين هذه البروتوكولات وبين نهاية القرن التاسع عشر وعلى ارتباط بين هذه البروتوكولات وبين مؤتمر «بال الذي عقد سنة ١٨٩٧». حيث يرى بعض الباحثين أن هذه البروتوكولات كانت القرارات السرية لمؤتمر بال، أما القرارات العلمية فهي التي أعلنت عن ضرورة قيام دولة لليهود في فلسطين.

ومرجع هذا الفهم ان هذه البروتوكولات عبارة عن مؤامرة شريرة ضد البشرية..«فالبروتوكولات تقرير بالنسبة لواضعيها، ومحاضر بالنسبة لعرضها على المؤتمرين في جلساهم، وقرارالهم بالنسبة لقبولها وتأييدها».

وكانت هذه البروتوكولات مودعة في مخابئ سرّية لا يعرف محتوياتها الا الخاصة من اليهود والذي يعملون على تنفيذ ما جاء بها بهدوء وحسب تخطيط منظم.. وفي سنة - ١٩٠١ - استطاعت سيدة فرنسية مسيحية كانت تربطها علاقة بزعيم صهيوني كبير وفي اجتماع في وكر الماسونية بباريس ذعرت هذه السيدة عندما وجدت هذه القرارات واستطاعت ان تختلس بعضها وتخرج بها من هذا الوكر.. وقد وصلت هذه الوثائق إلى رجل يهمه أمرها هو «اليكس نيقولا نيفتس» كبير أعيان روسيا القيصرية، فسلمها إلى صديقه الاستاذ «سرجي نيلوس» الذي نشرها في عام - ١٩٠٢ باللغة الروسية.

وعدد هذه البروتوكولات أربعة وعشرون برتوكولاً غير دقيقة التأليف وبها كثير من التكرار حتى لكأنها محاضر جلسات، وليست نص تقرير قدم لهذه الجلسات ولا محاضر الجلسات.

وهدف هذه البروتوكولات «إقامة وحدة عالمية تخضع لسلطان اليهود وتديرها حكومة يهودية».

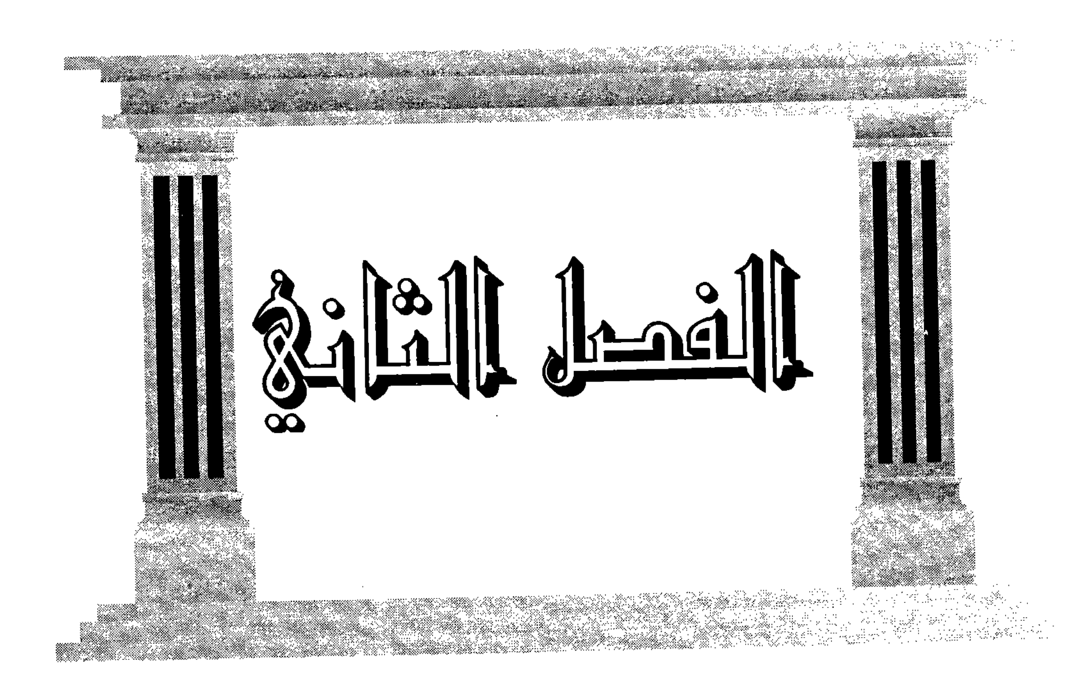
ومن أجل ذلك يمكن تقسيم البروتوكولات إلى قسمين كبيرين هما:

١) القسم الأول - في موقف اليهود من العالم قبل تحقيق هدفهم.

٢) القسم الثاني - في موقف اليهود من العالم بعد ان يصبحوا اصحاب السلطان عليه.

وبناء على هذه العقيدة يرى اليهود أن العالم لم يخلق إلا لهم ومن حقهم استعباده وتسخيره، وليس لغيرهم إلا السمع والطاعة والرضا والقناعة بما يجود به عليهم.

ويرى اليهود في المرحلة الأولى ضرورة تمزيق الأوطان، والقضاء على القوميات والأديان، وإفساد نظم الحكم في كل الأقطار بإغراء الملوك وسائر الحكام باضطهاد الشعوب، وإغراء الشعوب بالتمرد على السلطة ونصوص القانون.. وترسم البروتوكولات لليهود أن يهتموا في هذه المرحلة بنشر المذاهب المختلفة، وأن يختلف اتجاه الناس في مكان آخر وفي زمان غيره فهم يعملون على نشر الشيوعية أحياناً والرأسمالية أحياناً أخرى ويحرصون على أن ينشروا الإباحية والفوضوية ويعملون على تقويض صلات الود، ويدفعون الناس للشهوات والانحلال والبعد عن كل القيم الإنسانية..» يراجع كتاب اليهودية لأحمد شلبي ص٢٧٢-٢٧٤ للاستزادة.



سورة الإسراء

بين الحقائق والقواعد والأصول التفسيرية

المبحث الأول

سورة الإسراء

بين الحقائق القرآنية والقواعد التفسيرية

المطلب الأول:

ثلاث حقائق لها علاقة بسورة الإسراء

المطلب الثاني:

ثلاث قواعد تفسيرية بين الإهمال والتعسف

المبحث الأول

سورة الإسراء

بين الحقائق القرآنية والقواعد التفسيرية

... تنبيه...

لاحظت من خلال دراستي لهذه الآيات من سورة الإسراء اختلالاً في تطبيق بعض القواعــد التفسيرية التي قعّدها المتقدمون من علماء اللغة والتفسير.. وقد أدى هذا الخلل فيما أرى إلى عدم إعطاء تصور واضح عن مرامي واهداف النص القرآني عند كثير من المفســرين مما أدى بالنتيجة إلى عدم الوصول إلى فهم صحيح لكثير من الآيات القرآنية وعدم الوقوف على تفسيرها التفسير المقنع والمرضي والذي جاءت – وتجيء – الوقائع التأريخية مؤيدة له من قريب أو بعيد وتلك قضية لها علاقة وثيقة بإعجاز القرآن فكل ما أخبر عنه وما أنبأ فيه قد جاء ويجيء دائما كما أخبر وأنبأ مما يدل دلالة واضحة أنه من عند الله الذي يعلم ما كان وما سيكون وما هو كائن عالم الغيب والشهادة.

وعليه فسأحاول هنا في هذا المبحث التمهيدي أن أبين هذا الخلل واعرض بالذكر لأهم القواعد التفسيرية التي ينبغي للباحثين والدارسين الالتزام بها من اجل الوصول إلى فهــم أمثل وتصور أكمل لمعطيات النص القرآني المتعلق بإفسادي بني إسرائيل الوارد في سورة الإسراء.

وعليه فسيكون هذا المبحث من مطلبين اثنين:

المطلب الأول: ثلاث حقائق لها علاقة بسورة الإسراء.

المطلب الثاني: ثلاث قواعد تفسيرية بين الإهمال والتعسف.

المطلب الأول

ثلاث حقائق لها علاقة بسورة الإسراء

الحقيقة الأولى:

التعامل مع النسب في الطرح القرآني:

هناك حقيقة هي من الأهمية بمكان.. هي قضية التعامل مع النسب في القرآن الكريم، لأن هذه النسب على درجة عالية من التوازن والتوقيت سواء أكان ذلك على مستوى الناس أم على مستوى العصر أم على مستوى الفكرة التي تطرح على الناس في عصر أو مكان ما...

هذه قضية كان ينبغي أن تكون بديهية واضحة غير أنها ليست كذلك..

فإذا ما أتينا إلى ما نحن بصدده من إفسادبني إسرائيل وحققناه وجدنا أن النسبة - العالية - من إفسادهم في السور المكيّة هي الحديث عن الإفساد الماضي بكلّ ميادينه ومراحله.. إذ كانت الآيات تترل لتخبر النبي ﷺ بما كان من فسادهم في ماضي الزمان وغابره.. ولتقول لرسول الله ﷺ لقد فعل بنو إسرائيل كذا.. لقد كفروا بالله وعبدوا العجل، وقتلوا الأنبياء، وحرفوا التوراة، واشتروا بها ثمناً قليلاً.. وو... وكأنها كانت تريد أن تقول لرسول الله وللأمة (اعرف عدوك واحذره فإنك ستجابهه) وكان كل هذا قبل أن يهاجر... وقبل أن يتصل بهم أو يعايشهم أو يتعرض لهم...

لكن... لما هاجر ﷺ إلى المدينة وبدأت السور المدنية تترل عليه.. تغيرت نسبة الحديث عن إفسادبني إسرائيل[1].. فلم تعد الآيات تترل لتخبر النبي ﷺ عن فسادهم

(١) مثلاً - إن النسبة العالية في السور المكية في تلك الفترة التي عاشها المسلمون في مكة كانت قضية توحيد الله سبحانه وإفراده بالربوبية والألوهية والإيمان به وبرسوله ﷺ والكفر بما سواه من الالهة المزعومة.. فكانت لهذه القضية الثقل الغالب في السور المكية بينما نجد بعد الهجرة وبعد ما شرع القتال والجهاد كانت النسبة العالية في حديث القرآن هي قضية الجهاد.. عشرات الآيات تنزل لتتحدث عن معركة بدر وأخرى عن معركة أحد حتى في حالة الهزيمة.. لماذا ؟ لأن النسبة التي كان ينبغي لها أن تكون عالية في تلك الفترة أو المرحلة إنما هي نسبة الحديث عن الجهاد... وهكذا...

الماضي إلا إذا اقتضى الأمر من باب التذكير والتحذير.. وانما كانت تترل لتوجه النبي ﷺ كيف يعمل وكيف يواجه إفسادهم الذي تولوا كبره في المدينة وكيف يتصدى لهم ويرد على تشكيكهم ويفضح ماكتموه من التوراة سواء في الإقرار بالحق الذي ألبسوه بالباطل أو بالاعتراف به رسولا بشّرت به كتبهم..

إن الآيـــات في السور المدنية كانت تخوض مع النبي ﷺ ضد بني إسرائيل وغيرهم معركة حامية الوطيس سواء في عالم السلوك والواقع..

كانـــت الآيات تقول للنبي ﷺ: ﴿**قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله..؟**﴾ آل عمران / ٧٠.

وكانت تقول له: ﴿**قل يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً**﴾ آل عمران /٩٩.

وكانت تقول له: ﴿**سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة**﴾ البقرة /٢١١.

وتقـــول لـــه قل لهم: ﴿**يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وأنتم تعلمون**﴾ آل عمران/٧١.

بل كانت تنـــزل بالأجوبة الدامغة والقاطعة لكل ما كان يصدر منهم من أسئلة[1] وشـــبهات[2] وتصفهم بصفات لا يستطيعون ردها كقوله تعالى: ﴿**سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها**﴾ البقرة/١٤٢.

إنهـــا مجاهـــة لما كان منهم من إفسادأحدثوه مع رسول اللّه ﷺ وفي عصر الرسالة زادوه إلى رصيدهم السابق من إفسادالماضي حتى تبين لكل ذي علم أنه امتداد لفسادهم القـــديم دون أدنى شـــك، ولعل هذا مايوضح سرّ خطاب القرآن لهم بصيغة المخاطب

---

(١) كسـؤال عـن الـروح لإحراج النبي ﷺ فنـزل قوله (ويسألونك عن الروح.. الآية) انظر القرطبي (٣٢٣/١٠) وانظر فتح الباري /٥١١/٨.

(٢) كبـثهم شبهة تحريم بعض الطعام فترل قوله (كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل) ولشبهتهم في جماع الـرجل لزوجته من الخلف في موضع الزرع قال تعالى (نساؤكم حرث لكم) البقرة /٢٢٣ انظر فتح الباري (٢٤٢/٨).

الحاضر وهو يعنفهم على إفساد ماضٍ كان من أجدادهم كقوله تعالى: ﴿ **وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها**﴾ البقرة/٧٢.

﴿**ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون**﴾ البقرة/٩٣.

فلا جرم أن تنزل الآيات توجه الأمة إلى حقيقة ما عليه اليهود والنصارى فلا تُخدع بما يظهرونه ﴿**ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً**﴾ البقرة/ ١٠٩. وتدعوها إلى المقاطعة والمفاصلة ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء**﴾ المائدة/ ٥١.

إذن فالنسبة عالية في حديث السور المدنية عن إفسادبني إسرائيل هو الحديث عن إفسادهم الحاضر.. المعاصر للنبي ﷺ في الوقت الذي كان الحديث في السور المكية هو الأخبار عن فسادهم الماضي.

بينما لم تتحدث عن مستقبل إفسادهم إلاّ سورة واحدة - مكيّة - هي سورة بني إسرائيل - كما سيأتي إثبات ذلك - والتي كان ترتيبها الخمسين على ما أورده الزركشي في البرهان[1]..

الحقيقة الثانية:

المفهوم القرآني بين الماضي والمستقبل:

إن هذا القرآن (لم يجيء ليكون كتاب متاع عقلي ولا كتاب أدب وفن.. ولا كتاب قصة وتأريخ.. وإن كان هذا كله من محتوياته وإنما جاء ليكون منهاج حياة.. منهاجاً إلهياً خالصاً.. وكان الله سبحانه وتعالى يأخذهم بهذا المنهج مفرقاً يتلو بعضه بعضاً.. ﴿**وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مُكثٍ ونزّلناه تنزيلا**﴾ الاسراء/ ١٠٦.

لم ينزل هذا القرآن جملة.. وإنما نزل وفق الحاجات المتجددة ووفق النمو المطّرد في الأفكار والتصورات... والنمو المطّرد في المجتمع والحياة.. ووفق المشكلات العملية التي تواجهها الجماعة المسلمة في حياتها الواقعية.. وكانت الآية أو الآيات تنزل في الحالة

(١) انظر البرهان في علوم القرآن - للزركشي (١/١٩٣ - ١٩٤).

الخاصة والحادثة المعينة تُحدّث الناس عما في نفوسهم.. وتصور لهم ما هم فيه من الأمر.. وترسم لهم منهج العمل في الموقف.. وتصحح لهم أخطاء الشعور والسلوك.. وتربطهم في هذا كله بالله ربهم.. وتعرفه لهم بصفاته المؤثرة في الكون.. فيحسون حينئذٍ أنهم يعيشون مع الملأ الأعلى.. تحت عين الله.. في رحاب القدرة ومن ثم يتكيفون في واقع حياتهم، وفق ذلك المنهج الإلهي القويم)[1].

فليس عبثاً إذن أن يترل القرآن على ترتيب معين.. وحاشاه وهو كلام الله.. وإنما وفق منهج مرسوم وحكمة يعلمها الله.. وربما تكشف لنا بعض آثارها..

ومن آثارها أنك تجد أن هذه القلة من الأولين كانوا قبل إسلامهم ـــ أُميّين ـــ ما درسوا.. ما كانوا يدرون ما الكتاب وما الحكمة.. بل إنهم كانوا في ضلال وصفه القرآن بأنه – مبين – فقال تعالى: ﴿**هو الذي بعث في الأُميّين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين**﴾ الجمعة/٢.

لم تكن لهم ثقافات ولا حضارات على الرغم من إحاطتها بهم.. بل إنهم كانوا متفرقين هنا وهناك بين شعاب الجبال ومفازات الصحراء بحيث أنهم لم يصلوا إلى حالة يطمع فيهم من سواهم ممن أحاط بهم.. ومن ثم لم يحسب لهم أي حساب.

نزل القرآن على هذه الأمة ليزكيها ويربيها ويرفعها ويجمعها.. وينطلق بها ليعترض مسار التاريخ.. وليتصدى للأمبراطوريات ذات الحضارات.. فيأمرها وينهاها.. فإذا لم تستجب يسحق كبريائها بأقدام حافية قد عفّرها التراب... جهاداً في سبيل الله.. وبجباه عزيزةٍ بالحق الذي حملوا لواءه خلف النبي ﷺ.

فكان القرآن يضرب الأمثلة لهم من الماضي ليقول لهم وللدنيا من حولهم.. انظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلكم لما كفروا وظلموا !!!...

وانظروا كيف نصرنا الذين آمنوا ونجيناهم من عدوهم ومن كل سوء.. ﴿**وكذلك ننجي المؤمنين**﴾ الأنبياء/٨٨.

(١) معالم في الطريق، سيد قطب (ص/١٩) الكتاب الإسلامي /١٩٨٣.

وكان يضرب الأمثلة لمشركي مكة بعبدة الأصنام من قوم إبراهيم وعاد وثمود ويهود.. وكان يقول لليهود اذكروا.. ﴿**إذ نجّيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم**﴾ البقرة/٤٩.

كان في كلّ مرّة يوجه الأنظار إلى قضية معيّنة أو يعرض لهم صورة من صور ذلك التاريخ الذي أريد له أن يكون مادة حيّة للتربية والتوجيه.. والذي سنضرب له الأمثلة والصور للدلالة على أن الماضي لم يغفل وان المستقبل لن يترك.. وأن الحاضر كان له أساس بني على عين الله..

إن كل ما أشارت إليه السور المكيّة - إلاّ ما ندر منها[1] - إنما كان إخباراً عن إفسادبني إسرائيل الماضي والذي لم ينفكوا عنه حتى بعد مجيء الرسول الذي كانوا ينتظرونه والذي بشّرت به كتبهم وقد علموا صفته ومخرجه، وعلى الرغم من كل ما جاءهم من بينات وعلم، وصدق الله حيث قال: ﴿**لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين**[2] **حتى تأتيهم البينة**﴾ - والبينة هي- ﴿**رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة**﴾ البينة/١.

فليتهم آمنوا واهتدوا وانطووا تحت لواء التوحيد فكانوا أمة واحدة و لم يتفرقوا.. والعجيب أنهم ما تفرقوا ﴿**إلاّ من بعد ما جاءهم البينة**﴾ البينة/٤.

وكذلك فإن ما جاءت به السور المدنية إنما كان مواجهة - في الأغلب الأعم - لإفساد بني إسرائيل وانحرافهم عن هدى الله وهدي النبي ﷺ الذي كانوا قد أيقنوا بأنه هو النبي الذي وجدوه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

بينما لم تتحدث عن مستقبل إفسادهم - كما سنرى - إلاّ سورة بني إسرائيل.. فإنها السورة الوحيدة التي اختصت بالحديث عما سيؤول إليه إفسادهم في الأرض،

---

(١) كسورة المدثر والانعام والنمل - كما سيأتي بيانه ان شاء الله تعالى.

(٢) منفكين - قال مجاهد - منتهين حتى يتبين لهم الحق.. والبينة هي القرآن وقيل هي رسول الله ﷺ انظر مختصر ابن كثير (٦٦٣/٣).

وكـيف سيُتبرّ علوهم فيها تتبيراً على أيدي من سيكونون عباداً لله وحده دون سواه.. وأولي بأس شديد.

وعلى هذا فإن أصحاب القول الأول - أي القائلون بالتفسير بالمأثور - يحصرون هذه القضية في التاريخ القديم.. ويقولون أن الآيات جاءت لتخبر عن فترةٍ تاريخية مضت كـان لـبني إسرائيل فيها عدّة أدوار محصورة بين مبعث موسى ومبعث عيسى (عليهم السلام) وهذا ما تجده عن أغلب المفسرين.. رحمهم الله تعالى - حين فسروا هذه الآيات التي جاءت تبين وتحدد إفسادي بني إسرائيل في الأرض مرتين.. ولم يشيروا ولو من بعيد إلى أنهـا ربمـا كان لها علاقة بالواقع الذي كان يعيشه النبي ﷺ ولو حتى من باب قيل ويقال.. ولا حتى من قبيل الإخبار بالمستقبل في مجال الإعجاز القرآني وكأن القرآن ليس مـن أسـاليب إعجـازه أنه يتحدث عن المستقبل بلغة الماضي.. أو عن الحاضر بلغة المسـتقبل.. وكأن الله تعالى لم يحدثنا - في القرآن - عن شيء سيقع في المستقبل وربما بعد أن تنقضي الدنيا.. وكأنه قد وقع فأصبح من الماضي في حيز الذكرى.. فإن المستقبل ومـا سـيحدث فيه إنما هو عند الله كائن وواقع وإن لم يكن قد وقع بعد[1].. وليست القضية أكثر من زمن يحكم البشر بناموسه والله لا يحكمه ناموس الزمن ولا غيره..

وإنك لتجد أمثال هذا كثيراً في القرآن كقوله تعالى: ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ النحل/١.

فكـيف يقول لشيء «أتى» ثم يقول بعد ذلك «فلا تستعجلوه» أي لم يأتِ بعد ولكن سيأتي.. وقوله تعالى ﴿**واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا..**﴾ الزخرف/٤٥. فكـيف يسأل النبي رسلاً مضوا وقد كانوا قبله وهو خاتمهم وبينه وبينهم أمدٌ بعيد؟! ولعـل من أروع ما أورده القرآن في مجال الإخبار عن المستقبل وما سيحدث فيه حكاية القوم الذين كانوا في الجنة يتذاكرون ما كانوا فيه من أمر الدنيا وما كان موقف أصحابهم مـن قضية الإيمان ﴿**قال قائل منهم**﴾ وهم في الجنة «إني كان لي قرين» في الدنيا «يقول

---

(١) يراجع ما جاء في ظلال القرآن (١٥/١٦٩). فيما يخص هذا المعنى...

أإنك لمن المصدقين؟».. ويحكي قصة إنكاره للآخرة والجنة التي يتنعمون فيها.. ثم يطلب منهم أن يساعدوه في البحث عنه «قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرآه في سواء الجحيم» فناداه «قال تالله إن كدت لتردين.. ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين» معك ﴿**أفما نحن بميتين؟ إلاّ موتتنا الأولى؟ وما نحن بمعذبين؟**﴾ الصافات/٥١-٥٩.

نقلة واسعة عبر حدود الزمان والمكان بل عبر الدنيا الى الآخرة وهم لا يزالون في حيز الدنيا بعد.. فنقل صورة من صور المستقبل وهم لا يزال بعد في عالم الحاضر.

إن المفسرين - رحمهم الله - لما لم يجدوا شيئاً صحيحاً ولا ضعيفاً عن رسول ﷺ إلاّ حديثاً موضوعاً - كما رأينا[١] سابقاً - وأسندوه الى حذيفة بن اليمان به مرفوعاً الى رسول الله ﷺ في تفسير هذه الآيات.. ثم جعلوا التاريخ الماضي لبني اسرائيل هو الأصل الذي اعتمدوا عليه في تفسير هذه الآيات.

أقول إن أصحاب التفسير بالمأثور قد حصروا القضية-قضية إفسادى بني إسرائيل بالتاريخ القديم وهذا مالا يوافقهم عليه أصحاب القول الثاني على اعتبار أن وحي القرآن الكريم لا يجوز حصره وحجره في زاوية ضيقة من التاريخ ولا سيما إذا كان في غير الأمور الاعتقادية أي أنهم- بعبارة أوضح- قد حملوا النص القرآني على الأحداث التاريخية المنقولة عن بني اسرائيل بينما كان المفروض بهم أن يحملوا التاريخ عليه.. فالقرآن ينبغي أن يكون متبوعا لا تابعا فما وافق معطيات القرآن من حقائق التاريخ كان صحيحا وإلا فمردود..

ولقد حاولت بكل الجهد أن احصر نفسي وفكري في الخبر التاريخي الذي اتجهت إليه أنظار المفسرين الكرام حينما كانوا يعيشون في أفياء كتاب الله ويحاولون كشف معاني آياته وما ترمي إليه بما روي عن الصحابة ﷺ وعن التابعين في الوقت الذي كان فيه اليهود لا تراهم إلا في جحور الأرض وزوايا التاريخ المظلمة بكل الذلة والمهانة يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون.. فحين تعرضوا للآيات التي وردت في شان بني

(١) انظر تفسير الطبري (٢٢/١٥) وانظر ما قاله ابن كثير حول هذا الحديث (٢٥/٣).

إســـرائيل في سورة الإسراء نظروا لها كما نظروا إلى الآيات التي أخبرت عن إفساد بني إسرائيل في غيرها من السور ولا سيما المكية منها التي أخبرت عن فسادهم الماضي كما اثبتنا فقالوا إن الآيات في سورة الاسراء أخبرت عن اظهر مرتين فسد فيهما بنو اسرائيل في ذلـــك الماضي السحيق، ولان الشواهد كلها كانت تدل على أن لا مستقبل لهم في حـــياة بلا ذلة ولا يعطون الجزية فيها عن يدٍ وهم صاغرون بله أن يتصور أحدٌ أن بني اسرائيل سيعلون يوماً في الأرض علواً كبيراً وسيفسدون فيها مرتين وليس مرة واحدة.

فعجبت والتمست لهم عذراً فوجدت أن لهم أعذاراً في هذا تُبررُ ما ذهبوا اليه غير معيـــبٍ عليهم ولا طاعن فيهم وحاشاهم فهم أعلى من ذلك واجل.. فأعطيتهم الحق وقلـــت لو قدر الله لاحدهم ان يعود الى الدنيا ويرى واقع بني اسرائيل اليوم ويقارنه بما كان عليه حالهم في زمانه لقال غير ما قال ولاعتقد غير ما ظن...

الحقيقة الثالثة:

ما قاله المفسرون يعذرون فيه ويثابون عليه.

وهذه الأعذار أجملتها فيما يأتي:

١) عدم وجود شيء صحيح مأثور عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة فيما يخص تفسير هذه الآيات وإلاّ لما كان هناك قيل ويقال ولحسم عند المفسرين الأمر وقضي..

٢) وتـــبعاً لما تقدم فان المفسرين بالمأثور قد وقفوا دون شك أمام تلكم الآيات في حيرة لمعـــرفة هذين الإفسادين وهوية المبعوثين عليهم عقب كل إفساد ولّما لم يجدوا شيئاً صحيحاً عن رسول الله ﷺ ولا عن الصحابة يقطع عليهم هذه الحيرة ويشفي الغليل فكيف يصنعون والقرآن يقول ﴿**فسئلوا أهل الذكر**﴾ فسألوا من ظنوا أنه عنده علم من أهل الكتاب بهذين الإفسادين من باب الحرص على معرفة معنى الآيات وحب الاطـــلاع[1] على ما عند الغير ووافق ذلك دخول كثير من أهل الكتاب وإسلامهم ممـــن كان لهم سابق علم في أحداث ملتهم وما جرى على أبناء جلدتهم مما تناقلته

---

(١) انظر التفسير والمفسرون للذهبي (١/١٦٩-١٧٧).

الأحـــبار والرهبان والقصاصون فكانوا يجيبوهم بما سمعوا عن أحداث ذلك التاريخ ومـــا كان فيه من وعلى بني إسرائيل. فكان ان سوّدت صحائف كثيرة كانت فيما بعـــد كتباً كبيرة تتحدث عما جرى وكان في ماضي الزمان مما صح أو كان ظاهر البطلان. هذا من جهة.

٣) ومن جهة أخرى ان تلك الكتب قد كتبت في فترة زمنية[1] لم يكن لبني إسرائيل فيها أثرٌ في الحياة ذو بال.

فمـــن يبحث في كتب التاريخ عن أثر بني إسرائيل وعن قيمة وجودهم كأمة في الزمن الذي كتبت فيه تلك الكتب لا يجد فيها شيئاً يخبر عن حاضر بني اسرائيل ولا عن مســـتقبلهم في تلك الكتب نفسها. يعني - بعبارة أخرى - إن كتب التاريخ المشهورة حين كتبها أصحابها لم يكتبوا عنهم شيئاً في حاضرهم وإنما كل ما كتبوه هو اخبار عن ماضيهم وما كان فيه.

ولقد بحثتُ ذلك بنفسي وسألت فلم أجد شيئاً يذكر ولعل هذه سنة الله في الذين خلـــو من قبل، من الذين غضب الله عليهم فلم يبقي منهم شيئاً إلاّ ما يكون عبرة لغيره مـــن باب ﴿**لتكون لمن خلفك آية**﴾ يونس/٩٢ - أو ﴿**فجعلناهم احاديث ومزقناهم كل ممزق**﴾ سبأ/١٩.

لم يبقى منهم إلاّ من أختبأ في ظل الزمن الذي أكثروا فيه الفساد والإفساد.. وإلاّ من أختبأ في زوايا التاريخ الذي ضاق بهم ذرعاً..

وإلا مـــن كـــان على هامش الأحداث لا يبين وإذا بان فَمُهان، وهذه حقيقة لا ينكرها عاقل للأحداث او عالم بالتاريخ.. التاريخ الذي كان مشغولا عنهم بمن صححوا مساره والأحداث العظام لاتبالي بالمتساقطين والمختبئين في الجحور.. بلا عزة ولا نور.. وهي حالة من التقوقع اليهودي والنصراني في زوايا المعابد والكنائس يمرون بها كلما ظهر عليهم الحق.

---

(١) كتبت أهم كتب التاريخ في القرن الثاني والثالث كتاريخ الأمم والملوك للطبري المتوفي /٣١٠.

٤) ما ذكرناه كان وجها لحقيقة تاريخية ثابتة تكمن أهميتها في بيان الوجه الثاني لها، وهو أن المسلمين بعد نصر الله لهم وانتشار ألوية والهدى في المشارق والمغارب بعد ذلك الانفجار الإسلامي الذي هز الدنيا وأيقظ الناس فدخلوا في دين الله افواجا.. وأصبحوا يرون أن الإسلام له الصولة والدولة يأمر وينهي أنى اتجه وحيثما سار. بينما ظاهر حال اليهود، يوحي ولو على سبيل الافتراض، بأنهم لن تقوم لهم قائمة حتى يلج الجمل في سم الخياط.

وقد أمْسوْا أذلاء مبعثرين، قطعت أوصالهم وسحقت جماعاتهم، ومن بقي منهم فلكي يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. ثم بدا لهم من بعد ما رأوا أن الآيات في سورة الإسراء قد أخبرت عن ماضي بني إسرائيل ولم يخطر على بال أحدهم انه كان المقصود هو الإخبار عن المستقبل وما سيكون فيه.

ولربما كان أحدهم حين يرتقي صهوة المجد وينظر عبر الآفاق فلا يجد غير أعلام النصر للإيمان ترفرف فوق كل الدنيا التي اقتحم فيها المد الإسلامي لكل من خالفه ومن عاداه.. وبسط نفوذه على جوانب الأرض وبقايا الأديان فكان الناظر في الآفاق يجد الثقة واليقين بان الله مكّن لهذا الدين في الأرض فلا أمل ان تقوم لأعداء الله بعده قائمة أبداً.. كيف؟ وقد أورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم...

٥) إن بداية كتابة التفسير وتدوينه كانت[1] – ربما – مصاحبة لكتابة التاريخ تقريبا فالذين فسروا الآيات المتعلقة بماضي بني إسرائيل اعتمدوا على ما كتبه كتاب التاريخ في فترة تكاد تكون متقاربة فالمسعودي في مروج الذهب وابن جرير الطبري في تاريخه للأمم والملوك وابن الأثير في الكامل في التاريخ وغيرهم كانت كتبهم المصادر الأولية لمن فسر الآيات التي لها علاقة بإفساد بني إسرائيل وأخبارهم في ماضي الزمان..

وعن هذه القضية.. قضية إسناد القصص القرآني لكتب التاريخ يقول سيد قطب (أنه لا بد من الإقرار بعدم جواز محاكمة القرآن إلى التاريخ وذلك لسببين:

---

(١) انظر مراحل تدوين التفسير في كتاب التفسير والمفسرون للذهبي (١/١٣٠) ومما بعدها وانظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/١٩٠).

الأول: أن التاريخ مولود حديث العهد فاتته أحداث لا تحصى في تاريخ البشرية لم يعلم عنها شيئاً والقرآن يروي بعض هذه الأحداث التي ليس لدى التاريخ علم عنها - قبل تدوينه لبعضها..

الثاني: إن التاريخ.. وإن وعي بعض هذه الأحداث هو عمل من أعمال البشر القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف، ونحن نشهد في زماننا هذا الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص - أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يروى على أوجه شتى، وينظر إليه من زوايا مختلفة، ويفسر تفسيرات متناقضة.. ومن مثل هذا الكلام يصنع التاريخ.. مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق)[1].

ويقول في موضع أخر معللاً عجز البحث التاريخي على تغطية أحداث التاريخ (إن البحث التاريخي لا يملك القدرة المطلقة على سبر غور التاريخ البشري أو تغطيته الدقيقة الشاملة على امتداده في الزمان والمكان.. فالتاريخ مولود حديث جداً بالقياس إلى عمر البشرية وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة لا يعرف عنها شيئا فليس هو الذي يستفتى فيها)[2].

وفي رده على مدى الاعتماد على أخبار أهل الكتاب عن أحداث جرت واحتمال كونها مستقاة من التوراة قال (كان يمكن للتوراة كمصدر ديني - ان تكون مرجعاً يعتمد عليه في شيء من تلك الأحداث لو ان التوراة سلمت من التحريف والزيادات.. ولكنها أحيطت بالأساطير التي لاشك في كونها أساطير.. وشحنت كذلك بالروايات التي لاشك في أنها مزيدة على الأصل الموحى به من الله، فلم تعد التوراة - بذلك - مصدرا مستيقنا لما ورد فيها من القصص القرآني وإذاً فلم يبق إلا القرآن الذي حفظ من التحريف والتبديل هو المصدر الوحيد لما ورد فيه من القصص التاريخي)[3].

---

(١) المنظور التاريخي في فكر سيد قطب - عماد الدين خليل (ص/٨٥).

(٢) انظر في ظلال القرآن - سيد قطب (٥/٤٠٧).

(٣) انظر في ظلال القرآن - سيد قطب (٥/٤٠٧).

إن الله سبحانه قد أنزل هذا القرآن لكي يكون هو المصدر الذي تستقي منه البشرية العلم والمعرفة والهداية وجعل فيه تفصيل كل شيء من أخبار الأولين والآخرين ولو وجد من يبحث فيه بين ثنايا آياته وفواصل كلماته ويتدبره حق تدبره.. لأغناه عن أن يستفتي التاريخ فيما جاء في القرآن.. (إن مجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر، قبل ان تنكره العقيدة التي تقرر ان القرآن هو القول الفصل.. وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن.. ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء.. إنما هو مراء)[1].

هذا عن كتب التاريخ.. (أما تفسير القرآن فقد وردت فيها أقوال كثيرة ولكنها فيما يؤكد سيد قطب (لا تعتمد على يقين) كما إنها (ينبغي أن تؤخذ بحذر لما فيها من إسرائيليات وأساطير)[2].

(وكم من آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول، قد ضيم وسيم الخسف، بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة)[3] حين ينسب معناها إلى تاريخ مضى قيل عنه انه من علم أهل الكتاب بلا تدبر لكتاب الله وكأن الله سبحانه ما دعا لقراءة كتابه ولا حث على تدبر آياته ودراستها حتى يتبين هداها ويتلقى وحيها لكي تتوضح للامة معالم الطريق.. وليستبين سبيل المجرمين...

وإذا سألتهم عن سبب حصر مثل هذه الآيات في ماضي الزمان.. وما الغاية من أخبار الله عما جرى وكان.. قالوا لكي يكون للامة موعظة وعبرة.. وما علموا وما أظنهم جهلوا ان أمة محمد ﷺ ليست كأي أمة في التاريخ ممن كان قبلها.. فهي لم تسجد لصنم من ذهب ثم قامت ترقص حوله.. وهي لم تحرف كتابها كما حرفته غيرها.. ولم تقتل نبيها كما قتلت بنو إسرائيل أنبيائها.. ولم يجعل الله للكافرين عليها

(١) المنظور التاريخي في فكر سيد قطب - (ص/٨٧) وانظر الظلال (٥/٤٠٨).

(٢) المنظور التاريخي في فكر سيد قطب - (ص/٨٧) وانظر الظلال (٥/٤٠٨).

(٣) تفسير ابن عاشور (١/١٩).

سبيلاً حين عهد الله لنبيه أن لا يسلط عليها عدوا من سواها[1] كما كانت الأمم قبلها تسلط عليها أعداؤها كل حين..

وليـــت شعري أذا كان هذا القرآن (يقص على بني إسرائيل أكثر الذي كانوا فيه يختلفون) أفيعجز عن أن يبين لبني إسرائيل اقل ما كانوا فيه مختلفين؟.

وليت شعري هل يمكن ان تكون التوراة فيها تفصيل لكل شيء حين كانت هدى ونـــورا.. وقد أنزلت لكي يحكم بها آلنبيون للذين اسلموا من بني إسرائيل.. ولا نجد في القرآن تفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون...؟

ولـــئن سألتهم ليحلفن ما قالوا ولقد قالوا أن (قضينا.. ولتفسدن.. وبعثنا.. وكان وعـــدا مفعـــولاً) إنمـــا هي أخبار لبني إسرائيل في التوراة لما سيكون منهم من إفسادفي المســـتقبل[2] ويحـــرم القرآن الذي هو الكتاب المهين على ما كان قبله من حق الإيفاء والاخبار بالمستقبل...

ألا فلترفع عنه ستور أخبار الأولين.. وليتركوه - كما نزل - يشع بوحيه لمن يريد ان يهـــتدي بهديـــه طامعا في أن يزاد لـــه في علمه وليؤدي مهمته في واقع الحياة اليوم - فلعله يرينا آياته - حية - متحركة في الآفاق وفي أنفسنا حتى يتبين - لنا - أنه الحق كما كان في الماضي يوم نزل.. وكما سيكون في المستقبل.. بإذن الله.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه حيث يقول النبي ﷺ (سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة.. سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها) انظر صحيح مسلم (٤/٢٢٢٥/برقم /٢٨٨٩) في كتاب الفتن.

(٢) أي بعد نزول التوراة.

المطلب الثاني

ثلاث قواعد تفسيرية بين الإهمال والتعسف

من القواعد المهمة في تفسير القرآن ثلاث قواعد:

القاعدة الأولى.. تعدد المعنى في لفظ واحد يعد إعجازاً قرآنياً:

تتعلق بإيراد المفسرين عدة معان للفظ الواحد «الاشتراك اللفظي» وقد يظنها بعض الناس اختلافا بينهم بينما هي ليست كذلك وقد أوضح الإمام ابن تيمية (رحمه الله) في مقدمته في أصول التفسير هذه المسألة فقال: أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة، فإن الترادف في اللغة قليل وأما في ألفاظ القرآن فأما نادر أو معدوم، وقلّ أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه، بل يكون في تقريب لمعناه وهذا من أسباب إعجاز القرآن، فإذا قال القائل ﴿**يوم تمور السماء موراً**﴾ الطور٩- إن المور[1] هو الحركة تقريباً.. إذ المور حركة خفيفة سريعة.. وكذلك إذا قال: الوحي - الإعلام أو قيل: أوحينا إليك.. أو قيل ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل**﴾ الإسراء/٤، أي أعلمنا وأمثال ذلك.. فهذا كله تقريب لا تحقيق فان الوحي هو إعلام سريع خفي.. والقضاء إليهم أخص من الإعلام فإن فيه إنزالاً وإيماءً إليهم!!.

والعرب تضمن الفعل معنى الفعل، وتعديه تعديته.. ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض، كما يقولون في قوله تعالى ﴿**لقد ضلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه**﴾ ص/٢٤، وقوله ﴿**من أنصاري إلى الله**﴾ آل عمران/٥٢، أي مع الله.

والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمين[2]، فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه وكذلك قوله تعالى: ﴿**وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك**﴾ الإسراء/٧٣. ضمن المعنى «يزيغونك ويصدونك». ومن قال «لا ريب» لا شك فهذا تقريب.

---

(١) التفسير الذي أشار إليه ابن تيمية قال به بعضهم وفي القاموس المحيط «المور هو الموج والاضطراب» ٢/١٣٦.

(٢) التضمين أن يضمن اللفظ مع المعنى المتبادر معنى آخر يحتمله اللفظ نفسه كما سيبين ذلك ابن تيمية رحمه الله.

وكذلك إذا قيل ﴿**ذلك الكتاب**﴾: هذا القرآن، فهذا تقريب لأن المشار إليه وإن كان واحداً فالإشارة بجهة الحضور غير الإشارة بجهة البعد والغيبة، ولفظ «الكتاب» يتضمن من كونه مكتوباً مضموماً مالا يتضمنه لفظ القرآن من كونه مقروءاً مظهراً بادياً فهذه الفروق موجودة في القرآن...

ثم قال.. «وجمع عبارات السلف في مثل هذا نافع جداً فإن مجموع عباراهم أدلُّ على المقصود من عبارة أو عبارتين»[١].

القاعدة الثانية: اختيار معنى لا يعني ترك غيره من المعاني:

وهذه مسألة بينها وأكد عليها ابن عاشور في مقدمة تفسيره القيم بقوله: «لابد من التفرقة بين من يفسر القرآن بما يخرج عن الأغراض المرادة منه، وبين من يفصل معانيه تفصيلاً... فمراد الله من كتابه هو بيان تصاريف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين.. وقد أودع ذلك ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطاباً بيناً وتعبدّنا بمعرفة مراده..[٢]».

وقريباً منه ما قصده الزركشي حين قال: «إن القرآن كتاب الله وكلامه.. وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كتابه إنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه..»[٣].

فما دام وحياً من الله فلا نهاية لهذا الوحي لا في زمان الماضي ولا الحاضر ولا المستقبل.. يتفجر كل حين عن إعجاز يتعاظم وعن معانٍ جديدة لكل جيل.. فلغته التي نزل بها حمالة من المعاني مالا يحيط بها إلا الله سبحانه[٤]... فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معانٍ من المعاني المعتادة يودعها البلغاء في كلامهم.. وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقاً بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر مما تحتمله الألفاظ، في أقل ما يمكن من المقدار بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها..

---

(١) مقدمة ابن تيمية في التفسير «ص/٥١/٥٤» وانظر مقدمة تفسير ابن عاشور بتوسع..

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٨/١.

(٣) البرهان في علوم القرآن – للزركشي ٨/١.

(٤) وعلى هذا يصح أن يقال: «أن القرآن ألفاظه متناهية ومعانيه غير متناهية».

فمعـــتاد البلغاء، إيداع المتكلم معنى يدعوه إليه غرض كلامه وترك غيرة.. والقرآن ينـــبغي ان يودع من المعاني كل ما يحتاج السامعون إلى علمه وكل ماله حظ في البلاغة.. سواء كانت متساوية أم متفارقة في البلاغة إذا كان المعنى إلا على مقصود.. وكان ما هو أدنى منه مراداً معه لا مراداً دونه.. سواء كانت دلالة التركيب عليها متساوية في الاحتمال والظهـــور أم كانت متفاوتة بعضها اظهر من بعض ولو أن تبلغ حدَّ التأويل وهو – حمل اللفظ على المعنى المحتمل المرجوح.. أما إذا تساوى المعنيان فالأمر اظهر مثل قوله ﴿**فأنساه الشيطان ذكر ربه**﴾ يوسف/٤٢. ففي كل من كلمة «ذكر» و «ربه» معنيان[1]...

وقـــال: «ويدلُّ لتأصيلنا هذا ما وقع إلينا من تفسيرات مروية عن النبي ﷺ لآيات.. فنرى منها ما نوقن بأنه ليس هو المعنى الأسبق من التركيب، ولكنا بالتأمل نعلم أن الرسول ﷺ اخـــذ أقصـــى المعاني من ألفاظ القرآن. مثال ذلك ما رواه أبو سعيد بن المعلى قال: رسول الله ﷺ وأنا في الصلاة فلم اجبه فلما فرغت أقبلتُ إليه فقال: ما منعك أن تجيبني؟ فقلت: يارسول الله كنت أصلي.. فقال: ألم يقل الله تعالى: ﴿**استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم؟**﴾ فلا شك إن المعنى المسوقة فيه الآية هو الاستجابة بمعنى الامتثال والرسول حمله عـــلى استجابة النداء وأمثال[2]·هذا كثير كاستغفار النبي لمن قال الله فيهم ﴿**إن تستغفر لهـــم ســـبعين مرة فلن يغفر الله لهم**﴾ فقال النبي ﷺ خيرني ربي وسأزيد على السبعين.... ولعـــلّ من أدق ذلك وأجدره بأن ننبه عليه في هذه المقدمة «هو استعمال اللفظ المشترك في معنيه أو معانيه دفعةً واستعمال اللفظ في معناه الحقيقي ومعناه المجازي معاً» وان كان ذلك غير وارد في استعمال العرب إلا قليلاً وإن كان بعض العلماء قد عدَّ ذلك خطباً عظيماً لكن كثيراً من العلماء الأعلام قد جوز هذا الكلام كالإمام الغزالي وأبى الحسن البصري إذ قالوا: «يصح أن يراد بالمشترك عدّةُ معاني لكن بإرادة المتكلم وليس بدلالة اللغة».

ونسب إلى الإمام الشافعي والباقلاني قولهم «يصح أن يطلق المشترك على عدّة من معانيه إطلاقاً لغوياً فقالوا هو من قبيل الحقيقة».

---

(١) انظر ابن عاشور ٩٤/١ وقد ضرب امثلة من القرآن توضح هذا الذي نحن بصدده.

(٢) انظر الأمثلة التي اوردها ابن عاشور في تفسيره ٩٤/١.

وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله «والذي يجب اعتماده ان يحمل المشترك في القرآن على ما يحتمله من المعاني سواء في ذلك اللفظ "المفرد المشترك" و "التركيب المشترك" بين مختلف الاستعمالات سواء كانت المعاني حقيقية أو مجازية محضة أو مختلفة»[1].

ويقرر ابن عاشور هذه القضية مبيناً الطريق الذي ينبغي ان يسلكه المفسرون لمعالجة مثل هذه النصوص فيقول: «وعلى هذا القانون يكون طريق الجمع بين المعاني التي يذكرها المفسرون أو ترجيح بعضها على بعض، وقد كان المفسرون غافلين عن تأصيل هذا الأصل، فلذلك كان الذي يرجّحُ معنى من المعاني التي يحتملها لفظ آيةٍ من القرآن، يجعل غير ذلك المعنى ملقى ونحن لا نتابعهم على ذلك بل نرى المعاني المتعددة التي يحتملها اللفظ بدون خروج عن مهيع الكلام العربي البليغ، معاني في تفسير الآية فنحن في تفسيرنا هذا إذا ذكرنا معنيين فصاعداً فذلك على هذا القانون.. وإذا تركنا معنى مما حمل بعض المفسرين عليه في آيات من القرآن فليس تركنا إياه دالاً على إبطاله.. ولكن قد يكون ذلك لترجيح غيره، وقد يكون اكتفاء بذكره في تفاسير أخرى تجنباً للإطالة»[2].

القاعدة الثالثة: رد المعنى إلى أقرب المذكورين:

والقضية الثالثة التي أعتمدها أصحاب الفريق الثاني تتعلق بقاعدة «رد المعنى إلى أقرب مذكورين» والتي اختلفت أقوال المفسرين فيها فمن بين ملتزم بها وجعلها من أساسيات منهجه في التفسير ومن غير ملتزم بها مراعياً لضرورة النص وسلامة التعبير القرآني..

وعلى رأس من التزم بها ابن جرير الطبري في تفسيره وتبعه بعض المفسرين كالرازي[3] على الرغم من اختلافهم في المنهج والقرطبي في قولٍ له[4].

وقد خالف الطبري في إقرار هذه القاعدة أو الالتزام بها كثير من المفسرين ممن سار على منهجه في التفسير تقريباً كابن كثير مثلاً ومن لم يكن على أسلوبه ومنهجه

---

(١) ابن عاشور ١/١٠٠ نقلا عن مقدمة التفسير لابن تيمية - بتصرف.

(٢) انظر المصدر السابق ١/٩٠ - ١٠٠ بتوسع.

(٣) انظر تفسير الرازي ١٧/١٤٤.

(٤) وانظر القرطبي ٨/٣٦٩.

كالآلوسي والجلالين وأبن عطية الأندلسي وابن عاشور.. ولتوضيح هذه المسألة سأضرب مثالاً واحداً أوضح به ما قلت آنفاً.

* ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى ﴿**فما آمن لموسى إلا ذريّة من قومهِ على خوف من فرعون وملأهم أن يفتنهم**.. الآية﴾ يونس/٨٣.

ثلاثة أقوال.. اثنان منهما عن ابن عباس وثالث عن مجاهد.. فقال: «يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات.. إلا قليل من قوم فرعون من الذرية وهم الشباب على وجل وخوف منه ومن ملئه أن يردهم إلى ما كانوا عليه من الكفر.. قال ابن عباس: الذرية التي آمنت لموسى من غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير منهم امرأة فرعون ومؤمن إلى فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه».

ثم أورد القول الثاني عن ابن عباس قائلاً: «وعنه - آمن لموسى إلا ذرية من قومهِ» يقول من بني إسرائيل...

ثم يورد القول الثالث فيقول: «وقال مجاهد في قوله (إلا ذرية من قومه) هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم" ويبين "واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية إنها من بني إسرائيل من قوم فرعون - لعود الضمير على أقرب مذكورين» ثم قال - وفي هذا نظر - فكان ابن كثير يرى إن هذا لا يستقيم حيث علّق على ما ذهب إليه ابن جرير قول مجاهد بقوله: والمعروف إن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبه المتقدمة.

وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى ﴿**قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا**﴾ الأعراف/١٢٩.

وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل «على خوف من فرعون وملئهم» أي وأشراف قومهم أن يفتنهم و لم يكن في بني إسرائيل ممن يخاف منه أن يفتنهم عن الإيمان؟

ثم يستدل على هذا فيقول ومما يدل على انه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى ﴿**وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين، فقالوا**

على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾[1] يونس/٨٦.

هـــذا وقد ذهب الإمام الرازي إلى ما ذهب إليه ابن جرير فقال: «وأما الضمير في قولـــــه تعالى: ﴿**من قومه**﴾ فقد اختلفوا أن المراد من قوم موسى أو من قوم فرعون؟، لأن ذكرهما جميعاً قد تقدم، وإلا إنه عائد إلى موسى لأنه أقرب المذكورين ولأنه نقل[2] إن الذين آمنوا كانوا من بني إسرائيل»[3].

أمـــا القاضي أبو محمد ابن عطية الذي أثنى عليه وعلى تفسيره ابن تيمية رحمه الله فقـــال: «تفســـير ابـــن عطية وأمثاله اتبع للسنة والجماعة واسلم من البدعة من تفسير الزمخشري» وقال في موضع آخر «تفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري وأصح نقلاً وبحثاً وأبعد من البدع، بل هو خير منه كثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير»[4].

وقـــال عنه ابن خلدون: «لما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص، وجاء أبو محمد عـــبد الحق ابن عطية من المتأخرين بالمغرب، فلخصّ تلك التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها»[5].

أقـــول حين تعرض هذا الرجل الجهبذ إلى هذه المسألة فقد أثبت جواز مخالفة هذه القاعدة في رد المعنى إلى آخرين مذكورين بأدلة قوية تدل على رسوخه في العلم ومدى سعة فهمه لكتاب الله فقال: يقول في تفسيره هذه القضية: «واختلف المتأولون في عود الضمير الذي في ﴿قومه﴾..

فقالت فرقة: هو عائد على موسى عليه السلام.

وقالت فرقة: هو عائد على فرعون.

---

(١) مختصر ابن كثير ٢/٢٠٣.

(٢) يشير إلى أحد قولي ابن عباس – انظر ما نقلناه عن ابن كثير آنفاً.

(٣) تفسير الامام الرازي ١٧/١٤٤.

(٤) مقدمة ابن تيمية في التفسير ص/٩٠.

(٥) مقدمة ابن خلدون ص/٣٢٩ مطبعة الحاج عبد السلام بن محمد – القاهرة.

ويرد ابن عطية على من قال بان الضمير عائد على موسى في أحد قولي ابن عباس السابقين بقوله: «فمن قال ان العود على موسى قال: معنى الآية وصف حال موسى عليه السلام في أول مبعثه أنه لم يؤمن به إلا فتيان وشباب أكثرهم أولوا آباء كانوا تحت خوف من فرعون ومن ملأ بني إسرائيل»..

وكذلك يرد على من اعتمد قول مجاهد: «وقال بعض القائلين يعود الضمير على موسى إن معنى الآية إن قوماً أدركهم موسى عليه السلام و لم يؤمنوا به وإنما آمن من ذرياتهم بعد هلاكهم لطول الزمان»، قال مجاهد والأعمش ثم قال.. وهذا قول غير صحيح وإذا آمن قوم بعد موت آبائهم فلا معنى بتخصيصهم باسم الذرية، وأيضاً فما روي من أخبار بني إسرائيل لا يعطي هذا...»[1].

ثم يضيف رحمه الله: «وهيئة قوله (فما آمن) تعطي تقليل المؤمنين به، لأنه نفي الإيمان ثم أوجبه للبعض، ولو كان الأكثر مؤمناً لأوجب الإيمان أولاً ثم نفاه عن الأقل، وعلى هذا الوجه يتخرج قول ابن عباس رضي الله عنه في الذرية أنه القليل».

ثم يفند ما ذهب إليه ابن جرير عن مجاهد فيقول: «ومما يضعف عود الضمير على موسى عليه السلام إن المعروف من أخبار بني إسرائيل الهم كانوا قوماً قد تقدمت فيهم النبوات، وكانوا في مدة فرعون قد نالهم ذلّ مفرط وقد رجوا كشفه على يدي مولود يخرج فيهم نبياً، فلما جاءهم موسى عليه السلام أصفقوا[2] عليه واتبعوه، و لم يحفظ قط إن طائفة من بني إسرائيل كفرت به، فكيف تعطي هذه الآية إن الأقل منهم كان الذي آمن؟..

فالذي يترجح - بحسب هذا - ان الضمير عائد على فرعون، ويؤيد ذلك أيضاً ما تقدم من محاورة موسى عليه السلام وردّه عليهم وتوبيخهم على قولهم: «هذا سحر» فذكر الله ذلك عنهم ثم قال: فما آمن لموسى إلا ذرية من قوم فرعون الذين هذه أقوالهم.

ثم يقول: «ولإعتقاد الفرّاء وغيره على عود الضمير على موسى عليه السلام- تخبطوا - كذا قال - في عود الضمير في (ملتهم) - قال: قال الفرّاء: المعنى: «على خوف من آل

---

(١) تفسير ابن عطية ١٩٧/٧.

(٢) اصفقوا - اطبقوا عليه واجتمعوا.

فرعون وملتهم» وهو من باب «واسأل القرية» فيرد عليه ابن عطية إن «هذا التنظير غير جيد لأن إسقاط المضاف في قوله «وأسأل القربة» هو سائغ بسبب ما يعقل من أن القرية لا تسأل، ففي الظاهر دليل على ما أضمر، وأما هاهنا فالخوف من فرعون متمكن لا يحتاج إلى إضمار»[1].

ونجد ان الآلوسي قد أورد عن ابن عباس ﷺ (ويذكر ابن جرير انه أخرج عن ابن عباس ان الضمير لفرعون ربه قال به جمع)[2].

ويورد ترجيحين يختار الثاني منهما عن ابن عطية فيقول..

«ورجح بعضهم إرجاع الضمير لموسى عليه السلام بأنه المحدّث عنه وبأن المناسب على القول الآخر الإضمار فيما بعد.. ورجح ابن عطية إرجاع الضمير لفرعون بأن المعروف من القصص إن بني إسرائيل كانوا في قهر فرعون وكانوا قد بشروا بخلاصهم على يد مولود يكون نبياً صفته كذا وكذا فلما ظهر موسى عليه السلام إتبعوه و لم يعرف ان أحداً منهم خالفه – ثم قال – فالظاهر القول الثاني»[3].

وبهذا أيضاً قال القرطبي في أحد قوليه[4].

وصرح به الجلالان في تفسيرهما[5] مخالفين بذلك القاعدة في «رد المعنى إلى أقرب المذكورين».

قلت: ومما تقدم يظهر إن هذه القاعدة ليست مطردة في كل موقع كما قد يظن وإنما يمكن العمل بها في حالة عدم وجود تعارض في معنى النص ودلالة اللفظ معها..

---

(١) تفسير ابن عطية ٧/١٩٧-١٩٩ وانظر الهامش ص/١٩٩ إذ يقول المحقق: «يظهر من كلام ابن عطية أنه يؤيد الرأي القائل بأن الضمير في «قومه» يعود على فرعون وان القول بعوده على موسى ضعيف وهو يخالف الطبري ومن وافقه في عود الضمير على أقرب مذكور ويمكن الرجوع إلى تفسيره في موضع آخر للتأكد مما قلناه عند قوله تعالى: ((فمن كان على بينة من ربه)) هود/١٧-٧/٢٥٦ وما بعدها.

(٢) أي جمع من المفسرين.

(٣) انظر روح المعاني للألوسي ١١/١٦٨.

(٤) وانظر القرطبي ٨/٢٦٩.

(٥) تفسير الجلالين ص/٢٨٦.

فلذلك ومن هذا المنطلق... منطلق جمع عبارات السلف وجمع المعاني التي يذكرها المفســـرون وعدم إلغاء المعنى المرجوح في حالة اختيار غيره للوصول إلى الغرض المقصود أولاً.. والأخذ بنظر الإعتبار المعاني العديدة التي يحتملها اللفظ سواء كان مشتركاً أم لا وعدم حجر اللفظ على معنى تقريبي يشاركه فيه معنى آخر.. ثانياً.. والنظر إلى معنى الآية نظـــرة فـــيها تركيز وشمولية أكثر وعدم حصرها في مجال ضيق من التأريخ أو في قاعدة تفســـيرية لا يشكل الخروج عنها أي بأس بل ربما كان في الخروج منها انطلاقاً في آفاق وحي القرآن لفهمٍ أكثر وأكمل وأشمل لآياته.. ثالثاً وخلاصة ما تقدم:

أقول...

ومـــن هـــذا المنطلق سنعيد النظر في الآيات التي تعرضت لإفساد بني إسرائيل في الأرض مـــرتين وفق: «مرونة القواعد التفسيرية» إن صح التعبير. وتخليص النصوص من حدود الماضي وإطلاقها في رحاب الحاضر والمستقبل...

مـــع الأخذ بنظر الاعتبار ضرورة جمع أقوال السلف في هذه الآيات للوصول إلى معانيها وما ترمي إليه.. ولعل ذلك بعض ما قصده ابن تيمية رحمه الله بقوله: "ومثل هذا نافع جداً في الدلالة على المقصود من عبارة القرآن..."[1].

(١) راجع ما نقلناه من كلام ابن تيمية رحمه الله في القاعدة الثانية من هذا المطلب.

المبحث الثاني

في بعض أصول التفسير وقواعده

أولاً– المنقول والمعقول في التفسير.

ثانياً– الضعف في رواية التفسير بالمأثور وأسبابه.

ثالثاً– مصادر تفسير القرآن وقواعده.

رابعاً– الإختلاف في التفسير

خامساً– أهم ما تميز به التفسير المأثور في هذه المرحلة.

المبحث الثاني

في بعض أصول التفسير وقواعده

أولاً: المنقول والمعقول:

إن كل تفسير نقل عن السلف إلى الخلف يطلق عليه - المنقول أو المأثور - وليس التفسير المنقول مقصوراً على الرسول ﷺ والصحابة والتابعين. وليست هذه الكلمة ضد المعقــول في كل حال فان كثيراً من التفسير المنقول كان في أول الأمر من آراء العلماء. ونتيجة اجتهادهم، وتدبرهم، وخلاصة علمهم، وفهمهم، وزبدة تحصلهم وفقههم، فمن الممكن أن نقول: إن التفسير منقول من جهة، ومعقول من جهة. ولو قلنا ان كل تفسير قــديم كان في البدء مبنياً على الرأي والاجتهاد حسب ما كان عند المتقدمين من العلم والفقه لما قلنا شططاً.

واخــتلاف آرائهـــم وآثـــارهم حجة لنا. ثم إن تفسير الأقدمين صار لمن بعدهم منقولاً..وحب القدامة ألبسها شعار القداسة. وما دام هذا من عادة الناس، فانتظر اليوم الذي تصير فيه آراؤنا لمن جاء بعدنا منقولة.

قال الشيخ رشيد رضا: «إن أكثر ما روي في التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن، وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية، المزكية للأنفس، المنوّرة للعقول»[1].

وهـــذا القـــول يخالف قول بعض الناس. إن السلف لم يغادروا لنا شيئاً من تفسير القـــرآن. فليس علينا إلا أن ننظر في كتبهم وأقوالهم وآثارهم ونستغني بها. ثم إن عمل الخلـــف يخالف قولهم، لأن كل خلف يفسر أكثر من السلف، ومع ذلك فان كثيراً من حكمه ومعارفه لم يُكشف عنه اللثام بعد.

وذلك ما يدعونا إلى فهم القرآن وتدبره والاعتبار بآياته والاستنباط منه[2].

---

(١) تفسير مجاهد بن جبر ١٦/١ نقلاً عن تفسير المنار ١٠/١.

(٢) تفسير مجاهد بن جبر ١٦/١.

إن التفسير يتطور بتطور العلوم ويتدرج إلى قبول الأفكار العلمية والفلسفبة. وفي تفسـير السـلف ما يدل على تقدمه بالتدريج وان باب التفسير مفتوح لمن يتدبر آيات القرآن تزداد يوماً فيوماً، وان رقي العلم وازدياده يرفع مستوى التفسير...

يقـول أبو حيان الأندلسي: «وقد جربنا الكلام يوماً مع بعض من عاصرنا، فكان يزعم ان علم التفسير مضطرٌ إلى النقل في فهم معاني تراكيبه بالإسناد إلى مجاهد وطاووس وعكـرمة وإضرابهم. إن فهم الآيات متوقف على ذلك. والعجب انه يرى أقوال هؤلاء كثيرة الاختلاف، متباينة الأوصاف متعارضة ينقض بعضها بعضاً».

ونظـير مـا ذكره هذا المعاصر أنه لو تعلم أحدنا مثلاً لغة الترك أفراداً وتركيباً.. وكـان هذا المعاصر يزعم ان كل آية نقل فيها التفسير خَلَفٌ عن سَلفْ بالسند إلى أن وصـل ذلك إلى الصحابة رضي الله عنهم ومن كلامه أن الصحابة سألوا رسول الله ﷺ عن تفسيرها هذا وهمُ العرب الفصحاء الذين نزل القرآن بلسانهم.

وعـلى قول هذا المعاصر يكون ما استخرجه الناس بعد التابعين من علوم التفسير ومعانـيه ووقائعه وإظهار ما احتوى عليه من علم الفصاحة والبيان والإعجاز لا يكون تفسيراً حتى يُنْقل بالسند إلى مجاهد ونحوه، وهذا كلام ساقط[1]

وانظـر إلى القـرطبي كـيف يبين لنا هذا المعنى: «أما قول بعض العلماء أن التفسير موقوفٌ على السماع لقوله: ﴿**فان تنازعتم في شيء فردّوهُ إلى الله والرسول**﴾ النساء/٥٩. وهـذا فاسد لأن النهي عن التفسير لا يخلوا إما ان يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط أو المراد به أمرٌ آخر، وباطل أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحـدٌ في القرآن إلا بما سمعه، فان الصحابة رضي الله عنهم قرؤوا القرآن، واختلفوا في تفسـيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه عن النبي ﷺ. فان النبي دعا لابن عباس وقال: «**اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل**» - فإن كان التأويل مسموعاً كالتنـزيل فما فائدة تخصصه بذلك؟»[2].

---

(١) تفسير مجاهد ١٨/١ نقلا عن البحر المحيط لبي حيان الأندلسي ٥/١.

(٢) تفسير مجاهد ١٩/١ عن تفسير القرطبي ٣٣/١.

نعم هناك بعض العلماء من الصحابة ومن تبعهم، كره أن يقول في التفسير، وكان سبب خوفه أنه يقول في القرآن ما لا يريده الله. أو أن يقول فيه بغير علم ولا بصيرة. ومع ذلك فإنهم كلهم كانوا يخافون أن يكتموا العلم لاسيما علم التفسير الذي يتعلق بالقرآن وبيانه وقد أوعدهم الرسول ﷺ أنه من كتم علماً أُلجم يوم القيامة بلجام من نار.[١].

وهناك متسع في التفسير لما نرى من الآثار المختلفة عن الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم. وقول المفسرين في تفسير آية: جائز ان يكون كذا وجائز أن يكون كذا وقولهم ذلك ما ذكره فلان وجائز غير ذلك[٢]. وكل هذا يفتح لنا باب التدبر والاجتهاد وأن نقول مع العلم أقوالاً أخرى في تفسير القرآن.

وهناك أمثلة كثيرة في تفسير الطبري: أن الرسول ﷺ يفسر الآية ويشرح بعض كلماتها ثم يفسر الصحابة أو التابعين فيها تفسيرا غيره. وذلك له وجوه:

- إما أنهم لم يبلغْهُم الرسول ﷺ وتفسيره.
- وإما أنهم لم يروه صحيحاً ثابتاً عن رسول الله ﷺ بطريق يعتمد عليها.
- وإما أنهم كانوا يوسعون فيه ويرون لهم الحق أيضاً في تفسير الآية على غير الوجه الذي رووه عن الرسول ﷺ.
- وإما أنهم كانوا يعدون تفسير القرآن أمراً اجتهادياً[٣].
- ولقد قال الإمام أحمد بن حنبل «ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير والملاحم والمغازي»[٤].
- وقد شاع بين العلماء قول شعبة بن الحجاج: «إن أقوال التابعين في الفروع ليست بحجة فكيف تكون حجة في التفسير؟»[٥]. قال ابن تيمية: إنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم. وهذا صحيح.

---

(١) جامع الإمام الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي ٢/٣٧٠ بيروت.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٥/٨٨.

(٣) انظر تفسير الطبري لسورة البروج والكوثر وموضع «طوبى لهم» من سورة الرعد.

(٤) مقدمة مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص١٥.

(٥) تفسير مجاهد نقلاً عن تاريخ التفسير للشيخ قاسم النقيب ص/١٣٦. وانظر مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص/١٠٥.

• وقد روي عن الإمام أبي حنيفة، قوله: «ما جاءنا عن رسول الله فعلى العين والرأس. وما جاءنا عن الصحابة - رضي الله عنهم - تخيرنا من أقوالهم. و لم نخرج عنهم. وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال»[1].

قلت: وهذه القضية من الأهمية بمكان بحيث تجعلنا نحاول جاهدين فهم كتاب الله تعالى فهماً، أشمل وأعمق امتثالاً لأمر الله بتدبر هذا القرآن أولاً، وطاعةً له سبحانه بردّ كل ما اختلفنا فيه إلى كتاب الله ثانياً، واتباعاً لرسول الله ﷺ ثالثاً، وفي الاقتداء به عليه الصلاة والسلام في منهجه الذي علمه الصحابة في فهم كتاب الله وكيفية التعامل معه في واقع الحياة ومن ثم بيانه للناس الذين هم أحوج ما يكونون إليه في هذا الزمان رابعاً.. أما الاعتماد على المأثور والمنقول فقط دون التدبر والتبحّر، والاقتصار على الآثار المروية وحصر المعنى في أسباب النزول وعدم الأخذ بنظر الاعتبار كلّ القضايا التي لها دخل في التفسير مباشرة من التي عددها ابن عاشور إذ قال منبهاً عليها: «اعلم انه لا يعد من استمرار علم التفسير الآثار المروية عن النبي ﷺ في تفسير آيات ولا ما يروى عن الصحابة في ذلك لأن ذلك من التفسير لا من مدده ولا يعد أيضا من استمداد التفسير ما في بعض آي القرآن من معنى يفسر بعضاً آخر منها، لأن ذلك من قبيل حمل بعض الكلام على بعض، وكتخصيص العموم، وتقييد المطلق، وبيان المجمل، وتأويل الظاهر، ودلالة الاقتضاء، وفحوى الخطاب، ولحن الخطاب ومفهوم المخالفة»[2].

وهو يعني هنا من غير شك أن كل ما ورد في الآثار المروية لا يجوز الاكتفاء به والاعتماد عليه فقط في استمداد علم التفسير منه، وإنما هي من التفسير ذاته لهذه الآيات في ذلك الزمن وفي تلك الظروف لا يمنع أن ننظر إلى الآيات نظرة أخرى أعمق وأشمل وفقاً للضوابط وعملا بهذه القضايا التي عددها في إطار القانون العام لتفسير القرآن. ولذلك نجده يقول بصحة التفسير بغير المأثور كالتفسير بالرأي والنظر والاجتهاد ونحوه

---

(١) انظر الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم ١٨٨/٤ طبع القاهرة.

(٢) انظر بتوسع المقدمة الثانية لتفسير ابن عاشور ٢٧/١.

إذ يقول: «وهل اتسعت التفاسير وتفننت مستنبطات معاني القرآن إلا بما رزقه الذين أوتوا العلم من فهم كتاب الله، وهل يتحقق قول علمائنا: «إن القرآن لا تنقضي عجائبه»[1] إلا بازدياد المعاني باتساع التفسير»؟.

ولولا ذلك لكان تفسير القرآن مختصرا في ورقات قليلة، وقد قالت السيدة عائشة - رضي الله عنها -: «ما كان رسول الله يفسر من كتاب الله إلا آيات معدودات علمه إياهنّ جبريل».

أقول وفي هذا يقول ابن تيمية - رحمه الله-: «وذلك تفصيل جُمَل ما في آيهِ من أمر الله ونهيه، وحلالِه وحرامِه وحدوده وفرائضه، وسائر معاني شرائع دينه، الذي هو مجمَلٌ في ظاهر التتريل، وبالعباد إلى تفسيره الحاجة»[2].

وقد سبق أن بين هذا ابن عاشور في المقدمة الثانية من تفسيره ونقل قول ابن عطية في بيان معنى الحديث فقال: «قال ابن عطية معناه في مغيبات القرآن وتفسير مجمله مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف»[3].

ثم قال: لو كان التفسير مقصورا على بيان معاني القرآن من جهة العربية لكان التفسير نزراً، ونحن نشاهد كثرة أقوال السلف من الصحابة فمن يليهم في تفسير آيات القرآن وما أكثر ذلك الاستنباط برأيهم وعلمهم.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي بمسنده عن علي به مرفوعاً عن النبي ﷺ قال: «**ستكون فتنٌ كقطع الليل المظلم**». قلت: ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال: «**كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم**» سبق إيراده وتخرجه. انظر مقدمة الفصل الأول.
وقد ذكره ابن تيمية في مقدمته القيمة ص٣٤ هامش ٢ وقال المحقق أخرجه الدارمي في سننه ٢/٤٣٥ وجامع الترمذي ٨/١١٢ وقال عنه إسناده مجهول وفي الحارث مقال وقال: والكلام بغض النظر عن السند - جميل وصحيح المعنى.

(٢) مقدمة ابن تيمية في التفسير ص١٧ من كلام المحقق عدنان زرزور. وانظر تفصيل ذلك في الفصل الأول من المقدمة ذاها ص٣٥.

(٣) انظر تفسير ابن عاشور في تفصيل هذه القضية ١/٢٣.

قال الغزالي والقرطبي: «لا يصح أن يكون كلّ ما قاله الصحابة في التفسير مسموعاً من النبي ﷺ، لوجهين:

أحدهما: أن النبي ﷺ لم يثبت عنه من التفسير إلا تفسير آيات قليلة وهي ما تقدم عن عائشة - رضي الله عنها -.

الثاني: أنهم اختلفوا في التفسير على وجوه مختلفة لا يمكن الجمع بينهما. وسماع جميعها من رسول الله محال. ولو كان بعضها مسموعاً لتُرك الآخر، أي لو كان بعضها مسموعاً لقال قائله إنه سمعه من رسول الله ﷺ فرجع إليه من خالفه.

فتبين على القطع أن كل مفسر قال في معنى الآية بما ظهر له باستنباطه.

روى البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة قال: قلت لعليٍّ رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: «لا والذي فَلَقَ الحبَّة وبرأ النسمة لا أعلمهُ إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن».. الخ[1].

- وقد دعا رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنه فقال: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**» واتفق العلماء على إن المراد بالتأويل - تأويل القرآن.
- وقد ذكر فقهاؤنا في آداب قراءة القرآن أن «التفهم مع قلّة القراءة أفضل من كثرة القراءة بلا تفهم».
- قال الغزالي في الإحياء: «التدبر في قراءته إعادة لنظر في الآية، والتفهم - أن يستوضح من كل آية ما يليق بها كي تتكشف له من الأسرار معان مكنونة لا تتكشف إلا للموفقين».
- قال: «ومن موانع الفهم أن يكون قد قرأ تفسيراً وأعتقد أن لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد، وان ما وراء ذلك تفسير بالرأي فهذا من الحجب العظيمة»[2].

---

(١) انظر فتح الباري

(٢) قلت: وما أكثر ما كان من هذا في تفسير الآيات الواردة في إفساد بني اسرائيل في سورة الإسراء.

- وقال فخر الدين الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿**وعاشروهن بالمعروف**﴾ في سورة النساء/١٩: «قد ثبت في أصول الفقه أن المتقدمين إذا ذكروا وجهاً في تفسير الآية فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها وإلا لصارت الدقائق التي يستنبطها المتأخرون في التفسير مردودة، وذلك لا يقوله إلا مقلد خُلْف - بضم الخاء -».
- وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى ﴿**ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون**﴾ إبراهيم/٤٢: «هي تسلية للمظلوم وتهديد للظالم» فقيل له من قال هذا؟ فغضب وقال: قال هذا من علمه يريد نفسه.
- وقال أبو بكر ابن العربي في العواصم إنه أملى على سورة نوح خمسمائة مسألة، وعلى قصة موسى ثمانمائة مسألة" يعني - استنباطاً - ثم يتابع فيقول: «وهل استنباط الأحكام التشريعية من القرآن في خلال القرون الثلاثة الأولى من قرون الإسلام إلا من قبيل التفسير لآيات القرآن بما لم تفسّر به قبل ذلك»؟[١].

جاء في تفسير مجاهد فيما يخص هذا الشأن عند الحديث عن تفرع التفسير «فالمحدث يفسر بالرواية، والفقيه يفسر ما فيه الأحكام والمسائل الفقهية، واللغوي يقول في غريبه ومشكلهِ والفلسفي يتكلم في فلسفته.. فان لكل ذي علم فيه مقالاً، ولكل ذي فهم رأياً..»[٢].

- وقال الإمام الآلوسي: «والعجب كل العجب مما يزعم أن علم التفسير مضطر إلى النقل في فهم معاني التراكيب ولم ينظر إلى اختلاف التفاسير وتنوعها، ولم يعلم أن ما ورد عنه ﷺ كالكبريت الأحمر»[٣].

---

(١) تفسير ابن عاشور ١/٢٨-٢٩.

(٢) تفسير مجاهد بن جبر ١/٩.

(٣) روح المعاني - للألوسي ١/٦.

- قال الإمام الغزالي - رحمه الله -: «تحريم التكلم بغير المسموع باطل» إذ لا يصادف السماع من رسول الله ﷺ، إلا بعض الآيات والصحابة - رضي الله عنهم - ومن بعدهم اختلفوا اختلافاً لا يمكن فيه الجمع، ويمتنع سماع الجميع من رسول الله ﷺ والأخبار والآثار تدل على اتساع معانيه. قال عليه الصلاة والسلام لابن عباس: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**» - فلو كان مسموعاً فلا وجه للتخصيص. وقال عز وجل ﴿**لعلِمهُ الذين يستنبطونه**﴾ النساء/٨٣[1].
- وقال أبو الدرداء ﷺ: «**لايفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً**».
- وقال علي ﷺ: «**لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب**»[2].
- وهذا الإمام الشافعي يقول: تطلبت دليلاً على حجية الإجماع فظفرت به في قوله تعالى ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً**﴾ النساء/١١٥.
- قال شرف الدين الطيّبي في شرح الكشاف في سورة الشعراء: «شرط التفسير الصحيح أن يكون مطابقاً للفظ من حيث الاستعمال، سليماً من التكليف، عرياً من التعسف».
- وصاحب الكشاف يسمي ما كان على خلاف ذلك: «بدع التفسير»[3].

والحق إن الله تعالى ما كلفنا في غير أصول الاعتقاد بأكثر من حصول الظن المستند إلى الأدلة. والأدلة متنوعة على حسب أنواع المستند فيه. وأدلة فهم الكلام معروفة وقد بيناها.

أما الذين جمدوا على القول بأن تفسير القرآن يجب ان لا يعدوا ما هو مأثور فهم رموا هذه الكلمة على عواهنها و لم يضبطوا مرادهم من المأثور عمن يؤثر.

- فان أرادوا به ما روي عن النبي ﷺ من تفسير بعض آيات إن كان مروياً بسند مقبول من صحيح أو حسن، فإذا التزموا هذا الظن بهم فقد ضيقوا سعة معاني القرآن وينابيع ما يستنبط من علومه، وناقضوا أنفسهم فيما دوّن من التفاسير، وغلّطوا

---

(١) تفسير مجاهد ١/٩.

(٢) المصدر السابق نقلاً عن تبصير الرحمن وتيسير المنان - لعلي بن احمد الهائمي ص/٥.

(٣) تفسير ابن عاشور ١/٣.

سلفهم فيما تأولوه، إذ لا ملجأ لهم من الاعتراف بأن أئمة المسلمين من الصحابة فمن بعدهم لم يقصروا أنفسهم على ان يرووا ما بلغهم من تفسير عن النبي ﷺ. وقد سأل عمر بن الخطاب ﷺ أهل العلم عن معاني آيات كثيرة و لم يشترط عليهم أن يرووا له ما بلغهم في تفسيرها عن النبي ﷺ.

- وإن أرادوا بالمأثور ما روي عن النبي ﷺ وعن أصحابه خاصة ما يظهر من صنيع السيوطي في تفسيره الدرّ المنثور لم يتسع ذلك المضيق إلا قليلاً و لم يغن عن أهل التفسير فتيلاً لأن أكثر الصحابة لا يؤثر عنهم في التفسير إلا شيء قليل سوى ما يروى عن علي بن أبي طالب ﷺ على ما فيه من صحيح وضعيف وموضوع وقد ثبت عنه أنه قال: ما عندي مما ليس في كتاب الله شيء إلا فهماً يؤتيه الله.. وما يروى عن ابن مسعود وعبد الله بن عمر وأنس وأبي هريرة، وأما ابن عباس فكان أكثر ما يروى عنه قولاً برأيه على تفاوت بين رواته.
- وإن أرادوا بالمأثور ما كان مروياً قبل تدوين التفاسير الأُوَلْ، مثل ما يروى عن أصحاب ابن عباس، وأصحاب ابن مسعود، فقد أخذوا يفتحون الباب من شقّه، ويقربون ما بعد من الشُقّة، إذ لا محيص لهم من الاعتراف بأن التابعين قالوا أقوالاً في معاني القرآن لم يسندوها ولا ادعوا أنها محذوفة الأسانيد، وقد اختلفت أقوالهم في معاني آيات كثيرة اختلافاً يُنبيء إنباءاً واضحاً بأنهم تأولوا تلك الآيات من أفهامهم كما يعلمه من له علمٌ بأقوالهم، وهي ثابتة في تفسير الطبري ونظرائه، وقد التزم الطبري في تفسيره أن يقتصر على ما هو مروي عن الصحابة والتابعين.

ولكنه لا يلبث في كل آية أن يتخطى ذلك إلى اختياره منها، وترجيح بعضها على بعض بشواهد من كلام العرب، وحسبه بذلك تجاوزاً لما حدده من الاقتصار على التفسير بالمأثور[1]. وذلك طريق ليس بنهج، وقد سبقه إليه «بقيٌّ ابن مخلد» و لم نقف

---

(١) طالما عجبت حين وجدت ذلك عند مراجعتي لتفسيره - رحمه الله - فاعتقدت أن ذلك من طبيعة القرآن البيانية - التي تأبى على من تصدى لتفسير القرآن بقصد تبينه وبيانه للناس أن لا ينطلق من حدود المنقول إلى المعقول ومن ثم إلى أفق المفهوم من وحي القرآن الذي يزيد في العلم.

عـــلى تفســـيره. وشاكل الطبري فيه معاصروه مثل: «ابن[أبي][1] حاتم» و«ابن مردويه» و«الحـــاكم»[2]. لكـــن هـــذا التخطي منهم لما التزموا به بدءاً لم يطغ على التفسير بالمأثور الطغـــيان الـــذي يجعله في عداد ما دَرس وذهب، بل وجد من العلماء في عصور مختلفة من اســـتطاع أن يقـــاوم تّيار هذا الطغيان، ففسر القرآن تفسيراً نقلياً بحتاً، على توسع منهم في النقل وعدم تفرقة بين ما صحّ وما لم يصح، كما فعل السيوطي في كتابه «الدر المنثور»[3].

فللّـــه در الذين يحبسوا لمْ أنفسهم في تفسير القرآن على ما هو مأثور مثل «الفّراء وأبي عبيد» من الأولين، و«الزجاجي والرماني» ممن بعدهم، ثم الذين سلكوا طرقهم مثل «الزمخشري وابن عطية»[4].

وهـــذا الـــذي يقوله ابن عاشور من كلام أصيل حتى لكأنه من وحي التنـــزيل وجدتـــه كالصدى لما في نفسي وما استقر فيها وقد جرى على لسانه حين قال: «هذا وان واجب النصح في الدين والتنبيه إلى ما يغفُل عنه المسلمون مما يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم».

---

(١) ساقطة في الأصل فأثبتها.

(٢) انظر تفسير ابن عاشور ١/٣٢-٣٣.

(٣) التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٤٨.

(٤) تفسير ابن عاشور ١/٣٢-٣٣.. قلت ومنهم ابو الليث السمرقندي حيث يقول عنه عبد الرحيم الزقة: «إن تفســـير الســـمرقندي جمـــع بين المأثور والرأي فتضمن قدراً وفيراً من المنقول عن النبي ﷺ وعن أصـــحابه والتابعين. كما ضم نقول علماء اللغة واقوال المدارس التفسيرية المختلف. فجمع بين المأثور والرأي أو بين الرواية والدراية». وكذلك فقد عدَّ السمرقندي «اللغة ركيزة أساسية لتفسير كلام الله سبحانه وتعالى وفهم معاني التنزيل في ضوئها حتى يتمكن المفسر من استيعاب معاني المأثور في التفسير بعدهـــا، واضـــافة ما يمكن اضافته إلى رصيد المأثور لدخول مجال التفسير بالرأي وترجيح الراجح من النتاج التفسيري، وردّ المتهافت، فباللغة يستطيع المفسر استيعاب المنقول وفهم علوم التنزيل» وهذا يعني ان السمرقندي أجاز التفسير بالرأي حيث انه قد أقر قاعدة من قواعد التفسير يقول فيها: «ولا يجوز لاحد ان يفسر القرآن من ذات نفسه برأيه ما لم يتعلم وجوه اللغة وأحوال التنزيل» [من مقال للدكتور عبد الرحيم الزقة بعنوان «السمرقندي ومنهجه في التفسير» مجلة كلية الشريعة /العدد/٥ لسنة/١٩٧٩ ص/٣٧٩ وانظر تفسير السمرقندي ص٢. والتفسير والمفسرون للذهبي ١/٢٢٤.

قضـــي عليّ أن أنبه إلى خطر أمر تفسير الكتاب والقول فيه دون مستند من نقل صـــحيح عن أساطين المفسرين أو إبداء تفسير أو تأويل من قائله إذا كان القائل توفرت فيه شروط الضلاعة في العلوم التي سبق ذكرها.....

فقد رأينا تهافت كثير من الناس على الخوض في تفسير آيات من القرآن فمنهم من يتصدى لبيان معنى الآيات إلى طريقة كتب التفسير، ومنهم من يضع الآية ثم يركض في أساليب المقالات تاركاً معنى الآية جانباً، جالباً من معاني الدعوة والموعظة ما كان جالباً. وقد جلت شواهد الحال على ضعف كفاية البعض[1] لهذا العمل العلمي الجليل.. فيجب عـــلى العاقل أن يعرف قدره، وأن لا يتعدى طوره. وأن يرد الأشياء إلى أربابها، كي لا يختلط الخاثر بالزباد، ولا يكون في حالك سواد.

وان ســـكوت العـــلماء على ذلك زيادة في الورطة، وإفحاش لأهل الغلطة، فمن يركب متن عمياء، ويخبط خبط عشواء، فحق على أساطين العلم تقويم اعوجاجه، وتمييز حلوه من أُجاجه[2].

ثانياً: الضعف في رواية التفسير بالمأثور وأسبابه:

ولعـــل مـــن تمام القول أن أعرج على موضوع الضعف في رواية التفسير بالمأثور وأســـبابه فقـــد قال الإمام الذهبي: «إن التفسير بالمأثور يشمل ما كان تفسيراً للقرآن بالقـــرآن، ومـــا كـــان تفسيراً للقرآن بالسنة، وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف على الصحابة أو المروي عن التابعين».

---

(١) لعلـــه قصـــد أولئك الذين قالوا شططا في تفسيرهم لآيات القرآن دون ان يكون لهم مستند لشروط وأصول التفسير كأصحاب التفسير الباطني من غلاة الشيعة والتفسير الاشاري من غلاة الصوفية ومن اعـــتمدوا على ما بلغهم عن أهل الكتاب وحصروا تفسير كتاب الله في زاوية الماضي من التاريخ أو الـــزائغ مـــن الفكرة أو ما انحرف من الاعتقاد كتفاسير المعتزلة والفلاسفة والروافظ وأشباههم. انظر تفسير ابن عاشور ١/٣٢-٣٦.

وانظر التفسير والمفسرون الجزء الثاني والثالث بتوسع – لمحمد حسين الذهبي.

(٢) انظر تفسير ابن عاشور ٣٧/١.

● أمـــا تفسير القرآن بالقرآن أو بما ثبت من السنة الصحيحة، فذلك مما لا خلاف في قبوله، لأنه لا يتطرق إليه الضعف ولا يجد الشك إليه سبيلاً.

● وأما ما أضيف إلى النبي ﷺ وهو ضعيف في سنده أو متنه فذلك مردود غير مقبول، ما دام لم تصح نسبته إلى النبي ﷺ.

● وأما تفسير القرآن بما روي عن الصحابة أو التابعين فقد تسرّب إليه الخلل، وتطرق إليه الضعف إلى حد كاد يفقدنا الثقة بكل ما روي من ذلك. لولا أن قيّضّ الله لهذا التراث العظيم من أزاح عنه هذه الشكوك، فسلم لنا منه كمية لا يستهان بها، وان كان صحيحها وسقيمها لا يزال خليطاً في كثير من الكتب التي عني أصحابنا بجمع شتات الأقوال.

ولقد كانت كثرة المروي من ذلك جاوزت الحد، وبخاصة عن ابن عباس.. وعلي ابـــن أبي طالـــب رضي الله عنهما أكبر عامل في صرف همة العلماء ولفت أنظارهم إلى البحث والتمحيص، والنقد والتعديل والتجريح.

حتى لقد نقل عن الإمام الشافعي أنه قال: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيهاً بمائة حديث»[1].

قال الذهبي: «وهذا العدد الذي ذكره الشافعي، لا يكاد يذكر بجوار ما روي عن ابـــن عـــباس من التفسير، وهذا يدل على مبلغ ما دخل في التفسير النقلي من الروايات المكذوبة المصنوعة»[2].

هذا وقد حدد الذهبي أسباب الضعف في رواية التفسير بالمأثور بثلاثة أمور:

أولها – كثرة الوضع في التفسير.

ثانيها – دخول الإسرائيليات فيه.

ثالثها – حذف الأسانيد[3].

---

(١) انظر الإتقان للسيوطي ١٨٩/٢ وانظر التفسير والمفسرون ٧٧/١ و ٨٢/١.

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ١٥٦/١-١٥٧.

(٣) انظر التفسير والمفسرون ١٥٧/١ و١٦٥/١ و٢٠١/١.

ثالثاً: مصادر تفسير القرآن وقواعده:

إن الدعــوة إلى دراســة القرآن وتدبره باقية لا تنقطع وقد يسّر الله كتابه للذكر والعلم ومعرفة ما فيه من حقائق وعبر، فان صعب الوصول إلى المراد فسؤال أهل الذكر أمرٌ مفتوح إلى يوم القيامة لقومٍ لا يعلمون.

كــل ذلــك يوحــي بأن هذا القرآن كان ولا يزال وسيبقى حياً متجدداً. ونوراً مــتفجراً لا يقتصر نوره على مكان. ولا وحيه لزمان و لم يستأثر الله علمه على إنسان كائناً من كان[1].

ولــو فسر النبي ﷺ كل القرآن إذاً لجمد على ما فسّره النبي، إذ لا يمكن أن يقول أحد من الناس على ما قاله النبي ﷺ.

ولذلك نجد أن تفسير النبي ﷺ للقرآن كان هو المصدر الأول للتفسير في عهد النبوة وإنما كان هو المصدر الثاني بعد تفسير القرآن بالقرآن في عهد الصحابة.

- قال الإمام الذهبي في معرض حديثه عن مصادر التفسير في عهد النبي والصحابة ما نصــه: «كــان الصحابةُ في هذا العصر يعتمدون في تفسيرهم للقرآن الكريم على أربعة مصادر:

  الأول: القرآن الكريم.

  الثاني: النبي ﷺ.

  الثالث: الاجتهاد وقوة الاستنباط.

  الرابع: أهل الكتاب من اليهود والنصارى»[2].

فعــلى ما قلناه وقرره الذهبي تبنى عدة مسائل أجد من الضروري جداً أن أقدم بها لموضــوع هذا المبحث الذي سنعرض فيه لخلاف المفسرين - رحمهم الله تعالى - حول

---

(١) قــال الراغب: «وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمن للمعنى الجمّ وبحيث تقصر الألــباب البشــرية عــن احصائه والآلات الدنيوية عن اسيفائه كما نبه عليه بقوله: ((ولو ان ما في الارض...عزيز حكيم)) الآية. انظر مفردات الراغب الأصفهاني ص/٥.

(٢) انظر التفسير والمفسرون ٣٧/١ وما بعدها.

هذه الآيات من سورة بني إسرائيل ربما أجمل فيها الوحيُ ويحتاج إلى تفسير وقد أشكل معناها ويحتاج إلى بيان.

القاعدة الأولى: «منهج النبي ﷺ في تفسير القرآن».

أنه لا بد من التزام المنهج الذي رسمه النبي ﷺ من رد كل ما اختلف فيه إلى كتاب الله فإن لم نجد فبسنة رسول الله، فان لم نجد فبالاجتهاد كما ورد من قول معاذ رضي الله عنه وقد أرسله النبي إلى اليمن[1].

وهذه إنما تمثل الخطوة الأولى لتفسير القرآن بالقرآن للوصول إلى فهم معانيه وحصول العلم الشرعي المراد من آياته عن طريق الدراسة والتدبر والاستنباط حيث:

«إن هذا العلم إن أخِذَ من حيث انه بيان وتفسير لمراد الله كان معدوداً من أصول العلوم الشرعية وهي التي ذكرها الغزالي في الضرب الأول من العلوم الشرعية المحمودة من كتاب الإحياء لأنه عَدَّ أولها، الكتاب والسنة، ولا شك انه لا يعني بعلم الكتاب حفظ ألفاظه بل فهم معانيها»[2].

ولقد ذكر فقهاؤنا في آداب قراءة القرآن أن «التفهم مع قلة القراءة أفضل من كثرة القراءة بلا فهم». لذلك قال الإمام الغزالي في الإحياء: «التدبر في قراءته - إعادة النظر في الآية والتفهم - أن يستوضح من كل آية ما يليق بها. كي تنكشف له من الأسرار معان مكنونة لا تنكشف إلا للموفقين»[3].

وبما أن القرآن يفسر بعضه بعضاً فلا بد أن نجد في كتاب الله شيئاً يفسر هذه الآيات إما ان يكون نصاً صريحاً أو قولاً مجملاً أو إشارة ما أو لفظاً إشتمل معنى من معان هذه اللغة التي نزل بها هذا القرآن.

---

(١) أخرج الترمذي أن النبي ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن «بم تحكم» ؟ قال: بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد»؟ قال: بسنة رسول الله، قال: «فإن لم تجد»؟ قال: اجتهد رأيي قال: فضرب رسول الله في صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسول الله»، وهذا الحديث في المسانيد والسنن باسناد جيد، أخرجه الترمذي وابو داود ٢١٢/٥ وسنن الدارمي ٦٠/١.

(٢) تفسير ابن عاشور ١٤/١.

(٣) المصدر السابق ٢٩/١.

القاعدة الثانية: لا بد من التسليم بأنه لم يرد إلينا حديث صحيح أو ضعيف عن رسول الله ﷺ باعتباره المصدر الثاني للتفسير كما أسلفنا، يبين لنا فيه مرتي إفساد بني إسرائيل ولا حتى بيان المراد من العباد الذين بعثهم الله عليهم عقب كل إفساد وإلا لذكره المفسرون حين تعرضوا لتفسير هذه الآيات وإنما الذي روي حديثاً واحداً أورده الطبري في تفسيره وقد رَدّهُ ابن كثير قائلاً: «وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً وهو حديث موضوع لا محالة لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث. والعجب كلّ العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزّي رحمه الله بأنه موضوع مكذوب. وكتب ذلك على حاشية كتابه»[1]. وكل الذي ورد من الآثار في تفسير هذه الآيات هو من الصحابة والتابعين وأغلبها ضعيف مضطرب إلا ما ندر كما سنبينه في حينه ان شاء الله تعالى.

القاعدة الثالثة: وهي تتعلق بالمصدر الثالث لتفسير القرآن وهي قضية الاجتهاد وقوة الاستنباط حيث كان الصحابة - رضي الله عنهم - إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله تعالى و لم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله رجعوا في ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم، وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واستدلال. وكثير من الصحابة كان يفسر بعض آي القرآن بهذا الطريق، أعني طريق الرأي والاجتهاد، مستعينا على ذلك بما يأتي:

أولاً - معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

ثانياً - معرفة عادات العرب.

ثالثاً - معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن.

رابعاً - قوة الفهم وسعة الإدراك[2].

وسأتناول كل فقرة بشرح مختصر.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٥٢/٣.

(٢) انظر التفسير والمفسرون للذهبي ٥٨/١.

١- معرفة أوضاع اللغة وأسرارها:

إذ إنها تعين على فهم الآيات التي لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب.. يقول ابن عاشور: روى أئمة الأدب إن عمر بن الخطاب ﷺ قرأ على المنبر قوله تعالى: ﴿**أو يأخذهم على تخوف**﴾ النحل/٤٧ ثم قال ما تقولون فيها..؟ أي في معنى التخوف، فقام شيخ من هذيل فقال هذه لغتنا، والتخوف: التنقص، فقال عمر، وهل تعرف العرب ذلك من كلامها؟ قال نعم. قال أبو كبير الهذلي:

تخوف الرحل منها تامكاً قرداً   كما تخوف عود النبعة السفن[١]

فقال عمر: «عليكم بديوانكم لا تضلوا، وهو شعر العرب فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم».

وعن ابن عباس: «الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن، الذي أنزله الله بلغتهم رجعنا إلى ديوانهم فالتمسنا معرفة ذلك منه» وكان كثيراً ما ينشد الشعر إذا سئل عن بعض حروف القرآن.

قال القرطبي سئل ابن عباسﷺ، عن السِنة في قوله تعالى ﴿**لا تأخذه سِنة ولا نوم**﴾ فقال: النعاس، وأنشد قول زهير:

لا سِنة في طِوال الليل تأخذه   ولا ينام ولا في أمره فَنَدُ[٢]

٢- معرفة عادات العرب:

لأنها تعين على فهم كثير من الآيات التي لها صلة بعاداتهم فمثلاً قوله تعالى: ﴿**إنما النسيء زيادة في الكفر**﴾ التوبة/٣٧. لا يمكن فهم المراد منه، إلا لمن عرف عادات العرب في الجاهلية وقت نزول القرآن[٣].

---

(١) الرحل: الحمل. التامك: السنام – القرد: الشعر المفتل – النبعة: العود – السفن: المبرد – انظر دراسات في التفسير ورجاله – أبو اليقظان ص/٢٦.

(٢) تفسير ابن عاشور ١/٢٢.

(٣) التفسير والمفسرون للذهبي ١/٥٨.

وكمـــا روى الإمام مالك في الموطأ عن عروة ابن الزبير قال: «قلت لعائشة، وأنا يومئذ حديث السن: أرأيت قول الله تعالى: ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيـــت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما**﴾ البقرة/١٥٨. فما على الرجل شيء أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة كلا لو كانت كما تقول، لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما. إنما نزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يُهلون لمناة الطاغية، وكانت مناة حـــذو قُديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رســـول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله: ان الصفا والمروة.. الآية. فبينت له ابتداء طريقة اســـتعمال العرب لو كان المعنى كما وهمه عروة ثم بينت له مثار شبهته الناشئة عن قوله تعـــالى ﴿**فلا جناح عليه**﴾ الذي ظاهره رفع الجناح عن الساعي الذي يصدق بالإباحة دون الوجوب[1]. فإخبار العرب كانت من جملة أدبهم. يستعان بها على فهم ما أوجزه القـــرآن في سوقها لان القرآن إنما يذكر القصص والإخبار للموعظة والاعتبار، لا لأن يـــتحادث الناس بها في الأسفار، فبمعرفة الأخيار يعرف ما أشارت له الآيات من دقائق المعاني، كقصة أصحاب الأخدود في قوله تعالى ﴿**قتل أصحاب الأخدود**﴾[2].

٣- معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن.

كذلـــك من الأمور التي اعتمدها المفسرون من الصحابة والتابعين باعتبارها تعين عـــلى فهـــم الآيات فيها إشارة إلى أعمالهم والرد عليهم[3] وقد أطلق على هذا المصدر - فـــيما بعـــد - مصطلح «الإسرائيليات» حيث أطلق على كل ما روي من القضايا والمسائل والقصص والمواعظ التي تدور حول التراث الثقافي اليهودي والنصراني.

ولكثرة ما ورد عن اليهود تغلّب على هذا الاتجاه مصطلح «الإسرائيليات»[4]. قال الذهـــبي: «ولفظ الإسرائيليات وإن كان يدل بظاهره على اللون اليهودي للتفسير وما

---

(١) تفسير ابن عاشور ٢٣/١.

(٢) المصدر السابق ٢٥/١.

(٣) التفسير والمفسرون للذهبي ٥٨/١.

(٤) راجع تطور تفسير القرآن: محسن عبد الحميد ص/٢٩.

كـــان للـــثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه، إلا أنا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل، فـــنريد به ما يعم اللون اليهودي واللون النصراني للتفسير، وما تأثر به التفسير اليهودي على الجانب النصراني، فان الجانب اليهودي هو الذي اشتهر أمره فكثر النقل عنه، وذلك لكثرة أهله وظهور أمره وشدة اختلاطهم بالمسلمين».

كان لليهود ثقافة دينية وكان للنصارى ثقافة دينية كذلك، وكلتا الثقافتين كان لها أثر في التفسير إلى حدّ ما.. وكان لليهود بجانب التوراة سنن ونصائح وشروح لم تؤخذ عن موسى عليه السلام بطريق الكتابة وإنما حملوها ونقلوها بطريق المشافهة، ثم نمت على مرور الزمن وتعاقب الأجيال.. ووجد بجوار ذلك كثير من الأدب اليهودي، والقصص، والتاريخ، والتشريع، والأساطير..

وكان طبيعياً أن يشرح الإنجيل - كذلك - بشروح مختلفة، كانت فيما بعد منبعاً من منابع الثقافة النصرانية، كما وجد بجوار ذلك ما زاده النصارى من القصص والأخبار والتعاليم التي زعموا أنهم تلقوها عن عيسى عليه السلام..[1].

«وإذا نحـــن أجلنا النظر في التوراة والإنجيل نجد أنهما اشتملا على كثير مما اشتمل علـــيه القرآن الكريم، وبخاصة ما كان له تعلّق بقصص الأنبياء عليهم السلام وذلك على اخـــتلاف في الإجمال والتفصيل، فالقرآن إذا عرض لقصة من قصص الأنبياء - مثلاً - فإنـــه ينحو فيها ناحية يخالف بها التوراة والإنجيل فتراه يقتصر على مواضع العظة، ولا يتعرض لتفصيل جزئيات المسائل، فلا يذكر تأريخ الوقائع، ولا أسماء البلدان التي حصلت فـــيها كمـــا نـــاه في الغالب لا يذكر أسماء الأشخاص الذين جرت على أيديهم بعض الحوادث، ولا يدخل في تفاصيل الجزئيات، بل يتخير من ذلك ما يمسُّ جوهر الموضوع وما يتعلق بموضع العبرة»[2].

إن قصـــارى علم أهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة أخبار الأنبياء وأيامهم وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٦٥-١٦٦.

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٦٧.

إلا الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحدياً عظيماً لأهل الكتاب، وتعجيزاً لهم بقطع حجتهم على المسلمين، قال تعالى ﴿**تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا**﴾ هود/٤٩[١].

«وبعـــد.. فهل يجد المسلمون هذا الإيجاز في كتابهم، ويجدون بجانب ذلك تفصيلاً لهذا الإيجاز في كتب الديانات الاخرى، ثم لا يقتبسون منها بقدر ما يرون أنه شارحٌ لهذا الإيجـــاز وموضح لما فيه من غموض..»[٢] هذه هي القضية التي كانت السبب الأهم في دخول الإسرائيليات والى تأثر التفسير بها.

يقـــول الذهبي موضحاً هذه القضية: نستطيع أن نقول: إن دخول الإسرائيليات في التفسير، أمر يرجع إلى عهد الصحابة - رضي الله عنهم - وذلك نظراً لاتفاق القرآن مع الـــتوراة والإنجيل في ذكر بعض المسائل - كما تقدم - مع فارق واحد هو الإيجاز في القرآن والبسط والإطناب في التوراة والإنجيل..

وســـبق لنا القول بأن الرجوع إلى أهل الكتاب، كان مصدراً من مصادر التفسير عند الصحابة، فكان الصحابي إذا مرَّ على قصةٍ من قصص القرآن يجد من نفسه ميلاً إلى أن يســـأل عـــن بعض ما طواه القرآن منها و لم يتعرض له، فلا يجد من يجيبه إلى سؤاله ســـوى هؤلاء النفر الذين دخلوا في الإسلام، وحملوا إلى أهلهم ما معهم من ثقافة دينية فالقوا إليهم ما ألقوا من الأخبار والقصص الديني[٣].

والحق إن رسول الله ﷺ قد وجه الصحابة في أحاديثه إلى كيفية التعامل السليم مع أهل الكـــتاب.. ففي بداية الاتصال مع اليهود في المدينة حرّم عليهم أن يقرأوا التوراة.. لاسيما إن الإســـلام يومـــئذ كـــان في بداية صياغته لمسلمي المدينة، فكان الخوف من الخلط والتشويه والتشكيك قائماً.. وكان كبار الصحابة يخافون على عامة المسلمين من ذلك التأثير.

---

(١) انظر تفسير ابن عاشور ٦٥/١.

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ١٦٨/١.

(٣) التفسير والمفسرون للذهبي ١٦٩/١.

أخـــرج الإمام أحمد وغيره من حديث جابر بن عبد الله ان عمر ابن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه.. فغضب فقال: امتهوكون[١] فـــيها يـــا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شـــيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسُ محمد بيده لو ان موسى عليه السلام كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني[٢].

ولما رسخ الإسلام في المدينة، وتوضحت أمام المسلمين الجدد جميعاً عقائده ومبادئه واخلاقه، لم يعد رسول الله ﷺ يخاف عليهم من الاطلاع على ما عندهم فوجههم بقوله الصـــادق الكريم: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما انزل إليـــنا..**»[٣].. أي إن الأصل أننا نؤمن بالإسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً، فما وافقه مما عـــند أهـــل الكتاب، لنا ان نصدقه وما خالفه نكذبه، ونعتقد انه تحريف وكذب على موســـى وعيسى عليهم السلام.. وعندما غدا الأمر واضحاً، وتكامل نزول الآيات في الحكم على أهل الكتاب بالتحريف، لم يبق حرج في الاطلاع، فحينئذ وضع رسول الله ﷺ قـــاعدة عامـــة سارية إلى يوم القيامة بقوله: «**بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إســـرائيل ولا حـــرج ومن كذب عليّ متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار**»[٤].. غير أن رجـــوع الصـــحابة إلى أهـــل الكتب - كان - في مجال ضيق جداً في بعض الأخبار والروايات التاريخية من منطلق غريزة الاستطلاع على ما عند الغير[٥]..

غـــير إن هذه المرويات قد كثرت في أواخر عهد الصحابة وفي عصر التابعين حتى طغت عند بعض المفسرين بقصد بيان ما أشكل مراده من بعض الآيات وبنيّة حسنة وفي

---

(١) متهوكون: متحيرون.

(٢) أورده الامام أحمد في مسنده ٣/٣٨٧.

(٣) فتح الباري في شرح صحيح البخاري - لابن حجر العسقلاني ٨/١٢٠.

(٤) المصدر السابق ٦/٣٢٩.

(٥) انظر تطور تفسير القرآن - محسن عبد الحميد ص٣١-٣٢. وانظر التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٦٩ وما بعدها. وانظر مقدمة ابن خلدون ٣/٩٩٧.

هذا يقول الذهبي بعد حديثه عن أخذ بعض الصحابة كابن عباس وغيره: «هذا هو مبلغ رجوع الصحابة إلى أهل الكتاب وأخذهم عنهم، أما التابعون فقد توسعوا في الأخذ عن أهل الكتاب، فكثرت على عهدهم الروايات الإسرائيلية في التفسير، ويرجع ذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية، فظهرت في هذا العهد جماعة من المفسرين أرادوا أن يسدوا هذه الثغرات القائمة في التفسير بما هو موجود عند اليهود والنصارى، فحشوا التفسير بكثير من القصص المتناقض، ومن هؤلاء مقاتل ابن سليمان المتوفى سنة (١٥٠هـ) الذي نسبه أبو حاتم إلى انه استقى علومه بالقرآن من اليهود والنصارى وجعلها موافقة لما في كتبهم[1].. ثم جاء بعد عصر التابعين من عظم شغفه بالاسرائيليات، وأفرط في الاخذ منه إلى درجة جعلهم لا يردون قولاً، ولا يجمحون عن ان يلصقون بالقرآن كل ما يروى لهم وان كان مما لا يتصوره العقل[2].. واستمر هذا الشغف بالإسرائيليات والولع بنقل هذه الأخبار التي أصبح الكثير منها نوعا من الخرافة إلى أن جاء دور التدوين للتفسير، فوجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذا القصص الإسرائيلي الذي كاد يصد الناس عن النظر فيها والركون إليها.. ولقد كان لهذه الإسرائيليات التي أخذها المفسرون عن أهل الكتاب وشرحوا بها كتاب الله تعالى أثر سيء في التفسير؛ ذلك لان الأمر لم يقف على ما كان في عهد الصحابة رضي الله عنهم بل ازدادوا على ذلك فرووا كل ما قيل لهم إن صدقاً وان كذباً، بل ودخل هذا النوع من التفسير كثير من القصص الخيالي المخترع، مما جعل الناظر في كتب التفسير التي هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئاً مما جاء فيها، لاعتقاده أن الكل من واد واحد، وفي الحق إن المكثرين من هذه الإسرائيليات وضعوا الشوك في طريق المشتغلين بالتفسير، وذهبوا بكثير من الأخبار الصحيحة بجانب ما رووه من قصص

---

(١) انظر وفيات الاعيان ٥٦٨/٢.

(٢) انظر رواية ابن اسحاق التي ساقها الطبري ٢٣/١٥ وفيها سنحاريب غزا بني اسرائيل بستمائة الف راية.. وغيرها كثير.

مكـــذوب وأخبار لا تصح، كما ان نسبة هذه الإسرائيليات التي لا يكاد يصح منها إلى بعض من آمن من أهل الكتاب، وجعلت بعض الناس ينظر إليهم بعين الاتهام والريبة»[1].

* قلت وعلى هذا فنحن أمام ما نقل إلينا من المأثورات عن النبي ﷺ نقلاً صحيحاً موثقاً لا شائبة فيه ولا مغمز ليس لنا إلا التسليم بقبوله والرضا به على العين والرأس ما دامت قد علمت صحتهُ.

* أما ما نقل وقد علم كذبه على رسول الله ﷺ أو عن الصحابة أو قد بان ضعف سنده وأنه يتناقض مع ما عرفناه من شرعنا أو كان لا يتفق مع العقل فهذا لا يصح قبوله ولا روايته.

* وأما ما جاء منقولاً عن الصحابة - مما سكت عنه الشرع - بطريق صحيح فإن كان قد جُزم به فهو من النوع الأول يقبل ولا يرد لاحتمال سماعه من النبي ﷺ أو ممن سمعه عنه أقوى من احتمال سماعه من أهل الكتاب.

* وأما ما جاء منقولاً - من هذا - عن التابعين فهو مما يتوقف فيه ولا يحكم عليه بصدق ولا كذب، وذلك لقوة احتمال السماع من أهل الكتاب لما عرفوا به من كثرة الأخـــذ عنهم، وبعد احتمال كونه مما سمع من رسول الله ﷺ وخاصة إذا لم يتفق أهل الرواية من علماء التفسير فيه[2].

٤- قوة الفهم وسعة الإدراك:

قلـــنا إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتعاونون في معرفة تفسير القرآن لأنهم لم يكونـــوا جميعاً على معرفة واحدة بمعاني الألفاظ جميعها.. وكذلك لم يكونوا جميعا على مستوى عقلي واحد.. فبعضهم آتاه الله تعالى قوة الاستنباط العقلي دون البعض الآخر..

قال الذهبي: «وهذا يرجع إلى تفاوتهم في القوة العقلية، وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأكثر من هذا، إنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني

---

(١) انظر التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٧٦ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ١/١٧٩ بتصرف.

التي وضعت لها المفردات.. فمن مفردات القرآن ما خفي على بعض الصحابة، ولا ضير في هذا، فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، و لم يدع أحد أن كل فرد من أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها..

ومما يشهد لهذا الذي ذهبنا إليه، ما أخرجه أبو عبيدة في الفضائل عن أنس «إن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وأبّاً) فقال هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر».. وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: «كنت لا أدري ما فاطر السماوات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها يقول: أنا ابتدأتها».

فإذا كان عمر بن الخطاب يخفى عليه معنى الأب ومعنى التخوف، ويسأل عنها غيره، وابن عباس - وهو ترجمان القرآن - لا يظهر له معنى فاطر إلا بعد سماعها من غيره فكيف شأن غيرهما من الصحابة؟ لا شك ان كثيراً منهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالي للآية، فيكفيهم - مثلاً - ان يعلموا من قوله تعالى ﴿**وفاكهة وأباً**﴾ انه تعداد للنعم التي أنعم الله بها عليهم، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معنى الآية تفصيلاً ما دام المرادُ واضحاً جلياً[1].

والحق إن الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يتفاوتون في القدرة على فهم القرآن وبيان معانيه المرادة منه، وذلك راجع - كما تقدم - إلى اختلافهم في أدوات الفهم، فقد كانوا يتفاوتون في العلم بلغتهم، فمنهم من كان واسع الاطلاع فيها ملماً بغريبها، ومنهم من كان يلازم النبي ﷺ فيعرف من أسباب النزول مالا يعرفه غيره وأضف إلى هذا وذاك إن الصحابة لم يكونوا في درجتهم العلمية ومواهبهم العقلية سواء، بل كانوا مختلفين في ذلك اختلافاً عظيماً..

قال مسروق: «جالستُ أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالآخاذ[2] فلاخاذ يروي الرجل، والأخاذ يروي الرجلين، والاخاذ يروي العشرة، والاخاذ يروي المائة، والأخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم».

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ١/٣٥.

(٢) الأخّاذ: يعني الغدير أو الجدول.

هــذا وقد قال ابن قتيبة: «إن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل في ذلك على بعض».

ويظهر إن ابن خلدون قد شعر بذلك فصرح به فيما أورده - في مقدمته - حيث قــال: «وكــان النبي ﷺ يبين المجمل، ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه»(١).

«وهــذا تصريح منه بأن العرب كان لا يكفيهم في معرفة معاني القرآن معرفتهم بلغته، بل كانوا في كثير من الأحيان بحاجة إلى توقيف من الرسول ﷺ»(٢).

القــاعدة الــرابعة: تتعلق باختلاف المفسرين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وضــرورة جمــع أقــوال السلف وتوحيدها.وفي هذا المقام يقول الإمام أحمد ابن تيمية - رحمــه الله -: «يجب أن يُعلم ان النبي ﷺ بين لاصحابه معاني القرآن، كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى ﴿**لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾ النحل/٤٤ يتناول هذا وهذا. وكذلك قــال تعالى ﴿**إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**﴾ يوسف/٢. وعقل الكلام متضمن لفهمه. ومن المعلوم ان كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه فالقرآن أولى بذلــك ولهذا كان النــزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً وهو وإن كان في الــتابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل إلى ما بعدهم، وكلما كان العصر اشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر».

ومــن الــتابعين مــن تلقى جميع التفسير عن الصحابة كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس، أوقفه عند كل آية منه وأساله عنها(٣).

والمقصود إن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السنة، وان كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بلاستنباط والاستدلال، كما يتكلمون في بعض السنن

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص/٤٨٩.

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ١/٣٥-٣٦ بتصرف.

(٣) انظر تفسير الطبري ١/٩٠.

بالاستنباط والاستدلال. ولكننا نجد على الرغم من ذلك أن «الخلاف بين السلف في التفسير قليلٌ وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير. وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد»[1].

والاختلاف قد يكون لخفاء الدليل والذهول عنه، وقد يكون لعدم سماعه، وقد يكون للغلط في فهم النص، وقد يكون لاعتقاد معارض راجح.

رابعاً: الإختلاف في التفسير:

والاختلاف في التفسير على نوعين:

الأول: منه ما يستند النقل فقط.

الثاني: ما يعلم بغير ذلك. إذ العلم إما نقل مُصدق وإما إستدلال محقق. والمنقول إما عن المعصوم، وإما عن غير المعصوم.

«الخلاف الواقع في التفسير من جهة النقل».

والمقصود بأن جنس المنقول سواءٌ كان عن المعصوم أو غير المعصوم - وهذا هو الأول - فمنه ما يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف، ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك فيه. وهذا القسم الثاني من المنقول. وهو ما لا طريق لنا إلى الجزم بالصدق منه[2] عامته مما لا فائدة فيه، والكلام فيه فضول الكلام.

وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله تعالى نصب على الحق فيه دليلاً.

فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه: اختلافهم في «لون كلب أصحاب الكهف» وفي البعض الذي ضَرَب به موسى البقرة، وفي مقدار سفينة نوح وكان خشبها، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ونحو ذلك[3] فهذه الأمور طريق العلم بها

---

(١) مقدمة في اصول التفسير لابن تيمية ص/٣٨ وانظر انواع الاختلافات التي عدها في مقدمته ص/٣٨ وما بعدها وفي اقتضاء الصراط المستقيم ص/٣٧ فما بعدها أيضاً.

(٢) أي بالصحيح منه.

(٣) وهذا الذي يتحدث عنه ابن تيمية رحمه الله مما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه، سودت به صفحات كثيرة من كتب التفسير «انظر المقدمة» ص/٥٦ - الحاشية /٣.

النقل، فما كان من هذا منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ كاسم صاحب موسى أنه «الخضر»[1] فهذا معلوم.

وما لم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب - كالمنقول عن كعب، ووهب، ومحمد ابن إسحاق، وغيرهم[2] ممن يأخذ عن أهل الكتاب - فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه**»[3]. وكذلك ما نقل عن بعض التابعين وأن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب. فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض. وما نقل في ذلك عن الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين. لأن احتمال أن يكون سمعه النبي ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين، ومع جزم الصحابي بما يقوله كيف يقال أنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم[4].

أما عن قضية ما نقل عن التابعين في التفسير فانه قد "نقل عن الإمام أحمد روايتان في ذلك، رواية بالقبول ورواية بعدم القبول.

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعي، واختاره ابن عقيل، وحكي عن شعبة.

---

(١) أورد ذلك الامام البخاري في صحيحه من حديث ابي بن كعب. انظر فتح الباري ١٣٧/١.

(٢) هؤلاء الثلاثة هم عمد الرواية الاسرائيلية و لم يتعرض شيخ الاسلام في كلامه على هؤلاء الاعلام إلى موضوع تعديلهم أو الطعن في روايتهم ولكنه أشار إلى ضرورة التوقف فيما ينقلونه وليس في هذا التوقف طعن في صحة نقلهم ولكن في مضمون ما ينقلونه اذ اختلت فيه بعض الشروط. انظر مقدمة التفسير (ص/٥٧) وانظر تهذيب التهذيب ٤٣٨/٨ وميزان الاعتدال ٣٤٢/٤.

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٣٦/٤ وأبو داود في سننه ٤٣٣/٣ وفتح الباري ٣٢٣/٥ بألفاظ متقاربة.

(٤) انظر مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص/٥٧-٥٨.

واستدل أصحاب هذا الرأي على ما ذهبوا إليه بأن التابعين ليس لهم سماع من الرسول ﷺ فلا يمكن الحمل عليه كما قيل في تفسير الصحابي أنه محمول على سماع النبي ﷺ وبأنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن. فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد وظن ما ليس بدليل دليلاً.

ومع ذلك فعدالة التابعين غير منصوص عليها كما نص على عدالة الصحابة. نقل عن أبي حنيفة أنه قال: ما جاء عن رسول الله فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال.

وقد ذهب أكثر المفسرين إلى انه يؤخذ بقول التابعي في التفسير، لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة قال الذهبي: «والذي تميل إليه النفس: هو أن قول التابعي في التفسير لا يجب الأخذ به إلا إذا كان مما لا مجال للرأي فيه، فإنه يؤخذ به حينئذ عند عدم الريبة، فإن ارتبنا فيه، بأن كان يأخذ من أهل الكتاب فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه»(١).

قال ابن تيمية: «قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟. يعني إنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم.

وهذا صحيح. أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فان اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك»(٢).

ويزيد شيخ الإسلام هذا الأمر توضيحاً فيقول: «إن الاختلاف الذي لا يعلم صحيحه، ولا يفيد حكاية الأقوال فيه هو كالمعرفة لما يروى من الحديث الذي لا دليل على صحته وأمثال ذلك. ثم يضيف:

وأما القسم الأول الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود فيما يحتاج إليه ولله الحمد، فكثيراً ما يوجد في التفسير والحديث والمغازي أمور منقولة عن نبينا ﷺ وغيره

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ١٢٨/١.

(٢) مقدمة التفسير لابن تيمية ص/١٠٥ وانظر الإتقان ١٧٩/٢.

مــن الأنبــياء (عليهم السلام) والنقل الصحيح يؤكد هذا ويبنيه، بل هذا موجود فيما مستنده النقل وفيما يعرف بأمور أخرى غير النقل.

والمقصود: أن المنقولات التي يحتاج إليها في الدين قد نصب الله الأدلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره.

ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم ولهذا قال الإمام أحمــد: ثلاثــة أمــور ليس لها إسناد: «التفسير والملاحم والمغازي». ويروى «ليس لها أصل»[1] أي إسناد لأن الغالب عليها «المراسيل»[2].

خامساً - أهم ما تميز به التفسير المأثور في هذه المرحلة.

قال الإمام الذهبي: «يمتاز التفسير في هذه المرحلة بالمميزات الآتية:

أولاً - دخل في التفسير كثير من الإسرائيليات والنصرانيات وذلك لكثرة من دخل مــن أهــل الكــتاب في الإسلام وكان لا يزال عالقاً بأذهانهم من الأحبار مالا يتصل بالأحكــام الشرعية.. وكانت النفوس ميالة لسماع التفاصيل عما يشير اليه القرآن من احــداث يهودية أو نصرانية، فتساهل التابعون فزجّوا في التفسير بكثير من الإسرائيليات والنصرانيات بدون تحرٍ ونقدٍ. ولا شك ان الرجوع إلى هذه الإسرائيليات في التفسير امرٌ مأخوذ على التابعين كما هو مأخوذ على من جاء بعدهم[3].

ثانياً - ظل التفسير محتفظاً بطابع التلقي والرواية إلا أنه لم يكن تلقياً ورواية بالمعنى الشــامل كما هو الشأن في عصر النبي ﷺ وأصحابه، بل كان تلقياً ورواية يغلب عليها طــابع الاختصــاص. فالمكــيّون عن ابن عباس، والمدنيون عن أُبيّ، والعراقيون عن ابن مسعود وهكذا.

---

(١) قال محقق ابن تيمية في التفسير (في الهامش رقم ٢ ص/٥٩) وذكر السيوطي ان المحققين من أصحاب الامــام أحمــد قالوا: مراده ان الغالب ليس لها اسانيد صحاح متصلة، انظر ص/٥٩ وراجع الإتقان للسيوطي ٢/٣٠٤.

(٢) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص/٥٨-٥٩ وانظر ضحى الإسلام لأحمد أمين ٢/١٤١.

(٣) انظــر مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص/٥٦ وما بعدها وانظر فجر الإسلام ص/٢٥٢، وانظر منهج الفرقان ٢/٢٠.

ثالثاً- ظهرت في هذا العصر نواة الخلاف المذهبي، فظهرت بعض تفسيرات تحمل في طياتها هذه المذاهب.

رابعـــاً - كـــثرة الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان بين الصحابة وان كان الخلاف قليلاً بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخري المفسرين[1].

وعـــلى قدر التعامل مع هذه القواعد من الأخذ بها أو ببعضها يتحقق الوصول إلى الحقائق التي يتضمنها النص القرآني من علم رباني وعبر وايحاءات تصلح ان تكون معالم بارزة ودالة على الطريق الذي ينبغي على الأمة أن تسلكه للوصول إلى الغاية التي تاهت عنها بعد ما شغلت عنها...

ولذلك تجد المفسرين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم.. كل قد اجتهد و لم يألُ وقد تحرى الحق من روايته التي كان فيها والثغر الذي رابط فيه فكانوا كقومٍ وردوا بحراً فمـــنهم مـــن غاص في بحر القرآن يبحث عن لألئهِ وأصدافه ومنهم من تردد بين العمق والسطح ومن سبح على الشاطئ ومنهم من أغترف غرفة بيده، وكلهم أراد الحق وأبتغى الصـــواب وبـــذل المجهود وقد اختلفت أقوالهم وما توصلوا إليه تبعاً لاختلاف أدواتهم ووســـائل استنباطهم للمعنى المقصود من النص، وما توصلوا إليه من تفسير هذه الآيات التي وردت فيما يخص إفساد بني إسرائيل في الأرض مرتين..

وأن مـــن المسلّم به إن إفساد بني إسرائيل لم يكن في الأرض مرتين فحسب انه لم يـــنقطع يومـــاً على مرّ الزمن من يوم أن قتل أحد ابني آدم أخاه حقداً وحسداً وظلماً وفســـاداً[2]. واســـتمر وما كان له من فتور على الرغم من بعث الله الأنبياء والمرسلين. فقتلوا الأنبياء المرسلين واستعلوا على الله وكتبه واستكبروا في الأرض بغير الحق وعصوا

---

(١) راجع التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٣٠-١٣١ للأستزادة.

(٢) اشارة إلى قوله تعالى: ﴿**اتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين**﴾ المائدة/٢٧ إلى آخر الآيات التي ربط القرآن بينها وبين قتل بني اسرائيل الناس فساداً في الأرض فيقول تعالى: ﴿**من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساداً في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً**﴾.

أنبياء الله ورسله رغم أخذ الميثاق منهم بعد ما شفع لهم نبيهم موسى[1]. بأن يؤمنوا برسول الله محمـــد ﷺ ويتـــبعوه والله أعلم حيث يجعل رسالته.. والله عليم بالمفسدين الذين شاءت إرادة الله أن يكون لهم بسبب إفسادهم - عقوبتان[2] في قضاء الله تعالى وفي قدره..

أحدهمـــا: هـــذه عندما يفسدون في الأرض مرتين فيبعث الله عليهم - عقب كل مـــرة - من يجوس خلال الديار ويدخل عليهم المسجد ويسوء وجوههم ويتبر كل ما علوه تتبيراً.

والثانـــية: دائمة ممتدة إلى يوم القيامة فيبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب. فان الله تعالى قدّر ان يجعل على بني إسرائيل قانونين للعقوبة[3]..

الأول - على يد عباد له صالحين، والآخر: على يد غيرهم، فالأولون يبعثهم عقب أكـــبر افســـادين، والآخرون يبعثهم عليهم كل حين، يسومونهم سوء العذاب إلى يوم القيامة. فقانون عقابهم موجود وحتمية وقوعه كائنة ولذلك عبّر القرآن عن هذه القضية بـــأدقّ تعـــبير فقال تعالى: ﴿**وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب**﴾ الأعراف/١٦٧.

وفي هـــذه الآية وما فيها من الإعجاز. والذي يهمنا هنا هي كلمة «تأذن» والتي تعـــني الإعلام والإعلان بحتمية البعث عليهم، فإذا كان ربك هو الذي تعهد بان يبعث عليهم - إلى يوم القيامة - من يسومهم سوء العذاب فمن يملك لهم من دون الله ولياً أو نصيراً، وتلك سنة الله لن تجد لها تبديلاً. بل ﴿**ولن تجد لسنة الله تحويلاً**﴾ الإسراء/٧٧.

ولعـــل سؤالاً يلوح يحتاج إلى إجابة بوضوح فيما يخص إختلاف المفسرين حول إفساد بني إسرائيل المذكور في سورة الإسراء والتي نزلت بمكة.

لمـــاذا لم يبين النبي ﷺ هذين الإفسادين ومن هم المبعوثون عليهم؟ ولماذا لم تتفق أقـــوال الصحابة في هذه القضية؟. وقد زادت شقة الخلاف عند التابعين وقد سألوا أهل

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء**﴾.

(٢) انظر المطلب الثاني من المبحث الأول في الفصل الرابع «بعثنا وليبعثن قانوني عقوبة».

(٣) انظر الكلام عن هذين القانونين في الفصول القادمة.

الكـــتاب عـــن أخبارهم؟ ولماذا تضاربت الأقوال وإختلفت إختلافاً كثيراً عند من جاء بعدهم وذي كتب التفسير والتاريخ تعج بالأخبار المتناقضة عن هذين الإفسادين حتى لا يصدر عنها القاريء لها إلا وقد إختلط الأمر عليه وزيد في حيرته.

لمـــاذا هـــذا الإختلاف؟ أهي قضية في القرآن من القضايا التي استأثر الله بعلمها كقضية الروح مثلاً. فلا ينالنا من العلم فيها الا قليلاً؟..

أم أنها قضية لم يبينها النبي ﷺ وهو الذي كان يأخذ الشهادة من الناس أمام الله في كل وقت بقوله: (ألا هل بلغت) فيقول الناس (بلى) فيقول (اللهم فاشهد). أم أن العربية لم تسـعف أساطينها ؟ وقد نزل القرآن بها فقال تعالى ﴿**إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**﴾ يوسف/٣.

أم قعد بهم الاجتهاد والسعي عن إدراك وبلوغ المرام وهم الذين نشروا هدي هذا الدين في الأرض حتى اجتاز المشرقين، وأوصلوه الى من سكن الآفاق. وأودعوا مكاتب الـــتاريخ بالذخائر والنفائس حتى لم يجد الحاقدون شيئاً يظهرون به سواد قلوبهم إلا أن يصبغوا مياه الأنهار بمدادها[1].

أم أن الـــتاريخ وقف عاجزاً عن أن يخبرهم عن إفساد بني إسرائيل في الأرض ؟. الـــتاريخ الذي يكاد لم يخبر عن شيء كما أخبر عن إفساد بني إسرائيل في الأرض على مدار فصوله؟.

نعم إنه الباب الذي دخله المفسرون وهم يطلبون فهم هذه الآيات التي أخبرتهم عن مرحلة فريدة من مراحل إفساد بني إسرائيل. فسألوا من أسلم منهم فأخبروهم عمن كفر وأفسد من أسلافهم.

ومهما يكن من أمرٍ فأن إختلاف المفسرين ينحصر في قضيتين:

الأولى: هي تحديد هذين الإفسادين ووقت وقوعهما.

الثانية: هوية المبعوثين عليهم عقب كل إفساد منهما.

---

(١) إشارة إلى ما فعله التتار حينما غزو بغداد فألقوا الكتب في نهر دجله وقد تغير لون الماء بمدادها.

أمـــا عن القضية الأولى فقد إختلف المفسرون في تحديد هذين الإفسادين غير أهم إتفقـــوا عـــلى أهما وقعا قبل الإسلام وقبل نزول القرآن.. وأما عن القضية الثانية فقد أختلفوا في هوية المبعوثين عليهم عقب كل إفساد إختلافاً كبيراً..

قلت..

إنـــه إن كـــان ولابد من حصر هذا الإختلاف، فبعد الدراسة المستفيضة والمتابعة الكـــثيرة وجدت بفضل الله تعالى إن المسالة لاتعدو أكثر من إنقسام العلماء إلى فريقين ولكل فريق قول أعتمده على ما ترجح عنده من أدلة توصل بها إلى ما قال..

الفريق الأول:

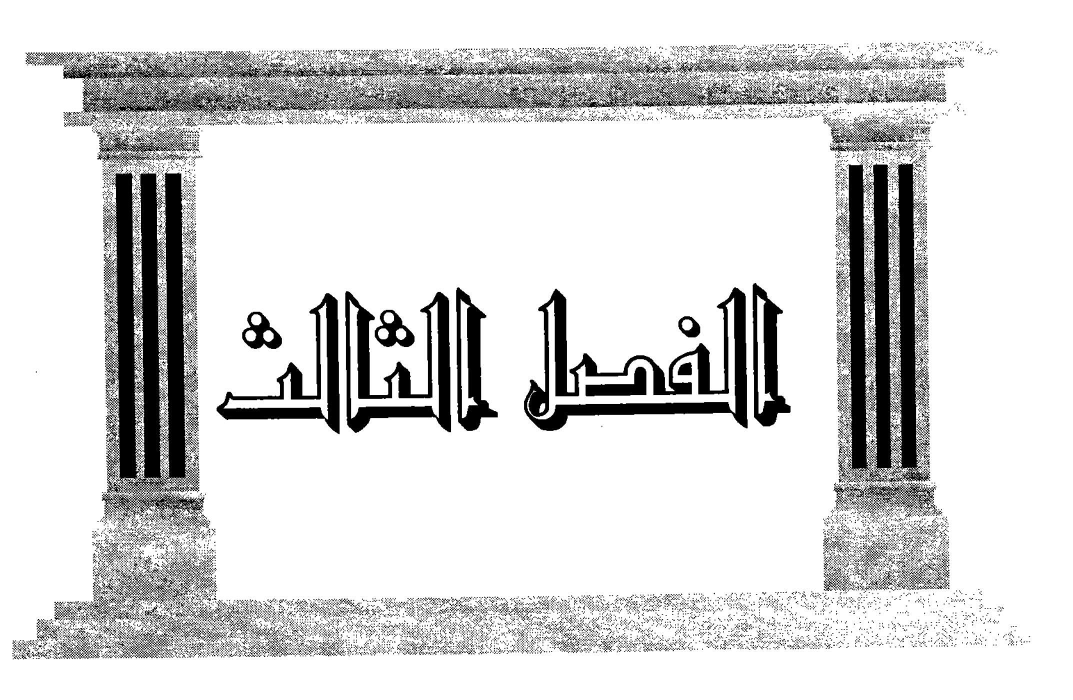
قـــالوا أن هذين الإفسادين اللذين ذكرهما سورة بني إسرائيل إنما وقعا منهم قبل الإسلام وقبل نزول القرآن.. وهو ما قال به أكثر المفسرين – رحمهم الله-.

غـــير أهم إختلفوا في تحديد هذين الإفسادين وفي هوية المبعوثين عليهم عقب كل إفساد إختلافاً كبيراً.. وسنعرض تفاصيل هذا القول وأصحابه الذين قالوا به وأدلتهم وما ترجح منها ونسقط ما ضعف وبأن شذوذه من أدلتهم..

الفريق الثاني:

قالوا إن هذين الإفسادين إنما وقعت العقوبة على الأول منهما في الإسلام وعلى يد الـــنبي ﷺ وأصحابه الذين إستحقوا شرف الإنتساب إليه في – عباداً لنا –.. والإفساد الـــثاني ســـيكون منهم مستقبلاً وستكون العقوبة أيضاً على يد عباد يبعثهم الله ليسوؤا وجوه اليهود وليدخلوا المسجد كما دخله سلفهم أول مرة.. ولكن لن يكتفوا هذه المرة بـــالجوس وإنما سيتبروا ما علاه اليهود.. تتبيرا.. وبهذا قال بعض العلماء المحدثين الذين تعرضوا لتفسير هذه الآيات.. وسنعرض تفاصيل هذا القول أيضاً وأصحابه الذين قالوا به وأدلتهم وما ترجح منها عندهم..

❁ ❁ ❁



إفسادا بني إسرائيل عند المفسرين

المبحث الأول

القضاء إلى بني إسرائيل في الكتاب بالإفساد و العلو

المطلب الأول:

معنى القضاء والكتاب في قوله تعالى:

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾

عند علماء اللغة و التفسير

المطلب الثاني:

معنى الإفساد في قوله تعالى:

﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾

عند علماء اللغة و التفسير

المطلب الثالث:

معنى العلو في قوله تعالى:

﴿ولتعلن علواً كبيراً﴾

عند علماء اللغة و التفسير

المبحث الأول

القضاء إلى بني إسرائيل في الكتاب بالإفساد والعلو

المطلب الأول

معنى القضاء والكتاب في قوله تعالى:

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾

عند علماء اللغة والتفسير

إن عدم الارتقاء إلى المستوى المطلوب في التعامل مع التعبير القرآني سواء من خلال تدبره أو دراسته أو - ربما - معايشته كذلك يؤدي إلى عدم إعطاء تصور واضح عن مرامي وأهداف العبارة القرآنية والتي أريد لها أن تكون مادة حية للأجيال سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا**﴾... تبعث من كان ميتاً.. ﴿**أفمن كان ميتاً فأحييناه**﴾.

وإن فيها وحياً يهدي ﴿**وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس**﴾.

لا ينفع معه إلا المكث بقراءته ﴿**لتقرأه على الناس على مكث**﴾. على مهل[1] ﴿**ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه**﴾ من اجل الوصول إلى فهم اعمق وامتثال أشمل وعمل أكمل..

لذا آثرت أن أسير مع النص القرآني خطوة خطوة.. لكي أكشف عنه الستائر التي ألقيت عليه في القرون الأولى. من أخبار أهل الكتاب.. ولأجرد النص منها كي يبدو هكذا كما (أنزل)..

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٦٨/٣.

ولنتعامل معه اليوم وكأنه اليوم (نزل)..

وذلك - حسب ظني - من الضرورة بمكان.. لأن ألفاظ التعبير القرآني لم تعد تؤثر معانيها ذلك التأثير المرجو منها بسبب انكماش المعنى في حيز الماضي وفقدان أبعاد إيحاءها لكثرة ما تجاذبتها الأقاويل وما تراكم عليها من تأويل بعيد عن الواقع..

فسـأمر على كل لفظ أفسره تفسيراً مجرداً أولاً.. ومستقصياً أقوال المفسرين فيه ثانـياً... حـتى يتـبين لنا ما فيه من الحق والعلم والفهم جامعاً تلك المعطيات القرآنية لأجعلها مشاعل على الطريق...

أولاً - معنى القضاء الوارد في قوله تعالى:

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾

* القضاء عند أهل اللغة:

جـاء في لسان العرب إن أصل «قضينا — قضى» والقضاء - الحكم وقضى عليه، يقضي قضاء وقضية..

* قـال أبـو بكر: قال أهل الحجاز - القاضي معناه في اللغة.. القاطع للأمور.. المحكمُ بها، يقال قضى يقضي قضاء.. فهو قاضٍ.. إذا حكم وفصل..

وقضاء الشيء.. إحكامه وإمضاؤه.. والفراغ منه.. فيكون بمعنى الخلق..

* ومنه القضاء المقرون بالقدر..

والمراد بالقدر: التقدير..

وبالقضاء: الخلق.. كقوله تعالى: ﴿**فقضاهن سبع سموات**﴾ فصلت/١٢ أي خلقهن.

فالقضـاء والقدر أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر لان أحدهما بمترلة الأسـاس وهو القدر. والآخر بمترلة البناء وهو القضاء.. فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه..

* وقضى الشيء قضاء.. فقد صنعه وقدره ومنه قوله: ﴿**فقضاهن سبع سموات في يومين**﴾ أي خلقهن وعملهن وصنعهن وقطعهن وأحكم خلقهن - في يومين..

* وكذلك القضاء بمعنى العمل.. كقوله تعالى: ﴿**فاقضِ ما أنت قاض**﴾ طه/٧٢ - أي فاعمل ما أنت عامل..

* والقضاء بمعنى - الحتم - كقوله تعالى: ﴿**وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه**﴾ الإسراء/٢٣ - أي أمر ربك وحتم وهو أمر قاطع حتم[1].

يقول الراغب الأصفهاني: «قضينا - في اللغة من القضاء». وهو «فصل الأمر قولاً كان أو فعلاً».

وكل واحد منهما على وجهين.. إما إلهي أو بشري..

أ - فصل الأمر الإلهي - قولاً وفعلاً:

١) **قولاً**.. كقوله تعالى: ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ الإسراء/٢٣.

أي أمر بذلك.

٢) **فعلاً**.. كقوله تعالى: ﴿**والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء**﴾ غافر/٢٠ أي يجعل الحق واقعاً بالفعل. بينما آلهتهم لا يملكون هذا..

ب - فصل الأمر البشري = قولاً وفعلاً:

١) **قولاً**.. نحو «قضى القاضي بكذا» - أي حكم القاضي لأن حكمه بالقول.

٢) **فعلاً**.. كقوله تعالى: ﴿**فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله**﴾ البقرة/٢٠٠ - أي إذا فعلتم شعائركم وانتهيتم - فاذكروا الله..

* قيل... ويحتمل القضاء بالقول والفعل جميعاً.. كقوله تعالى: ﴿**فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر**﴾ الأحزاب/٢٣. أي كأنه فصل أمره المختص به من دنياه.. فقال وفعل ثم قال.. «والقضاء من الله تعالى أخص من القدر، لأنه الفصل بين التقديرين..».

فالقدر.. هو التقدير.

والقضاء.. هو الفصل والقطع[2].

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١١٢/٣ بيروت.

(٢) انظر المفردات في غريب القرآن - الراغب الاصفهاني ص٤٠٦، ط/دار المعرفة - بيروت.

ثم يضيف «وقد ذكر العلماء أن القدر بمنزلة المعد»[1] للكيل والقضاء بمنزلة الكيل..

* وهذا كما قال أبو عبيدة لعمر ﷺ لما أراد الفرار من الطاعون بالشام.. أتفرُّ من القضاء ؟ قال عمر: أفرُّ من قضاء الله إلى قدر الله.. تنبيهاً إلى أن القدر ما لم يكن قضاءاً فمرجوٌ أن يدفعه الله سبحانه.. فإذا قضى فلا مدفع له..

ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿**وكان أمراً مقضياً**﴾ مريم/٢١.. وقوله: ﴿**وكان على ربك حتماً مقضياً**﴾ مريم/٧١ و: ﴿**قضي الأمر**﴾ هود/٤٤ - أي فصل - تنبيهاً إلى أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه..

* وقوله: ﴿**إذا قضى أمراً**﴾ أي إذا قطع بأمر فلا بد أن يكون كما قطع.. أي كما قضى..[2]. وذكر ابن قتيبة أن «أصل قضى.. حتم» كقوله تعالى: ﴿**فيمسك التي قضى عليها الموت**﴾ الزمر/٤٢. أي حتمه عليها..

ثم يصير الحتم بمعان.. كقوله تعالى: ﴿**وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه**﴾ الإسراء/٢٣ - أي «أمر» لأنه لما أمر حتم الأمر.

* وقوله تعالى: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل**﴾ الإسراء/٤. أي «أعلمناهم» لأنه لما أخبرهم أنهم سيفسدون في الأرض حتم بوقوع الفعل الذي أخبرهم به...

وقيل قضي قضاؤك.. أي فرغ من أمرك "[3].

* وجاء في معنى القضاء في فتح الباري قوله: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل**﴾ أي أخبرناهم انهم سيفسدون ثم قال.. والقضاء على وجوه.. استوعبها إسماعيل بن أحمد النيسابوري في كتاب الوجوه والنظائر فقال:

(لفظة «قضى» في الكتاب العزيز جاءت على خمسة عشر وجهاً:

---

(١) المطلب المُعدّ - أي المهيأ..

(٢) مفردات الراغب ص٤٠٧.

(٣) انظر تأويل مشكل القرآن. - لابن قتيبة ص٤٤١ ط/٣ - بيروت.

الفراغ ﴿**فإذا قضيتم مناسككم**﴾ -

والأمر ﴿**إذا قضى أمراً**﴾ -

والأجل ﴿**فمنهم من قضى نحبه**﴾ -

والفصل ﴿**لقضي الأمر بيني وبينكم**﴾ -

والمضي ﴿**ليقضي الله أمرا كان مفعولا**﴾ -

والهلاك ﴿**لقضي إليهم أجلهم**﴾ -

والوجوب ﴿**لما قضي الأمر**﴾ -

والإبرام ﴿**في نفس يعقوب قضاها**﴾ -

والإعلام ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل**﴾ -

والوصية ﴿**وقضى بك ألا تعبدوا إلا إياه**﴾ -

والموت ﴿**فوكزه موسى فقضى عليه**﴾ -

والنـــزول ﴿**فلما قضينا عليه الموت**﴾ -

والخلق ﴿**فقضاهن سبع سموات**﴾ -

والفعل ﴿**كلا لما يقضي ما أمره**﴾ يعني - حقاً لم يفعل -

والعهد ﴿**إذ قضينا إلى موسى الأمر**﴾ -

فهذه خمسة عشر وجهاً في معنى «قضى»[1].

ثم قـــال: «وقـــال الأزهري: القضاء مرجعه إلى انقطاع الشيء وتمامه.. فكل ما احكـــم عمله أو ختم أو أكمل أو وجب أو ألهم أو نفذ أو مضى فقد قضى.. وقال في قوله تعالى: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل**﴾ أي أعلمناهم علماً قاطعاً»[2].

---

(١) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري - كتاب التفسير ٨/٤٩٥.

(٢) المصدر السابق ٨/٤٩٧ وانظر الوجوه والنظائر. هارون بن موسى ص/٣٢٦ وما بعدها.

*** القضاء عند علماء التفسير**

اختلف المفسرون في معنى القضاء الوارد في قوله تعالى: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسِدُّن في الأرض مرتين**﴾ الإسراء/٤.

إلى فريقين اثنين:-

الفريق الأول: قالوا: إن معنى القضاء في قوله تعالى ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل**﴾ أي أوحينا إليهم وأخبرناهم وأعلمناهم أهم سيفسدون ... وبهذا قال جمهور المفسرين.. منهم - الإمام الطبري حيث قال في تفسير هذه الآية «فتأويل الكلام في هذا الموضع: وفرغ ربك إلى بني إسرائيل فيما أنزل من كتابه على موسى - عليه السلام - بإعلامه إياهم وإخباره لهم ﴿**لتفسدن في الأرض مرتين**﴾.

* وقال: وعن ابن عباس قال: وقضينا إلى بني إسرائيل..قال هو قضاءٌ قضي عليهم..

* وقال: وقال قتادة قوله تعالى: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل**﴾ قضاءٌ قضاه على القوم كما تسمعون..

* ثم كأن الإمام الطبري يرد على هذين القولين لابن عباس وقتادة فيقول: «وان كان الذي اخترناه من التأويل فيه أشبه بالصواب لإجماع القرّاء على قراءة قوله تعالى «لتفسدن» بالتاء دون الياء.. ولو كان معنى الكلام «وقضينا عليهم في الكتاب»[١] لكانت القراءة بالياء أولى منها بالتاء، ولكن معناهما كان أعلمناهم وأخبرناهم وقلنا لهم كانت بالتاء أشبه وأولى للمخاطبة..[٢].

* ويقول الإمام الرازي: «فقوله ﴿**وقضينا**﴾ أي أعلمناهم وأخبرناهم بذلك وأوحينا إليهم.. ولفظ «إلى» صلة للإيحاء.. لأن معنى ﴿**قضينا**﴾ أوحينا إليهم كذا»[٣].

---

(١) يعني التوراة.

(٢) تفسير الطبري ٢١/١٥ قلت كأن هذا إقرار من الطبري بأن المعنيين بإفسادهم المخاطبون في عصر النبي ﷺ.

(٣) التفسير الكبير - للرازي ١٩/١٥٥.

* وأورد القرطبي «ومعنى ﴿قضينا﴾ أعلمنا وأخبرنا.. قاله ابن عباس»[1].

ويحصر الإمام ابن الجوزي معنى القضاء في قولين فيقول: «فيه قولان..

أحدهما - أخبرناهم - رواه الضحاك وابن عباس.

الثاني - قضينا عليهم - رواه العوفي عن ابن عباس - أيضاً. وبه قال قتادة.

ثم قال: فعلى الأول تكون «إلى» على أصلها وعلى الثاني تكون «إلى» بمعنى «على» ويكون الكتاب: الذكر الأول[2].

* ويفصل الإمام الثعالبي القول في هذه المسألة ويزيل اللبس في هذه القضية فيقول: قوله تعالى ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل...**﴾.

قالت فرقة.. «قضينا معناه في أم الكتاب».

وإنما يُلبس في هذا المكان «تعدية قضينا بـ إلى».

ويقول.. «وتلخيص المعنى عندي إن هذا الأمر هو ما قضاه الله عز وجل في «أم الكتاب» على بني إسرائيل.. والزمهم إياه ثم اخبرهم به في التوراة على لسان موسى.. فلما أراد هنا الإعلام لنا بالأمرين جميعاً في إيجاز جعل ﴿**قضينا**﴾ دالة على النفوذ في أم الكتاب وقرن بها «إلى» دالة عل إنزال الخبر بذلك إلى بني إسرائيل..

والمعنى المقصود مفهوم خلال هذه الألفاظ.. ولهذا فسّر ابن عباس مرة بأن قال: ﴿**قضينا إلى بني إسرائيل**﴾ معناه «أعلمناهم» وقال مرة «قضينا عليهم»[3].

* ولعل ممن أيد ما ذهب إليه الإمام الثعالبي العلامة الآلوسي حين قال: «وصرح غير واحد بتضمن القضاء معنى الإيحاء، ولهذا عدّي بـ «إلى».. والوحي إليهم وإعلامهم ولو بالواسطة»[4].

* ويكاد الإمام الشوكاني يحصر معنى ﴿**قضينا**﴾ في «أوحينا» حينما يجعل - «إلى» دلالة عليه فيقول:-

---

(١) الجامع لاحكام القرآن - للقرطبي ٢١٤/١٠.

(٢) زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزي ٧/٥.

(٣) جواهر الحسان في تفسير القرآن - للامام الثعالبي ٣٣٠/٢.

(٤) روح المعاني للآلوسي ١٦/١٥.

«أي أعلمنا وأخبرنا أو حكمنا وأتممنا.. وأصل القضاء الأحكام للشيء والفراغ منه.. ثم يقول - وقيل «أوحينا» ويدل عليه قوله تعالى ﴿**إلى بني إسرائيل**﴾.

ثم يعلل ذلك بقوله.. ولو كان بمعنى - الإعلام والإخبار - لقال قضينا بني إسرائيل أي أخبرنا بني إسرائيل.

ولو كان بمعنى - حكمنا - لقال «على بني إسرائيل».

ولو كان بمعنى - أتممنا - لقال «لبني إسرائيل»[1].

ولكن حينما قال «إلى بني إسرائيل» يعني «أوحينا إلى بني إسرائيل»...

الفريق الثاني - يقولون: إن «قضينا» معناها «حكمنا» وقد قال بهذا الإمام الطبري على أحد قوليه - كما سبق - عن ابن عباس أنه قال: «هو قضاء قضي عليهم.. عن قتادة قوله ﴿**قضينا إلى بني إسرائيل**﴾ قضاء قضاه على القوم...»[2].

وهو قول للقرطبي عن قتادة قال: ﴿**قضينا**﴾ يعني «حكمنا» وأصل القضاء «الأحكام للشيء والفراغ منه».

ثم قال: «وعلى قول قتادة يكون «إلى» بمعنى «على» أي قضينا عليهم وحكمنا» ثم قال «وقاله ابن عباس أيضاً»[3].

* وإلى هذا ذهب الإمام ابن الجوزي أيضاً[4].

* وعلى هذا فإن المفسرين - كما رأينا - أوردوا قولين في معنى القضاء رغم أن بعضهم قد يرى القولين.. أي أنه قد يكون المقصود أن قضينا معناه أوحينا وقد يكون المقصود حكمنا.. كما قال بذلك الحبر ابن عباس وبه قال ابن الجوزي والآلوسي[5] وغيرهم كما أوضحنا..

---

(١) فتح القدير - للشوكاني ٣٠١/٣ وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣٦٥/٢ وانظر ظلال القرآن - سيد قطب ١٤/١٥ وصفوة التفاسير ١٥٢/٢.

(٢) انظر جامع البيان - للإمام الطبري ١٦/١٥.

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي ٢١٤/١٠.

(٤) انظر زاد المسير في علم التفسير - لابن الجوزي ٧/٥.

(٥) انظر روح المعاني ١٦/١٥.

* ولعل مما تجدر الإشارة إليه.. إن لفظ القضاء له علاقة وثيقة بأغلب المسائل الداخلة في بحثنا هذا وذلك على - ما يبدو - لشموله على عدة معان بل - ربما - لا تجد نظيراً له يحمل هذا الكم من المعاني.. وذلك ملحوظ من الوجوه التي استوعبها إسماعيل بن أحمد النيسابوري في كتابه الوجوه والنظائر والذي أورد شيئاً منها العسقلاني في فتح الباري على شرح البخاري..

ولهذا سوف يرافق لفظ القضاء تفسيرنا لأغلب المفردات القرآنية كالكتاب والإفساد والعلو والوعد.. وغيرها مما قد يظن البعض تكراراً وإنما هو زيادة في المعنى في كل موضع.. وفي هذا يقول ابن عاشور «فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معاناً من المعاني المتعددة التي يودعها البلغاء في كلامهم.. إذ انه أودع من المعاني كل ما يحتاج إليه السامعون إلى علمه وكل ماله حظ في البلاغة...»[1].

* توحيد الأقوال وإبراز الراجح منها:

اعتماداً على ما تقدم ذكره من أقوال المفسرين وأصحاب اللغة في معنى القضاء تبرز لنا عدة مسائل...

المسألة الأولى:

إن القضاء في قوله تعالى: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل**﴾ هو قضاء الهي دون شك.. وقد أضيف إلى الضمير (نا) والذي يعود على الله سبحانه من باب التعظيم فهو إذن ليس قضاء بشرياً.

المسألة الثانية:

انطلاقاً مما قاله الراغب آنفاً، نسأل.. هل كان القضاء الوارد في قوله تعالى ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل**﴾ قضاءاً بالقول أم بالفعل أم بكليهما معاً ؟ ...

* فلو كان بالقول الذي هو الأخبار لقال: «وقضينا بني إسرائيل» أي أخبرنا بني إسرائيل[2]..

---

(١) انظر ما قاله ابن عاشور في مقدمة تفسيره حول هذا المعنى ٩٣/١.

(٢) راجع كلام الشوكاني في فتح القدير ٢٠١/٣.

* ولــو كان القضاء بالفعل لقال: «وقضينا على بني إسرائيل» أي حتمنا عليهم، أما حين قال ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل**﴾ فيكون المراد - والله اعلم - أن القضاء يشمل كلا المعنيين.. أي «فصل الأمر الإلهي قولاً وفعلاً».

فالأول - «فصل الأمر الإلهي قولاً» - إن الله تعالى أوحى إليهم عن طريق نبيهم وكتابه الذي هو التوراة وهذا هو الإعلام والإخبار الذي قال به المفسرون.

والــثاني - «فصل الأمر الإلهي فعلاً» أي أنهم سيكون منهم الإفساد واقعاً حتماً كمـــا قضـــى الله عليهم وقد فهم هذا من صيغة القسم التي قال عنها المفسرون من أن ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض.. ولتعلن...**﴾ . قد جرت مجرى القســم.. وهـــو الموضع الوحيد في القرآن كله على الرغم من ورود كلمة ﴿**قضينا**﴾ كــثيراً في آيات القرآن. وفي كل موضع لها معناها المناسب لكن هنا في هذه الآية فقط جاءت في معنى القسم..

* فقد جوّز الزمخشري أن يجري القضاء المبتوت مجرى القسم في هذه الآية فيكون ﴿**قضينا**﴾ قسم و﴿**لتفسدن**﴾ جواباً له.. كأنه قال «وأقسمنا لتفسدن»[(١)].

* ويقول الخازن البغدادي واللام في «لتفسدن» لام القسم وتقديره «والله لتفسدن في الأرض»[(٢)].

* وكذلــك جوز أبو حيّان هذا فقال: «ويجوز أن يكون ﴿**قضينا**﴾ أجري مجرى القسم و﴿**لتفسدن**﴾ جوابه كقولهم «قضاء الله لأقومن»[(٣)].

* ويــزيد الإمــام الآلوسي هذه المسألة توضيحاً فيقول: ﴿**لتفسدن في الأرض**﴾ جواب قسم محذوف.. وحذف متعلق القضاء أيضاً للعلم به.. والتقدير «وقضينا إلى بني إســرائيل بإفســادهم وعلوهــم والله لتفسدن» ثم يضيف: «ويكون هذا تأكيداً لتعلق القضاء.. ويجوز جعله جواب (قضين) بإجراء القضاء مجرى القسم فيتلقى بما يتلقى بــه

---

(١) انظر الكشاف - للزمخشري ٢/٦٤٩.

(٢) تفسير الخازن - لعلاء الدين البغدادي ١٥/.

(٣) انظر البحر المحيط - لأبي حيان ٦/٨.

نحو «قضاء الله لأفعلن كذا»[1].

* وقال الجمل في الفتوحات: «إن – قضينا – ضمن معنى القسم ومنه قولهم قضى الله لأفعلن.. فيجرون القضاء والقدر مجرى القسم.. فيتلقيان بما يتلقى به القسم»[2].

وعلى ما تقدم نجد إن المفسرين على اختلافهم الظاهري فهم متفقون ضمنًا على معنى القضاء.

فقول من قال إن «قضينا – أوحينا» بنى على أساس أن هذا من باب فصل الأمر الإلهي قولاً.. وهذا ما قال به الطبري والرازي والقرطبي وابن الجوزي في أحد قوليه من رواية ابن عباس والآلوسي[3] وغيرهم.

وكذلك قول من قال إن «قضينا – حكمناً» على أساس فصل الأمر الإلهي فعلاً... وهذا ما قال به الطبري في قوله الثاني من رواية قتادة وما أثبته ابن الجوزي أيضاً في قوله الثاني من رواية ابن عباس.. وما بيّنه الثعالبي موضحاً السبب الذي جعل ابن عباس يقول مرة «أوحينا» ومرة «حتمنا» كما قال ابن قتيبة[4].

وعلى هذا فلا خلاف حقيقي بين المفسرين إذ أن اللفظ مشتمل لكلا المعنيين.. **والله أعلم.**

ثانياً: معنى «الكتاب» في قوله تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾.

إن مما لا خلاف فيه عند جمهور المفسرين إن «الكتاب» المذكور في قوله تعالى: **﴿وآتينا موسى الكتاب﴾** الإسراء/٢ هو «التوراة» وكذلك كل الآيات التي جاءت بإيتاء موسى الكتاب في القرآن كالآية **﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلهم يهتدون﴾** البقرة/٥٣.

---

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ١٥/١٦.

(٢) انظر الفتوحات الالهية للجمل ٢/٦١٤.

(٣) انظر الطبري ١٥/١٦، التفسير الكبير للرازي ١٩/١٥٥، تفسير القرطبي ١٠/٢١٤، زاد المسير لابن الجوزي ٥/٧، روح المعاني للآلوسي ١٥/١٦.

(٤) تفسير الطبري ١٥/١٦، تفسير زاد المسير لابن الجوزي ٥/٧، جواهر الحسان للثعالبي ٢/٢٣٠، انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٤٤١.

* وقوله: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء﴾ الأنعام/١٥٤.

* وقوله: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ فصلت/٤٥.

وغيرها كثير - فإن اللام في «الكتاب» هنا هي لام العهد بلا خلاف التي تعود على الكتاب المعهود لموسى وهو التوراة..

أما الكتاب الوارد في قوله تعالى ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ الإسراء/٤ فقد اختلف فيه المفسرون.

* فقال بعضهم: هو «التوراة» جرياً منهم على قاعدة (رد المعنى إلى أقرب مذكورين)..

* وقال بعضهم هو (اللوح المحفوظ) كما سيأتي بيانه..

*وقال البعض الآخر هو (الذكر الأول)..

* وقال آخرون هو (القرآن).

* وقال غيرهم معناه (الكتب) بصيغة الجمع استناداً لقراءة سعيد بن جبير وأبى العالية كما أورد القرطبي ذلك -

* وقال آخرون «إن اللام للجنس» كما قال ابن عاشور[1].

قلت ... وعلى هذا

أولاً - إذا قال بعض المفسرين إن ﴿قضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ يعني «أوحينا إلى بني إسرائيل في الكتاب» عن طريق نبيهم موسى كان المقصود بالكتاب هنا هو «التوراة».. فهذا صحيح لا ينكره أحد، لأن هذا المعنى مما حمله اللفظ مستندين في ذلك إلى قاعدة «رد المعنى إلى أقرب مذكورين» والى اعتبار معنى «قضينا - في اللغة - أوحينا» وبذا قال الطبري والسمرقندي وابن كثير. وقول لابن الجوزي عن ابن عباس والآلوسي كذلك في أحد قوليه الذي عن ابن عباس أيضاً[2].

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٢١٤/١٠، وانظر تفسير ابن عاشور ٢٩/١٥.

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٠/١٥، والسمر قندي ٢٨٩، وابن كثير ٢٥/٣، وابن الجوزي ٧/٥، والآلوسي ١٦/١٥.

ثانــياً– وكذلــك قال آخرون إن معنى ﴿**قضينا إلى بني إسرائيل**﴾ أي «حكمنا وقضــينا على بني إسرائيل» فكذلك هذا المعنى صحيح، لأنه أيضاً مما يحمله اللفظ ... وهــذا عند من قال إن معنى الكتاب في قوله: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب**﴾ إنما هو «اللوح المحفوظ» كالقرطبي والآلوسي في أحد أقواله وابن الجوزي في القول الثاني له عن ابن عباس وبه قال القاسمي كذلك[1].

ثالثاً– وكذلك إذا قال المفسرون إن ﴿**قضينا**﴾ معناها «أخبرنا وبلّغنا» باعتبار أن «الكــتاب» في قولــه «وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب» إنما هو بعض كتب بني إســرائيل كمــا بين ذلك ابن عاشور بقوله: «ويجوز أن يكون الكتاب بعض كتبهم الدينية.. فتعريف «الكتاب» تعريف الجنس وليس تعريف العهد الذكري.. إذ ليس هو الكتاب المذكور آنفاً في قوله ﴿**وآتينا موسى الكتاب**﴾، لأنه لما أظهر اسم الكتاب اشعر بأنه كتاب آخر من كتبهم، وهو الأسفار الخمسة المسماة بكتب الأنبياء: أشعيا و أرميا وحزقيال و دانيال، وهي في الدرجة الثانية من التوراة وكذلك كتاب ملاخي»[2].

وقال في موضع آخر «ويجوز أن يراد بالكتاب التوراة وكتب الأنبياء ولذلك أيضاً وقع بالإظهار دون الإظمار»[3].

فهذا صحيح كذلك لإن كلا المعنيين مما حملهما كلا اللفظين في القرآن..

رابعاً– وكذلك نرى أن من قال إن معنى الكتاب في قوله تعالى ﴿**وقضينا إلى بني إســرائيل في الكــتاب**﴾ هو «الكتب»[4] بصيغة الجمع على قراءة سعيد بن جبير وأبي العالية... وعلى أساس أن «الكتاب أشمل من الكتب» كما روي ذلك عن ابن عباس[5] «الكــتاب أكثر من الكتب» ويكون القرآن داخلا فيها في الحالتين حالة ورود القراءة

---

(١) انظر القرطبي ١٠/٢١٤، والالوسي ١٥/١٦، وابن الجوزي ٥/٧، وتفسير القاسمي ص٣٩٠٣.

(٢) تفسير ابن عاشور ١٥/٢٨-٢٩، وانظر الكتاب المقدس ٨٢٤-١٠٤.

(٣) المصادر السابقة.

(٤) انظر القرطبي ١٠/٢١٤.

(٥) اورده ابن عاشور في تفسيره ١٥/٢٩.

بصيغة الجمع أولاً وحالة شمول لفظ الكتاب الكتب السماوية ثانياً، فضلاً عن أن القرآن إنما هو الكتاب المهيمن على كل الكتب التي قبله والمصدق لها كذلك وقد فُصِّل فيه كلّ شيءٍ تفصيلاً..

مناقشة المفسرين:

لقـــد بين الإمام الثعالبي هذا المعنى حين قال في تفسيره لهذه الآية.. (قوله تعالى: وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب.. قالت فرقة: قضينا – معناه في «أم الكتاب». وإنما يُلبس في هذا المكان – تعدية قضينا بـــ – إلى –).

ويقول موضحاً «وتلخيص المعنى عندي أن هذا الأمر هو ما قضاه الله عز وجل في «أم الكـــتاب» عـــلى بـــني إسرائيل.. والزمهم إياه قضاءً وقدراً ... ثم أخبرهم به في «التوراة» على لسان موسى – وحياً وإعلاماً – فلما أراد هنا – في القرآن – الإعلام لنا بالأمـــرين جمـــيعاً [تقديره لهم بالإفساد مكتوب في اللوح المحفوظ وإخبارهم في التوراة وحيا وإعلاماً] في إيجاز جعل «قضينا» دالة على النفوذ في أم الكتاب وقرن بها – إلى – دالة على إنزال الخبر بذلك إلى بني إسرائيل [في التوراة]...

ثم قـــال: «والمعنى المقصود مفهوم خلال هذه الألفاظ.. ولهذا فسّر ابن عباس مرة بأن قال (قضينا إلى بني إسرائيل – معناه – أعلمناهم) وقال مرة (قضينا عليهم) القراءة بصيغة الجمع أولاً وحال شمول لفظ الكتاب الكتب السماوية ثانياً، فضلاً عن أن القرآن هو الكتاب»[1].

وهـــو هنا رحمه الله قد أزاح الخلاف أولاً.. وجمع بين الأقوال ثانياً.. ولم يجانب الحق في بيان معنى ﴿**قضينا**﴾ وبيان المقصود من ﴿**الكتاب**﴾ ثالثاً..

وممـــا يقوي ما قاله الثعالبي ـــ على قوته ـــ قول ابن عاشور في تفسيره أنه ليس المراد بلفظ «الكتاب» كتاباً واحداً فإن المفرد المعّرف بـــ – لام الجنس – يراد به المتعدد وقال: وعن ابن عباس: «الكتاب أكثر من الكتب» كما سبق أن بينا..

---

(١) انظر جواهر الحسان – للثعالبي ٢/٣٣٠.

ثم إن الآلوسي حين أورد عن ابن عباس قوله: ﴿**وقضينا إليهم**﴾ يعني - أعلمناهم قال: وصرح غير واحد بتضمن القضاء معنى الإيحاء.. ولهذا عدي بـــ - إلى - والوحي إليهم إعلامهم ولو بالواسطة[1].

فمـــا هي هذه الواسطة يا ترى؟؟؟ التي تم عن طريقها نقل الوحي وإيصال الإعلام بها إلى - بني إسرائيل -؟.

* يقـــول الإمام الرازي: «ولفظ - إلى - صلة للإيحاء».. ثم بين السبب فيقول: «لأن معنى - قضينا - أوحينا إليهم كذا»[2].

ونجـــده يـــبين في مقدمة تفسيره لسورة الإسراء في المسألة الأولى إن من حالات «إلى» هي لانتهاء الغاية فيقول: «واعلم أن كلمة - إلى - لانتهاء الغاية، فمدلول قوله ﴿**إلى المسجد الأقصى**﴾ أنه وصل إلى حد ذلك المسجد..»[3].

- إذ إن - إلى - لها حالتان تكون في:

الأولى: انتهاء الغاية الزمانية كقوله: ﴿**ثم أتموا الصيام إلى الليل**﴾ البقرة/١٨٧.

والثانية: انتهاء الغاية المكانية كقوله: ﴿**من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**﴾ الإسراء/١[4]..

قلت...

فمـــا الـــذي يمنع أن تكون - إلى - هنا لانتهاء الغاية الإخبارية إلى بني إسرائيل باعتبارها صلة للإيحاء بين النبي ﷺ وبين بني إسرائيل باعتباره - المكلف بتبليغ الوحي - إلى مـــن يـــراد إيصـــال التبليغ إليهم كما هو المفهوم من قول الإمام الثعالبي والرازي والآلوسي.. ؟؟؟

---

(١) روح المعاني للآلوسي ١٥/١٦.

(٢) انظر تفسير الرازي ٢٠/١٥٥.

(٣) انظر تفسير الرازي ٢٠/١٤٦.

(٤) انظر مغني اللبيب لابن هشام ١/٧٤.

قلت: فعلى هذا - فحين يكون من معاني[1] «قضينا» أوحينا وأعلمنا[2].. وقدرنا وقضينا عليه[3]. وأخبرناهم وأبلغناهم[4] ولو بالواسطة.

وحين يكون من معاني «الكتاب» التوراة[5].. واللوح المحفوظ[6] والكتب بصيغة الجمع[7] وحين تجيء الصيغة الخبرية بتاء المخاطبة[8] في «لتفسدن» على القراءة بإجماع الجمهور أولى من ياء الغائب في ﴿**لتفسدن**﴾ تكون الواسطة كما لمح بعضهم

---

(١) قلت لا عجب أن يكون اللفظ القرآني - على بساطته أحياناً يحمل في ثنايا تركيبه كل هذه الأسرار وخاصة لو كان صادراً من الله العليم الذي لن تجد أحسن منه حديثاً.. لانه - أي اللفظ - يعمل آنذاك بقانونين قانون الإعجاز القرآني لأنه كلام الله، وقانون ما في هذه اللغة العربية التي نزل هو بها من إعجاز.. لكون اللفظ الواحد حمالاً لعدة معان في آن واحد وهي ميزة لا تجدها في غيرها من اللغات. فكل كلمة تأتي حروفها تحمل روح معانيها أو تظهر سمات معانيها على حروفها فكأن الكلمة لتأتي وهي تحمل معناها بين ثناها.. فمثلاً كلمة «صرخة» تجد حروفها من الشدة ما يناسب معناها من قوة الصوت في الصيحة العالية على العكس مما في كلمة «همسه» من حروف لينة هادئة تؤدي معنى الصوت الهادئ الخفيف الخفيف.. وكلمة «حرام» تجدها حين النطق بها شديدة مملوءة رهبة على العكس من كلمة «حلال» تسيل عذوبة وهدوءاً يدعوك اليه.. وقريباً من ذلك ما تجده في المعنى الذي تحمله «إلى» و«اللام» الاتي تستعمل كلاهما صلة بين غايتين لكن الفارق ان «إلى» تستعمل لغاية أبعد مما تستعمل «اللام» فمثلاً حين تقول «اعط القلم لمحمد» أي لابد أن محمداً قريب منك نسبياً.. أما إذا قلت «اعط القلم إلى محمد» فلا شك أن محمداً بعيد عنك بعداً زمانياً أو مكانياً لأن ذلك مما يدخل في معاني المفردات القرآنية التي قال عنها الراغب في مفرداته «فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء واليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم» انظر المفردات (المقدمة).

(٢) انظر الطبري ١٥/٢١، والرازي ١٩/١٥٥، والقرطبي ١٠/٢١٤.

(٣) انظر تفسير الماوردي ٨/٤٢٣، وابن الجوزي ٥/٧.

(٤) ابن الجوزي ٥/٧، والرازي ١٩/١٥٥.

(٥) الطبري ١٥/٢٠، والسمرقندي ٢٨٩.

(٦) القرطبي ١٠/٢١٤، وابن الجوزي ٥/٧.

(٧) الثعالبي ٢/٣٣٠، وابن عاشور /٢٩.

(٨) كما أورد ذلك الطبري ١٥/٢١، وصرح بذلك القرطبي بقوله: «ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو إسرائيل في زمن محمد ﷺ. وانظر ١٠/٢١٨.

هي النبي محمد ﷺ عن طريق كتابه المهيمن - القرآن - الذي جاء عن طريقه الخبر إلينا فيكون الحال..إننا قضينا - أوحينا - إلى بني إسرائيل في الكتاب - التوراة - بأننا «قضينا عليهم» في الكتاب «اللوح المحفوظ» حكماً حتماً بالإفساد في الأرض مرتين.. فلما أراد أخبار المخاطبين منهم وقت نزول الآيات في القرآن والأمة كلها كذلك.. استعمل - إلى - التي هي صلة للإيحاء[1] عن طريق محمد ﷺ ﴿**لتفسدن**﴾ يا بني إسرائيل في الأرض مرتين.. ﴿**ولتعلن علواً كبيراً**﴾.

ولهذا قال الإمام الشوكاني: ولو كان بمعنى الإعلام والإخبار - المباشر - لقال «قضينا بني إسرائيل» أي أخبرنا بني إسرائيل ولو كان بمعنى حكمنا - لقال «على بني إسرائيل».

ولكن حينما قال.. إلى بني إسرائيل كان المعنى «أوحينا إلى بني إسرائيل»[2] والمعنى المقصود مفهوم خلال هذه الألفاظ.. كما قال الثعالبي رحمه الله.

المطلب الثاني

معنى الإفساد في قوله: ﴿لتُفسِدُنَّ في الأرض﴾.

عند علماء اللغة والتفسير..

إن مجيء لفظة ﴿**قضينا**﴾ هنا على صيغة القسم كما أوضحنا سابقاً دون أيّ موضع آخر في القرآن كله له دلالة قوية على أن الإخبار هنا متميز حيث أكدَّ كثيرٌ من المفسرين إن ﴿**قضينا**﴾ هنا جرت مجرى القسم و«لتفسدن» جوابه...

قال أبو حيان: «ويجوز أن يكون ﴿**قضينا**﴾ أجرى مجرى القسم ولتفسدن جوابه.. أي إن اللام جواب القسم محذوف و﴿**لتفسدن**﴾ فعل مضارع مستمر مؤكد بنون التوكيد الثقيلة التي تدخل على الفعل حيث هي مع نون التوكيد الخفيفة يعتبران اصلين

---

(١) كما بين الرازي ٢٠/١٥٥.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٣/٢٠١ وانظر تفسير الخازن ١٥/، وصفوة التفاسير للصابوني ٢/١٥٢.

عند البصريين[1]...

أما عند الكوفيين فان الثقيلة هي - أصلٌ - ومعناها - التوكيد -.

قال الخليل: والتوكيد بالثقيلة أبلغ. وهما يختصان بالفعل.. حيث:

أولاً: يؤكد بهما صيغ الأمر مطلقاً كقولك: افعلن ما أقول لك.

ثانياً: لا يؤكد بهما على الماضي مطلقاً.

ثالثاً: وأما المضارع فإن كان:

أ - حالاً لم يؤكد بهما. ب - وإن كان مستقبلاً أكدّ بهما وجوباً.

كقوله تعالى: ﴿**وتالله لأكيدن أصنامكم**﴾ الأنبياء/٥٧، وبصيغة القسم.

وكقوله تعالى: ﴿**لتفسدن في الأرض مرتين**﴾ الإسراء/٤، لأنه جرى مجرى القسم.

وجاء قريباً من الوجوب كقوله تعالى: ﴿**وإما تخافن من قوم خيانة**﴾ الأنفال /٥٨.

فاجتماع لام جواب القسم مع نون التوكيد الثقيلة دلَّ على أن «قضى» أجرى مجرى القسم فتلقى جوابه بما يتلقى القسم جوابه[2].

ولقد ذكر الإمام الآلوسي هذه المسألة فأكد على أن لتفسدن في الأرض جواب قسم محذوف. وحذف متعلق القضاء أيضاً للعلم به.. والتقدير وقضينا إلى بني إسرائيل بإفسادهم وعلوهم والله لتفسدن، ثم قال «ويكون هذا تأكيداً لتعلق القضاء»[3].

ولقد أورد الشيخ أسعد التميمي في كتابه رأياً حول اللام في هذه الآية قال فيه: «والواقع أن المتعمق في الآيات يجد إن المرتين أشارت إليهما آيات الإسراء في عُلو اليهود وإفسادهم ثم تدميرهم هما بعد نزول آيات الإسراء. وذلك أن الله يقول: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً**﴾ الآية. واللام في «لتفسدن» لام الاستقبال والتوكيد. واللام في «ولتعلن» كذلك لام الاستقبال والتوكيد»[4].

---

(١) كما جاء في مغني اللبيب انظر ٣٣٩/٢.

(٢) انظر مغني اللبيب ٣٣٩/٢.

(٣) انظر روح المعاني للآلوسي ١٦/١٥.

(٤) زوال إسرائيل حتمية قرآنية - أسعد بيوض التميمي ص٣٥.

وهذا ما ذهب إليه الخازن من قبل بقوله: «واللام في لتفسدن لام القسم.. وتقديره «والله لتفسدن في الأرض»[1] وكذلك الجمل في الفتوحات الإلهية حيث قال: «إنَّ – قضينا – ضُمَّن معنى القسم ومنه قولهم قضى الله لأفعلن... فيجرون القضاء والقدر مجرى القسم.. فيتلقيان بما يتلقى به القسم»[2].

ومما تقدّم يتبين أن مجيء لفظ «القضاء» هنا بصيغة القسم التي اقتضت دخول لام جواب القسم ونون التوكيد الثقيلة التي إن دخلت – كما قال النحويون – على الفعل المضارع المستمر فإنها تفيد وقوع الفعل مستقبلاً وجوباً.

وقد وردت هذه الصيغة «لتفعلن» في القرآن كثيراً وهي كلها تفيد الإخبار بالوقوع مستقبلاً حتماً،

* منها قوله تعالى: ﴿**ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً**﴾ آل عمران/١٨٦. يعني سوف تسمعون مستقبلاً حتماً على جهة التأكيد.

*ومنه قوله تعالى: ﴿**ولتعلمن نباءه بعد حين**﴾ ص/٨٨. وغيرها كثير.

وإلا لو أراد الإخبار عن الماضي لاستعمل صيغته والتي كثيراً ما جاءت في السور المكية والمدنية وهو يخبر سبحانه عن إفسادهم العريض عبر الزمن الطويل باتجاه الماضي السحيق كما بينا سابقاً[3].

معنى قوله تعالى ﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾.

الكثيرون يقرؤون هذه الآية ويعجبون لماذا قال القرآن ﴿**مرتين**﴾ فإنا لو عددنا إفساد بني إسرائيل لوجدناه لا يُعَدْ ولا يحصى.. إذاً لماذا قال القرآن مرتين ؟؟؟..

المفسرون كلهم قالوا إن المقصود بالمرتين هما أظهر مرتين لإفساد بني إسرائيل. وحين أرادوا أن يبينوا هذين الإفسادين دخلوا في أعماق التاريخ وبحثوا في زواياه عن

---

(١) انظر تفسير الخازن لعلاء الدين البغدادي ١٥/.

(٢) انظر الفتوحات – للجمل ٢/٦١٤.

(٣) يراجع المطلب الثالث في المبحث الأول من هذا الفصل.

أكبر إفسادين لبني إسرائيل فيه فوجدوا أن كل إفساد منهم أكبر من الآخر فحاروا واختلفوا اختلافاً كبيراً.

*- فمن قال إن إفسادهم الأول قتل أرمياء والمبعوث عليهم بختنصر. والإفساد الثاني قتل يحيى والمبعوث عليهم الملك لاخت واسمه هيرودس وبهذا قال القرطبي والشوكاني[١].

غير أن الشوكاني قال إن إفسادهم الأول حين قتلوا اشعياء وليس أرمياء.

*- ومنهم من قال إن المبعوث عليهم في المرة الأولى جالوت الجزري وجنوده وفي المرة الثانية بختنصر وبهذا قال الطبري والسمرقندي والآلوسي وتابعهم الجلالان زاعمين إن إفسادهم الأول قتل زكريا وإفسادهم الثاني قتل يحيى[٢] مع العلم أن من الثابت تاريخياً أن جالوت قبل زكريا بما يقارب تسعة قرون وان بختنصر قبل يحيى كذلك بمئات السنين.

* - أما الإمام الرازي[٣] فقال إن المبعوث عليهم في الأولى بختنصر وفي الثانية قسطنطين[٤].

* - وابن عاشور يقول إن إفسادهم الأول ما كان مصاحباً لحوادث الأسر البابلي والمبعوث عليهم بختنصر أما إفسادهم الثاني ما كان مصاحباً لغزوات الرومانيين لبلاد أورشليم والمبعوث عليهم الملك الروماني طيطوس[٥].

* - ويصرح ابن كثير إن المبعوث عليهم في المرة الأولى جالوت بعدها ينقل عدة روايات عن ابن جرير يختار بعضها ويعرض عن كثير منها.

---

(١) انظر القرطبي ١٠/٢١٥- ١٠/٢٢٣، والشوكاني ٣/٢٠٢، وقريباً منه ما قاله الزمخشري.

(٢) انظر السمر قندي ٢٨٩، والآلوسي ١٥/١٧-١٩، وتفسير الجلالين ص٣٧٢، وانظر تفسير الماوردي ٨/٤٢٣.

(٣) انظر تفسير الرازي ٢٠/١٥٥-١٥٨.

(٤) يعلن الرازي في تفسيره بقوله: «ولا يتعلق غرض من أغراض تفسير القرآن بمعرفة أعيان هؤلاء الأقوام؟ انظر ٢٠/١٥٩.

(٥) تفسير ابن عاشور ١٥/٢٩-٣٨. *من الملاحظ أن أغلب المفسرين حين يريدون أن يحددوا الإفسادين فأكثرهم ينظرون إلى أكبر عقوبتين وقعتا عليهم فمن خلال قسوة العقوبة وشدتها يحددون وقت الإفساد كما قال الطبري وابن عاشور هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن البعض منهم يحدده بقتل نبي فقط كزكريا وعيسى أو أشعيا الخ. وليس كل أنواع الإفساد الذي شمل كل جوانب الحياة.

وقــد قدمنا القول عن ابن جرير الطبري وما حققناه من رواياته، وقد ترجح لدينا قــول قتادة فيما ذهب إليه أن المبعوث عليهم في المرة الأولى جالوت الجزري وفي الثانية بختنصر وتركنا جميع الروايات الباقية بعد ما بان ضعفها وقد فصلنا القول في ذلك فارجع إليه إن شئت[1].

ولعل من الجدير بالذكر أن نبين أن من المفسرين من لم يعول على ما جاء في كتب التفســير في هذا الموضوع وعدّوه غير ذي شأن منهم العلامة ابن كثير في تفسيره حيث يقول: «وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أرَ تطويل الكتاب بذكرها، لأن منها ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً ونحن في غنية عنها ولله الحمد»[2] وقال في موضع آخر: «ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته»[3].

ــ وكذلــك صاحب أضواء البيان لا ينقل شيئاً من ذلك ويقول: «وتركنا بسط قصة الذين سلطوا عليهم في المرتين لأنها أخبار إسرائيلية وهي مشهورة في كتب التفسير والتاريخ والعلم عند الله تعالى»[4].

* - وصــاحب التفســير الفــريد يقــول: «وقد كثرت الأقاويل والروايات في الإفسادتين ولا علاقة للنص القرآني بها»[5] هكذا قال.

لكننا من خلال العطاءات القرآنية التي سنبينها - نرى غير هذا. إذ أننا ومن خلال العطــاءات القرآنــية لهــذه الآيات وتفسير مفرداتها ودراسة واقع التاريخ نجد أن مرتي الإفســاد مــن بــني إسرائيل لم ينتهيا بعد.. لا كما قال المفسرون من أنهما كانا قبل الإســلام. ولمعرفة هذه الحقيقة لا بد من بيان عدة مسائل لا تتضح الصورة إلا ببيانها، وإلا كانت السمات متداخلة والخطوط متشابكة:

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في المبحث الثاني من هذا الفصل.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٥.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٤/٣٦٥.

(٤) أضواء البيان - للشنقيطي ٣/٤٠٨.

(٥) التفسير الفريد.

المسألة الأولى:

هـــي لابـــد من التفريق بين الإفسادين المقضي بهما على بني إسرائيل وبين الوعد بالعقوبـــة على هذين الإفسادين، أي أن هناك فارقاً بين الإفساد من حيث هو عمل غير صـــالح متجسد في الإبتعاد عن منهج الله وبين الوعد بالعقوبة[1] وعلى هذا الوعد معلق بظهـــر الغيب مشروط بحدوث الإفساد فإذا وقع الإفساد منهم فقد حقت العقوبة عليه وإذا لم يكن هناك إفساد فلا عقوبة وذلك ما تقتضيه رحمة الله سبحانه: ﴿**وما كان ربك لـــيهلك القـــرى بظلم وأهلها مصلحون**﴾ هود/١١٧. وقوله تعالى: ﴿**و تلك القرى أهلكناهم - لما ظلموا - وجعلنا لمهلكم موعداً**﴾ الكهف/٥٩.

والوعـــد بـــالهلاك لقرية أو أمة معلق بظلمها، فإذا ظلمت حق عليها قول ربها.. ولذلك يقول تعالى: ﴿**وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول - الوعد بالعذاب - فدمرناها تدميراً**﴾ الإسراء/١٦.

فالإفســـاد إذاً شيء والوعد بالعقوبة شيء آخر وهذا ما تنبه إليه بعض المفسرين. فمثلاً نجد الإمام القرطبي يقول: ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما**﴾ أي أولى المرتين من إفسادكم ﴿**بعثنـــا علـــيكم**﴾[2] بينما القرآن لم يقل «إذا جاءت أولى المرتين» وإنما قال ﴿**وعد أولاهمـــا**﴾، وكذلـــك يقول في قوله تعالى: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة**﴾ من إفسادكم[3] التركيز على كلمة ﴿**وعد الآخرة**﴾ أي وعد العقوبة على الإفساد الثاني.

* - وكذلـــك الماوردي في تفسيره فقد قال: ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما**﴾ يعني أول المـــرتين من إفسادهم ﴿**بعثنا**﴾. وفي المرّة الثانية يقول: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم**﴾ يعني وعد المقابلة على إفسادهم في المرة الثانية..[4].

---

(١) راجع ما أوردناه عن معنى الوعد وضوابطه في الفصل الثاني المبحث الثالث المطلب الثاني.

(٢) القرطبي ٢١٥/١٠، وانظر تفسير ابن كثير ٢٥/٣، وصفوة التفاسير ١٥٢/٢، وانظر زبدة التفسير - للأشقر - ص٣٦٤.

(٣) تفسير القرطبي ٢١٨/١٠.

(٤) انظر تفسير الماوردي ٤٢٣/٨-٤٢٥.

* – بينما نجد الإمام الرازي يلمح بقوله ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما**﴾ يعني أول المرتين ﴿**بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد**﴾ – يقول – والمعنى: أنه إذا جاء وعد الفساق في المرة الأولى أرسلنا عليكم(١).

* – وكذلك الإمام النسفي في تفسيره يقول: ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما**﴾ أي وعد عقاب أولاهما ﴿**بعثنا عليكم**﴾(٢) وبذا قال الإمام ابن الجوزي أيضاً.

* – غير أننا نجد الإمام الآلوسي يزيد المسألة توضيحاً حين يقول ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما**﴾ أي: أولى مرتي الإفساد ثم يقول موضحاً: والوعد بمعنى الموعود مراداً به العقاب – كما في البحر –(٣) وفي الكلام تقدير، أي فإذا حان وقت حلول العقاب الموعود. وقيل الوعد بمعنى الوعيد. وقيل بمعنى الوعد الذي يراد به الوقت. أي فإذا حان موعد عقاب أولاهما ﴿**بعثنا عليكم**﴾.

وكذلك في الموضع الثاني يقول: ﴿**فإذا جاء وعد**﴾ المرّة ﴿**الآخرة**﴾ من مرتي إفسادكم ﴿**ليسوؤا**﴾ متعلق بفعل حذف لدلالة ما سبق عليه.

﴿**فإذا جاء**﴾ هنا مع كونه من تفصيل المجمل في قوله سبحانه ﴿**لتفسدن في الأرض مرتين**﴾ فالظاهر – فإذا جاء – للدلالة على مجيء وعد عقاب الآخرة لم يتراخ عن كثرتهم واجتماعهم للدلالة على شدّة شكيمتهم في كفران النعم وانهم كلما ازدادوا عدداً وعُدَّةً زادوا عدواناً وعزةً إلى أن تكاملت أسباب الثروة والكثرة(٤).

ويقول ابن الجوزي ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة**﴾ جواب ﴿**فإذا**﴾ محذوف تقديره: فإذا جاء وعد عقوبة المرّة الآخرة من إفسادكم.. بعثناهم ليسوؤا وجوهكم(٥).

---

(١) التفسير الكبير للإمام الرازي ١٥٥/٢٠، وانظر صفوة البيان – حسنين محمد مخلوف ص٣٥٩.

(٢) انظر مدارك التنزيل وحقائق التأويل – للنسفي – هامش تفسير الخازن ١٥٣/٣، وانظر زاد المسير لابن الجوزي أيضاً ٩/٥.

(٣) قلت وكذلك قال الراغب في مفرداته انظر ص٢٥٦-٢٥٧.

(٤) روح المعاني للآلوسي ١٦/١٥-١٩.

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ١٠/٥-١١.

إن هناك فارقاً كبيراً إذا بين «مرتي الإفساد» المذكورتين في قوله تعالى ﴿**لتفسدن في الأرض مـــرتين**﴾ وبين «الوعد بالعقوبة» على هذين الإفسادين المذكورين في قوله تعالى ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما**﴾ و﴿**فإذا جاء وعد الآخرة**﴾.

ولقـــد وردت إشارات وتصريحات في بعض كتب التفسير تقول إن بعضهم اعتقد بأن الأولى وقعت وأن الثانية لم تقع بعد.

* – كمـــا جاء في «فتح القدير» حيث قال في تفسيره للمرتين: «ويقال: وقعت الأولى و لم تـــأت الثانية». ويقول في موضع آخر: «ويقول بعض العلماء: إن المرة الثانية هي هذه التي حصلت في هذا العصر..»[1].

ونحـــن نعـــتقد أن ما قاله محمد سليمان الأشقر هو الصحيح والراجح حيث إن العقوبة على الإفساد الأول قد وقعت في زمن النبي ﷺ وعلى يد أصحابه الذين استحقوا شرف النسبة إليه سبحانه وتعالى في ﴿**عباداً لنا**﴾ كما سنبين لاحقاً إن شاء الله تعالى.

وإن الثانـــية مخبوءة لهم بظهر الغيب قد تأذن الله سبحانه وتعالى بها وربما علامتها ستظهر في الآفاق وفي الأنفس حتى يتبن لنا ولهم أنه الحق. ﴿**سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً**﴾ الإسراء/١٠٨.

المسألة الثانية:

أنـــه لا بد كذلك من التفريق بين ﴿**الإفساد**﴾ الوارد ذكره في الآية ﴿**لتفسدن في الأرض مـــرتين**﴾ وبين ﴿**العلو**﴾ الوارد في قوله تعالى ﴿**ولتعلن علواً كبيرا**﴾ فلا يصح الاعـــتقاد أنهمـــا شيء واحد أو أنهما لابد أن يكونا متلازمين أبداً وإنما هما مختلفان في المفهوم وإن بدا في الظاهر أنهما شيء واحد. وإلا لما ذكرهما في موضع واحد منفردين. وذلك لأسباب منها:

أولاً: لأن أحدهما أشمل وأعمُّ من الآخر. فقد يكون الإفساد موجوداً دون أن يتخذ طـــابع العلـــو والبغي بينما لا يمكن أن يكون هناك علو في الأرض دون أن يصاحبه أو يسبقه إفساد.

---

(١) انظر زبدة التفسير من فتح القدير لمحمد سليمان الأشقر ص٣٦٤-٣٦٥.

ثانياً: قد يسبق الإفساد علوٌ في الأرض – بغير الحق – وإنما هو طغيان وهذا ما يمكن أن يطلق عليه «إفساد فرعوني» - إن صح التعبير - أن يستعلي على الناس ثم يفسد في الأرض وهذا ما نراه واضحاً في كثير من آيات القرآن بشأن فرعون[1] إذ أنها كثيراً ما تنسب إليه العلو أولاً ثم الإفساد كقوله تعالى ﴿**إن فرعون علا في الأرض..انه كان من المفسدين**﴾ القصص/٤، وكقوله عن فرعون وملأه ﴿**وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الإفساد**﴾ الفجر/١١، ١٢، ١٣. لجعل الإفساد بعد الطغيان.

ثالثاً: أما إذا سبق العلو إفساد في الأرض ومكر السيء فإنه يمكن أن يقال عنه إنه «إفساد يهودي» إذ أنهم دائما يحرصون على أن ينشروا الإفساد في الأرض ليصلوا إلى حالة الاستعلاء والطغيان على الناس ولذلك نجد أن القرآن حينما أعلمنا بما قضى عليهم وما سيكون منهم قدم الإفساد على العلو فقال ﴿**لتفسدن في الأرض مرتين. ولتعلن علواً كبيراً**﴾ بيد أننا نجده حين أخبر عن أصحاب الحق قال: ﴿**الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا إفساداً**﴾ القصص/٨٣.

إذ أن القرآن في طرحه للقضايا والقوانين التي تحكمها تميز عن غيره ويختلف كثيراً فان كل إشارة أو تلميح له أثره في بيان وفهم المراد من النص والعبارة والقرآنية. ولبيان هذه الحقيقة نقول: إن الإفساد معناه - كما بينه علماء اللغة والتفسير - هو التغيير إذ هو من «فَسَدَ» والإفساد خروج الشيء عن الاعتدال - قليلاً كان أو كثيراً - ويضاده الصلاح ويقال «فَسَدَ. إفساداً، وأفسده غيره».

قال الله تعالى ﴿**قل لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾ الأنبياء/٢٢، وقال ﴿**وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد**﴾ البقرة/٢٠٥. و﴿**إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها**﴾[2] النمل/٣٤. و لم يصلحوها إذ أفسده وفسّده ضد أصلحه و«المفسدة» مصدر الإفساد أو سببه[3].

---

(١) ومن على شاكلته.

(٢) انظر المفردات للراغب ص٣٧٩.

(٣) انظر منجد الطلاب – فؤاد افرام البستاني ص٥٥١.

وفي قولـــــه تعالى ﴿**لتفسدن في الأرض مرتين**﴾ قال المفسرون: «المراد بالإفساد مخالفة أحكام التوراة»[1] و«لتفسدن بارتكاب المعاصي»[2] ويقول الماوردي: «الإفساد الذي فعلوه قتلهم للناس ظلماً وتغلبهم على أموالهم قهراً وإخراب ديارهم بغياً»[3].

«وإسناد الإفساد إلى ضمير بني إسرائيل مقيد انه إفساد من جمهورهم بحيث تعد الأمة كـــلها مُفسدة وإن كانت لا تخلو من الصالحين»[4]. فكل أمرٍ أمَرَ الله به أن يوصل فيقطع كـــان إفســـاداً. وكل نهي صدر من الله فعُمِل به كان إفساداً. والله قال: ﴿**ولا تفسدوا في الأرض**﴾ الـــبقرة/١١، وقال ﴿**الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون**﴾ البقرة/٢٧.

فعهد الله الذي قطعه مع بني إسرائيل أن يؤمنوا بالله ورسله ﴿**لقد أخذنا ميثاق بني إســـرائيل وأرسلنا إليهم رُسُلاً كلما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفـــريقاً يقتلون**﴾ المائدة/٧٠. هكذا بدل أن يؤمنوا بهم ويصدقوهم وينصروهم.. فكان إفساد في الأرض.

بـــل إن العهـــد الذي قطعه الله مع موسى وقومه على الإيمان برسول الله محمد ﷺ ونصره واتباع النور الذي سينـــزل معه.﴿**قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كـــل شـــيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتـــبعون الرســـول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعـــروف ويـــنهاهم عن المنكر ويحلُّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصـــرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه. أولئك هم المفلحون**﴾ الأعراف/١٥٧. غير أنهم كفروا وما نصروا.

---

(١) القرطبي ٢١٤/١٠.

(٢) انظر الألوسي ١٧/١٥، والرازي ١٥٥/٢٠.

(٣) تفسير الماوردي ٤٢٣/٨.

(٤) تفسير ابن عاشور ٣٠/١٥.

قلت إن ذلك العهد هم مسؤولون عنه أمام الله وأمام أنبياءه وأمام الناس – ونقضه يشكل إفساداً في الأرض. قال ابن إسحاق: «ثم ذكر ما أخذ الله عليهم، وعلى أنبيائهم من الميثاق بتصديقه إذ هو جاءهم، وإقراراهم على أنفسهم. فقال: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمه ثم جاءكم رسولٌ مصدق لما معكم لتؤمننَّ به ولتنصرنه. قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين**﴾[1] آل عمران/٨١.

وحين بعث رسول الله ﷺ وذكر لهم ما أخذ عليهم له من الميثاق وما عهد الله اليهم فيه [قالوا[2]] والله ما عُهد إلينا في محمد عهد وما أخذ له علينا من ميثاق. فيترل الله فيه ﴿**أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون**﴾ البقرة/١٠٠.

وقال أبو صلُوبا الفطيوني لرسول الله ﷺ يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آياته فنتبعك لها. فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله ﴿**ولقد أنزلنا إليك آياتٍ بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون**﴾ البقرة/٩٩[3].

نقضوا العهد وقطعوا الميثاق وكفروا، وصدق الله ﴿**وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين**﴾ المائدة/٦١.

هذا من ناحية الإفساد من بني إسرائيل في الأرض. أما العلو في الأرض فسنبحثه في المطلب الثالث إن شاء الله تعالى.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/١٣١-١٣٢.

(٢) ساقطة من الاصل – فأثبتها.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٢٢٥.

المطلب الثالث

معنى العلو في قوله تعالى:

﴿ولتعلن علواً كبيراً﴾

أمـــا العلو فقد قال فيه أهل التفسير أي «يتجبرون ويطغون ويفخرون على الناس»[١] والعلو العتو على الله والجرأة - وهذا قول ابن عباس[٢] «ولتستكبرن على الله باجترائكم عليه استكباراً شديداً»[٣].

* - قال القرطبي في «علواً كبيراً» أراد التكبر والبغي والطغيان والاستطالة والغلبة والعدوان[٤].

* - وابـــن عاشور يقول: «والعلو في قوله تعالى ﴿**ولتعلن علواً كبيراً**﴾ مجاز في الطغيان والعصيان كقوله ﴿**إن فرعون علا في الأرض**﴾. تشبيهاً للتكبر والطغيان بالعلوّ على الشيء لإمتلاكه تشبيه معقول بمحسوس [٥].

* - أمـــا الآلوسي فيقول «لتستكبرن عن طاعة الله تعالى أو لتغلبن الناس بالظلم والعـــدوان وتفرطن في ذلك إفراطاً مجاوزاً للحد». وأصل معنى «العلو» الارتفاع وهو ضد السفل وتجوز به عن التكبر والاستعلاء على وجه الظلم[٦].

* - وهذا ما أثبته الراغب الأصفهاني في مفرداته حيث قال:

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٥.

(٢) انظر تفسير السمرقندي - لوحة ٢٨٩م.

(٣) تفسير الإمام الطبري ١٥/٢٠.

(٤) تفسير القرطبي ١٥/٢١٤.

(٥) تفسير ابن عاشور /٣٠.

(٦) انظر تفسير الآلوسي ١٥/١٧.

«عــلا: العُلُو ضد السفل.. والعُلُوُّ الارتفاع وقد علا يعلوا علواً وهو عالٍ، وعلى يعــلي علا فهو عليٌّ... وقيل إن «علا» يقال في المحمود والمذموم، و«علي» لا يقال إلا في المحمود، قال تعالى: ﴿**إن فرعون علا في الأرض**﴾ القصص/٤ ﴿**لعال في الأرض وأنه لمــن المسرفين**﴾ يونس/٨٣ - ﴿**فاستكبروا وكانوا قوماً عالين**﴾ المؤمنون/٤٦ - وقال لإبلــيس: ﴿**استكبرت أم كنت من العالين**﴾ ص/٧٥ - وقد مدح المؤمنين فقال: ﴿**لا يــريدون علواً في الأرض**﴾ القصص/٨٣ - وقال: ﴿**ولتعلن علواً كبيرا**﴾ الإسراء/٤ وقال: ﴿**واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً**﴾ النمل/١٤.

والعليُّ هو الرفيع القدر.. من عَلَيَ.. وإذا وصف به الله تعالى في قوله: ﴿**إن الله هو العــلي الكبير**﴾ لقمان/٣٠. و﴿**إن الله كان عليّاً كبيراً**﴾ النساء/٣٤. فمعناه يعلو أن يحيط به وصف الواصفين بل علم العارفين وعلى ذلك يقال: ﴿**فتعالى الله عما يشركون** ﴾ الأعــراف/١٩٠... والاســتعلاء قد يكون طلب المذموم، وقد يكون طلب العلا أي الرفعة.. في قوله تعالى: ﴿**قد أفلح اليوم من استعلى**﴾ طه/٦٤ يحتمل الأمرين جميعاً[1].

ثم بعــد ذلــك نقــول.. لقد ذُكر لفظ «العلو» ومشتقاته [علا يعلو - علواً - واستعلى - استعلاء] - ذكر سبعين مرة في القرآن الكريم موزعة في كثير من سوره لكنه لم يــرد بصــيغة الذم إلا في ستة عشر موضعاً كلها تعطي معنى التكبر على الله والتعالي الفاجــر على أحكامه والبغي في الأرض بغير الحق والاستكبار على الناس ظلماً وعدواناً منها على سبيل المثال ...

١/ قوله تعالى: ﴿**إن فرعون علا في الأرض**﴾ القصص/٤.

٢/ وقوله تعالى: ﴿**ألا تعلو على الله**﴾ الدخان/١٩.

٣/ وقوله تعالى: ﴿**فاستكبروا وكانوا قوماً عالين**﴾ المؤمنون/٤٦.

والعجــب إن في قوــله تعالى في سورة الإسراء مخاطباً بني إسرائيل - على جهة الخصوص - بقوله: ﴿**لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً**﴾ الإسراء/٤.

---

(١) انظر مفردات الراغب ص٣٤٥.

إن في كل المواضع التي ذكر فيها «العلو» لم يأت فيها موصوفاً بأنه «علواً كبيراً» إلا في سورة الإسراء في موضعين في قوله تعالى: ﴿**ولتعلن علواً كبيراً**﴾ في صيغة الذم، وفي قوله تعـالى: في سورة الإسراء أيضاً ﴿**سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً**﴾ الإسراء /٤٣ في صـيغة المدح لعلوه سبحانه، و لم تستعمل في مدح المؤمنين كما قلنا - إلا مرة واحدة حين نفت عنهم حب التعالي والإفساد في الأرض فقال تعالى: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقي**﴾ القصص/٨٣.

فممـا تقـدم نجـد أن القـرآن لم يستعمل لفظ «العلو» إلا عندما أخبر عن التكبر والاستعلاء بجحد الحقّ ظلماً واستكباراً على أهله في الأرض وحين استعمله في بني إسرائيل قـال عـنهم «ولتعلن علواً كبيراً» وهذه حالة لم تكن في بني إسرائيل إلا في زماننا هذا.. صحيح أهم فسدوا وأفسدوا وأن إفسادهم قد اتخذ كل صور الإفساد وأشكاله وحالاته في كـلّ جوانـب حياتهم وربما في كل مراحل التاريخ[1]. لكنهم لم يستعلوا على الناس كما اسـتعلوا في زماننا هذا و لم يطغوا الطغيان المادي والبشري كما طغوا اليوم ففي كل مراحل الـتاريخ من يوم أن كانوا في مصر وعندما أصبحوا تحت وطأة الفراعنة وبعد خروجهم مع نبيهم موسى مرورا بفترة التيه وبعدها عند دخولهم الأرض المقدسة وعند حكم أنبيائهم داود وسـليمان وغيرهمـا وعـند قيام دولتيهم يهوذا وإسرائيل وبعد خرابها وتعرضهم لغزوات سنحاريب، ونبوخذ نصر وسبيهم في بابل وغيرها، وتعرضهم لنكبات الرومان وحتى مجيء الإسـلام وإذلالهم بالجزية وإجلائهم من أرض الجزيرة.. في كل ذلك التاريخ لم يكن لبني إسـرائيل الاسـتعلاء والطغيان كما كان لهم في هذا الزمن على الرغم من اتساع إفسادهم وشموله جوانب حياتهم كلها عبر أبعاد التاريخ وتقلبات مراحله.

فماذا يعني هذا ؟ سؤال يطرح نفسه.. فإذا كانت الآية قد بيّنت صراحة أن هناك إفسادين من بني إسرائيل سيكونان في الأرض - على اختلاف في وقتي وقوعهما - فهل سيكون هناك علوّان أيضاً؟.

---

(١) يراجع كتاب المفسدون في الأرض - جرائم اليهود السياسية والاجتماعية عبر التاريخ – ل. س ناجي.

وبعبارة أخرى.. هل أن لفظ «المرتين» في قوله تعالى: ﴿**لتفسدن في الأرض مرتين**﴾ ينسحب على «العلو» في قوله تعالى «ولتعلن» أي لتعلن علويين كبيرين فيكون مع كل إفساد علو؟ أم أن العلو واحد في قوله تعالى: «ولتعلن علوا كبيراً» يصاحب أحد الإفسادين كما هو ظاهر الآية حيث لم يقل القرآن «ولتعلن علويين كبيرين» ؟؟؟.

ومن خلال نظرة دقيقة إلى ماضي إفساد بني إسرائيل ومقارنته بالإفساد الذي نعاصره اليوم نجد أن في كل إفسادهم الماضي لم تكن لبني إسرائيل دولة فيها استعلاء على الناس بغير الحقّ.. وما قيل عن فترة حكم داود وسليمان التي يعدها اليهود – الفترة الذهبية – من تاريخهم لم يكن فيها من العلو شيء بمعناه المذموم – كما قدمنا – إن داود وسليمان كان حكمهما كما يحب الله ويرضى حتى قال: ﴿**وكنا لحكمهم شاهدين**﴾ الأنبياء/٧٨ – فلا يصح أن يقال إن حكم داود أو سليمان كان علواً في الأرض.. إن سليمان لم يظلم هدهد... بل لم يؤذِ نملة.. وحين طلب من بلقيس أن تسلم قالت ﴿**أسلمت مع سليمان**﴾ وليس له فلم يكن علوٌ في الأرض إذاً ولا إفساد..

أقول بناءاً على ما تقدم نجد...

أولاً – إن مرتي الإفساد شيء وان الوعد بالعقوبة عليهما شيء آخر..

ثانياً – إن الإفساد في الأرض شيء وان العلو في الأرض شيء أعم منه وأشمل.

ونستطيع أن نبين هذا في مخطط توضيحي* «للإفساد اليهودي» لنرى كيف ومتى كانت هاتان المرتان من إفساد بني إسرائيل ومتى كانت العقوبة على الأول منهما ومن هم المبعوثون عليهم فيها وكيف جاسوا خلال الديار ومتى دخلوا المسجد وكيف كانت الكرة لبني إسرائيل عليهم وما هي مقومات هذه الكرة وهل حدثت أم لا وأين العلو منهم في ذلك.. الخ.

يتبين لنا بوضوح من خلال النظر إلى المخطط التوضيحي لمراحل إفساد بني إسرائيل. واهم الأحداث التي حدثت فيه ومن خلال العطاءات القرآنية التي بيناها والتي سنبين الباقي منها، عدة حقائق مهمة أجملها في نقاط..

---

* انظر المخطط التوضيحي للإفساد اليهودي عبر التاريخ في الملحق رقم /٢.

١/ – إن مـــرتي الإفســـاد لم تحدث كلتاهما قبل الإسلام.. وإنما الجزء الأكبر من الإفساد الأول فقط أما الجزء الأخير فقد كان معاصراً للنبي ﷺ.

٢/ ـــ العقوبـــة على الإفساد الأول حدثت ببعث العباد الذين كانوا من الصحابة بقيادة النبي ﷺ والذي شرّفه بنسبته إليه في ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده**﴾ كما شرفهم في نسبتهم إليه في ﴿**عباداً لنا**﴾.

٣/ – دخول العباد ديار اليهود[1] – من بني النضير وقينقاع وقريظة وخيبر فجاسوا خلال ديارهم بعدما أجلوا بعضهم وقتلوا البعض الآخر.

٤/ – دخول العباد المسجد الأقصى الذي تأخر إلى زمن عمر بن الخطاب ﷺ مما يوحي بسرّ تأخر ذكره في الآية التي تحدثت في الوعد بالعقوبة على الإفساد الثاني.

٥/ – انقطاع الإفساد اليهودي ودخولهم مرحلة التمزق والضياع بين الأمم ولكن دون أن يقطع دابرهم كما حدث لأهل الكفر من قبل.

٦/ – عودة بني إسرائيل بعد لعق جراحهم وتجميع فلولهم ونشر الإفساد في الأرض ورد الكرّة إليهم وإمدادهم بالأموال والأولاد وكثرة النفير.. بعد ردت المسلمين وتخلّيهم عن مركز القيادة والإمامة.

٧/ – نحـــن الآن في دور هذه الكرّة التي ردت لبني إسرائيل علينا.. وهي مرهونة بعودتـــنا إلى الله ورجوعنا إلى حالة ﴿**عباداً لنا أولي بأس شديد**﴾ ليتحقق الوعد الثاني بالعقوبة على إفسادهم الآخر الذي علو فيه – اليوم – علواً كبيراً..

٨/ – بلوغهـــم حالـــة العلو الكبير الذي أوصلهم إلى النفوذ في مؤسسات العالم الدولية وتوجيه العالم إلى الإفساد الثاني من خلاله.

---

(١) «إن هـــناك فارقـــاً بين كلمتي دار – و–ديار»، فإن الأولى أعم من الثانية حيث أن «دار» تستعمل للأصل أو لعموم المكان وهي مؤنثة ولذاك يقال «تلك الدار» أما الديار فهي القرية او مجموعة بيوت قلـــيلة يقـــال عنها «ديار». ولذلك حين أراد أن يخبر عن قريتهم قال «فأصبحوا في ديارهم جاثمين» وحين أخبر عن عموم بلدهم قال «فأصبحوا في دارهم جاثمين» سيأتي بيان معنى الديار التي لليهود..

٩/ - إن هناك فارقاً كبيراً بين العلو في الأرض والاستكبار فيها إذ أن الاستكبار حالــة ترفض الاهتداء بهدي الله وتأبى الانصياع لدين الله أو الاستسلام له والتصديق بما جاء به الرسل.. على الرغم من أن المستكبر قد يظهر الإسلام نفاقا والإيمان ظاهرا لكنه مع نفسه أو مع شياطينه يقول أني معكم ﴿**إنما نحن مستهزئون**﴾ وهذا ما كان واضحاً جلياً في موقف[1] اليهود في المدينة مع رسول الله ﷺ على الرغم من علمهم بأنه الرسول الحق وانه الذي بشرت به كتبهم استكبارا عن طاعته والإسلام لله سبحانه على يديه..

وقد رأينا أنه في كل مراحل حياة بني إسرائيل لم يكن لبني إسرائيل علو في الأرض غـــير هذا الذي نجده اليوم.. انه الكفر بعينه ليس برسول الله فحسب وإنما حتى بأنبيائه الذين بشروا به وطالبوهم بالإيمان به واتباعه متى ما أدركوه..

(١) لقد عدَّ ابن هشام من اسلم من أحبار يهود نفاقاً جمعٌ انظر سيرة ابن هشام ١٩٨/٢ وما بعدها..

المبحث الثاني

أقوال المفسرين في الإفسادين ومناقشتها

المطلب الأول:

أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الأول ومناقشتها

المطلب الثاني:

أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الثاني ومناقشتها

المطلب الثالث:

أقوال المفسرين المحدثين في الإفسادين الأول والثاني ومناقشتها

المبحث الثاني

أقوال المفسرين في الإفسادين ومناقشتها

توطئة:

قـــال تعـــالى: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولــتعلن علــواً كبيراً. فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد. فجاســوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً. ثم رددنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا. إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها. فــإذا جــاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علو تتبيراً**﴾ الإسراء/٤-٧.

الناظر فيما أورده الإمام ابن جرير الطبري من روايات في تفسيره لهذه الآيات يحتار في تميــيز الصــحيح مـــن الضعيف ويختلط عليه الأمر بين القبول وعدمه.. إذ انه أورد روايات كثيرة تباينت من حيث الصحة وعدمها.

وممـــا يزيد الحيرة أن تجد عند من جاء بعده من المفسرين أقوالاً أخر بعضها جديد مـــن قبيل الاجتهاد في تحديد معنى الآيات وبعضها منقول عما أورده الطبري في تفسيره مـــن روايات ولكن من غير إسناد وعلى ما رآه مناسباً لمعنى النص القرآني أو ما ترجح عنده أنه الصحيح..

لذلـــك حـــين جمعت أقوال المفسرين في هذين الإفسادين ومن بعث عليهم فيهما وجدت التضارب والاختلاط على أشده.. مما اضطرني إلى أن احصر المسألة في أقل عدد ممكـــن مـــن الأقـــوال بعـــد الدمج والتركيز أولا، ثم أرجعتها إلى أصلها في الروايات الـــتي أوردهـــا الطبري ثانياً.. ثم قمت بتحقيق هذه الروايات للوقوف على صحتها أو ضعفها ثالثاً..

فأسقطت الضعيف واعتمدت الصحيح قولاً يمكن الاعتماد عليه إن لم يخالف المعطيات القرآنية التي يوحي بها النص القرآني الذي نحن بصدده بعد إبراز معانيه دراسة وتحليلاً.

وقبل ذي بدء أقول أنه لو صحّ لدينا حديث واحد عن رسول الله ﷺ في هذا الشأن إذا لكفانا المؤنة ولما كان هناك خلاف بين الأوائل أو كان هنا قيل ويقال بين الأواخر..

إلا أن الحديث الوحيد الذي ورد في هذا الشأن إنما كان الذي ساقه ابن جرير الطبري - رحمه الله - في تفسيره[1] مرفوعاً إلى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بالسند الآتي..

حدثنا عصام بن رواد بن الجراح قال: ثنا أبي قال: ثنا سفيان بن سعد الثوري قال: «ثنا منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل لما اعتدوا وعلوا، وقتلوا الأنبياء بعث الله عليهم ملك الفرس بختنصر، وكان الله ملّكه سبع مئة سنة، فسار إليهم حتى دخل بيت المقدس فحاصرها وفتحها، وقتل على دم زكريا سبعين ألفاً، ثم سبى أهلها وبني الأنبياء وسلب بيت المقدس، واستخرج منها سبعين ألف عجلة من حلي حتى أورده بابل. قال حذيفة فقلت: يا رسول الله، لقد كان بيت المقدس عظيماً عند الله ؟ قال: أجل بناه سليمان بن داود من ذهب ودر وياقوت وزبرجد، وكان بلاطه بلاطةٌ من ذهب، وبلاطةٌ من فضة، وعُمَدهُ ذهباً، أعطاه الله ذلك، وسخّر له الشياطين يأتونه بهذه الأشياء في طرفة عين، فسار بختنصر بهذه الأشياء حتى نزل بها بابل، فأقام بنو إسرائيل في يديه مئة سنة، تعذبهم المجوس وأبناء المجوس، فيهم الأنبياء وأبناء الأنبياء، ثم إن الله رحمهم، فأوحى إلى ملك من ملوك فارس، يقال له «كورس» وكان مؤمناً أن سر إلى بقايا بني إسرائيل حتى تستنقذهم، فسار «كورس» ببني إسرائيل وصلّى ببيت المقدس حتى رده إليه، فأقام بنو إسرائيل مطيعين لله مئة سنة، ثم إنهم عادوا في المعاصي، فسلط الله عليهم «ابطيانخوس» فغزا بأبناء من غزا مع «بختنصر» فغزا بني إسرائيل حتى أتاهم بيت المقدس، فسبى أهلها، وأحرق بيت المقدس وقال لهم: يا بني إسرائيل إن عدتم في المعاصي عُدنا عليكم بالسباء فعادوا في المعاصي، فسيّر الله عليهم السباء الثالث ملك رومية يقال

---

(١) كذلك أورده القرطبي بلفظ آخر مختلف عن هذا. انظر ٢٢٢/١٠.

لـــه «قـــاقس بـــن اسبايوس» فغزاهم في البر والبحر، فسباهم وسبى حلي بيت المقدس وأحـــرق بيت المقدس بالنيران، فقال رسول الله ﷺ هذا من صنعتي حلي بيت المقدس. ويردّهُ المهدي إلى بيت المقدس، وهو ألف سفينةٍ وسبع مائة سفينة، يرسى بها على يافا، حتى تنقل إلى بيت المقدس، وبها يجمع الله الأولين والآخرين»[1].

قلت: رجال هذه الرواية هم..

* عصام بن رواد بن الجراح العسقلاني: قال الذهبي «لينه الحاكم أبو أحمد»[2].

* رواد بن الجراح العسقلاني: قال أحمد بن حنبل "لا بأس به، صاحب سنة، إلا انه حدث عن سفيان أحاديث مناكير، وقال ابن معين: «ثقة». وقال النسائي: «روى غير حديث منكر» وقال أبو حاتم «محله الصدق تغير حفظه». وقال الدار قطني «متروك». وقـــال ابن عدي «عامة ما يرويه لا يتابعه عليه الناس»[3] وقال عنه البخاري «كان قد اختلط لا يكاد يقوم حديثه، ليس له كثير حديث قائم»[4].

* سفيان بن سعيد الثوري: «ثقة جبل»[5].

* منصور بن المعتمر: هو السلمي أبو عتاب «ثقة، أحد الأعلام»[6].

* ربعي بن حراش، هو العبسي الكوفي «مخضرم»[7].

* حذيفة بن اليمان: «صحابي جليل»[8].

* فعِلّـــةُ الحديث واضحة في رواد بن الجراح، فهو مُتكلّم فيه من قبل حفظه وفي روايته عن سفيان نكاره، وقد حدث عنه هنا فالحديث منكر «ضعيف».

---

(١) جامع البيان ٢٢/١٥.

(٢) انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٢/٥٥-٥٦ وتهذيب التهذيب لابن حجر ٢٨٨/٣.

(٣) ميزان الاعتدال ٦٦/٣ وتقريب التهذيب ١٩٥٨.

(٤) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ٢٨٨/٣.

(٥) انظر تقريب التهذيب ٢٤٤٥ والخلاصة ١٤٥.

(٦) انظر تقريب التهذيب ٦٩٠٨ والخلاصة ٣٨٨.

(٧) انظر تقريب التهذيب ١٨٧٩ والخلاصة ١١٤.

(٨) انظر ترجمته في الإصابة لابن حجر ٣٣٢/١.

وقـــد أنكر الحافظ ابن كثير على الإمام الطبري إيراده لهذه الرواية فقال: «وقد روى ابـــن جرير في هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً وهو حديث موضوع لا محالة. لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث. والعجب كل العجب كيف راج عليه - أي الطبري - مع جلالة قدره وإمامته. فقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزّيّ - رحمه الله - بأنه موضوع مكذوب. وكتب ذلك على حاشية الكتاب»[1].

وتعقيـــباً على نقد ابن كثير لابن جرير الطبري لما ساق الحديث أقول: «إن منهج أهل العلم كان أن يأتوا بجميع الأقوال التي وصلت إليهم في تأويل آيةٍ ما. وإن كان فيها الصـــحيح والضـــعيف كمـــرحلة أولى، ثم يأتي بعد ذلك تنقيح تلك الروايات وتلكم الأقوال». ولما كان ابن جرير الطبري - رحمه الله - قد جمع و لم ينقح فإنه لم يُشِر في أي موطن من تفسيره إلى صحة جميع ما ورد فيه من أخبار[2]. وفي هذا يقول الذهبي «ثم إن ابـــن جريـــر وإن التزم في تفسيره ذكر الروايات بأسانيدها إلا أنه في الأعم الأغلب لا يتعقب الأسانيد بتصحيح الأسانيد بتصحيح ولا تضعيف»[3].

غـــير أن من جاء بعده لم يورد كل ما وجد وإنما أورد بعض ما رآه راجحاً وترك غـــيره، كمـــا فعل ابن كثير حيث قال «وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أرَ تطويل الكتاب بذكرها. لأن منها ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم. ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً. ونحن في غنيةٍ عنها ولله الحمد»[4].

كـــذا قال ابن كثير وفي كلامه نظر. إذ أن الطبري قد ساق مجموعة من الأخبار، نعم فيها ما هو أصله ثابت من كلام أهل الكتاب مثل بعض روايات ابن إسحاق ووهب ابـــن منـــبه. لكنه كذلك أورد أخباراً أُخر عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢٥/٣.

(٢) قلـــت: وهـــذا هو الثابت في منهج الإمام الطبري في تفسيره. ان يورد كل ما وصل إليه تاركاً تنقيح الـــروايات إلى مـــن يقـــرأ أو يأخذ عنه، فلكم تمنيت أن لو نقح فأسقط ما لا قيمة له ابتداءاً وأثبت الصحيح فأتم واختصر وأراح واقتصر. وأثيب ضعفين.

(٣) التفسير والمفسرون للذهبي ٢١٢/١.

(٤) تفسير ابن كثير ٢٥/٣.

وسعيد ابن جبير وابن المسيب فيها ما هو صحيح السند إلى قائله وفيها ما هو ضعيف السند إلى قائله كذلك.

وكذلك فعل غيره من المفسرين في اختيار ما رآه راجحاً وترك ما ضعف عنده لسبب أو لآخر. وهم - في الأغلب - في إيرادهم لهذه الأقوال قد أسقطوا السند واكتفوا بنقل الرواية فقط مما اضطرني للرجوع إلى روايات الطبري وتحقيقها لمعرفة صحة الأقوال التي اعتمدوها - أو ضعفها - فيما يخص تفسير الآيات المتعلقة بفساد بني إسرائيل ومن بعث عليهم بعده[١].

ومن الجدير بالذكر أنه لا خلاف بين المفسرين في أن فساد بني إسرائيل نشأ من اتخاذ غير الله وكيلاً وفي عبادة الأصنام كالعجل الذهبي وبعل الصنم وعبادة الذهب، وعصيان أمر الله المبلّغ إليهم عن طريق أنبياءهم الذين كذبوا فريقاً منهم وفريقاً يقتلون وحرفوا التوراة واستكبروا عن هدي الله واستعلوا على الناس بالبغي والظلم. وقد كان من كبائر هذا الإفساد والطغيان قتل بعض أنبيائهم ظلماً وعلواً[*].

أقول: ولكن اختلاف المفسرين كان فيمن قتل من الأنبياء في الإفسادين ومن بعث عليهم بعدهما.

لذلك جعلت لهذا المبحث مطالب ثلاثة:

المطلب الأول:

أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الأول:

أ- من قتل فيه من الأنبياء.

---

(١) قلت: ولأن بحثي ليس - حديثياً - فقد اقتصرت على الروايات المتعلقة بالإفسادين والمبعوثين فقط، غير متوسع في الروايات التي أشارت إلى معنى: قضينا - أو جاسوا - أو لفيفا - وغيرهما لاتفاق المفسرين في هذه المعاني وعدم اختلافهم فيها.

* عجبت لأغلب المفسرين حين يحددون الإفساد في قتل نبي أو نبيين ويتركون باقي أنواع الإفساد، كالإفساد العقيدي والاجتماعي والسياسي. ولا شك أن قتل النبي كبير عند الله لكن أن يقال «وكان فسادهم الأول هو قتل زكريا مثلاً» فهذا مما لا يستساغ، والله أعلم.

ب– من بعث عليهم فيه.

المطلب الثـاني:

أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الثـاني:

أ / من قتل فيه من الأنبياء.

ب / من بعث عليهم فيه.

المطلب الثالث:

أقوال المفسرين المحدثين في الإفساد الأول والثـاني.

المطلب الأول

أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الأول:

أ / من قتل فيه من الأنبياء:

للمفسرين في ذلك قولان الأول هو الراجح منهما:-

القـــول الأول - كان الإفساد الأول معاصراً لقتل نبي الله زكريا وقد ذكر ذلك الطبري في تفسيره وتابعه كل من الماوردي والقرطبي و الآلوسي[١].

القـــول الثاني - إن الإفساد الأول قتل فيه أشعياء وذكر ذلك الماوردي وتابعه ابن الجوزي والقرطبي والشوكاني[٢].

ب / من بعث عليهم فيه:

وللمفسرين في ذلك عدة أقوال وهي:

---

(١) انظر الطبري ١٥/٢١ والماوردي ٨/٤٢٣ وابن الجوزي ٥/٧ والقرطبي ١٠/٢١٥ والآلوسي ١٥/١٦.

(٢) انظر الماوردي ٨/٤٢٣ وابن الجوزي ٥/٨ والقرطبي ١٠/٢١٥ والشوكاني ٣/٢٤٩.

القول الأول: أنه جالوت الجزري وجنوده. وبذلك قال الطبري والماوردي وابن الجوزي والرازي والقرطبي وابن كثير والآلوسي[1].

القـــول الـــثاني: انه سنحاريب ملك الموصل، ذكر ذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي وابن كثير والآلوسي[2].

القـــول الثالث: انه بختنصر ذكر ذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي والرازي والقرطبي وابن كثير[3].

القول الرابع: جند من فارس، ذكر ذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي والرازي والقرطبي[4].

أ- مناقشة أقوال المفسرين فيمن قتل من الأنبياء في الإفساد الأول:

بعـــد عرض أقوال المفسرين لابد من مناقشتها لمعرفة الصحيح منها من الضعيف كخطوة أولى، ثم كان لابد لنا في الخطوة الثانية إعادة كل قول إلى مصدره من الروايات التي أوردها الإمام الطبري في تفسيره، حيث كما قلنا انهم في الغالب الأعم قد نقلوا عنه واعتمدوا على ما أورده من روايات غير انهم حذفوا الأسانيد منها.

أولاً- مناقشـــة أقوال المفسرين في تحديد الإفساد الأول ومن قتل فيه من الأنبياء، ومن هم المبعوثون عليهم بعده.

(١) انظر الطبري ١٥/ ٢٨ والماوردي ٨/ ٤٢٣ وابن الجوزي ٥/ ٩ والرازي ٢٠/ ١٥٦ والقرطبي ١٠/ ٢١٥ وابن كثير ٣/ ٢٥ والآلوسي ١٥/ ١٧.

(٢) انظر ١٥/ ٢٨ والماوردي ٨/ ٤٢٣ وابن الجوزي ٥/ ٩ وابن كثير ٣/ ٢٨ والآلوسي ١٥/ ١٧.

(٣) انظر الطبري ١٥/ ٢٨-٢٩ والماوردي ٨/ ٤٢٣ وابن الجوزي ٥/ ٩ والرازي ٢٠/ ١٥٥ والقرطبي ١٠/ ١٥ وابن كثير ٣/ ٢٥.

(٤) انظر الطبري ١٥/ ٣٠ والماوردي ٨/ ٤٢٣ وابن الجوزي ٥/ ٩ والرازي ٢٠/ ١٥٦ والقرطبي ١٠/ ٢١٥.

* هـــناك قـــول حكاه بعض المفسرين كقول خامس قيل هم العمالقة لم أتعرض له لبطلانه إذ لم أجد له أساساً في الطبري علاوة على أن المقصود بهم أنهم قوم جالوت، فتركته.

مناقشة القول الأول:

أن فسادهم الأول كان حين قتلوا «نبي الله زكريا» فقد أورد الإمام الطبري رواية بهذا المعنى في تفسيره وهي قوله: وكان فساد بني إسرائيل في الأرض المرّة الأولى ما حدثني به موسى بن هارون، قال: ثنا عمرو بن حماد، قال: ثنا أسباط، عن السّدي في خبر ذكره عن ابن صالح، وعن أبي مالك، عن ابن عباس، وعن مرَّة عن عبد الله: إن الله عهد إلى بني إسرائيل في التوراة: ﴿**لتفسدن في الأرض مرتين**﴾ فكان أول الإفسادين: قتل زكريا، فبعث الله عليهم ملك النبط، وكان يدعى صحابيين فبعث الجنود، وكانت أساورته من أهل فارس، فهم أولوا بأس شديد. واستنقذوا ما في أيديهم، فذلك قول الله: ﴿**ثم رددنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً**﴾ يقول عددا[1].

قلت: إن سند هذه الرواية أورده أحمد شاكر في تحقيقه على تفسير الطبري[2] وقال ما نصه «هذا الإسناد من أكثر الأسانيد دوراناً في تفسير الطبري، إن لم يكن أكثرها، فلا يكاد يخلو تفسير آية من رواية بهذا الإسناد، وقد عرض الطبري نفسه في (ص١٢١ بولاق، سطر ٢٨ وما بعده) فقال: وقد ذكر الخبر عن ابن مسعود وابن عباس بهذا الإسناد «فإن كان ذلك صحيحاً، ولست أعلمه صحيحاً، إذ كنت بإسناده مرتاباً...» ولم يبين علّة ارتيابه في إسناده، وهو مع ارتيابه قد أكثر من الرواية به ولكنه لم يجعلها حجة قط.

- كذا قال أحمد شاكر...

وقال أيضاً: بيد أني أراه إسناد يحتاج إلى بحث دقيق ولأئمة الحديث كلام فيه وفي بعض رجاله. وقد تتبعت ما قالوا وما يدعوا إليه بحثه ما استطعت، وبدا لي فيه رأي، أرجو أن يكون صواباً إن شاء الله تعالى.

* / أما شيخ الطبري، وهو «موسى بن هارون الهمذاني»[3] فما وجدت له

---

(١) انظر الرواية كاملة في تفسير الطبري ١٥/٢١.

(٢) الطبري تحقيق أحمد شاكر ١٥٦/١ الأثر /١٦٨.

(٣) ورد هذا السند في نسخة الطبري التي بيدي ما حدثني به هارون قال ثنا عمرو: ووجدته في النسخة المحققة لأحمد شاكر «موسى بن هارون» فاعتمدته باعتباره الأصوب بعد التحقيق.

تــرجمة، ولا ذكراً في شيء مما بين يدي من المراجع، إلا ما يرويه عنه الطبري أيضاً في تأريخه وهو أكثر من خمسين موضعاً في الجزئين الأول والثاني منه.

* / «وعمــرو بن حماد»..«ثقة روى عنه مسلم في صحيحه، وترجمه ابن سعد في الطبقات[1] قال «كان ثقة إن شاء الله».

* / و«أســباط بــن نصر الهمداني» مختلف فيه، وضعّفه أحمد وذكره ابن حبان في الثقات.

* / و«إسماعــيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدّي» وهو السّدي الكبير. وهو تابعي سمع أنس. وروى عن غيره من الصحابة وعن كثير من التابعين وهو «ثقة» أخرج لــه مســلم في صــحيحه، وثّقــه أحمد بن حنبل فيما روى ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل»[2]. وفي الميزان والتهذيب «أن الشعبي قيل له: إن السّدي قد أعطي حظاً من عــلم القرآن، فقال: قد أعطي حظاً من جهل بالقرآن!»[3]. وقال عنه أبو حاتم «يكتب حديــثه ولا يحــتج به»[4]. وقال عنه يحيى بن معين «في حديثه ضعف» وقال النسائي «صــالح» وقال في موضع آخر «ليس به بأس» وأعاب عليه الإمام أحمد التفسير الذي جاء به[5] ولذلك نجد أن الإمام الطبري لا يحتج بحديثه كما قال ابن حجر[6].

وقد لخص القول فيه ابن حجر العسقلاني في تقريبه قائلاً عنه «صدوق يهم»[7] أي قد يخطئ في الخبر ولا يتعمد الخطأ.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢٨٥/٦.

(٢) انظر الجرح والتعديل ١٨٤/١/١.

(٣) انظر الطبري ١٥٧/١ من كلام أحمد شاكر في الهامش رقم ٢.

(٤) انظر تهذيب الكمال ١٣١/٣.

(٥) قلــت لعل تفسير هذه الآية التي نحن بصددها من ذلك التفسير الذي أعابه عليه الإمام أحمد. والذي سنرى أنه كان يعتمد على أخبار أهل الكتاب في تفسيره.

(٦) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ٢٣٣/١-٢٢٥.

(٧) انظر تقريب التهذيب ٧١/١ فان في ترجمته الكثير.

* / أمـــا «أبـــو صـــالح، مولى أم هانئ، واسمه باذام» وثّقه أحمد شاكر وقال عنه «تابعي ثقة» رجحنا توثيقه في شرح المسند ٢٠٣٠، وروي عن يحيى بن معين قال «أبو صالح مولى أُم هانئ ليس به بأس»[١].

* / و«أبـــو مـــالك» وهو الغفاري واسمه غزوان وهو تابعي كوفي «ثقة» وروي توثيقه عن يحيى بن معين[٢].

* / و«ابـــن عباس» الصحابي الجليل حبر الأمة، ما في العرب مثله جسماً وعلماً وبياناً وجمالاً وكمالاً[٣] قال أحمد شاكر .. هذا عن القسم الأول من هذا الإسناد، فإنه في حقيقته إسنادين أو ثلاثة، أولهما هذا المتصل بابن عباس.

والقسم الثاني أو الإسناد الثاني «وعن مرّة الهمذاني وعن ابن مسعود».

* / و«مُـــرّة» هو إبن شرحبيل الهمذاني الكوفي وهو تابعي ثقة.. ليس فيه خلاف بينهم...[٤].

* / وابـــن مســـعود الصحابي الجليل أحد السابقين الأولين ومن كبار البدريين[٥] وعلـــيه فحاصـــل الكلام في رواية ابن جرير الطبري عن ابن عباس من هذا الطريق إنها مضـــطربة ويعـــزى هذا الاضطراب إلى إسماعيل بن كريمة السُّدي الذي كان في حديثه شيء من الوهم كما أشار إلى ذلك العسقلاني بقوله «صدوق يهم»[٦].

ولهذه فان الرواية هذه لا يعول عليها في تفسير الآية المعنية لضعف السند من حيث جهالة موسى بن هارون وضعف السدي. هذا أولاً.

وثانـــياً: إن المتن فيه شذوذ كبير.. إذ أن الرواية ذكرت ملك النبط الذي يدعى صحابين بعث الجنود وكان فيهم بختنصر فتلطّف ودخل المدينة... الخ.

---

(١) انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١/١/٤٣٠.
(٢) انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١/٢/١٤١.
(٣) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ١/٤٠..
(٤) انظر تفسير الطبري تحقيق أحمد شاكر ١/١٥٨.
(٥) تذكرة الحفاظ للذهبي ١/١٣.
(٦) انظر تقريب التهذيب ١/٧١.

وبختنصـــر قد سبق زمن زكريا بعدّة قرون كما هو ثابت تأريخياً.. وفي ذلك يقول الإمام الرازي معترضاً على من ذهب إلى ذلك (أقول التواريخ تشهد بأن بختنصر كان قبل وقـــت عيسى عليه السلام ويحيى وزكريا بسنين طويلة، ومعلوم إن الملك الذي انتقم من اليهود بسبب هؤلاء ملك من الروم يقال له «قسطنطين الملك» والله أعلم بأحوالهم[١].

وقد ذكر ابن الأثير في كامله بطلان القول بان بختنصر كان معاصراً ليحيى وزكريا إذ بينهما أكثر من أربعة قرون ونصف وأن ذلك ثابت في كتب اليهود والنصارى[٢].

وعليه فان الرواية ليست لها قيمة عند أهل التفسير والتحقيق.

مناقشة القول الثاني:

وهـــو قـــول بعض المفسرين بان الذي قتل من الأنبياء في الإفساد الأول إنما هو «أشعيا» الذي ذكره الماوردي وابن الجوزي والقرطبي وغيرهم إنما أخذوه من رواية ابن جرير الطبري التي أوردها في تفسيره حيث قال:

«حدثنا ابن حميد، قال ثنا سلمة، قال ثني ابن إسحاق قال كان مما أنزل الله على موســـى في خبره عن بني إسرائيل وفي أحداثهم وما هم فاعلوه فقال: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل... حصيراً**﴾ فكانت بنو إسرائيل وفيهم الأحداث والذنوب وكان الله في ذلك مـــتجاوزاً عنهم، متعطفاً عليهم، محسناً إليهم، فكان مما أنزل بهم في ذنوبهم... إن ملكاً مـــنهم يدعى صديقة وكان الله إذا ملك الملك عليهم بعث نبياً يسدّده ويرشده ويكون فـــيما بينه وبين الله، ويحدث إليهم في أمرهم لا يترل عليهم الكتب، إنما يؤمرون باتباع الـــتوراة والأحكام التي فيها، وينهوهم عن المعصية ويدعوهم إلى ما تركوا من الطاعة، فـــلما ملـــك ذلك الملك بعث الله معه شعياء بن أمصّيا وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيســـى... وشعياء الذي بشر بعيسى ومحمد ﷺ فملك ذلك الملك بني إسرائيل وبيت المقدس زماناً، فلما انقضى ملكه عظُمت فيهم الأحداث وشعياء معهم، بعث الله عليهم

---

(١) انظر تفسير الرازي ١٥٨/٢٠ وانظر الكامل في التأريخ لابن الأثير ٢١١/١.

(٢) انظر الكامل في التأريخ لابن الأثير ٣٠٣/١.

(ســنحاريب) ملــك بــابل ومعه ستمائة ألف راية[1] فأقبل سائراً حتى نزل نحو بيت المقدس... ثم لبث سنحاريب بعد ذلك سبع سنين ثم مات»[2].

قلــت: وهذه الرواية ضعيفة السند وشاذة المتن كذلك. فأما من ناحية السند فان في رجالــه محمد بن حميد بن حيان الرازي (كذبه أبو زرعة وابن خراش وصالح جزرة وقــال البخاري (فيه نظر) أما الذهبي فقد خفف القول فيه لمّا وصفه بأنه من بحور العلم وهو ضعيف)[3].

* / وأمــا (ســلمة.. فهو: أبو عبد الله بن الفضل الأبرش قاضي الري) (ضعفه) الــبخاري وابن راهويه والنسائي وتركه علي بن المديني وقال عنه يحيى بن معين: كتب عنه وليس به بأس وكان يتشيع.

وقــال ابن سعد (ثقة صدوق) وقال أبو أحمد الحاكم (ليس بالقوي عندهم) وقال ابن حبان (يخطأ ويخالف) وقال أبو حاتم الرازي (محله الصدق في حديثه نكارة... يكتب حديثه ولا يحتج به)[4].

فخلاصة القول فيه انه يغلط ولا يتيقن ويخطأ وقد يصيب فهو ممن لا يحتج به.

* / محمــد بــن إسحاق بن يسار اختلف أهل العلم بالجرح والتعديل في قبول مــروياته فمــا ظــنك بأقواله المقطوعة عليه..؟ فان (ما تفرد به فيه نكارة وفي حفظه شــيء)[5]. وقال ابن عدي (وقد فتشت أحاديثه كثيراً فلم أجد في أحاديثه ما يتهيأ أن يقطع عليه بالضعف، وربما أخطأ أو وهم في الشيء بعد الشيء كما يخطأ غيره)[6].

---

(١) أورد القــرطبي هذه الرواية وفيها «أن المهزوم سنحاريب ملك بابل جاء ومعه ستمائة ألف راية تحت كل راية مائة ألف..!!» انظر القرطبي ٢١٥/١٠.

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٢/١٥-٢٤.

(٣) انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٥٣٠/٣ وانظر التقريب ٥٨٣٤.

(٤) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ١٥٣/٤ بتصرف.

(٥) ميزان الاعتدال للذهبي ٤٧٥/٣.

(٦) الكامل في الضعفاء لابن عدي ٢١١٦/٦-٢١٢٥.

وهو المفهوم من كلام يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وغيرهما[1].

وعليه فان هذه الرواية ضعيفة الإسناد لا يحتج بها لحال ابن حميد بن إسحاق كما أوضحت وسلمة بن الفضل كذلك.

و أمـــا من ناحية المتن فان الاضطراب بيّن في كثير من المواضع فيها ولعل أبرزها ذلك العـــدد الهائل من الجنود الذين جاء بهم سنحاريب حتى كانوا ستمائة ألف راية وتحت كل رايـــة مائة ألف فيكون المجموع على هذا (٦٠٠٠٠٠×١٠٠٠٠٠=٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠) ستون مليار مقاتل، فأي أرض وسعتهم؟ والأعجب من هذا انهم لم يفتحوا بيت المقدس وماتوا كلهم إلا سنحاريب وخمسة من كتابه. فماذا فعلت الأرض بالموتى وماذا فعل بني إسرائيل بهم؟؟؟*.

ب - مناقشة أقوال المفسرين فيمن بعث على بني إسرائيل في فسادهم الأول:

وللمفسرين في ذلك خمسة أقوال:

١- مناقشـــة القول الأول - القول الراجح عند أهل التفسير في هذا القول أن الذي بعث على بني إسرائيل في فسادهم الأول هو (جالوت الجزري وجنوده) حيث قال بذلك الطبري وابن الجوزي والرازي والقرطبي وابن كثير الآلوسي كما قدمت[2].

والرواية التي اعتمدوها في ذلك أوردها الإمام الطبري في تفسيره بأسانيد ثلاثة:

١- الإسناد الأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما:

قال الطبري (حدثنا محمد بن سعد، قال ثنا أبي قال ثنا عمي، قال ثنا أبي عن أبيه، عـــن ابن عباس: قوله ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد**

---

(١) انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٩٤/٧ وتأريخ بغداد ٢٣٢/١. سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٦/٧ والتهذيب للعسقلاني ٤٣/٩.

* قلـــت: لعل من الجدير بالتنبيه إلى أن بعض المفسرين أشار إلى وجود قول ثالث - مرجوح - أشار إليه القرطبي في ٢١٥/١٠ وصاحب صفوة البيان بعبارة (قيل: الأول تغيير التوراة وعدم العمل بها، وحبس أرمياء وجرحه إذ بشرهم بمحمد ﷺ..) انظر ص٣٩٥ لم أناقشه لعدم ترجيحه من جمهور المفسرين، ومجيئه بصيغة الاحتمال، كذلك فما يقال فيه ليس غير ما قلناه هنا عن أشعياء.

(٢) انظر الفقرة /ب «أقوال المفسرين فيمن بعث على بني إسرائيل في الإفساد الأول». ص/٣٧.

فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً﴾ قال: بعث الله عليهم جالوت فجاس خلال ديــارهم وضرب عليهم الخراج والذل، فسألوا الله أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون في سبيل الله، فبعــث الله طــالوت فقاتلوا جالوت فنصر الله بني إسرائيل وقُتِل جالوت بيد داود وأرجع الله إلى بني إسرائيل ملكهم)[1].

قلــت: هــذه الرواية جاءت بإسناد قالوا عنه (سلسلة الكذب) وقد حققها أحمد شاكر في تفسير الطبري وقال عنه ما نصه:

(هذا الإسناد من أكثر الأسانيد دوراناً في تفسير الطبري.. وهو إسناد مسلسل من أســرة واحــدة - إن صح التعبير - وهو معروف عند العلماء بــ (تفسير العوفي) بان التابعي الذي يرويه عن ابن عباس هو (عطيّة العوفي).. قال السيوطي في الإتقان (وطريق العوفي عن ابن عباس أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً والعوفي ضعيف ليس بواهٍ وربما حسن له الترمذي)[2]. وسنشرحه هنا مفصلاً إن شاء الله تعالى.

* / (محمد بن سعد، بن محمد بن الحسن بن عطية بن سعد بن جنادة العوفي) وهو (لين في الحديث)[3]

وقال الدار قطني (لا بأس به).

* / وأبــوه (سعد بن محمد بن الحسن العوفي) ضعيف جداً، سئل عنه الإمام أحمد فقال (ذلك جهمي.. وأضاف: لو لم يكن هذا أيضاً لم يكن ممن يستأهل أن يكتب عنه ولا موضعاً لذاك)[4].

* / عــن عمــه: أي عم سعد وهو (الحسين بن الحسن بن عطية العوفي) قال ابن معين (كان ضعيفاً في القضاء ضعيفاً في الحديث) وكذا قال عنه ابن سعد في الطبقات، وضعفه أيضاً أبو حاتم والنسائي وقال ابن حبان في المجروحين (منكر الحديث، لا يجــوز

---

(١) تفسير الطبري ١٥/٢٨.

(٢) الإتقان للسيوطي ٢/٢٢١.

(٣) تأريخ بغداد للخطيب البغدادي ٥/٣٢٢ وانظر لسان الميزان ٥/١٧٤.

(٤) انظر ترجمته في تأريخ بغداد ٩/١٢٦ ولسان الميزان ٣/١٨.

الاحتجاج بخبره)[1]..

* / عن أبيه وهو (الحسن بن عطيّة بن سعد العوفي) وهو ضعيف أيضاً قال البخاري في الكبير (ليس بذاك) وقال أبو حاتم (ضعيف الحديث) وقال ابن حبان يروي عن أبيه، روى عنه ابنه محمد بن الحسن، منكر الحديث فلا أدري البليلة في أحاديثه منه أو من أبيه أو منهما معاً ؟ لأن أباه ليس بشيء في الحديث، وأكثر روايته عن أبيه، فمن هنا اشتبه أمره ووجب تركه[2].

* / عن جده وهو (عطيّة بن سعد بن جنادة العوفي) وهو ضعيف أيضاً ولكنه مختلف فيه... قال أحمد (هو ضعيف الحديث) وكان الثوري وهشيم يضعفان حديث عطية، وقال أبو حاتم (ضعيف الحديث، يكتب حديثه)... قد ضعّفه النسائي أيضاً في الضعفاء، وضعّفه ابن حبان جداً في كتاب المجروحين قال (فلا يحل كتابة حديثه إلا على وجه التعجب)[3].

وعليه فليس هناك تعليق على ما قاله أحمد شاكر من أن هذه الرواية هي (سلسلة الضعفاء) فأنى يحتج بها؟.

٢- الإسناد الثاني: عن قتادة رضي الله عنه

قال ابن جرير.

حدثنا بشر قال: ثنا يزيد، قال ثنا سعيد، عن قتادة، قوله ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما..... إنه كان وعداً مفعولاً**﴾ قضاء قضى الله على القوم كما تسمعون، فبعث

---

(١) انظر ترجمته في تأريخ بغداد ٢٩/٨ وطبقات ابن سعد ٧٤/٢/٧ والمجروحين لابن حبان رقم /٢٢٨ ص/١٦٧.

(٢) مترجم له في التأريخ الكبير ٢٢٩/٢/١ وابن ابي حاتم ٢٦/٢/١ والمجروحين لابن حبان رقم/٢١٠ ص/١٥٨.

(٣) انظر ترجمته في كتاب المجروحين لابن حبان ص ١٧٨، وطبقات ابن سعد ٢١٢/٦، والكبير للبخاري ٨/١/٤-٩، وابن ابي حاتم ٣٨٢/١/٣.

قلت: كل هذه التخاريج لهذه الرواية إنما هي لأحمد شاكر في تحقيقه للطبري ٢٦٣/١-٢٥٤، وإنما أوردها بتصرف. قلت: وانظر ترجمته في تهذيب التهذيب لابن حجر ٢٢٤/٧-٢٢٦.

علـــيهم في الأولى جالوت الجزري، فسبى وقتل وجاسوا خلال الديار كما قال الله، ثم رجع القوم على دخن فيهم[1].

قلت: الإسناد في هذه الرواية صحيح إذ أن رجاله كلهم ثقات لا مغمز فيهم[2].

* فبشر بن معاذ العقدي.. «ذكره ابن حبّان في الثقات»[3].

* ويزيد.. هو ابن زُريع " ثقة " أحد الأعلام قال عنه أبو حاتم: «ثقة إمام» وقال أحمد «ما أحفظه ما أتقنه»[4].

* سعيد بن أبي عروبة.. «ثقة» ومن أثبت الناس في قتادة[5].

* قتادة بن دعامة السدوسي.. حافظ ثقة ثبت، لكنه مدلس فقد احتج به أصحاب الصحاح لاسيما إذ قال حدثنا[6].

قلت: ولما كان الأثر عن قتادة فلا مغمز فيه..

وعليه فالرواية صحيحة من حيث السند.

٣- الإسناد الثالث «عن قتادة أيضاً».

قال الطبري: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، ثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة قال: أما المرة الأولى فسلط الله عليهم جالوت، حتى بعث طالوت ومعه داود فقتله داود[7].

رجال هذا السند..

* / محمد بن عبد الأعلى «ثقة»[8].

* / محمد بن ثور الصنعاني «ثقة»[9].

---

(١) الطبري ٢٨/١٥ وقد أورد السيوطي هذا الخبر في الدر المنثور ص٣٥٢.

(٢) قلت هذا الإسناد وثقه أحمد شاكر في الطبعة المحققة له على الطبري ١٦٣/١.

(٣) انظر ترجمته في تقريب التهذيب ٧٠٢ وانظر الخلاصة ٤٩.

(٤) انظر ترجمته في تقريب التهذيب ٧٧١٣ وانظر الخلاصة ٤٣١.

(٥) انظر ترجمته في تقريب التهذيب ٢٣٦٥ وانظر الخلاصة ٣٨٤.

(٦) انظر ميزان الاعتدال ٦٨٥/٣ وانظر التقريب ٥٥١٨.

(٧) تفسير الطبري ٢٨/١٥.

(٨) انظر تقريب التهذيب ٦٠٦٠.

(٩) انظر تقريب التهذيب ٥٧٧٥.

* / معمـــر بن راشد الازدي «ثقة ثبت فاضل» وفي روايته عن ثابت والأعمش وهشام بن عروة شيئاً.. وكذا فيما حدث به بالبصرة[1]..

* / قتادة بن دعامة السدوسي «ثقة» سبقت ترجمته[2].

فالإســـناد في هـــذه الرواية صحيح لثقة رجاله ويصلح إن يقوى به السند السابق ويكون متابعاً له[3].

ولكن المسألة من وجهة نظر أخرى تحتاج لبيان ومناقشة المتن لمعرفة مدى حقيقته وموافقته للواقع التأريخي من جهة وللمعطيات القرآنية من جهة أخرى.

فقبل أن أتناول مسألة مخالفة الواقع التأريخي لما ورد في هذه الرواية عن قتادة ينبغي أن أبين شيئا أجده من الأهمية بمكان.. وهو إن الذين قالوا أن جالوت هو من تعرض لبني إســـرائيل في فسادهم الأول هم أنفسهم أو أغلبهم الذين قالوا إن فسادهم الأول كان حين قتلوا «نبي الله زكريا».

وهـــذا بحد ذاته يبطل هذه الرواية من أساسها إذ أن حقائق التأريخ الثابتة التي لا مجـــال لـــلجدال فيها أنكرت ذلك... فجالوت سابق على زمن زكريا بما لا يقل عن تسعمائة وخمسين سنة[4] فلا يعقل أن يكون ذلك كما قيل... وإذا كان الإمام الرازي قد رد قول من قال إن بختنصر هو الذي تعرض إلى بني إسرائيل عند قتلهم زكريا وقال «والـــتواريخ تشهد بان بختنصر كان قبل عيسى ويحيى وزكريا بسنين متطاولة»[5] فمن باب أولى أن يردّ قول من قال بأنه جالوت..

أمـــا مـــن ناحـــية مخالفة هذه الرواية للمعطيات القرآنية فيمكن حصره في أمور عدة هي:

---

(١) انظر تقريب التهذيب ٦٨٠٩ وانظر ميزان الاعتدال ١٥٤/٤.

(٢) انظر ميزان الاعتدال ٦٨٥/٣.

(٣) وقد أخرجه ابن أبي حاتم والطبري في تفسيره ٢٨/١٥، ٣٦، ٤٤ والدر المنثور انظر ٥٣٩/٥-٥٤٠.

(٤) انظر المخطط التوضيحي لتسلسل الأنبياء والملوك الذين تعرضوا لبني إسرائيل خلال الإفسادين كما قال المفسرون الأقدمون ملحق رقم/٢.

(٥) انظر تفسير الرازي ١٥٨/١٥.

١/ إن جالوت وجنوده لا تنطبق عليه أهم الصفات التي أثبتتها المعطيات القرآنية لمن بعثوا على بني إسرائيل وهي صفة العبودية لله تعالى أو لتشرفهم بنسبة الاختصاص لله تعالى في «عباداً لنا» فقد كانوا كافرين بشهادة القرآن[1]..

٢/ إن معطيات النص القرآني توحي بان بني إسرائيل بعد أن بعث الله عليهم العباد الذين كانوا أولي بأس شديد جاسوا خلال ديارهم ودخلوا المسجد وكان وعداً مفعولاً بالنصر لهم مما يفهم منه أن بني إسرائيل قد كسرت شوكتهم وأرغمت أنوفهم فلم يعد لهم وجود سياسي أو عسكري يمكن أن يعتمد عليه فقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة.. ولم تعد لهم دولة إلا بعد سنين طويلة وقرون اقتضتها "ثم" التي هي للبعد في الزمان والتراخي فيه كما سنرى ذلك إن شاء الله تعالى..

بينما الغلبة التي حدثت لبني إسرائيل على يد ملكهم طالوت وقتل جالوت على يد داود كانت برحمةٍ من الله لما تابوا وعزموا على القتال في سبيل الله كما دلت عليه آية البقرة ﴿**قالوا ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله..**﴾ البقرة/٢٤٦، ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا: ﴿**ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين**﴾ البقرة/٢٥٠. ثم قامت بعدها مملكتا داود وسليمان وشيكاً.. فأين الفترة التي سبقت الكرّة وبقاء بني إسرائيل في الذل ؟ مما يقتضيه السياق القرآني في قوله تعالى ﴿**ثم رددنا لكم الكرّة..**﴾ أي بعد زمن متطاول كما قال بذلك صاحب الأساس في التفسير «بعد مئات السنين»[2] ويقول في موضع آخر يرد على من قال إن جالوت هو المبعوث عليهم في الإفساد الأول، وهناك اتجاه يقول إن المسلَطين الأولين هم قوم جالوت... ثم عندما غلب بنو إسرائيل جالوت وقومه أصبحوا أكثر نفيراً... يقول:

(.. لكن عندما نرجع إلى سفر القضاة الذي يتحدث عما بعد يشوع وقبل طالوت نجده يتحدث عن مجموعة إفسادات... [3] ثم ساق نصوصاً من التوراة تثبت إن القول بتسليط جالوت على بني إسرائيل في الإفساد الأول غير صحيح...

---

(١) انظر الآية ٢٥٠ من سورة البقرة.

(٢) انظر تفسير الأساس – سعيد حوى ٣٠٤٠/٦.

(٣) المصدر السابق ٣٠٤٣/٦.

أضف إلى هذا أن المسجد لم يكن موجوداً قبل بناء سليمان له وإن كان قد بني في عهد إبراهيم وإسحاق ومن ثم لم يدخله جالوت لأنه لم يكن موجوداً قبل أن يجدد بناءه سليمان كما هو الثابت تاريخياً ونصت عليه بعض نصوص التوراة وفي ذلك يقول سعيد حوى في أساسه.

(إن المسجد الأقصى وإن يكن قد أسسه إبراهيم عليه السلام إلا أنه لم يأخذ طابعه الذي يعتبر الاستيلاء عليه رمزاً لسقوط العز اليهودي إلا بعد داود وسليمان (عليهما السلام) وهمـــا كانا بعد المرحلة السابقة[1] أي بعد تعرض جالوت لبني إسرائيل وقتالهم له بقيادة طالوت وداود..

كل هذا مما يوحي بأن هذه الرواية - رواية بشرعن قتادة في الإسناد الثاني ورواية محمد بن عبد الأعلى عن قتادة أيضاً في الإسناد الثالث ضعيفة في متنها لمخالفتها حقائق التاريخ وحقائق القرآن وإن كانت في إسناديها صحيحتان..

٢ - مناقشـــة القـــول الثاني- من أقوال المفسرين فيمن تعرّض لبني إسرائيل في فسادهم الأول أنه «سنحاريب».. فقد ذكر ذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي وابن كثير والآلوسي[2]. وقد اعتمد هؤلاء المفسرون في قولهم هذا على روايتين الأولى عن ابن جبير والثانية عن ابن إسحاق..

١ / الإسناد الأول..

قـــال الطبري: «حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: ثنا ابن علّية، عن أبي المعلى قال سمعت سعيد ابن جبير، يقول في قوله تعالى: ﴿**بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ شديد**﴾ قـــال: بعـــث الله تبارك وتعالى عليهم في المرّة الأولى سنحاريب من أهل أثور ونينوى، فسألت سعيداً عنها، فزعم أنها الموصل؟[3].

---

(١) المصدر السابق ٣٠٤٤/٦.

(٢) انظر الطبري ٢٨/١٥ والماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ٩/٥. وابن كثير ٢٥/٣ والآلوسي ١٧/١٥.

(٣) الطبري ٢٨/١٥.

وذكـــر الطبري بنفس السند عن سعيد ابن جبير أنه قال: بعث الله عليهم في المرّة الأولى ســـنحاريب، قال فردَّ الله لهم الكرّة عليهم كما قال: قال ثم عصوا ربهم... و لم يعدهم الرجعة إلى ملكهم...[1].

قلت: رجال هذا السند هم.

*/ يعقوب بن إبراهيم.. بن كثير العبدي الدورقي: (ثقة)[2].

* / ابن علية.. هو إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم الأسدي (ثقة حافظ)[3].

* / أبو المعلى...يحيى ابن ميمون الضبي العطار الكوفي: (ثقة)[4]

* / سعيد بن جبير: الأسدي الكوفي: (ثقة ثبت فقيه) قال الطبري (ثقة حجة إمام المسلمين - وذكره ابن حبان في الثقات وقال كان عبداً ورعا - جهبذ العلماء)[5].

فالرواية صحيحة الإسناد لكن متنها مضطرب.. وذلك لأن سنحاريب سابق لعهد زكريا بسنين طويلة فكيف يكون هو المبعوث على بني إسرائيل في زمن قتلهم زكريا.. حقـــائق الـــتاريخ ومجـــريات الأحداث ترفض هذا ومعطيات النص القرآني لا تدخل سنحاريب في كثير من مقتضياتها... مثل:

*/ إن ســـنحاريب لا يدخـــل في كونه من عباد الله الصالحين الذين شرفهم الله بنسبتهم إليه في ﴿**عباداً لنا**﴾.

*/ عدم جوسه خلال الديار، إذ تذكر الرواية إن الله أهلكهم قبل دخولهم المدينة وكذلك لم يدخل المسجد ولن يدخله أبداً.

*/ عدم وجود الكرّة التي لبني إسرائيل على سنحاريب وجنوده.

*/ العدد الغير معقول الذي جاء به من الجيوش حيث بلغ «٦٠» مليار مقاتل..

---

(١) الطبري ١٥/٣٤.

(٢) انظر التقريب ٧٨١٢ وانظر الخلاصة للخزرجي ٤٣٦.

(٣) انظر التقريب ٤١٦ وانظر الخلاصة للخزرجي ٣٢.

(٤) انظر التقريب ٧٦٥٨.

(٥) انظر التقريب ٢٢٧٨ وانظر تهذيب التهذيب ٤/١١. وانظر تذكرة الحفاظ للذهبي ١/٧٦.

وعليه فان اضطراب المتن ومخالفته للمعطيات القرآنية ولحقائق التأريخ ينفي قبولها وكونها حجة..

٢ / **الإسناد الثاني**: عن ابن إسحاق

قال الطبري: «حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثنا ابن إسحاق، قال: كان مما أنزل الله على موسى في خبره عن بني إسرائيل وفي أحداثهم ما هم فاعلون بعده، فقال: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً**﴾ فكانت بنو إسرائيل وفيهم الأحداث والذنوب.. الخ».

قلت: هذه الرواية بهذا الإسناد سبق تحقيقها وقد أوردتها في معرض استشهادي بها عند الكلام عن مناقشة القول الثاني من أقوال المفسرين بأن الذي قتل من الأنبياء في الإفساد الأول إنما هو أشعياء(١).

وقد ثبت لدينا ضعف سندها لحال ابن حميد وسلمة من الفضل وكذلك ابن إسحاق. ولهذا فلا حجة لها(٢).

٣- **مناقشة القول الثالث**- قال بعض المفسرين إن الذي تعرّض لبني إسرائيل في فسادهم الأول هو (بختنصر) فقد ذكر ذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي والرازي والقرطبي وابن كثير(٣)..

وقد إعتمد المفسرون في هذا القول على الروايات التي أوردها الطبري في تفسيره بأربعة أسانيد هي:

الإسناد الأول - عن سعيد بن جبير(٤).

---

(١) انظر المطلب الثاني القسم/٢ والهامش/٤٣.

(٢) انظر ما ترجمناه لرجال هذا السند في المطلب الثاني عند الهامش ٤٤، ٤٥، ٤٦.

(٣) انظر الطبري ١٥/٢٨ والماوردي ٨/٤٢٣ وابن الجوزي ٥/٩ والرازي ٢٠/١٥٥ والقرطبي ١٠/٢١٥ وابن كثير ٣/٢٥.

(٤) انظر تفسير الطبري ١٥/٢٨-٢٩.

الإسناد الثاني – عن سعيد بن المسيب[1].

الإسناد الثالث – عن مجاهد[2].

الإسناد الرابع – عن ابن عباس[3].

١– الإسناد الأول: «رواية القاسم عن سعيد بن جبير»

قال الطبري: «حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال ثني الحجاج عن ابن جريج قال: ثني يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير، أنه سمعه يقول: كان رجل من بني إسرائيل يقرأ حتى إذا بلغ ﴿**بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ شديد**﴾ بكى وفاضت عيناه، وطبق المصحف، فقال ذلك ما شاء الله من الزمان، ثم قال: أي رب أرني هذا الرجل الذي جعلت هلاك بني إسرائيل على يديه،.. فأري في المنام مسكيناً ببابل يقال له بختنصر، فانطلق بمال وأعبد له، وكان رجلا موسراً، فقيل له أين تريد؟ قال: أريد التجارة حتى نزل داراً ببابل، فاستكراها ليس فيها أحد غيره، فجعل يدعو المساكين ويلطف بهم، حتى لم يبق أحداً فقال: هل بقي مسكين غيركم؟ قالوا نعم، مسكين بفج آل فلان مريض، يقال له بختنصر، فقال لغلمانه: انطلقوا، حتى أتاه، فقال: ما اسمك؟ قال بختنصر، فقال لغلمانه: احتملوه، فنقله إليه ومرّضه حتى برأ، فكساه وأعطاه نفقة، ثم آذن الإسرائيلي بالرحيل، فبكى بختنصر، فقال الإسرائيلي، ما يبكيك؟. قال: أبكي أنك فعلت ما فعلت، ولا أجد شيئاً أجزيك، قال: بلى شيئاً يسيراً..

إن ملكت أطعتني، فجعل الآخر يتبعه ويقول: تستهزئ بي!! ولا يمنعه أن يعطيه ما سأله، إلا أنه يرى أنه يستهزئ به، فبكى الإسرائيلي وقال: لقد علمُت ما يمنعك أن تعطيني ما سألتك إلا أن الله يريد أن ينفذ ما قد قضاه، وكتب في كتابه...

وضرب الدهر من ضربه، فقال يوماً – صيحون – وهو ملك فارس ببابل لو أنا بعثنا طليعة إلى الشام.. وخرج بختنصر في مطبخه لم يخرج إلا ليأكل في مطبخه فلما قدم

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٥/٢٩–٣٠.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٥/٣٠.

(٣) انظر تفسير الطبري ١٥/٢١–٢٢.

الشـــام، ورأى صاحب الطليعة أكثر أرض الله فرساً ورجلاً جُلداً، فكبرُ ذلك في روعه، فلم يسأل [عن شيء]..

قال فجعل بختنصر يجلس مجالس أهل الشام، فيقول: ما يمنعكم أن تغزوا بابل، فلو غزوتموها ما دون بيت ما لها شيء، قالوا لا نحسن القتال، قال: فلو أنكم غزوتم، قالوا: إنـــا لا نحسن القتال، ولا نقاتل.. حتى أنفذ مجالس أهل الشام.. ثم رجعوا فأخبر الطليعة ملكهم بما رأى وجعل بختنصر يقول لفوارس الملك: لو دعاني الملك لأخبرته غير ما أخبره فـــلان، فرفع ذلك إليه، فدعاه فأخبره الخبر، وقال إن فلان لما رأى أكثر أرض الله فرساً ورجـــلا جلدا، كبُر ذلك في روعه، و لم يسألهم عن شيء وإني لم أدع مجلساً بالشام إلا جالست أهله، فقلت لهم كذا وكذا، وقالوا لي كذا وكذا[1]..

ثم ضـــرب الدهرُ من ضربه - [وعزم الملك على إرسال جيش إلى الشام] فدعا بختنصـــر وأرسله وانتخب معه أربعة آلاف من فرساهم فانطلقوا فجاسوا خلال الديار، فســـبوا مـــا شاء الله و لم يخربوا و لم يقتلوا، ومات صيحون الملك قالوا استخلفوا رجلاً قالوا: على رسلكم حتى تأتي أصحابكم، فإلهم فرسانكم، لن ينقضوا عليكم شيئاً، أمهلوا فأمهلوا حتى جاء بختنصر بالسبي وما معه، فقسّمه في الناس، فقالوا: ما رأينا أحداً أحقّ بالملك من هذا.. فملكوه...[2].

رجال السند في هذه الرواية:

- / القاسم بن سلام: قال عنه ابن معين «ثقة» وقال عنه ابن الحربي «رأيت أبا عبيد ما مثلته إلا بجبل نفخ فيه الروح»[3].
- / الحسين: ابن داود ولقبه سنيد «ضعفه أبو داود» وقال أبو حاتم «ضعيف» وقال النسائي ليس بثقة وذكره ابن حبان في الثقات وقال «كان ضعيف التفسير»[4].

---

(١) يـــريد أن قـــائد الجيوش لما رأى كثرة الرجال خاف أن يسألهم ورجع إلى الأول فأخبره بقوهم بينما بختنصر جالسهم وسألهم وعرف جبنهم وعدم طاقتهم على القتال، فأخبر الملك بغير ما أخبره قائده.

(٢) الطبري ١٥/٢٩.

(٣) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ٨/٣١٥.

(٤) انظر الضعفاء والمتروكين للذهبي ١/٣٦٢ وانظر تهذيب التهذيب ٤/٣٤٤. وقد خرجه أحمد شاكر في تفسير الطبري ١/١٢٤ الأثر /١٤٤ وانظر الجرح والتعديل ٢/١/٣٢٦.

- / حجاج: هو ابن محمد المصيصي، ثقة ثبت قال عنه أحمد «ما كان أضبط وأصح حديثه»[1].
- / ابن جريج: كان من أوعية العلم - ثبتا لكنه يدلس[2].
- / يعلى بن مسلم: بن هرمز البصري.. قال ابن معين وأبو زرعة «ثقة» وقال يعقوب مستقيم الحديث وذكره ابن حبان في «الثقات»[3].

قلت: هذا السند ضعيف لحال «سنيد» الحسين بن داود. حيث:

- / ضعفه أبو داود.
- / وقال عنه أبو حاتم «ضعيف».
- / وقال عنه النسائي «ليس ثقة».
- / وذكره ابن حبان في الثقات وقال عنه «ضعيف التفسير»[4].

فالرواية بهذا السند ضعيفة لحال «سنيد» وقد خرّجه أحمد شاكر في تحقيقه للطبري[5].

وعليه فلا حجة لهذه الرواية بسندها الضعيف هذا أما المتن فقد اشتمل على ما هو غريب.

- / فرجل من بني إسرائيل يقرأ المصحف.. يعني بعد نزول القرآن وظهور الإسلام فكيف تسنى له رؤية بختنصر وهو سابق له بعدة قرون؟؟؟.
- / رأى في المنام بختنصر فقصده إلى بابل وعالجه وأعطاه وأخذ منه كتاب بالأمان إن هو ملك وغزا بني إسرائيل.. يعني إن ذلك كان قبل الغزو[6] فكيف كان يقرأ القرآن قبل أن ينزل بعدّة قرون؟؟؟.

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ٣٤٥/١.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ١٦٩/١-١٧٠ وانظر تهذيب الكمال ٣٣٨/١٨.

(٣) انظر تهذيب التهذيب ٤٠٥/١١.

(٤) انظر تهذيب التهذيب ٢٤٤/٤ والضعفاء والمتروكين للذهبي ٣٦٢/١ والجرح والتعديل ٣٢٦/٢.

(٥) في الأثر /١٤٤ في تفسير الطبري ١٢١/١.

(٦) انظر تفسير الطبري ٢٩/١٥.

• / ذكرت الرواية إن اسم الملك صيحون وفي غيرها سنحاريب أو صحابين[1].
فهذا الشذوذ والاضطراب يجعل الرواية غير جديرة بالاحتجاج.

٢ / **الإسناد الثاني:** رواية يونس بن عبد الأعلى عن سعيد بن المسيب.

قال الطبري: حدثني يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب، قال أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: قال سمعت سعيد بن المسيب يقول: «ظهر بختنصر على الشام، فخرّب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دما يغلي على كبا.. أي كناسه، فسألهم ما هذا الدم؟ قالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر، قال فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن»[2].

فرجال هذا السند هم:

• / يونس بن عبد الأعلى: «ثقة»[3].
• / عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي: «ثقة – حافظ – عابد»[4].
• / سليمان بن بلال: ذكره ابن حبان في الثقات قال عنه ابن مسعود «ثقة عاقلاً»[5].
• / يحيى ابن سعيد: قال العجلي «ثقة فيه – رجل صالح»[6].
• / سعيد بن المسيب «ثقة – فقيه المدينة – وسيد التابعين»[7] سبقت ترجمته فالإسناد صحيح.

لكن المتن فيه شذوذ في أمور منها:

١ / هذه الرواية عن سعيد بن المسيب ذكرت أن بختنصر ظهر على الشام ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي ثم قتل على ذلك الدم سبعين ألفاً حتى سكن. بينما الرواية الثانية التي أوردها الطبري في (١٥/٣٢).

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٥/٢١/الهامش.
(٢) الطبري ١٥/٢٩-٣٠.
(٣) انظر التقريب ٧٩٠٧ وانظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١/١٠٠.
(٤) انظر التقريب ٣٦٩٤ وانظر ميزان الإعتدال ٢/٥٢١.
(٥) انظر تهذيب التهذيب ٤/١٧٥ وانظر تذكرة الحفاظ ١/٢٣٤.
(٦) انظر تهذيب التهذيب ١١/٢٢١ وانظر تذكرة الحفاظ ١/١٣٧.
(٧) انظر تذكرة الحفاظ ١/٥٥.

عـــن السُدّي أن بختنصر حاصر بيت المقدس حتى فتحها فقتل على دم يحيى سبعين ألفاً وامرأة حتى سكن ثم خرّب بيت المقدس وأمر أن تطرح فيه الجيف فهذا الاضطراب في روايتين في نفس المعنى يدل دلالة واضحة على ضعف هذه الرواية.

٣ / **الإسناد الثالث**: «رواية محمد بن عمرو عن مجاهد»

قال الطبري: «حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى عن ابن أبي نجـــيح، عن مجاهد ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ شديد فجاسـوا خـلال الديار**﴾ قال: من جاءهم من فارس يتجسسون أخبارهم، ويسمعون حديـثهم، معهـم بختنصر، فوعى أحاديثهم من بين أصحابه ثم رجعت فارس و لم يكن قتال، ونُصِرت عليهم بنو إسرائيل، فهذا وعد الأولى»[(١)].

ورجال هذا السند..

- / محمـــد بن عمرو: أبو سهل الأنصاري البصري «ضعفه» يحيى القطان وابن معين وابن عدي.. وقال محمد بن عبد الله «ليس يساوي شيئاً»[(٢)].
- / أبو عاصم: الضحّاك بن مخلّد الشيباني البصري - لُقب بالنبيل «ثقة ثبت حافظ»[(٣)].
- / عيســى: بــن ميمون الجرشي - إبن داية: «ثقة» - قال ابن عيينة «كان قارئاً للقرآن.. قرأ على ابن كثير» وثقة أبو حاتم وغيره"[(٤)].
- / ابن أبي نجيح: «ثقة» وثقهُ أحمد[(٥)].
- / مجاهد بن جبير: «ثقة - عالم بالتفسير»[(٦)].

فالرواية ضعيفة لحال «محمد بن عمرو» الذي قيل عنه أنه «لا يساوي شيئاً»..

---

(١) الطبري ١٥/٣٠.

(٢) انظر ميزان الإعتدال للذهبي ٣/٦٧٤.

(٣) تذكرة الحفاظ ١/٣٦٦ وانظر تقريب التهذيب ٢٩٧٧ وتحرير التقريب ٢/١٤٩.

(٤) انظر تقريب التهذيب ٥٣٣٤ وتحرير التقريب ٣/١٤٥ أخرجه أحمد شاكر ١/٢٤٠ الأثر ٢٧٨.

(٥) انظر الخلاصة للخزرجي ٢١٧ وانظر التقريب ٣٦٦ وتحرير التقريب ٢/٢٧٨.

(٦) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ١/٩٢.

وكذلـــك المتن لمخالفته النص القرآني - حيث أن الرواية ذكرت أنه لم يكن قتال ثم رجعـــت فـــارس ونُصرت عليهم بنو إسرائيل.. والقرآن يقول إنهم جاسوا خلال الديار.. ودخلوا المسجد في المرّة الأولى و لم يُنصر بنو إسرائيل عليهم.. بل وأُخذ المسجد بعدما جيس خلال ديارهم. وقد صرّح الشيخ سعيد حوى في تفسيره الأساس، بأن (ذلك ما توهمه بعض المفسرين الذين ليس لهم مستند إلا الروايات الإسرائيلية وهي لا تفيد ما توهموه)[١].

٤ / **الإسناد الرابع:** «رواية موسى بن هارون عن ابن عباس»:

قال الطبري: «وكان فساد بني إسرائيل في الأرض المرّة الأولى ما حدثني به موسى ابن هـــارون، قال ثنا عمرو بن حماد، قال: ثنا أسباط، عن السُّدي في خبرٍ ذكره عن أبي صالح، وعن أبي مالك، عن ابن عباس وعن مرّة عن عبد الله أن الله عهد إلى بني إسرائيل...» الخ.

قلت: وقد سبق إيراد هذه الرواية[٢] وتحقيق سندها وقلنا إنها ضعيفة وذلك.

- /لجهالة موسى بن هارون.
- / لضعف ابن كريمة السدي كما أخرج ذلك أحمد شاكر في تحقيقه للطبري[٣].
- / ثم شذوذ متنها واضطراب إسم الملك بين سنحاريب وصحابين[٤].

لذا فلا حجة لهذه الرواية.

٤- مناقشة القول الرابع- من أقوال المفسرين فيمن بعث على بني إسرائيل في الإفساد الأول.. إنهم «جند من فارس» فقد ذكر ذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي والـــرازي والقـــرطبي[٥] كلهم عن مجاهد، فقد اعتمدوا في ذلك على ما أورده الإمام الطبري في تفسيره بأسانيد ثلاث من رواية مجاهد... وهي:

---

(١) انظر الأساس في التفسير ٦/٣٠٤٢.

(٢) انظـــر المطلـــب الأول في مناقشة أقوال المفسرين فيمن قتل من الأنبياء في الإفساد الأول عند مناقشة القول الأول.

(٣) انظر الطبري ١/١٥٦ تحقيق أحمد شاكر الأثر /١٦٨.

(٤) ورد في تاريخ الطبري ٢/٦٥٧ أنه صيمانين، وفي بعض النسخ: صحابين وصيحابين وسنحاريب وغيره انظر تفسير الطبري ١٥/٢١ هامش رقم ١.

(٥) انظر الطبري ١٥/٣٠ والماوردي ٨/٤٢٣ وابن الجوزي ٥/٩ والرازي ٢٠/١٥٦ والقرطبي ١٠/٢١٥.

١ / السند الأول:

قال الطبري: «حدثني محمد بن عمرو، قال ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما...**﴾ فهذا وعد الأول .....».

قلت وقد سبق تحقيق هذه الرواية قبل قليل في الإسناد الثالث للقول الثالث..

وقد ثبت ضعف هذه الرواية لحال محمد بن عمرو ولمخالفة متنها للنص القرآني وللحقائق التاريخية الثابتة[١].

٢/ السند الثاني:

قال الطبري: «حدثني الحارث، قال ثنا الحسين، قال ثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿**بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ شديد**﴾ جند جاءهم من فارس يتجسسون أخبارهم...»[٢]

قلت: لما رأيت في هذا السند - الحسين بن داود والذي هو «سنيد» وترجمته في كتب الجرح والتعديل تدل على أنه قد..

* ضعفه أبو داود.
* وقال عنه أبو حاتم «ضعيف».
* وقال النسائي «ليس بثقة».
* وذكره ابن حبان في الثقات وقال «ضعيف التفسير»[٣].

فالرواية ضعيفة لحال «سنيد» كما قال أحمد شاكر. فلا يحتج بها. إذ كان الاضطراب في متنها واضح كذلك وليس في سندها فقط. فان الجند الذين جاؤوهم من فارس ما جاسوا خلال ديارهم وما دخلوا المسجد ولن يدخلوه وما كانت لبني إسرائيل كرّة عليهم ولن تكون..

---

(١) انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٦٧٤/٣. وانظر الأساس في التفسير - سعيد حوى ٣٤٢/٦.

(٢) الطبري ٣٠/١٥.

(٣) انظر تهذيب التهذيب ٣٤٤/٤ والضعفاء والمتروكين للذهبي ٣٦٢/١ والجرح والتعديل ٣٢٦/١/٢.
وقد خرجه أحمد شاكر في تفسير الطبري الأثر ١٤٤ في ١٢٤/١.

٣ / السند الثالث:

قال الطبري: «حدثنا القاسم، قال ثنا الحسين، قال ثني حجاج، عن ابن جريج عن مجاهد ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد**﴾ قال: ذلك أي من جاءهم من فارس...»[1].

رجال السند:

- /القاسم: بن سلام، قال عنه ابن معين «ثقة»[2].
- / الحسين: بن داود ولقبه «سنيد» ضعفه أبو داود وقال أبو حاتم «ضعيف» وقال النسائي ليس بثقة[3].
- / حجاج: بن محمد المصيصي ثقة سبقت ترجمته[4].
- / ابن جريج: مجمع على ثقته مع أنه يدلّس[5].
- / مجاهد بن جبير «ثقة – جبل»[6].

فالســـند ضعيف لحال سُنيد - الحسين بن داود - وعليه فلا حجة لهذه الرواية من ناحية السند لضعفه.. وكذلك لشذوذ متنها فما قيل في سابقتها ينسحب إلى هذه هنا.

المطلب الثاني

أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الثاني

أ / من قتل من الأنبياء فيه:

ذهـــب جمهور المفسرين إلى أن الإفساد الثاني كان من بني إسرائيل حين قتلوا نبي الله - يحيى بن زكريا..

---

(١) الطبري ١/٣٠.

(٢) انظر تهذيب التهذيب ٨/٣١٥.

(٣) انظر تهذيب التهذيب ٤/٣٤٤ وانظر الضعفاء والمتروكين للذهبي ١/٣٦٢.

(٤) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ١/٣٤٥.

(٥) انظر تهذيب الكمال ١٨/٣٧٨ وميزان الاعتدال ٢/١٨٥ وانظر التقريب ٤١٩٣.

(٦) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ١/٩١.

ذكر ذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي والقرطبي والشوكاني[1].

وكــان هــذا القول منهم شبه إجماع..لاعتمادهم على ما قاله الطبري من جهة ولاعتماد بعضهم على بعض من جهة أخرى.. فكل مفسر يقول بما قال به سابقه دون الرجوع إلى أصل الخبر والرواية التي بُنيت عليها هذه الأقوال.. وهي التي أوردها الطبري في تفسيره[2]وقد تبين لنا ضعف أسانيدها ومخالفتها لمعطيات النصوص القرآنية وللحقائق التأريخية كذلك.

ب / من بعث عليهم فيه:

اختلف المفسرون في هذه القضية ... واختلافهم كان إلى أربعة أقوال..

القول الأول:

أنه «بختنصر» وهو الراجح عند المفسرين فقد ذكر ذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي والرازي والقرطبي والآلوسي[3]..

ولقــد أورد بعــض المفســرين أقوالاً - أخرى - فيمن تعرّض لبني إسرائيل غير «بختنصر» لا ترقى إلى الإعتماد عليها ولا يمكن تجاهلها.. إذ أن كلّ مفسر قال بما ترجح عــنده عــلى حسب ما وصل إليه من الروايات أو ما توصل إليه من دراسة تاريخ بني إسرائيل أو توراتهم المحرفة.

وهي كما يأتي:

القول الثاني: أنه «انطياخوس الرومي» قاله الماوردي وابن الجوزي[4].

القول الثالث: أنه «خردوس» قاله القرطبي والآلوسي[5].

---

(١) انظر الطبري ٢٧/١٥ والماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ١١/١٥ والقرطبي ٢١٨/١٠ والشوكاني.

(٢) انظر الطبري ٣٢/١٥.

(٣) انظر الطبري ٢٢/١٥-٣٤-٣٥-٣٦ والماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ١١/١٥ والرازي ١٥٨/٢٠ والقرطبي ٢٢٠/١٠ والآلوسي ٢٠/١٥.

(٤) انظر الماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ١١/١٥.

(٥) القرطبي ٢٢٠/١٠ والآلوسي ٢٠/١٥.

القول الرابع: أنه «الاسكندر» قاله الآلوسي[1].

وقبل أن نبدأ بمناقشة هذه الأقوال.. أود أن أنبه إلى أن هذه الأقوال التي ذكرناها هنا والتي سبق ذكرها إنما وردت في أهم تفاسير الأقدمين.. وهناك أقوال لمفسرين محدثين خالفوا الأقدمين فيها وربما وافقوهم في بعضها سأذكرها فيما بعد وأناقشها بقدر تعلق الأمر بموضوعنا الذي نحن بصدده وهو إفسادي بني إسرائيل ومن تعرض لهم فيهما إن شاء الله تعالى..

أ / مناقشة أقوال المفسرين فيمن قتل من الأنبياء في الإفساد الثاني

قال الإمام الطبري: «وأما إفسادهم في الأرض المرّة الآخرة، فلا اختلاف بين أهل العلم، أنه كان قتلهم يحيى بن زكريا..»[2].

وقال في موضع آخر: «وكان مجيء وعد المرّة الآخرة عند قتلهم يحيى»[3] وساق الرواية التي اعتمد عليها من جاء بعده من المفسرين الذين قالوا ما قاله الطبري وهم الماوردي وابن الجوزي والقرطبي والشوكاني[4] غير أنهم جعلوا مع قتل يحيى العزم على قتل عيسى..

بينما ذهب غيرهم كالرازي والآلوسي إلى أن قتل يحيى صاحبه قتل أبيه زكريا[5].. لكن القول الأساس هو قتل يحيى عليه الصلاة والسلام.

مناقشة هذا القول:

قال الطبري: «حدثنا موسى بن هارون، قال ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط عن السديّ في الحديث الذي ذكرنا أسناده قبل[6] إن رجلاً من بني إسرائيل رأى في النوم إن

(١) الآلوسي ١٥/٢٠.

(٢) الطبري ١٥/٢٧.

(٣) الطبري ٣٢.

(٤) انظر الماوردي ٨/٤٢٣ وابن الجوزي ٥/١١ والقرطبي ١٠/٢١٨ والشوكاني.

(٥) انظر الرازي ٢٠/١٥٨ والآلوسي ١٥/١٧.

(٦) في ١٥/٢١.

خـــراب بيت المقدس وهلاك بني إسرائيل على يدي غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل، يدعـــى بختنصر، وكانوا يصدقون، فتصدق رؤياهم، فأقبل فسأل عنه حتى نزل على أمه وهـــو يحتطب، فلما جاء وعلى رأسه حزمة من حطب القاها، ثم قعد إلى جانب البيت فضـــمه، ثم أعطاه ثلاثة دراهم فقال اشتر لنا بها طعاماً وشراباً - وبعد ثلاثة أيام - قال له: إني أحب أن تكتب لي أماناً إن أنت ملكت يوماً من الدهر، فقال: أتسخر بي؟ فقال: إني لا أســـخر بك، ولكن ما عليك أن تتخذ بها عندي يداً، فكلمته أمه،... فكتب له أمانـــاً، فقـــال له: أرأيت إن جئت والناس حولك قد حالوا بيني وبينك، فاجعل لي آية تعرفني بها.. قال ترفع صحيفتك على قصبة أعرفك بها، فكساه وأعطاه، ثم إن ملك بني إسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريا ويدني مجلسه، ويستشيره في أمره ولا يقطع أمراً دونه، وأنـــه هـــوى أن يـــتزوج ابنة امرأة له، فسأل يحيى عن ذلك، فنهاه عن نكاحها وقال: «لســـت أرضاها لك» فبلغ ذلك أمها، فحقدت على يحيى حين نهاه أن يتزوج ابنتها، فعمـــدت أم الجاريـــة حين جلس الملك على شرابه، فألبستها ثياباً رقاقاً حمراً وطيبتها وألبســـتها من الحلي.. وأرسلتها إلى الملك، وأمرتها أن تسقيه وأن تعرض له نفسها، فان أرادهـــا على نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما سألته، فإذا أعطاها ذلك، سألته أن يأتي بـــرأس يحيى بن زكريا في طست، ففعلت.. فقال: ما الذي تسأليني؟ قالت: أسألك أن تبعث إلى يحيى بن زكريا، فأوتى برأسه في هذا الطست... فلما ألّحت عليه بعث إليه، فـــأتي برأسه، والرأس يتكلم، حتى وضع بين يديه وهو يقول: «لا يحلّ لك ذلك» فلما أصـــبح إذا دمه يغلي فأمر بتراب فألقي عليه، فرقى الدم فوق التراب يغلي... حتى بلغ ســـور المديـــنة وهو يغلي وبلغ صيحابين، فثار في الناس وأراد أن يبعث جيشاً، ويؤمر علـــيهم رجلاً، فأتاه بختنصر وكلمه... فبعثه، فسار بختنصر حتى إذا بلغوا ذلك المكان تحصّـــنو مـــنه في مدائنهم، فلم يطقهم فلما اشتد عليهم المقام وجاع وأصحابه أرادوا الـــرجوع، فخرجت إليهم عجوز من عجائز بني إسرائيل... فقالت: أرأيت أن فتحتُ لـــك المدينة أتعطيني ما سألتك، وتقتل من أمرتك بقتله، وتكف إذا أمرتك أن تكف؟ قال: نعم.. فطلبت منه أن يستفتح بدم يحيى ففعل - فتساقطت المدينة فقالت أقتل على

هــذا الــدم حتى يسكن وانطلقت به إلى دم يحيى وهو على تراب كثير فقتل عليه حتى سكن سبعين ألفاً وامرأة... وأتاه صاحب الصحيفة بصحيفته فكف عنه وعن أهل بيته، وخرّب بيت المقدس وأمر أن تطرح فيه الجيف، وقال من طرح فيه جيفة فله جزيته تلك السنة، وأعانه على خرابه الروم، من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى، فلما خربه بختنصر ذهــب بوجوه بني إسرائيل وأشرافهم، وذهب بدانيال وعليا وعزاريا وميشائيل، هؤلاء كــلهم مــن أولاد الأنبــياء... وذهب معه برأس جالوت. فلما قدم أرض بابل وجد صحابين قد مات، فملك مكانه»[1]..

قلــت: ســبق تحقيق هذا السند وظهر من خلال ترجمة رجاله جهالة موسى بن هارون الذي قال عنه أحمد شاكر لم أجد لــه ترجمة ولا ذكراً في شيء مما بين يدي من المراجع[2].

وكذلــك لضعف إسماعيل بن كريمة السُدي... قال عنه يحيى بن معين «في حديثه ضعف» وقال عنه أبو حاتم «يكتب حديثه ولا يحتج به»[3].

فالرواية من ناحية السند ضعيفة لا يحتج بها.

وأمــا مــن ناحية المتن فان فيها خللاً في عدّة مواضع منها، مما يجعلها غير جديرة بالاحتجاج.

ومن هذه الأمور...

١- ذكرت الرواية إن بختنصر كان غلاماً يتيماً في بابل. فجاءه الرجل وأخذ منه كتاب أمان وأكرمه وأعطاه ورجع.

٢- وذكــرت الــرواية إن ملــك بني إسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريا ويدني مجلسه ويستشيره في أمره ولا يقطع أمراً دونه مما يدل على إن يحيى كان لــه حظوة لدى الملك.. وفي الرد على هذا ننقل ما قاله الرازي في هذا الشأن.

---

(١) الطبري ١٥/٣٢-٣٣.

(٢) انظر تحقيق أحمد شاكر للطبري ١/١٥٧.

(٣) انظر تهذيب الكمال ٣/١٣١.

قال الإمام الرازي – بالنص –: (ثم قال تعالى ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة**﴾ فيه مسائل.

المسألة الأولى: قال المفسرون معناه وعد المرّة الأخيرة، وهذه المرّة الأخيرة هي أقدامهم على قتل زكريا ويحيى (عليهما الصلاة والسلام).. قال الواحدي: فبعث الله تعالى عليهم بختنصر البابلي المجوسي أبغض خلقه إليه فسبى بني إسرائيل وقتل وخرّب بيت المقدس...).

أقول [الكلام للرازي]: التواريخ تشهد بأن بختنصر كان قبل وقت عيسى عليه السلام. ويحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام بسنين متطاولة ومعلوم إن الملك الذي انتقم من اليهود بسبب هؤلاء ملك من ملوك الروم يقال له «قسطنطين الملك»... والله أعلم بأحوالهم»[1].

٣- ذكرت الرواية أمراً غريباً وهو إن بختنصر قد ذهب معه برأس جالوت إلى أرض بابل..!! مع العلم إن جالوت قتل على يد داود قبل مقتل يحيى بسنين طويلة وبختنصر لم يعاصر جالوت ولا يحيى.. فانظر..

هذا الاضطراب الشديد في متن الرواية يجعلها لا تساوي شيئاً البتة.

ب / مناقشة أقوال المفسرين فيمن بعث على بني إسرائيل في الإفساد الثاني.

للمفسرين في ذلك اختلاف إلى أقوال أربعة:

قال عنها الإمام الطبري: «وقد اختلفوا في الذي سلطه الله عليهم منتقما به منهم عند ذلك.. وأنا ذاكرٌ اختلافهم في ذلك إن شاء الله»[2].

وقبل البدء بأقوال المفسرين في ذلك أود أن أبين أمرين..

الأمر الأول – إن الإمام الطبري هو أول من قال إن «بختنصر» هو الذي تعرض لبني إسرائيل في فسادهم الثاني يفهم هذا من إيراده ستُ روايات بأسانيد مختلفة في تأكيد هذا المعنى وهي باختصار..

---

(١) انظر الرازي ١٥٨/٢٠، وسوف يأتي من الأدلة الكثيرة في مناقشة قول من قال: إن الذي تعرض لبني إسرائيل هو بختنصر.

(٢) الطبري ٢٧/١٥.

١- رواية يونس - عن ابن زيد في ١٥/٢٢.

٢- رواية يعقوب - عن ابن جبير ١٥/٣٤.

٣- رواية محمد بن عمرو - عن مجاهد في ١٥/٣٥.

٤- رواية بشر - عن قتادة في ١٥/٣٦.

٥- رواية محمد بن عبد الأعلى عن قتادة أيضاً في ١٥/٣٦.

٦- رواية محمد بن سعد - عن ابن عباس في ١٥/٣٦.

كلهم في أنه «بختنصـــر».

الأمـــر الـــثاني - إن كل من جاء بعده من المفسرين قال بما قاله الطبري من إن المبعوث عليهم «بختنصر» غير إن كل واحد منهم اعتمد على ما رآه صحيحاً من هذه الروايات الستة وترك الباقي وأنا ذاكر في مناقشة أقوال المفسرين الرواية التي اعتمدها كل مفسر في قوله الذي قال به.. إن شاء الله تعالى.

مناقشة القول الأول:

بأن «بختنصر» هو الذي بعث على بني إسرائيل في فسادهم الثاني وبه قال الطبري والماوردي وابن الجوزي والرازي والقرطبي والآلوسي - كما قدمنا -..

وقد اعتمدوا في ذلك على الروايات التي أوردها الطبري في تفسيره بأسانيد عدّة.. وهي كما يأتي:

السند الأول - من رواية يونس عن أبي زيد..

قـــال الطـــبري: «حدثـــني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال بن زيد: كان إفســـادهم الذي يفسدون في الأرض مرتين، قتل يحيى بن زكريا، سلّط الله عليهم سابور ذا الأكتاف، ملكاً من ملوك فارس، من قتل زكريا، وسلّط عليهم بختنصر من قتل يحيى»[1].

رجال هذا السند هم:

● / يونس بن عبد الأعلى: (ثقة) (إمام كبير)[2].

---

(١) الطبري ١٥/٢٢، و١٥/٤٠.

(٢) انظر التقريب ٧٩٠٧. وانظر طبقات الشافعية للسبكي ١/٢٧٩.

● /عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي: (ثقة حافظ عابد)[1].

● / عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: متأخر - ضعيف جداً - قال عنه ابن خزيمة (ليس هـو ممن يحتج أهل العلم بحديثه لسوء حفظه، وهو رجل صناعته العبادة والتقشف، ليس من أحلاس الحديث)[2].

وعليه فالرواية ضعيفة لحال ابن زيد.

قلت وكذلك المتن فان فيه شذوذاً منها:

١- جعل الإفساد الأول عند قتل زكريا وقد سلط الله عليهم سابور ذا الأكتاف.

٢- جعل الإفساد الثاني عند قتل يحيى بن زكريا وقد سلط الله عليهم بختنصر.

قلت: ...

الأول: أجمع علماء التفسير إن الفترة بين العقوبتين فصلت بينهما (ثم) التي تقتضي التراخي في الزمن والبعد فيه وقتل زكريا كان معاصراً لقتل يحيى كما هو ثابت تأريخياً.. فأين الكرّة التي بينهما كما أخبر القرآن؟ ثم إن قتل زكريا متأخر جداً عن تعرض سابور لبني إسرائيل.

الثاني: إن القول بتسليط بختنصر على بني إسرائيل عند قتلهم يحيى باطل كما قال الإمام الرازي[3]. وكما جاء في القرطبي من قول السهيلي ما نصه (وهذا لا يصح، لان قـتل يحيى كان بعد رفع عيسى، وبختنصر كان قبل عيسى ابن مريم عليه السلام بزمن طويل.. وقبل الاسكندر، وبين الاسكندر وعيسى نحو من ثلاثمائة سنة... وقال الثعالبي: ومن روى إن بختنصر هو الذي غزا بني إسرائيل عن قتلهم يحيى بن زكريا فغلط عند أهل السير والأخبار..)[4].

---

(١) انظر التقريب ٣٦٩٤. وانظر ميزان الاعتدال ٥٢١/٢.

(٢) انظـر التقريب ٣٨٦٥. وانظر ميزان الاعتدال ٥٦٤/٢. وتهذيب التهذيب لابن حجر ١٧٨/٦. وقد ضعفه احمد شاكر في تحقيقه للطبري انظر ١٧٦/١. الأثر ١٨٥.

(٣) انظر الرازي ١٥٨/٢٠.

(٤) انظر القرطبي ٢٢٠/٢٠.

فمما تقدم نجد أن هذه الرواية لا قيمة لها.

السند الثاني: من رواية يعقوب.. عن سعيد بن جبير.

قال الطبري: «حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: ثنا ابن عليّة، عن أبي المعلى، قال: سمعت سعيد بن جبير قال: بعث الله عليهم في المرّة الأولى سنحاريب، قال: فردّ الله لهم الكرّة عليهم كما قال..

قال: ثم عصوا ربهم وعادوا لما نهو عنه، فبعث عليهم في المرّة الآخرة بختنصر فقتل المقاتلة وسبى الذريّة وأخذ ما وجد من الأموال...»[1].

ورجال هذا السند هم:

- / يعقوب بن إبراهيم: «ثقة»[2].
- / ابن عُلية إسماعيل بن إبراهيم الأسدي: «ثقة حافظ»[3].
- / أبو المعلى يحيى بن ميمون: «ثقة»[4].
- / سعيد بن جبير: «ثقة ثبت فقيه جهبذة العلماء»[5].

فالإسناد صحيح قائم...

أما من ناحية المتن فما قلناه عن متن الرواية قبل هذه يقال هنا لمشابهته في الشذوذ[6].

السند الثالث: من رواية محمد بن عمرو... عن مجاهد.

قال الطبري:

(حدثني محمد بن عمرو قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى.. وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعاً عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿**فإذا جاء وعد**

---

(١) انظر بقية الرواية في الطبري ١٥/٣٤

(٢) انظر التقريب ٧٨١٢. والخلاصة للخزرجي ٤٣٦.

(٣) انظر التقريب ٤١٦ والخلاصة للخزرجي ٣٢.

(٤) انظر التقريب ٧٦٥٨.

(٥) انظر التقريب ٢٢٧٨. وانظر تهذيب التهذيب ٤/١١. وتذكرة الحفاظ ١/٧٦.

(٦) يراجع ما قاله الرازي حول هذا الموضوع في تفسيره ٢٠/١٥٨.

الآخرة، ليسوؤا وجوهكم﴾ قال: بعث الله ملك فارس ببابل جيشاً وأمّر عليهم بختنصر، فأتوا بني إسرائيل فدمروهم، فكانت هذه الآخرة ووعدها)[١].

قلت: ...

هذا السند مجموع من طريقين مدارهما عن أبي نجيح عن مجاهد.

أما الطريق الأول: - فقد ثبت ضعفه لحال محمد بن عمرو الذي سبقت ترجمته[٢].

والطريق الثاني : - الذي ورد عن الحارث فان فيه - الحسين بن داود - سنيد - فقد ضعفه أبو داود وأبو حاتم وقد سبقت ترجمته[٣].

وعليـــيه فالرواية ضعيفة في كلا طريقيها من ناحية السند وكذلك المتن فان ما قاله الإمام الرازي يشمله من حيث مخالفة الحقائق التأريخية لها[٤].

السند الرابع: من رواية بشر عن قتادة.

قـــال الطبري: (حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: **﴿إن أحســـنتم أحسنتم لأنفسكم، وإن أسأتم فلها، فإذا جاء وعد الآخرة﴾** آخر العقوبتين **﴿ ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة﴾** كما دخله عدوهم قبل ذلـــك **﴿وليتبروا ما علوا تتبيرا﴾** فبعث الله عليهم في الآخرة بختنصر المجوسي البابلي، أبغض خلق الله إليه، فسبا وقتل وخرّب بيت المقدس وسامهم سوء العذاب)[٥].

قلت: فرجال هذا السند ثقات سبق تخريجه وقد وثقه أحمد شاكر في تحقيقه للطبري[٦].

---

(١) الطـــبري ١٥/٣٥. قلـــت قـــد وقع هنا تصحيف في احد رجال الطريق الثاني حيث ذكر «وحدثني الحارث. قال ثنى الحسن» بينما هو الحسين انظر الطبري ١٥/٣٠.

(٢) انظر صفحة ١٤٠.

(٣) انظر تهذيب التهذيب ٤/٢٤٤، والضعفاء والمتروكين للذهبي ١/٣٦٢ وانظر ص١٣٩ وص١٤٢.

(٤) انظر تفسير الرازي ١٥/١٥٨. والقرطبي ١٠/٢٢٠، والكامل في التاريخ لابن الأثير ١/٢٦١.

(٥) الطبري ١٥/٣٦.

(٦) انظر تفسير الطبري ١/١٦٣. وانظر تحقيقنا لـــه في الإسناد الثاني من مناقشة القول الأول فيمن بعث عليهم في الإفساد الأول «جالوت».

فالسند صحيح.

أمـــا المتن فيناله نقد الرازي والقرطبي المتقدمين من أن القول بتعرض بختنصر لبني إسرائيل في الإفساد الثاني باطل فليراجع[١]..

السند الخامس: رواية محمد بن عبد الأعلى عن قتادة..

قال الطبري: (حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: ثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قـــتادة قـــال ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة**﴾ من المرتين ﴿**ليسوؤا وجوهكم**﴾ قال: ليقبحوا وجوهكم ﴿**وليتبروا ما علوا تتبيرا**﴾ قال: يدمروا ما علوا تدميرا قال: هو بختنصر، بعثه الله عليهم في المرّة الآخرة...)[٢].

قلت: ورجال هذا السند ثقات أيضاً وقد سبق تخريجهم[٣] فالسند صحيح.

غـــير إن المـــتن اعتراه من الشذوذ ما جعل اعتراض أئمة التفسير والحديث عليه يســـقطون العمل به وهو جعل بختنصر هو المبعوث عليهم في المرة الآخرة حيث اعترض الإمام الرازي والقرطبي على ذلك كما قدمنا في السند السابق[٤].

السند السادس: من رواية محمد بن سعد عن ابن عباس.

قـــال الطبري: (حدثنا محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عـــن أبـــيه، عن ابن عباس قال: فلما أفسدوا بعث الله عليهم في المرّة الآخرة بختنصر، فخرّب المساجد وتبّر ما علوا تتبيرا)[٥].

قلـــت: كذلك هذا السند قد سبق تخريجه وتبيان ضعفه إذ أنه مكون من سلسلة الضعفاء، وقد ضعّفه أحمد شاكر في تحقيقه للطبري[٦].

وما قيل عن متن سابقه يقال عنه هنا وعليه فلا قيمة لهذه الرواية.

---

(١) انظر ما قاله الرازي في ٢٠/١٥٨. والقرطبي في ١٠/٢٢٠.

(٢) الطبري ١٥/٣٦.

(٣) انظر المطلب الأول فرع/ب مناقشة القول الأول عند الاسناد الثالث.

(٤) انظر الرازي ١٠/١٥٨. والقرطبي في ٢٠/٢٢٠.

(٥) الطبري ١٥/٣٦.

(٦) انظر الطبري ١/٢٦٣-٢٦٤ الهامش وانظر المطلب الأول عند مناقشة القول الأول - السند الأول.

قـــال ابـــن الأثير: (قد اختلف العلماء في الوقت الذي أرسل فيه بختنصر على بني إســرائيل فقــيل كان في عهد ارميا النبي ودانيال وحنانيا وعزاريا وميشائيل.. وقيل إنما أرسله الله على بني إسرائيل لما قتلوا يحيى بن زكريا.. والأول أكثر)[1].

كـــذا قال ابن الأثير وأصاب فان من قال إن ذلك حدث في زمن يحيى فقد أبعد النجع بدليل ما تقدم من الآثار وأقوال المفسرين والمؤرخين وأهل السير وكما سنرى إن شاء الله تعالى.

بعـــد أن ناقشـــنا القـــول الراجح فيمن تعرض لبني إسرائيل في فسادهم الثاني من أنه (بختنصر) نصل إلى أقوال بعض المفسرين التي لا تخرج عن كونها مجرد احتمال من باب قيل ويقال من جهة ومن جهة أخرى فأنها أسندت إلى من كان ضعيفاً أو متروكاً كما سنرى.

القول الثاني: أنه «انطياخوس الرومي»..

لقـــد ذكر ذلك الماوردي وابن الجوزي في تفسيريهما[2] عن مقاتل دون أن يوردا سند الرواية التي اعتمداها في هذا القول و لم أجدها في الطبري بعد البحث..

ولكـــن نقول ابتداءً انه مهما يكن من أمر هذه الرواية فان السند الذي يروى عن مقاتل لا يحتج به أهل الحديث خصوصاً في التفسير..

أقـــول ذلك بعد ما اطلعت على ترجمته في كتب الجرح والتعديل فقد قال عنه أبو حاتم (متروك الحديث) وقال عنه ابن حبان (كان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن والـــذي يوافـــق كتبهم)[3] وقال عنه الذهبي (قد لُطِّخ بالتجسيم مع أنه كان من أوعية العلم.. بحراً في التفسير)[4].

... قلت: ثم في تعرض انطياخوس وغيره إلى بني إسرائيل في زمن يحيى لا يشكل أمـــراً مهمـــاً ذي بال.. إذ أن أساس القضية ليس صحيحاً في اعتبار أن قتل يحيى عليه

(١) الكامل في التاريخ – ابن الأثير ٢٦١/١.

(٢) انظر الماوردي ٤٢٥/٨ وابن الجوزي ١١/٥.

(٣) انظر ترجمته في تهذيب التهذيب لابن حجر ٢٧٩/١٠.

(٤) تذكرة الحفاظ للذهبي ١٧٤/١.

السلام هو الإفساد الثاني الذي قال به أهل التفسير كما سنرى ذلك من خلال المعطيات القرآنية لآيات الإفساد في هذه القضية..

القول الثالث: أنه «خردوس»..

فقد ذكر ذلك القرطبي عن محمد بن إسحاق وكذا الآلوسي لكنه سماه (خردوش).

قلـــت: لقـــد اعتمد القرطبي في هذا القول... ولعل الآلوسي كذلك على رواية وجدها في الطبري عن ابن إسحاق..

حيث قال الطبري: (حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: قال ابن إسحاق: فلما رفـــع الله عيســـى من بين أظهرهم، وقتلوا يحيى بن زكريا «وبعض الناس يقول: قتلوا زكـــريا» ابتعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له: خردوس فسار بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام... الرواية)[1].

قلت: سند هذه الرواية ضعيف كما سبق تخريجها[2].

فإن فيها - محمد بن حميد الذي «كذبه أبو زرعة وابن خراش وصالح جزرة» وقال عنه البخاري «فيه نظر» وضعفه الذهبي[3].

وكذلـــك لحال (سلمة بن الفضل الأبرش «ضعفه» البخاري والنسائي وقال ابن حـــبان «يخطـــأ ويخالف» وقال عنه أبو حاتم الرازي «محله الصدق في حديثه نكارة - يكتب حديثه ولا يحتج به»)[4].

وكذلك ابن إسحاق فقد اختلف أهل الجرح والتعديل في قبول مرويا ته، وقد قال عنه الذهبي «ما تفرد به ففيه نكارة فان في حفظه شيء»[5].

قلت: ورغم ضعف السند عن ابن إسحاق فان في المتن ما يعيب منه - إن الرواية ذكـــرت أنه حين قتلوا يحيى بن زكريا ابتعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال لـــه:

---

(١) الطبري ١٥/٤١.

(٢) انظر المطلب الأول - عند مناقشة القول الثاني - قتل شعياء.

(٣) ميزان الاعتدال ٣/٥٣٠. والتقريب ٥٨٣٤.

(٤) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ٤/١٥٣.

(٥) انظر ميزان الاعتدال ٣/٤٧٥. وانظر تذكرة الحفاظ ١/١٧٢.

خــــردوس فســــار إليهم بأهل بابل. ومن المعلوم إن يحيى لم يكن معاصراً للمرحلة التي تعرض فيها البابليون لبني إسرائيل إذ إن البابليين الذين منهم سنحاريب وبختنصر تعرضوا لبني إسرائيل في زمن دولتي بني إسرائيل «إسرائيل ويهوذا» وليس في زمن يحيى.. وكتب التأريخ تشهد بهذا.

وكذلــك فان اضطراب الأقوال في إسم هذا الملك يفقد قيمة الخبر حيث أورده القرطبي «خردوس» على ما جاء في رواية الطبري عن ابن إسحاق.. وقال الآلوسي بعد أن ذكــر اسمــه (وقــيل: اسمه «بيرودس» من ملوك الطوائف) وقال أيضاً (وكأنه هو خردوس الذي مرّ آنفاً)[1].

وعليه فلا قيمة لهذه الرواية ولا لهذا القول.

القول الرابع: «الاسكندر»..

أورد الآلوســـي هذا القول بعد أن ذكر اعتراض السهيلي على من قال إن الذي تعـــرض لبني إسرائيل في فسادهم الثاني «بختنصر» حيث قال: (واختُلف في تعيين هؤلاء العباد المبعوثين بعد أن ذكروا قتل يحيى عليه السلام في الإفساد الأخير.. فقال غير واحد: إنـــه بختنصر وجنوده وتعقبه السهيلي بأنه لا يصح.. لأن قتل يحيى بعد رفع عيسى عليه السلام وبختنصر كان قبل عيسى بزمن طويل)[2].

ثم قــال الآلوســي: «وقيل الاسكندر وجنوده، وتعقبه أيضاً بان بين الاسكندر وعيسى عليه السلام نحواً من ثلثمائة سنة»[3].

ويؤيد هذا القرطبي في تفسيره لكنه يجعل المدّة «من بعد مملكة الاسكندر إلى مولد يحيى ثلثمائة وثلاث وستين سنة»[4].

قلت: لا أجدني مضطراً للتعليق على قول السهيلي في ردّ هذا الخبر الذي ليس لــه إسناد أولاً. ومجيئه من باب «قيل» ثانياً. ولأن الاسكندر لم يرى يحيى في حياته ثالثاً. ولن يراه.

---

(١) الآلوسي ١٥/٢٠.

(٢) قلت هذا الكلام يؤيد ما قاله الرازي والقرطبي الذي بيناه من قبل في هذا الموضوع.

(٣) الآلوسي ١٥/٢٠.

(٤) القرطبي ١٠/٢٢٠.

ومع ذلك فقد ناقش هذه المسألة الإمام الآلوسي نفسه في تفسيره لا مجال لذكرها هنا فراجعها هناك[1].

ولعل من تمام القول أن ننبه إلى مسائل عدة.. تكون كوضع النقاط على الحروف والتأكيد على أن ما قال به المفسرون ينبغي أن يراجع لعدم إمكان التسليم به لما بيّنا.

وهذه المسائل هي:

أولاً: تـــرك بعض المفسرين الكبار الخوض في هذه المسألة الشائكة وعدم التسليم بصـــحة كل ما جاء فيها.. كأبي الفداء إسماعيل بن كثير في تفسيره حيث اقتصر على ذكـــر بعض الأقوال فيمن تعرّض لهم دون التطويل الذي قال عنه «وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أرَ تطويل هذا الكتاب بذكرها لأن منها ما هو موضوع من وضع بعـــض زنادقتهم ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً ونحن في غنية عنه ولله الحمد».. وقال «وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته.. والله أعلم»[2].

ثانياً: توقف البعض عن الجزم في هذا الموضوع كصاحب صفوة البيان حين نقل عن الجبائي قوله «إنه تعالى لم يبين ذلك فلا يقطع فيه بخير»[3].

قلـــت: لقد أخرج أحمد شاكر في تحقيقه للطبري «٣٤٤/١» في ترجمة الجبائي أنه كان يروي عن الكتب «يريد الكتب المنسوبة لأهل الكتاب من الأساطير» أي أنه كان يفســـر القـــرآن بما يرويه من الأساطير المأخوذة عن كتب أهل الكتاب.. ثم قال.. وقد ترجم له البخاري في الكبير «٢١٩/٢/١» وترجمه ابن أبي حاتم في «٣٥٣/١/٢»[4].

فانظر.... وهو الذي قال «إن الله لم يبين ذلك فلا يقطع فيه بخير؟».

---

(١) انظر الآلوسي ٢٠/١٥.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢٥/٢.

(٣) انظر صفوة البيان - محمد حسنين مخلوف ص٣٥٩.

(٤) انظر تفسير الطبري تحقيق أحمد شاكر ٣٤٤/١.

ثالثاً: منهم من أعرض عن الخوض في هذه المسألة كليّاً.. كصاحب أضواء البيان إذ قال في تفسيره ما نصه «وتركنا بسط قصة الذين سُلطوا عليهم في المرتين، لأنها أخبار إسرائيلية، وهي مشهورة في كتب التفسير والتأريخ.. والعلم عند الله تعالى»[1].

إذ أنه اعتمد على تفسيره للقرآن بالقرآن - كما هو منهج أهل العلم من الأقدمين كخطوة أولى.. وذلك ما كان مفهوماً من قول ابن كثير في تفسيره حيث قال: (وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله و لم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم...)[2].

رابعاً: ومنهم من ترك النص والتعبير القرآني وأمسك التوراة وفتش في أسفارها ليجد تفسيراً لهذه الآيات التي ما جاءت إلا لتبين ما أخفته التوراة وما حرّفه أولياء الشيطان وما بدّله المغضوب عليهم حتى لا يهتدي الضالون من النصارى ولا يثوب إلى الرشد المؤمنون ولعل من هؤلاء العالم الجليل ابن عاشور[3] ومن وافقه في الأخذ عن التوراة والإنجيل كليّاً أو جزئيّاً..

فهذه المسائل وما شاكلها لتدل دلالة واضحة على أن هذه الآيات الخاصة بفساد بني إسرائيل في المستقبل لم تجد من يعطيها حقها ويقدرها حق تقديرها سواء في مجال مطابقة اللفظ للمعنى الذي وضع له في الاستعمال العام بدون تكلف أو تعسف أو في مجال مطابقة التفسير الواصل إلينا عن طريق المفسرين المتقدمين الذين اعتمدوا المأثور والمنقول للواقع التأريخي ببعديه الماضي البعيد والقريب وبالتالي فهو غير مطابق لما سيكون في المستقبل إذ كان هو المقصود من النص إنباءاً لا إخباراً..

٥ / والمسألة الأخيرة هي قبول روايات التابعين في التفسير أو عدم قبولها فقد قال الشيخ الذهبي: (اختلف العلماء في الرجوع إلى تفسير التابعين والأخذ بأقوالهم إذا لم يُؤْثَر في ذلك شيء عن الرسول ﷺ أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فنُقل عن

---

(١) انظر أضواء البيان - محمد الشنقيطي ٣/٤٠٨.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٥.

(٣) انظر مثال ذلك في تفسير التحرير والتنوير ١٢/٢٨-٢٩. و١٥/٣٢-٣٣. وانظر ١٥/٣٧. هامش رقم١. الاصحاح الثالث من إنجيل مرقس وغيره كثير.

الإمـــام أحمد ﷺ روايتان في ذلك، رواية بالقبول، ورواية بعدم القبول، وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعي.. واستدل أصحاب هذا الرأي بما يلي:

١ / بأن التابعين ليس لهم سماع من الرسول ﷺ فلا يمكن الحمل عليه كما قيل في تفسير الصحابي أنه محمول على سماعه من النبي ﷺ.

٢ / أنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد.

٣ / إن عدالة التابعين غير منصوص عليها كما نص على عدالة الصحابة - فقد نقل عن أبي حنيفة انه قال: ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء التابعين فهم رجال ونحن رجال...

وأضاف الذهبي: وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بقول التابعي في التفسير لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة..[1].

قال الذهبي: والذي تميل إليه النفس هو أن قول التابعي في التفسير لا يجب الأخذ بـــه.. إلا إذا كان مما لا مجال للرأي فيه فإنه يؤخذ به حينئذ (عند عدم الريبة) فان ارتبنا فـــيه بـــان كان يأخذ من أهل الكتاب فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه، أما إذا أجمع التابعون على رأي فانه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره.

قال ابن تيمية رحمه الله: قال شعبة بن الحجاج وغيره، أقوال التابعين ليست بحجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني إنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صـــحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فان اختلفوا فلا يكون قـــول بعضـــهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن والسنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك)[2].

---

(١) قلـــت: هذا في الأمر التي تلقاها الصحابة عن رسول الله ﷺ أو اجتهاد الصحابة. أما عن فسادي بني إسرائيل فقلت ما قالوا به إنما أخذوه عن أهل الكتاب.

(٢) التفســـير والمفسرون للذهبي ١/١٢٨-١٢٩. وانظر مقدمة ابن تيمية في التفسير ص٢٨-٢٩ وانظر الإتقان للسيوطي ٢/١٧٩. وانظر مقدمة الفصل الثالث.

قلـــت: وبناء على ما تقدم فان أقوال التابعين - في التفسير - ليست بحجة عموماً وأما بخصوص هذه الآيات التي تعرّضت لفسادي بني إسرائيل فمن باب أولى..

لأنها:

أولاً - لم تعــتمد عـــلى شـــيء مأثور - صحيح - عن رسول الله ﷺ ولا عن الصحابة رضوان الله عليهم.

ثانياً - كان اعتمادهم في الغالب الأعم على الإسرائيليات المنقولة عن أهل الكتاب كما رأينا.

ثالثاً - مخالفتها للحقائق التأريخية الثابتة.

رابعــاً - عدم رجوع أكثرهم إلى لغة القرآن أو عموم لغة العرب كما قال شعبة آنفاً.. وهذا ما سنراه في المعطيات القرآنية واضحاً قوياً إن شاء الله تعالى.

المطلب الثالث

أقوال المفسرين المحدثين في الإفسادين الأول والثاني

انتهينا في المطلبين السابقين من مناقشة أقوال المفسرين الأقدمين بعد حصرها وردها إلى مصادرها من الروايات التي جاءت بها إذا أنها كانت ضمن إطار التفسير بالمأثور..

ومـــن أجـــل الإحاطة بهذا الموضوع الشائك الذي اضطربت فيه أقوال جهابذة التفسير والتأريخ والسير.. فسأورد أقوالاً - أخرى - لعلماء محدثين تعرضوا لتفسير هذه الآيات فكانت لهم أقوال انفردوا بها.. وهي لا تخرج عن كونها من باب التفسير بالرأي والاجـــتهاد، بـــناء على ما توصلوا إليه من استقراءٍ لتأريخ بني إسرائيل وما أوحت به توراتهم ومقارنتها بما وجدوه في تفاسير الأقدمين من روايات وأقوال... وعلى الرغم من أن ما توصل إليه المحدثون من أهل التفسير من أقوال لا ترقى إلى مستوى يمكن الاعتماد علـــيه والتسليم بأنه المعنى المقصود من النص القرآني، كما هو الحال في أقوال الأقدمين،

كذلك لا يمكن تجاهلها فإنها وان كانت في أغلبها تخالف معطيات النص القرآني إلا أن فيها من الحق الذي يمكن أن يبنى عليه أو أن يكون أساساً لفهم أعمق ووعي أرشد.

وهذه الأقوال لثلاثة من أهل العلم قد شهدت لهم الدنيا بالفضل في عالمنا المعاصر اليوم – وهم:

١/ الطاهر ابن عاشور صاحب التفسير القيم (التحرير والتنوير).

٢/ محمد سيد طنطاوي صاحب كتاب (بنو إسرائيل في القرآن والسنة).

٣/ سعيد حوى صاحب (الأساس في التفسير).

فإن لكل واحد من هؤلاء الأعلام قولاً قد انفرد به و لم يعتمد فيه على غيره سأذكرها وأناقشها تباعاً.. لأخلص بعد ذلك لآراء بعض العلماء التي جانبوا فيها الصواب في – قضيّة فساد بني إسرائيل – وإني على يقين انهم لم يقصدوا الخطأ حيث اجتهدوا فما نالوا الأجرين وإنما هو أجر واحد.

القول الأول: (من أقوال المحدثين العلامة: محمد الطاهر بن عاشور..بحرٌ من العلم.. صاحب التحرير والتنوير في التفسير ...).

قال ابن عاشور في تفسيره[1] لقوله تعالى: ﴿**لتفسدن في الأرض مرتين**﴾ ما نصه:

(هذه الآية تشير إلى حوادث عظيمة بين بني إسرائيل وأعدائهم من أمتين عظيمتين، حوادث بينهم وبين البابليين، وحوادث بينهم وبين الرومانيين، فانقسمت بهذا الاعتبار إلى نوعين:

نوع منها تندرج فيه حوادثهم مع البابليين... والنوع الآخر حوادثهم مع الرومانيين... فعبّر عن النوعين بمرتين، لان كل منها تحتوي على عدة ملاحم..

فالمرّة الأولى: هي مجموع حوادث متسلسلة تسمى في التاريخ بـ «الأسر البابليج وهي غزوات «بختنصر» ملك بابل وآشور، بلاد أورشليم..

* والغزو الأول كان سنة /٦٠٠ قبل المسيح، أسّر جماعات كثيرة من اليهود ويسمى – الأسر الأول –...

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور «٢٩/١٥».

* ثم غزاهم أيضاً غزواً يسمى - الأسر الثاني - وهو أعظم من الأول.. كان سنة / ٥٩٨ قبل المسيح واسّر ملك يهوذا وجمعاً غفيراً من الإسرائيليين، واخذ الذهب الذي في هيكل سليمان.

* الأسر الثالث سنة / ٥٨٨ قبل المسيح، غزاهم "بختنصر وسبى كل شعب يهوذا، وأحرق هيكل سليمان وبقيت أورشليم خرابا يبابا...

وأما المرّة الثانية: فهي سلسلة غزوات الرومانيين بلاد أورشليم[١].

قـــال ابن عاشور... و لم يعدهم الله في هذه المّرة إلا بتوقع الرحمة دون رد الكرّة فكان ايماءّ إلى أهم لا ملك لهم بعد هذه المرّة.

وبهذا تبين إن المشار إليه بهذه المرّة الأخيرة هو ما اقترفه اليهود من المفاسد والتمرّد وقـــتل الأنبـــياء والصالحين والإعتداء على عيسى وأتباعه، وقد أنذرهم النبي ملاخي في الإصـــحاحين الثالث والرابع من كتابه، وأنذرهم زكريا ويحيى وعيسى فلم يرعووا... فضربهم الله الضربة القاضية بيد الرومان... وذلك سنة /١٣٥ للمسيح.. وبذلك انتهى أمر اليهود وانقرض، وتفرقوا في الأرض و لم تخرج أورشليم من حكم الرومان إلا حين فـــتحها المســـلمون في زمن عمر بن الخطاب سنة / ١٦ هجرية، صلحاً مع أهلها وهي تسمى يومئذٍ «إيلياء»[٢].

مناقشة هذا القول:

قلت: إن من الواضح جداً اعتماد ابن عاشور في تفسيره لهذه الآيات - على النحو الـــذي نقلناه - على أمور هي في حقيقتها ليست من قواعد التفسير بقدر ما هي أمور اجـــتهادية في مجال التفسير بالرأي ومن خلال النظر إلى هذه الأمور يتبين لنا أن الآيات الـــتي جاءت في سورة الإسراء بخصوص فساد بني إسرائيل في الأرض مرتين لا علاقة لها بغـــزوات البابليين ولا بنكبات الرومانيين.. إذ إن تعرّض البابليين والفارسيين والنبطيين

---

(١) المصدر نفسه «٢٩/١٥».

(٢) المصدر السابق «٣٧/١٥-٣٨».

والكنعانـــيين من قبل والرومانيين من بعد وكل من سُلّط عليهم عبر تاريخهم الطويل في القـــديم وفي الحديـــث كذلك - ممن لم يتصف بالصفات التي حددتها الآيات وحصرتها فـــيمن سيتعرضـــون لبني إسرائيل - كل أولئك إنما هم داخلون في حدود معنى (مَنْ) الواردة في قوله تعالى ﴿**وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة - مَنْ - يسومهم سوء العذاب**﴾ الأعراف/١٦٧.

إن هـــذا قـــانون[1]... قانون عقوبة خاص ببني إسرائيل، جارٍ ومهيأ في أي زمان افســـدوا فيه وفي كل مكان تواجدوا فيه ... (ولم يكن لعباد الله المخلَصين وجود فعلي وعضوي حيٌّ متحرك قائم بذاته له دولة وسلطان).

أما الآيات في سورة الإسراء فقد أخبرت بقانون ثان هو أيضاً قانون عقوبة خاص ببني إسرائيل وهو بعث عباداً لله خالصين مخلَصين أولي بأس شديد جاسوا خلال ديارهم قديماً وسوف يسؤون وجوههم مستقبلاً... ويدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة... وهـــذه قضـــية مهمة ينبغي التركيز على دراستها وفهمها من خلال تدبّر هذه الآيات والاجتهاد في معرفة ما تعنيه والبلوغ بالمستوى الفهمي المطلوب لنهتدي بالكتاب الذي ليس غيره ﴿**يهدي للتي هي أقوم**﴾.

وهذه الأمور التي - سنبينها على شكل نقاط - نعتب عليه فيها ولا نعذره عليها لا لشيء إلا لجلالة قدره وسعة علمه كما يشهد بذلك تفسيره القيم في مواضع كثيرة - غير هذا الموضع في القرآن كله.

أولاً / عـــدم ذكره لما ذهب إليه المفسرون وانفراده بتفسير معين لهذه الآيات يدل على عدم إطمئنانه إلى ما قاله المفسرون في هذين الإفسادين ومن بُعِثَ عليهم فيهما... ربما لوقوفه على ضعف تلك الروايات من ناحيتي السند والمتن وما نتج عنهما من شذوذ واضـــطراب واضح يمنع النفس من الارتياح إليها. بل لعلها كانت حجاباً لمعنى الآيات وشـــغلتهم عن وحيها الأصيل المقصود من خلال التعبير القرآني وفي ذلك يقول الشيخ

---

(١) انظر المبحث الأول من الفصل الرابع ص/٢٠٥.

رشيد رضا: (إن أكثر ما روي في التفسير المأثور أو كثيرة حجابٌ على القرآن وشاغلٌ لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس، المنورة للعقول)[١].

وقـد عتـب ابن عاشور نفسه على المفسرين الذين حصروا اعتمادهم على هذه الروايات في تفاسيرهم فيقول: «ولكني لا أعذر أساطين المفسرين الذين تلقفوا الروايات الضـعيفة فأثبـتوها في كتبهم و لم ينبهوا على مراتبها قوة وضعفاً حتى أوهموا كثيراً من الـناس أن القرآن لا تترل آياته إلا لأجل حوادث يدعو إليها.. وبئس هذا الوهم، فان القرآن جاء هادياً إلى ما به صلاح الأمة»[٢].

ثانـياً / الأمر الثاني هو أنه لم يأت بدليل واحد على أن المقصود من المرّتين في الآية هي هاتان الفترتان من غزوات البابليين والرومانيين. لا من القرآن ولا من السنة وإنما الذي اعتمد عليه في تفسيره لهاتين المرتين هو الاستقراء التاريخي لماضي بني إسرائيل ولما جاء في الـتوراة فـيما يخص هذا التاريخ[٣] وهي هي النظرة إلى الآيات من زاوية الماضي وحصرُ معانـيها فيه.. بحيث أنه وإن لم يتابع المفسرين في قبول وتبني الروايات والآثار الإسرائيلية التي أخذها بعض الصحابة أو نقل إلينا أنهم أخذوها عنهم[٤] وكذلك التي أخذها التابعون مشافهة عن أهل الكتاب ثم بعد ذلك كانت عند أهل التفسير أقوالاً تناقلها المفسرون خلفاً عن سلف - على النحو الذي رأينا - دون تمييز بين صحيح أو ضعيف...

أقول إنه على الرغم من عدم متابعته للمفسرين في هذه الروايات إلا أنه تابعهم في الاعتماد على أقوال وتأويلات أهل الكتاب بصورة غير مباشرة وذلك في حالتين..

الحالـة الأولى - اعتماده على الاستقراء التأريخي لحوادث ونكبات تعرض لها بنو إسرائيل - ومن ثم حمل معنى الآيات عليها.

---

(١) تفسـير مجاهد بن جبر «١/١٧-٦» وانظر تفسير المنار «١/١٠». قلت: لعله يقصد كتلك الروايات التي أوردها الطبري في تفسيره وقد بان ضعفها بعد تحقيقها.

(٢) تفسير ابن عاشور «١/٤٦».

(٣) انظر استشهاده بما جاء في التوراة في تقسيره «١٥/٣٢» و«١٥/٣٣ و١٥/٣٧».

(٤) انظر القاعدة الرابعة من قواعد تفسير القرآن في مقدمة الفصل الثالث «عن عمد الرواية الإسرائيلية».

الحالة الثانية – اعتماده على ما جاء في التوراة والتلقي منها مباشرة – على الرغم من العلم لمسبق بتحريفها.. ومن ثم تفسير الآيات بها.

إن ذلك التصور المأخوذ من تأريخ بني إسرائيل.. وهذا المفهوم المأخوذ من التوراة لهو هو الأخبار الإسرائيلية نفسها وهو الأخذ عن أهل الكتاب ولكن بإسلوب آخر..

فلئن كان بعض الصحابة والتابعين قد نقلوا أو أخذوا مشافهة تلك الأخبار ووصلت إليـــنا عن طريق المفسرين وكتاب التاريخ المتقدمين فإن بعض المفسرين المتأخرين من أخذها مـــن كتـــب التاريخ التي كان من مصادرها علم أهل الكتاب وكذلك آخذوها من التوراة مباشرة والتي كانت المصدر الأمثل لعلم من أسلم من أهل الكتاب قبل أن يسلم.

إن من المعلوم أن لتفسير القرآن منهجاً[1] رسمه النبي ﷺ وسار عليه من جاء بعده من الصحابة والتابعين لهم، هو أن يفسر القرآن بالقرآن فإن لم نجد فبالسنة ثم بالاجتهاد والاستنباط على أساس الرجوع إلى المفردة اللغوية[2] ومعرفة معانيها دون الاقتصار على معنى واحد...

أمـــا أن يفسّر القرآن بإصحاحات التوراة والنكبات التي نزلت على أهلها ؟ فان ذلك غير صحيح كما أعتقد.

ثالـــثـــاً / الأمر الثالث هو مخالفة تفسيره لهذه الآيات الحقائق التأريخية والمعطيات القرآنية التي أوحت وتوحي به هذه الآيات وهي باختصار شديد..

١/ كلمة «العباد» في قوله تعالى: «**عباداً لنا**» لا تنطبق في مقوماتها على البابليين الكافرين ولا على الرومان الظالمين[3].

٢/ إذا ســـلّمنا إن البابليين هم المبعوثون على بني إسرائيل في فسادهم الأول فان الكـــرّة علـــيهم من بني إسرائيل والتي هي بإجماع المفسرين تعني (الدولة والغلبة) بينما

---

(١) انظـــر القـــاعدة الأولى من قواعد التفسير القرآني في مقدمة الفصل الثالث «منهج النبي ﷺ في تفسير القرآن» (٨٨).

(٢) انظر تفسير ابن عاشور نفسه في أهمية اللغة في تفسير القرآن «١/٢٢».

(٣) انظر المعطيات القرآنية في الفصل الرابع ص١٨٦.

يفسرها ابن عاشور (الرجعة إلى المكان الذي ذهب منه)[1]. فمتى رُدّت الكرّة لهم على البابليين..؟ إن ذلك لم يحدث ولن يحدث أبداً.

٣/ صرّحت الآيات أنه في حال الكرّة ستكون لهم دولة وغلبة على أعدائهم الذين جاســوا خلال ديارهم وسوف يمدهم الله بأموال وبنين ويجعلهم أكثر نفيرا فمتى حدث ذلك والتاريخ يشهد أنهم كانوا يسامون سوء العذاب على أيدي أعدائهم – على مدار التاريخ – غزوات سنحاريب ثم غزوات البابليين ثم غزوات النبط ثم غزوات الرومان ثم مُزّقوا في الأرض وفق سنّة الله التي قضاها عليهم ﴿**وقطّعناهم في الأرض أمماً**﴾ ثم تعرّض لهم المسلمون ... لم يمضي عليهم حين من الدهر إلا وكانوا تحت الأكف وبين الأقدام يعانون الذلة والمسكنة من هؤلاء وأولئك.

٤/ أين العلو في كل مراحل التاريخ التي مرت بهم؟.

٥/ قال عند حديثه عن الكرّة الثانية: «ولم يعدهم الله في هذه المرّة إلا بتوقع الرحمة دون ردّ الكــرة. فكان إيماءً إلى أنهم لا مُلك لهم بعد هذه المرّة»[2] وأسأل: ماذا يقول لدولتهم اليوم وغلبتهم وإمدادهم بالمال والبنين وكانوا – اليوم – أكثر – نفيراً مما سبق ومنا أيضاً – ثم أليس هم اليوم قد علو علواً كبيراً؟.

وأخيراً فإننا نجد فيما قاله الشيخ سعيد حوى – رحمه الله – ردّاً على من ذهب إلى ذلــك القول في تفسيره الأساس بالنص: (يبقى أن يقول قائل: إن المسلّطين الأولين هم بختنصر وقومه، والمسلطون الآخرون هم الرومان الذين احتلوا فلسطين بعد عودة اليهود من سبي بابل، فإذا قال قائل ولكن هؤلاء غير أولئك يقال: لكن يجمعهم وصف الوثنية، وكلٌ منهم قد سيطر ودخل المسجد الأقصى عاتياً...

ويمكــن أن يقال رداً إن الآيات تقول: ﴿**ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بــأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً**﴾ وبعد السبي وقبل الغزو الروماني لم تقم لليهود شوكة يكونون فيها أكثر نفيراً[3]...

(١) انظر تفسير ابن عاشور «١٥/٣٢».

(٢) انظر تفسير ابن عاشور «١٥/٣٧».

(٣) الأساس في التفسير – سعيد حوى «٦/٣٠٤٣».

وبعد... فإن الواقع ليشهد أن الآيات في سورة الإسراء لم تأت لتكون نافذة تطل - عبر نفق إلى الماضي وما كان فيه - من وعلى بني إسرائيل من أحداث.. وإنما جاءت - وتجـــيء - دائما لتفتح أبواب الحاضر والمستقبل لدخول العباد ميدان الجهاد - كما دخلوه أول مرّة ...

العباد الذين سيشرفهم الله بنسبتهم إليه في ﴿**عباداً لنا**﴾ أولاً...

ويمن عليهم فيجعلهم ﴿**أولي بأس شديد**﴾ ثانياً...

ويكرمهم فيجعل إيقاع العقوبة على بني إسرائيل على أيديهم ثالثاً..

مصـــداقاً لقوله تعالى: ﴿**ليسوؤا وجوهكم، و ليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما علو تتبيراً**﴾..

القول الثاني:

(مـــن أقوال المحدثين: الشيخ الفاضل - محمد سيد طنطاوي ... صاحب الكتاب القيم - بنو إسرائيل في القرآن والسنة).

أورد في كتابه «بنو إسرائيل في القرآن والسنة» قولاً في هذين الإفسادين - انفرد بـــه - فقال: (الرأي الذي نختاره هو إن العباد الذين سلطهم الله على بني إسرائيل بعد إفســـادهم في الأرض «جالوت» وجنوده.. ونستند في اختيارنا لهذا الرأي إلى أمور من أهمها ما يلي..

أولاً: ذكر القرآن في سورة البقرة قصة القتال بين طالوت وجالوت ما يدل على أن بني إسرائيل كانوا قبل ذلك مقهورين مهزومين من أعدائهم يتجلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿**ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم أن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا؟ قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا**﴾ البقرة/٢٤٦.

ثانـــياً: صرّح بعض المفسرين بأن الأعداء الذين أخرجوا بني إسرائيل من ديارهم وأبنائهم هم قوم جالوت.

ثالـــثاً: قوله تعالى ﴿**ثم رددنا لكم الكرّة عليهم**﴾ صريح في أن الله تعالى نصر بني إســـرائيل بعـــد أن - تـــابوا وأنابوا - على أعدائهم الذين قهروهم وأذلوهم وجاسوا خلال ديارهم.

رابعـــاً: قولـــه تعالى ﴿**وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً**﴾ أكثر ما يكون انطباقاً على عهد حكم داود وابنه سليمان - عليهما السلام - لبني إسرائيل ففي هذا العهد - عهد داود وسليمان - الذي دام زهاء ثمانين سنة ازدهرت مملكتهم، وعزّ سلطانهم وأمدهم الله خلاله بالأموال الوفيرة وبالبنين الكثيرة وجعلهم اكثر من أعدائهم قوة وعدداً[1])..

أما عمن تعرض لهم في الإفساد الثاني فقال فضيلته:

(نرجّح أن يكون المراد بالعباد الذين سلطهم الله على بني إسرائيل عقب إفسادهم الثاني في الأرض هم الرومان بقيادة «تيطس» الروماني[2]).

رجّح هذا القول على ما قاله جمهور المفسرين من أن المبعوث على بني إسرائيل في إفسادهم الثاني «بختنصر»[3] معللا ذلك لعدّة أسباب أوردها باختصار.

أولاً: إن رذائـــل بني إسرائيل في عهد الرومان أشد وأكثر مما كانت عليه في زمن بختنصر.

ثانياً: إن بختنصر سبق وجوده على يحيى و لم يعاصره مما يبطل هذا القول..

ثالـــثاً: ضـــربات الـــرومان كانـــت أشد وأقسى على بني إسرائيل من ضربات «بختنصر» لهم.

رابعاً: النكبة التي أنزلها الرومان بقيادة «تيطس» باليهود أشنع بكثير من النكبة التي أنزلها بهم «بختنصر»[4].

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة - سيد طنطاوي «٢/٣٦٧».

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة - سيد طنطاوي «٢/٣٧٢».

(٣) كما أوضحنا ذلك في المطلب الثاني فرع /ب من هذا المبحث.

(٤) انظر بنو إسرائيل - سيد طنطاوي «٢/٣٦٨ وما بعدها».

وهو لهذه الأسباب رجّح أن يكون الذي تعرض لهم في الإفساد الثاني هو " تيطس الروماني وليس «بختنصر».

مناقشة هذا القول:

قلت: على الرغم من عدم ذكر - فضيلته - للفساد الأول وإنما اكتفى بذكر من تعــرض لهــم فيه وهو جالوت - إلا أن المفهوم من كلامه اختياره للقول الأول[1] من أقــوال المفسرين فيمن تعرض لبني إسرائيل وقد ناقشنا هذا القول وتبين لنا بطلانه كلياً لأسباب ذكرناه هناك[2] لا مجال لذكرها هنا إلا على سبيل الاختصار الشديد..

أولاً: إن اختيار بعض المفسرين - لجالوت - فيمن تعرض لبني إسرائيل في فسادهم الأول هــم أنفســهم الذيــن قالوا إن فسادهم الأول إنما كان منهم عند قتلهم نبي الله زكــريا.. وظهر بطلان هذا القول لمخالفته الحقائق التأريخية الثابتة فبين جالوت وزكريا أمداً بعيداً..

ثانياً: من خلال مناقشتنا للرواية التي اعتمدها المفسرون في هذا القول والتي أوردها الطبري بأسانيد ثلاثة عن ابن عباس وقتادة وقد تبين ضعف هذه الرواية من خلال بعض أسانيدها ومخالفة متنها للحقائق التأريخية واعتراض أهل العلم والتفسير عليها مما لا يبقي لها قيمة الإحتجاج...

أما مناقشة قوله في الإفساد الثاني... فكذلك اكتفى بذكر من تعرّض لهم فيه دون توضيح أبعاد الإفساد الثاني ووقته.. لكن المفهوم من خلال كلامه أنه لا يخالف الجمهور في قولهــم أنــه حدث في زمن قتلهم يحيى بن زكريا[3] وإنما يخالفهم فيمن تعرض لهم.. فقول الجمهور هو «بختنصر» وذكرنا أنه القول الراجح لهم وكيف كان اعتمادهم على ست روايات بأسانيد مختلفة أوردها الطبري ناقشناها هناك.. فقال إن المبعوث عليهم في

---

(١) انظر المطلب الأول من هذا المبحث ص/٩٦.

(٢) راجــع المطلب الأول من هذا المبحث عند مناقشة القول الأول فيمن تعرض لبني إسرائيل في الإفساد الأول.

(٣) انظر المطلب الثاني من هذا المبحث فرع/أ.

الإفساد الثاني إنما هو «تيطس الروماني» وليس «بختنصر» وذكر أسباباً ضَعّف فيها القول باختـيار أهـل التفسير «بختنصر» وكان على صواب في ذلك لكنه لم يوفق في اختيار «تـيطس الـروماني» أنـه المسلط على بني إسرائيل في فسادهم الثاني وذلك لأسباب سنناقشه فيها.

وذلـك من خلال مراجعة الأسباب الأربعة التي ذكرها السيد طنطاوي والتي بنى عليها قوله بأن الذي سُلط على بني إسرائيل في فسادهم الثاني إنما هو تيطس الروماني نجد أنه جعل مؤشراً خاصاً لتعيين الإفساد وهو - قوة الضربة - التي تعرّض لها بنو إسرائيل - وقسـاوة النكبة - التي أنزلها الرومان بقيادة «تيطس» باليهود وأنها اشد وأقسى مما أنزله بهم «بختنصر».

قلت وهذا أمر ليس بالصواب.. وذلك لأسباب منها..

أولاً: إن أهـل الـتاريخ من علماء المسلمين قد كتبوا عن هاتين الفترتين وذكروا النصوص التي تصور حجم الدمار الذي أصاب أورشليم وسكانها.. فكان أن لا مقارنة بيـنهما والذي يراجع ما كتبه ابن جرير الطبري في كتابه الأمم والملوك وابن الأثير في الكـامل وابـن كثير في البداية والنهاية وغيرهم يجد أن ضربات الفرس ونكباتهم ببني إسـرائيل لم يكن لها مثيل في تأريخهم الطويل وكذلك التوراة التي صورت ما نزل ببني إسرائيل من جرّاء غزوات الفرس على بني إسرائيل وتنكيلهم بهم[1].

وكذلك ما نقل عن أهل الكتاب من طريق وهب بن منبه ومحمد بن إسحاق[2] في تصـوير عقوبـة بني إسرائيل زمن بختنصر.. وهذه العقوبة حين مقارنتها بما أورده من نصوص عن فترة الحكم الروماني وما تعرّض له بني إسرائيل في هذا العهد كله.. أكاد لا أجد ما يوافق قول السيد طنطاوي في هذا الشأن.

---

(١) انظر مثلاً الملوك الثاني ٢١/١٤-١٧-٢٠-٢١. وكذلك «٢٣/٣٧» وانظر أخبار الأمم «٣٦».

(٢) قلـت ان أكـثر الأخبار إنما جاءت عن طريق ابن منبه وابن اسحاق في البداية والكامل وغيرها من أمهات كتب التاريخ.

ثانياً: لقد كتب الدكتور أحمد سوسة - عن هاتين الفترتين فقال عن غزو بختنصر (حمل نبوخذ نصر الثاني ملك الكلدانيين «٦٠٥-٥٦٢ ق.م» على أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس... عشرة آلاف مسبي، وجميع الصناع والاقيان سباهم من أورشليم إلى بابل... ولم يبقي إلا مساكين شعب الأرض... وأخيراً وقع السبي الثاني سنة/ ٥٨٦ ق.م، وحين قضى نبوخذنصر على مملكة يهوذا وسبى اليهود إلى بابل وقد قدر عدد الذين سباهم نبوخذنصر بأكثر من خمسين ألف شخص، هذا عدا الذين قتلوا)[١].

ثم صور السيد سوسة الموقف بقوله: (وبذا يكون قد قضى على آخر من تبقى من اليهود في فلسطين وزاد موضحاً الدمار الذي حل بشعب بني إسرائيل حيث قال وقد ورث الادوميون سكان فلسطين الأصليون ومعهم الأنباط ديار يهوذا بعد القضاء على مملكة يهوذا وسبى اليهود منهم)[٢].

وأما مملكة إسرائيل فقد أشار آنفاً إلى تدميرها وإزالتها من الوجود لما تكلم عن تدمير أورشليم إلا أنه لما تكلم عن الحكم الروماني لأورشليم قال: (وأخيراً قضى الرومان نهائياً على من تبقى منهم)[٣]. أي من بني إسرائيل..

وبناءاً على ما تقدم أقول: إن مذبحة الرومان الأخيرة في أورشليم ما هي إلا حلقة أخيرة في سلسلة التدمير الذي أحدثه بختنصر في مملكتي يهوذا وإسرائيل، فأين تقع هذه الحلقة الأخيرة من التدمير الروماني إلى جانب تلك السلسلة الرهيبة من الأحداث التدميرية التي حدثت على يد بختنصر الطاغي الغشوم على مدى سنين طويلة كان خلالها ثلاث غزوات دمروا فيها مملكتي بني إسرائيل وأحرقوا الهيكل والتوراة وحرثوا أرض أورشليم بقناطير من الملح ... إلخ؟.

وبعد فان هناك أمرين يجعلان هذا القول من ضمن الأقوال التي ثبت لدينا أنها لا يعوّل عليها في هذه القضية.. وهذان الأمران هما..

---

(١) مفصل العرب واليهود في التاريخ - أحمد سوسة «ص٦١٩ — ٦٢٠».

(٢) مفصل العرب واليهود في التاريخ - أحمد سوسة «ص٦١٩ — ٦٢٠».

(٣) مفصل العرب واليهود — أحمد سوسة ص/٦٢٠.

أولاً: بما أنه ثبت لدينا بطلان القول بان جالوت هو الذي تعرض لبني إسرائيل في فسادهم الأول من خلال تحقيق الأسانيد التي جاءت بها الروايات وبيان ضعفها كذلك مـــن خلال اضطراب وشذوذ متن الروايات لمخالفتها الحقائق الثابتة تأريخياً فان كل ما يبنى على هذا الأساس لا تقوم به حجة..

ثانياً: إذا ثبت بطلان القول الأول فان بطلان القول بتعرض بختنصر باطل من باب أولى لعدم حدوث الكرة لبني إسرائيل عليهم لا على الفرس ولا على الرومان كذلك ثم إن المعطـــيات القرآنية للآيات تخالف كل هذه الأقوال ذلك لان هذه المعطيات - كما ســـنرى - لتتجاوز بنا مسألة التأريخ وضربات الفرس ونكبات الرومان التي ذهبت بمن وقعت عليهم كأي قضية مضت وانقضت فأصبحت في خبر كان..

إذ أن المعطيات القرآنية لهذه الآيات إنما تقول لنا اليوم إن بني إسرائيل قد أظهروا الإفساد في الأرض واستكبروا على الله وكتبه وعلو على الناس علواً كبيراً.. فهل أنتم (يا مؤمـــني الكرّة) مؤهلون إلى أن تظهروا الإساءة على وجوههم وتدخلون المسجد كما دخله أسلافكم أول مرة وأن تتبروا ما علو تتبيرا...؟.

القول الثالث: (من أقوال المحدثين.. الشيخ العالم - سعيد حوى).

عَلَمٌ من أعلام الإسلام صاحب الأساس في التفسير... إذ أنه حين تعرّض لتفسير هـــذه الآيـــات قال: (يبدو بما لا يقبل الجدل إن الإفسادة الأولى هي التي سُلط عليهم بختنصر، فهي الإفسادة التي رافقها بغي وطغيان وعتو، والتي يدور حولها كثير من كلام العهد القديم، وما قبل ذلك لا نعرف أنه حدث لبني إسرائيل مثل هذا الدمار، و لم يحدث أن قوماً سيطروا على المسجد الأقصى وجاسوا خلال الديار)[1].

أما إفسادهم المرّة الثانية فإنه يفهم من قوله:

(ولعل ما هم فيه الآن نموذج على علوهم وفسادهم، فها هم لهم دولة، وها هم لهم سلطان وهيمنة عالميان، وهم يستعملون ذلك في إفساد كل شيء)[2].

---

(١) الأساس في التفسير - سعيد حوى «٦/٣٠٣٩».

(٢) المصدر السابق «٦/٣٠٣٩».

وكذلك من قوله: (إننا نرجّح إن التفسير الصحيح لقوله تعالى: ﴿**وقلنا من بعده**﴾ أي من بعد موسى ﴿**لبني إسرائيل اسكنوا الأرض**﴾ كل الأرض متفرقين ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾ أي جميعا إلى فلسطين، وأن هذا النص يحدد إن الإفسادة الآخرة بعد تفريقهم في الأرض كلها ﴿**وقطعناهم في الأرض أمماً**﴾ وأما الإفسادة الأولى فتكون قبل ذلك...

ومن المعلوم إن التشتيت الشامل على وجه الأرض لبني إسرائيل إنما كان بعد عودهم من سبي بابل، فيكون التسليط الأول هو تسليط بختنصر، والتسليط الثاني هو الذي يتوقع الآن، بدليل العلو والإفساد،..

فالإفسادة الأولى كانت لهم دولة وفساد، والآن إفسادهم في الأرض كلها معروف، وسيطرتهم الخفية على بعض بلدان العالم معروفة، واجتمع لهم سلطان ودولة، وان المرشحين للتسليط عليهم هم العراقيون المسلمون سواء اعتبرنا بختنصر موحداً أو لا، أو المسلمون عامة، إذا كان بختنصر موحداً)[1].

ومعنى قوله باختصار شديد أن..

الإفساد الأول: كان عندما تعرض لهم بختنصر، وهو يوافق القول الثالث من أقوال علماء التفسير حيث قال بذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي والرازي والقرطبي كما قدمنا من قبل[2].

الإفساد الثاني: هو ما نحن فيه اليوم حيث قال (بدليل العلو والإفساد، الآن في الأرض كلها.. وسيطرتهم الخفيّة.. واجتماع السلطان لهم والدولة)..

مناقشة قوله بالإفساد الأول:

قال رحمه الله: (يبدو بما لا يقبل الجدل إن الإفسادة الأولى هي التي سُلّط عليهم فيها بختنصر..).

---

(١) الأساس في التفسير - سعيد حوى - «٣٠٤٤/٦».

(٢) راجع المطلب الأول في المبحث الأول من هذا الفصل الفرع/ب.

وهو حين يقول بهذا يرد الأمر إلى سببين اثنين هما:

السبب الأول - حين قال (فهي الإفسادة التي رافقها بغي وطغيان وعتو).

السبب الثاني - قال عنها: (إنها هي التي يدور حولها كثير من كلام العهد القديم).

ولـــنا أن نسأل.. هل كان من فساد بني إسرائيل فسادٌ لم يصاحبه بغي وطغيان وعتو؟ أم هل كان معنى الإفساد في معناه اللغوي والاصطلاحي غير البغي والطغيان والعتو؟.

إن مجمل ما قال فيه أهل اللغة والتفسير هو - الخروج عن حد الاعتدال والاستقامة إلى التغيير والتبديل قليلاً كان أو كثيراً[1].. إن كل ما فعله بنو إسرائيل ويفعلونه إنما هو من قبيل البغي والطغيان والعتو من أول يوم مكروا فيه ضد أخيهم يوسف إلى آخر يوم مكـــروا فيه ضد رسول الله محمد ﷺ وجمّعوا عليه أعداءه، مروراً بعبادة العجل الذهبي وعـــنادهم في امتـــثال أمر أنبياءهم وطغيانهم على الناس ظلماً وعتوهم عن أمر التوراة وقتلهم الأنبياء بغير الحق.. واختلافهم في الحق من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم وو.. إلى آخر صور البغي والظلم والاستعلاء والعتو عن أمر الله تعالى والتي لا تجد لها مثيلاً إلا عند بني إسرائيل في فسادهم في الأرض عبر التاريخ..

ثم هل ما حدث لبني إسرائيل أيام بختنصر فقط مما دار حوله كثيرٌ من كلام العهد القديم يمكن أن يكون مؤشراً إلى أن تلك الأحداث هي ما كانت من بني إسرائيل فساد في الأرض؟ وإذا تجاوزنـــا هذا السؤال الذي لا تخفى الإجابة عليه لنسأل.. هل تصلح أخـــبار العهد القديم أن تكون مفسرةً لآيات القرآن الحكيم؟ مع العلم المسبق والتقرير المـــتقدم من فضيلته إلى أن التوراة محرّفة فيقول بالنص: (وقد حاولنا أن نلقي نظرة على التوراة المحرّفة لعلنا نجد ما نستأنس به، فوجدنا في التوراة شيئاً له علاقة بهذا الموضوع إلى حد ما إلا أن التحريف واضح جداً فيها)[2].

---

(١) انظـــر ما قاله الراغب في مفرداته في معنى البغي «ص/٥٥» وفي معنى الطغيان «ص٤٢١». وفي معنى العـــتو «ص/٣٢١» وانظر ما قاله في معنى الإفساد «ص/٣٧٩». وانظر كذلك ما قال المفسرون في معنى الإفساد كالماوردي مثلاً «٨/٤٢٣».

(٢) انظر الأساس في التفسير «٦/٣٠٤٢».

ويقـــول في موضـــع آخر: (ولولا أن التحريف قد حدث في التوراة لكان ما في التوراة تفسيراً صالحاً للقرآن في هذا المقام، ولكن لعنة الله على أقلام النساخ الكاذبة)[1].

ولذلـــك فإني لا أجد مساغاً للاعتماد على التوراة وأخبار الأولين في تفسير آيات القرآن الحكيم وما يقال إن ذلك مما يستأنس بها في أمهات المسائل التاريخية إنما يقال عن حســـن نـــية وسلامة قصد فان من يقرأ التوراة «بتدبر» يعلم إنها كتبت بأيدي أناس يعـــلمون مـــاذا يكتبون ويعرفون ماذا يريدون.. ومن ثم فلا يجوز أن يستهان بهذا الأمر ويقـــال عنه انه يستأنس بأخبار التوراة والعهد القديم في أمهات المسائل التاريخية وحتى على فرض إننا نعالج المسائل التاريخية فان التاريخ لا يعتمد عليه في الوصول إلى الحقائق القرآنية.. ولا حتى التوراة وفي معرض رفض هذين المصدرين لتفسير آيات القرآن يقول صاحب الظِلال..

(وكان يمكن للتوراة - كمصدر ديني - أن تكون مرجعاً يعتمد عليه في شيء من تلك الأحداث، لو أن التوراة سلمت من التحريف والزيادات ولكنها أحيطت بالأساطير التي لا شكُ في كونها أساطير، وشُحنت كذلك بالروايات التي لاشك في أنها مزيدة على الأصـــل الموحى به من الله. فلم تعد التوراة - بذلك - مصدراً مستيقناً لما ورد فيها من القصـــص القـــرآني، وإذن فلم يبق إلا القرآن، الذي حفظ من التحريف والتبديل، هو المصدر لما ورد فيه من القصص القرآني)[2].

وكذلـــك: (عـــدم جـــواز محاكمة القرآن إلى التاريخ[3] وان ذلك يعود لسببين واضحين:

أولاً: إن التاريخ مولود حديث العهد فاتته أحداث لا تحصى في تاريخ البشرية، لم يعلم عنها شيئاً، والقرآن يروي بعض هذه الأحداث التي ليس لدى التاريخ علم عنها..

---

(١) المصدر السابق «٣٠٤٣/٦».

(٢) في ظلال القرآن «٩/١٦» الطبعة الثالثة.

(٣) يفهم من كلامه أنه يقصد التأريخ القديم المنقول إلينا عن أهل الكتاب والله اعلم.

ثانياً: إن التاريخ – وان وعى بعض هذه الأحداث – هو عمل من أعمال البشر القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف ونحن نشهد في زماننا هذا – الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص – أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يروي على أوجه شتى، وينظر إليه من زوايا مختلفة، ويفسر تفسيرات متناقضة.. ومن مثل هذا الكلام يصنع التاريخ، مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق!!(1).

ومن أجل هذا نعتب على من يعتمد في تفسيره لهذه الآيات على التوراة أو أخبار العهد القديم والتاريخ الأقدم.

وفي ذلك يقول صاحب الظِلال: (أما تفاسير القرآن فقد وردت فيها أقوال كثيرة ولكنها لا تعتمد على يقين) كما إنها تبعا لهذا (ينبغي أن تؤخذ بحذر لما فيها من إسرائيليات وأساطير)(2).

فعلى هذا أقول أن ترجيح القول بأن (بختنصر) هو الذي تعرض لهم في الإفساد الأول قول غير صحيح على الرغم من أن بعض أهل التفسير قد ذهبوا إليه..

وقد تبين لنا من خلال تحقيق الروايات التي اعتمدها المفسرون والتي أوردها الإمام الطبري إن منها ما كانت ضعيفة السند لا تقوم بها حجة ومنها ما كانت شاذة المتن ومضطربة المعنى لمخالفتها للحقائق التاريخية الثابتة ومن ثم مخالفة هذا القول لكل المعطيات القرآنية التي سنذكرها تباعاً والتي تشكل في مجموعها – حقائق قرآنية – اتفق عليها جمهور المفسرين على الرغم من اختلافهم في بعضها والتي بين هذا البعض الشيخ سعيد حوى في تفسيره بقوله: (هذه الآيات مما كثر فيه الخلاف بين المفسرين، ولا يكثر الخلاف إلا إذا كان لذلك مبرراته..).

ثم نجد فضيلته يتساءل..

---

(1) المصدر السابق «٩/١٦».

(2) نفسه «١٠/١٦» ويراجع «المنظور التاريخي في فكر سيّد قطب للدكتور عماد الدين خليل» ص٨٥ وما بعدها، ط/١ دار القلم

- / فما هما هاتان الإفسادتان ومتى كانتا ؟
- / ومن هم الأقوام الذين يسلطون على بني إسرائيل مرّة بعد مرّة ؟
- / وهل المراد بالكتاب التوراة، أو القرآن، أو اللوح المحفوظ ؟
- / وهل المرتان حدثتا أو أنهما ستحدثان بعد نزول القرآن ؟
- / أو إن واحدة حدثت من قبل والثانية في طريقها؟
- / وهل للأقوام المسلّطين صلة عداء أو ولاء للمسجد الأقصى حتى ذكروا به ﴿**وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة**﴾[1]؟.. هذه كلها تحتاج إلى أجوبة دقيقة، ومن ثم وقع الخلاف[2].

ثم يقول فضيلته:... (قال ابن كثير وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلّطين عليهم من هم ؟ فعن ابن عباس وقتادة أنه جالوت الجزري وجنوده، وسلط عليهم أولاً ثم أُديلوا عليه بعد ذلك، وقتل داود جالوت ولهذا قال ﴿**ثم رددنا لكم الكرة عليهم**﴾ وعن سعيد بن جبير انه ملك الموصل سنحاريب وجنوده. وعنه أيضاً وعن غيره أنه بختنصر ملك بابل) - ثم يقول - (وبعد أن يذكر ابن كثير طرفاً من أخبار بختنصر يقول: وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها- ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته والله أعلم)...

ثم يقول معقباً: (ولكن ما قاله ابن كثير لا يجيب على كثير من الأسئلة التي ذكرناها كلها.. ومن ثم اقتضى هذا منا أن نقف وقفة عند هذا الموضوع، وهو موضوع مهم لأنه قضية عصرنا..)[3].

قلت ولأنه موضوع مهم ولأنه قضية عصرنا سأورد هنا عدة حقائق - قرآنية - أتفق عليها المفسرون من أنها مما يحملها النصر القرآني وقد أوحت بها المعطيات القرآنية

---

(١) قلت: وسوف نرى في تلك المعطيات القرآنية الأجوبة الدقيقة التي نحتاجها والتي ظهرت كحقائق قرآنية ان شاء الله تعالى.

(٢) الأساس في التفسير - سعيد حوى «٣٠٣٧/٦».

(٣) الأساس في التفسير «٣٠٣٨/٦».

لأثبت من خلالها بأن بختنصر هو ليس الذي سلط على بني إسرائيل في إفسادهم الأول.. أو الثاني..

الحقيقة الأولى: إن بختنصر لم يكن ممن استحق شرف النسبة إلى الله على جهة الاختصاص في ﴿**عباداً لنا**﴾.

الحقيقة الثانية: هي إن الآيات صرّحت بأن الذين بعثهم الله على بني إسرائيل قد جاسوا خلال الديار رغم كونهم أولي بأس شديد - وبختنصر لم يجس خلال الديار بل دمرها تدميراً فهو اجتياحٌ وليس جوس.

الحقيقة الثالثة: إن العباد قد «دخلوا» المسجد الأقصى في تعرّضهم الأول وبختنصر هدم الهيكل وأحرقه بالنار، فلم يكن دخولاً بالمعنى المفهوم وإنما تدميراً وإهلاكاً.

الحقيقة الرابعة: تصرّح الآيات بأن الله قد ردّ لبني إسرائيل الكرّة - وهي الدولة والغلبة[1] إلى بني إسرائيل على من جاسوا خلال ديارهم و لم تحدث هذه ولا مثلها لبني إسرائيل بعد قضاء بختنصر عليهم وسبيهم إلى بابل وبقوا في الأسر كعبيد وأرقاء.

يقول سعيد حوى: (ومن المعلوم أن التشتيت الشامل على وجه الأرض لبني إسرائيل إنما كان بعد عودتهم من سبي بابل[2] ويقول في موضع آخر: (وبعد السبي وقبل الغزو الروماني لم تقم لليهود شوكة يكونون فيها أكثر نفيراً)[3].

وعليه فلا دولة لهم ولا كرّة بعد بختنصر مما ينفي أن يكون هذا الأخير هو الذي تعرّض لهم أول مرة..

الحقيقة الخامسة: قال صاحب الأساس نفسه: (إن الآيات تذكر إن الذين يسلّطون على بني إسرائيل أول مرّة هم الذين يسلّطون عليهم ثاني مرّة، ويلاحظ من عودة الضمير على المذكورين.

---

(١) انظر القرطبي «١٠/٢١٧».

(٢) الأساس في التفسير «٦/٣٠٤٤».

(٣) الأساس في التفسير «٦/٣٠٤١».

أولاً: في قوله تعالى: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم**﴾[1].

ثانياً: أنه جاء في آخر السورة قوله تعالى: ﴿**وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾.. يقول – إننا لم نجد قوما بأعيانهم قد سُلِطوا على اليهود مرتين في حال اجتماع العلو والإفساد.. لقد سُلّط عليهم بختنصر والرومان وغيرهم، ولكنّ قوماً بعينهم لم يسلطوا عليهم مرتين داخلين المسجد الأقصى هذا الدخول الموصوف فيما نعلم)[2].

قلت:... وهذه ما ستجيب عليه المعطيات القرآنية التي سنفصّل القول فيها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

أما من ناحية وقت فسادهم الثاني ومن سيتعرض لهم فيه فقد أصاب فيما ذهب إليه من أن الإفساد الثاني لهم هو ما نحن فيه اليوم..

قلت:... وهو القول الوحيد[3] الذي وجدته في كتب التفسير سواء عند الأقدمين أوالمحدثين.. ما يوافق المعطيات القرآنية وما ظهرت فيها من حقائق قرآنية تنسجم مع بعضها في تناغم وتناسق يوحي بان هذا القرآن ﴿**ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء.. وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون**﴾ يوسف/١١١.

فنجده يقول: (ويمكن أن نفهم المسألة فهماً آخر بأن نعتبر الإفسادة الأولى هي محاولاتهم الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية، وتسليط الله المسلمين عليهم وعلى ديارهم حول المدينة المنورة..).

والإفسادة الثانية هي الإفسادة الحالية، ويكون المسلمون الذين غلبوهم أول مرّة هم الذين سيغلبونهم المرة الثانية، إذا اجتمع لهم العبودية لله والبأس الشديد.. فيكون معنى الآيات: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب**﴾ أي في القرآن ﴿**لتفسدن في الأرض**

---

(١) يراجع الكلام عن عودة الضمائر في المبحث الثالث من هذا الفصل عن – صيغ الأفعال –.

(٢) الأساس في التفسير «٣٠٤٣/٦».

(٣) قلت: الوحيد في كتب التفسير لكن سبق الى هذا القول الشيخ عبد المعز عبد السلام من شيوخ الأزهر أورده الشيخ محمد سيد طنطاوي في كتابه القيم – بنو اسرائيل في القرآن والسنة – انظر «٣٧٨/٣».

مـــرتين ولـــتعلن علواً كبيراً﴾ أي لتطغن طغياناً كبيراً ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي الإفســـادة الأولى ﴿بعثـــنا عليكم عباداً لنا﴾ هم الصحابة ﴿أولي بأس شديد فجاسوا خـــلال الديار﴾ أي سيطروا عليها سيطرة تامة ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾، ثم بعد مئات الســـنين ﴿رددنا لكم الكرّة عليهم﴾ على المسلمين بأن جعلنا لكم الغلبة ﴿وأمددناكم بـــأموال وبـــنين وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ كما هم الآن فهم أغنياء ويستطيعون إستنفار العالم ضدنا ﴿إن أحسنتم﴾ بالدخول في الإسلام ومتابعة محمد ﷺ ﴿أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم﴾ برفض الإسلام ﴿فلها﴾ فنفع أعمالكم عائد إليكم ﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليســـوؤا وجوهكـــم﴾ أي فإذا جاء وعد الإفسادة الآخرة ليسوؤا المسلمون وجوهكم ﴿ولـــيدخلوا المســـجد﴾ أي الأقصى مستردينه منكم ﴿كما دخلوه أول مرة﴾ كما أخـــذوه الأخـــذة الأولى يـــوم فـــتح القدس عمر ﴿وليتبروا ما علوا﴾ وليهلكوا في علوهـــم﴿تتبيرا﴾ أي إهلاكاً ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ بأن يجعلكم مسلمين ﴿وإن عـــدتم﴾ إلى الإفساد في الأرض ﴿عدنا﴾ إلى التسليط عليكم كما سيفعل الله يوم يأتون مع جند الدجال ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا﴾ أي سجناً.

وفي قوله تعالى: ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ ما يقوى هذا الاتجاه في الفهم لأن الآيـــة تشير إلى أنهم كافرون، ولا نحكم بكفرهم إلا بعد رفضهم رسالة المسيح ثم محمد ﷺ..

فالإفسادتان متأخرتان على بعثة المسيح، وهذا الاتجاه يقويه إن كلمة ﴿عباداً لنا﴾ تُشـــعر بأنهم المسلمون فهم العباد الحقيقيون لله وكلمة ﴿وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة﴾ تُشعر بأنهم المسلمون فهم أصحاب المسجد وهم وإن لم يأخذوه من اليهود مباشرة فقد أخذوه ودخلوه المرة الأولى فاتحين.. وتكون الآيات مشيرة إلى ما ينبغي فعله لتحرير القدس وفلسطين؟ على أن يخوض المعركة مسلمون اجتمعت لهم – العبودية لله والبأس الشديد)[1].

---

(١) الأساس في التفسير «٦/٣٠٤٠ – ٣٠٤١».

أقول: والله يشهد أن هذا هو الحق وهو المستفاد من النص القرآني الوارد في صدر سورة الإسراء كما سيتبين لنا من خلال تحليل المفردة القرآنية ... ولعل مما تقتضيه الأمانة العلمية أن أذكر مسألتين أتمُّ بها ما بدأته..

المسألة الأولى:

إن هذا القول الذي رجّحه الشيخ سعيد حوى بأن المسلّط عليهم في الإفساد الأول (بختنصر) وأن الإفساد الثاني الذي نحن فيه اليوم والمرشحون للتسلط عليهم هم المسلمون قد قال بذلك أحد العلماء المحدثين هو الشيخ عبد الحميد جودة السّحار.. وقد ذكر ذلك في كتاب له سماه: (وعد الله وإسرائيل) تعرّض فيه لتفسير الآيات الواردة في صدر سورة الإسراء..

فبعد أن أورد الآيات من قوله تعالى ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل**﴾ إلى قوله ﴿**وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً**﴾.

قال معلقاً: (جاس بختنصر خلال فلسطين وحمل اليهود سبايا إلى بابل، ودخلوا المسجد أوّل مرّة بعد ذلك في أيام قورش، وطُردوا من القدس في أيام الرومان بعد أن فسدوا في الأرض وتحقق وعد أولاهما..

ثم يقول: (ورحت أنقب في تاريخ بني إسرائيل بحثاً عن دخولهم مرّة ثانية فلم أجد غير هذه المرّة التي دخلوا فيها بيت المقدس بعد العدوان الثلاثي الجديد، عدوان إسرائيل وأمريكا وإنجلترا على العرب..

ثم قال: (وقد اطمأنت نفسي إلى أن ذلك العدوان هو الذي قصده الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿**ثم رددنا لكم الكرة عليهم وامددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً..**﴾.

ثم قال: (فصارت إسرائيل بذلك أكثر عدة وعتاداً وأكثر نفيرا، وليدخلوا بيت المقدس وليصل إفسادهم في الأرض قمته ليجيء وعد الآخرة.. وعد المرة الثانية، المرّة التي يدخل فيها العرب فلسطين ويطردوا منها بني إسرائيل ويهلكوهم هلاكاً جزاء وفاقا على علوهم في الإفساد)[1].

---

(١) وعد الله وإسرائيل – عبد الحميد جودة السحار «ص/٥-٦» دار مصر للطباعة.

لكننا نعتب عليه حين تعرّض لما قاله المفسرون فقد خانه التعبير حين قال (وعدت إلى تفاسـير القـرآن الكريم لأرى ما قال المفسرون في تلك الآيات التي جاءت في صدر سورة الإسـراء - قـال - (فوجـدت تخبطاً كبيراً) كذا قال أيضاً في موضع آخر: (وقال بعض المفسـرين - إن الإفساد الأول كان أيام بختنصر. وان الإفساد الثاني كان أيام صلاح الدين الأيـوبي.. وأيام صلاح الدين الأيوبي كان اليهود مشتتين في الأرض و لم تكن لهم دولة في القدس.. ثم قال: (وسأسوق نموذجاً من هذه التفسيرات للدلالة على تفاهتها جميعاً)[1].

ثم قال: (إن الآيات الكريمة لا يمكن أن تفسر إلا بعودة بني إسرائيل إلى القدس ثم بطـردهم مـنها ليكون في ذلك إذلال لهم وإمعان في الهوان وقد عادوا إليها هذه المرّة فأصبح على العرب أن يجمعوا صفوفهم على قلب رجل واحد.. ولقد دخل موشي ديان على أكتاف بني إسرائيل وكانت هذه ثاني مرة يدخل فيها اليهود المسجد الأقصى• بعد المـرّة الأولى التي أجلاهم عنه بختنصر أعادهم إليه قورش إمبراطور الفرس، ليتحقق وعد الله ولـيُهلك المؤمـنون بعد ذلك بني إسرائيل هلاكاً ما بعده هلاك فقد قال الله تعالى: ﴿**فـإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً**﴾[2].

المسألة الثانية:

تـتعلق بما ذكره الشيخ سعيد حوى في تفسريه الأساس بما يخص هذه الآيات من إفسـاد بـني إسرائيل.. وما قاله المفسرون من عودة الضمائر إلى العباد واقتضاء اتحاد المـبعوثين أولاً وثانياً كما ذكر ذلك الآلوسي في تفسيره[3] مما جعل الشيخ سعيد حوى يورد احتمالين حول هذا الموضوع..

---

(١) المصدر السابق «ص/٦-٧».

• في الأصل «المسجد الحرام» ولعل الصحيح ما أثبته.

(٢) المصدر السابق «ص٩/١١١». «الواضح من كلام السحار أن أمر الدخول قد اختلط عليه فهو هنا ينسب الدخول الثاني إلى اليهود بينما الآية واضحة في تعيين الدخول الثاني إلى المؤمنين».

(٣) انظر تفسير الآلوسي «١٥-٢١» وانظر تفسير ابن عاشور كذلك «١٥/٣٧».

حيث قال: (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض كلها متفرقين، فإذا جاء وعد الإفسادة الثانية جئنا بكم إلى أرض فلسطين، وعندئذ نسلّط عليكم من سلطناهم عليكم من قبل، فإن كان بختنصر مسلماً فالمسلطون الجدد هم المسلمون بإطلاق، وان لم يكن كذلك فالعراقيون خاصة وهم المسلمون بفضل الله.. ثم قال: هذا احتمال نفهم على ضوئه الآيات فيكون معناها ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب.. لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيراً، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد**﴾ هم بختنصر وجنده ﴿**فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً. ثم رددنا لكم الكرّة عليهم**﴾ بعد مئات السنين بأن جعلنا لكم الغلبة حتى إذا دخلتم في صراع معهم غلبتموهم، كما حدث إذ غلب المسلمون ومنهم العراقيون حقيقة أو حكماً في الصراعات الحالية ﴿**وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً**﴾ كما هو الحال الآن، إذ تستطيع دولة إسرائيل أن تحشد جيشاً كبيراً وتستنفر العالم من ورائها ﴿**إن أحسنتم**﴾ خلال هذه الفترة ﴿**أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم**﴾ أي ليسؤ العراقيون خاصة والمسلمون عامة ﴿**وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علو تتبيراً عسى ربكم أن يرحمكم**﴾ بالدخول في الإسلام، وإن عدتم إلى العلو والإفساد ﴿**عدنا**﴾ إلى التسليط ﴿**وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً**﴾[1].

يفهم مما سبق أن فضيلته يورد احتمالين هنا في كون المسلّط على بني إسرائيل في فسادهم الأول هو بختنصر فإذا كان:

أولاً: بختنصر مسلماً فالمسلطون عليهم في الإفساد الثاني هم المسلمون بإطلاق.

ثانياً: إذا لم يكن كذلك ولأنه من بابل فالمسلطون عليهم في الإفساد الثاني هم العراقيون.

وقد ذهب إلى هذا المنحى الدكتور أحمد الكبيسي ذكر ذلك في مقال[2] بحث فيه جانباً من جوانب الإعجاز القرآني ومنه آيات الإسراء التي تحدثت عن فساد بني إسرائيل في الأرض.

---

(١) الأساس في التفسير «٦/٣٠٤٠».

(٢) بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني المعقود ببغداد ١٩٩٠م.

فأما عن الأول فلا دليل أن بختنصر كان مسلما فحقائق التأريخ تثبت أنه من بابل التي كانت تدين بالوثنية والشرك... وقد اعترف الشيخ حوى في تفسيره بذلك حيث قال عن بختنصر وقومه وعن الرومان (فإذا قال قائل ولكن هؤلاء غير أولئك يقال: لكن يجمعهم وصف الوثنية، وكل منهم قد سيطر ودخل المسجد الأقصى عاتياً)[1] ثم أعاد هذا الوصف مرّة أخرى في نفس الصفحة..

فاعتراف الشيخ حوى بوثنية بختنصر يبطل قوله الأول.

أما عن القول الثاني فمادام بختنصر عراقياً فالمرشحون لان يكونوا هم المسلطون على بني إسرائيل هم العراقيين كلام يحتاج إلى إعادة نظر..

لذلك نعتقد.. إن إعادة النظر مرّة بعد مرّة في قوله تعالى: ﴿**بعثنا عليكم عباداً لنا**﴾ تتيح لنا رؤية أعمق وأشمل. «فالعباد» لفظ يحمل بين طيّاته معان يختص بها لا تجدها في غيره من الألفاظ.. فالعباد[2] هم المخلَصون الذين اصطفاهم الله واختارهم على علم عنده، ثم لم يكتفي بهذا وإنما نسبهم إلى نفسه سبحانه على جهة الإختصاص فقال: (لنا.. عباداً لنا) بلام الاختصاص ونون العظمة..

وليس في اللفظ ما يدلّ على صرفهِ إلى آخرين لم تتوفر فيهم تلك الخصوصية التي لا تكفيها - لو أريد شرحها - مجلدات...

وليس من الإنصاف أن يُترك هذا اللفظ فلا يبحث عن معانيه ودلالته ومقتضاه ويطلق هكذا بلا تدّبر ودون الإستعانة بقرينةٍ تسوغ إطلاقهُ على ما لم يحتمله من معان.

مع العلم أن أسباب صرف هذا اللفظ عن معناه لا صحة لها.. فلقد ثبت من خلال تأكيد بعض المفسرين وحقائق التاريخ الثابتة والمعطيات القرآنية التي سنذكرها فيما بعد وقد ذكرنا طرفا منها ضمنا بان القول بتسليط بختنصر باطل أصلاً وما بني على باطل فلا قيمة له.

ومع هذا نقول إن ردّ نسبة البعث إلى قوم معينين يسكنون في بلد ما أو زمن ما دون بيان عقيدة هؤلاء القوم وموقفهم من دين الله فليس من طبيعة هذا القرآن..

---

(١) انظر الأساس في التفسير «٣٠٤٣/٦».

(٢) يراجع معنى العباد في المطلب الثاني من المبحث الثاني من هذا الفصل.

فما أنت واجد في القرآن اهتماماً واعتزازاً وتشريفاً لقوم لا يدينون دين الحق وهم ليسوا من عباد الله الصالحين...

﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ الحجرات/١٣. ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا**﴾ الحجرات/١٥. ﴿**الله ولي الذين آمنوا..**﴾ البقرة/٢٥٧. وكثير من الآيات تثبت إن التقدير والتقييم إنما هو للإيمان ولحقيقة الولاء وحسن الإتباع مهما كان هذا الإنسان من أي بلد أو أرض أو جنس أو لون أو نسب كان، فان القاعدة ﴿**إن أكرمكم عند الله اتقاكم**﴾.

وأنا لا أنقص من قدر العراقيين فأنا منهم ولكن الله أذهب عنا نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء..

بل إني لأعتز به لا لكونه وطني فحسب بل لأن رسول الله ﷺ بشرَ بأن الذين سيبايعون المهدي في حروبه ضد الدجّال صنفين من الناس هم - أفذاذ الشام وعصائب أهل العراق - [١]..

وعصائب جمع عصبة: والعصبة جماعة متعاضدة ومنه قوله تعالى ﴿**ونحن عصبة**﴾ أي جماعة شديدة[٢].

هذا من جانب ومن جانب آخر.. إن إيماننا بأن هذا القرآن حق وأنه من عند الله لم يكن لينطلق من منطلق الأرض أو الجنس أو اللون أو حتى اللغة، تلك ربما كانت من جذور العصبية التي أمرنا أن نتركها وأن يكون منطلقنا عقيديا على أساس الإيمان بالله والإتباع لرسول الله والولاء لهذا الدين...

ولو قُدّر أن يتعرض لليهود قوم يُختارون على أساس الأرض أو القوم لكانت عشيرة النبي وأهل بيته الذين حُرّمت عليهم الصدقة لتشرفهم برسول الله ﷺ أو لكانوا أهل المدينة إكراما لرسول الله - بل إن الأمر لأبعد من هذا..

---

(١) الحديث رواه أبو داود في أخبار المهدي انظر «١٠٧/٤» - كتاب المهدي باب/١ رقم الحديث ٤٢٦٦.

(٢) انظر مفردات الراغب الآصفهاني «ص/٣٣٦».

لقد أورد الإمام ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى ﴿**وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم**﴾ حديثا قال عنه: روى الإمام البخاري، عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت علينا سورة الجمعة ﴿**وآخرين منهم لما يلحقوا بهم**﴾ قالوا من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سُئل ثلاثاً وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال: «**لو كان الإيمان عند الثريا لنا له رجال - أو رجل - من هؤلاء**»[1]..

ففي هذا الحديث دليل على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس لأنه فسر قوله تعالى ﴿**وآخرين منهم**﴾ بأهل فارس.. [2].

فربما لو قال أحد - إستناداً إلى هذا الحديث - إن أهل فارس هم المرشحون لأن يسلطون على بني إسرائيل في الإفساد الثاني هل يعيب عليه أحد هذا القول؟ بل ربما لكان أصح وأنسب لان الذي فسّر هذه الآية وقال بهذا هو النبي ﷺ.

فما بال أقوام يصرفون معنى العباد إلى العراقيين ليس إلا لأن بختنصر كان عراقيا ويترك إسلام العراقيين وإيمانهم أليس هذا تحميل للنص القرآني أكثر مما يحتمل؟؟

يقول ابن عاشور في تفسيره: (قال شرف الدين الطيبي في شرح الكشاف في سورة الشعراء..) شرط التفسير الصحيح أن يكون مطابقا للفظ من حيث الاستعمال سليما من التكليف، عرياً من التعسف، وصاحب الكشاف يسمي ما كان على خلاف ذلك «بدع التفسير»[3].

قلت: أفليس حمل لفظ ﴿**عباداً لنا**﴾ على قوم أمثال بختنصر وغيره لا لشيء إلا لأنهم عراقيون؟ من التكليف في التفسير؟ والتعسف فيه؟ وأنه بالتالي من بدع التفسير؟

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة الجمعة انظر عمدة القارئ «٢٣٥/١٩ - رقم الحديث/٣٩١». وانظر صحيح مسلم بشرح النووي هامش إرشاد الساري «٤٣٥/٩».

(٢) انظر تفسير ابن كثير «٤٣٦٣».

(٣) تفسير ابن عاشور «٣٠/١».

وأيــن قــيم الإيمان إذاً؟ وأين معاني العباد في القرآن ومقتضيات مطابقة استعملها في الوضع؟...

إن هــذا القول إنما بُني على قول آخر ضعيف فكيف يثبت ؟ إن الإيمان والإسلام والحــق بريئون من بختنصر، وأن العراقيين إذا توفر فيهم شرطان - العبودية الصادقة لله والبأس الشديد فهم - مع كل من شاركهم بهذين الشرطين - مرشحون لأن يكونوا هم المسلّطون على بني إسرائيل في إفسادهم الثاني.

وذلــك كما أشار إليه صاحب الأساس بقوله: (ويكون المسلمون الذين غلبوهم أول مرّة هم الذين سيغلبونهم المرّة الثانية، إذا اجتمع لهم العبودية لله والبأس الشديد...).

ويقول في موضع آخر:.. (على أن يخوض المعركة مسلمون إجتمعت فيهم العبودية لله والبأس الشديد...)[1].

أقول:.. إني على يقين أن ذلك مما كان - وسيكون - لأننا أولى أن نؤمن بهذا. ممــن آمــن بــه من علماء بني إسرائيل الذين سيبكون و﴿**يخرون للأذقان سجّداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً**﴾ الإسراء / ١٠٨.

❁ ❁ ❁

(١) انظر الأساس في التفسير سعيد حوى «٦/٣٠٤٠ - ٣٠٤١».



إفسادا بني إسرائيل كما أوحت بهما المعطيات القرآنية

تمهيد:

أما قبل ...

فلعـــنا نعذر أهل التفسير ممن تعرّضوا لهذه القضيّة - قضيّة إفساد بني إسرائيل - وحكموا على مجرياتها بما حكموا عليه.. وكما ورد في تفاسيرهم من الأمور الآتية..

١- إن أقوالهــم في معالجــة هــذه القضية وتفسيرها اعتمدت في غالبها على التفسير بالمــأثور،... ومخالفة المفسّر القديم لواقعة تاريخية حصلت بعده أو بروز أمر جديد اســتدعى الــنظر في الآيــات التي بنيت عليها تلك القضية.. أو ظهور بعد آخر للموضوع الذي تعرّضوا له ونتعرض له نحن..

إن كـــل هذا أمر مألوف ومعهود وليس فيه أي مأخذ، بل هو من قبيل الاجتهاد المأمور به شرعاً...

٢- إن طبــيعة الــنص القــرآني، وخصوصية معالجته لقضية بني إسرائيل تتيح لنا مجالاً خصباً لتفسير الآيات التي أنبئت بفسادهم في ضوء المستجدات الحاصلة لهم... ومن خلال تأثير هذه المستجدات علينا بما لا يخرج عن ضوابط الفهم القرآني السليم.

٣- لا يوجد في القرآن الكريم ما يمنع من إعادة وإمعان النظر في مسألة بني إسرائيل ولا في السنّة التي بين أيدينا على سعتها بل أن الأغلب الأعم - إن لم يكن كله - إنما هو من الآثار المرفوعة إلى بعض الصحابة أو الموقوفة على التابعين مما نقلوه عن أهل الكتاب.

ومـــن المعلوم الذي قاله أهل التفسير أن قول التابعي لا يلزم الأخذ به في التفسير خصوصاً إذا اختلفت الأقوال واضطربت مع صحة السند الذي جاء بها.. فكيف وأغلبها مما ضعف سندها؟.

٤- لا يفهم مما تحصل من خلال تحقيق الروايات أنّ كل ما قاله المفسرون مرفوض جملةً وتفصـــيلاً فهذا شيءٌ غير معقول ولا قصدناه أبداً بل لا يحقُّ لنا ذلك فان الكثير مما قـــالوه في مجـــال اللغة وإيراد المعنى إنما كان صواباً لأنهم - وهذا حق - إنما كانوا أســـاطين العـــلم في اللغة والبيان وكذلك في التفسير والتأويل... بحيث أنهم كانوا بحوراً من العلم وجبالاً في التقوى.. (ولكن الذي كان منهم من باب حرصهم على

التفسير بالمأثور هو اعتمادهم على ما وصل إليهم من روايات ضعيفة وأخبار إسرائيلية في تفسير هذه الآيات إعتماداً بلغ حداً أهملوا معه النظر في المفردة القرآنية نظراً أشمل وأعمق مما كان ...

وكذلك عدم إعطاء هذه الآيات حقها من الدراسة في مجالات عديدة كالوحدة الموضوعية للسورة مثلاً ... أو علاقة هذه القضية بما جاء في غير سورة الإسراء من أخبار عن إفساد بني إسرائيل ... أو حصر هذه القضية في التأريخ الماضي دون الحاضر - المعاصر للنبي - أو المستقبل أي الزمن الذي نعيشه اليوم..

٥- إنه لا بد من الاعتراف بأنهم كانوا أحرص الناس على أن لا يقولوا في كتاب الله بغير علم - وحاشاهم - فهم لم يألوا جهداً ولو بسيطاً في تحرّي الأقوال للوصول إلى المعنى المقصود ولكن تلك مشيئة الله سبحانه في أن جعل لكل جيل حظه من العلم وحظه من فهم القرآن... فهذه الآيات التي تعرّض لها المفسرون لم تكن لزمانهم وإنما لزماننا هذا الذي لم يدركوه..

والله وحده يعلم ما كانوا سيقدمونه لنا لو أدركوه وكانوا بيننا.. وهذه مسألة من الأهمية بمكان.. سأبينها باختصار شديد...حتى لا يُساء فهمي ...

إن الله سبحانه وتعالى أنزل هذا القرآن على رسوله ﷺ ونزّله منجماً.. ليثبّت به فؤاده وليقرأه على الناس على مكثٍ وتدبّر فكان منه آيات إنما جاءت لتنبئ عما جرى وكان في ماضي الزمان لتكون فيها موعظة وعبرة.

ومنها آيات جاءت لتعالج الواقع المعاصر لنزوله، ومنها ما جاءت أخباراً لما سيكون في المستقبل.

* / فآيات تنزل لتخبر عن الماضي - للعبرة والموعظة - كقوله تعالى: ﴿**وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين فتولى بركنه**﴾ الذاريات/٣٩. ﴿**وقلنا لهم لا تعدوا في السبت**﴾ النساء/١٤٥. ﴿**ورفعنا فوقهم الطور**﴾ النساء/١٥٤.

* / وآيات تنزل لتعالج الواقع ولتوجه النبي ﷺ والمؤمنين كيف يتعاملوا مع بعضهم أو مع بني إسرائيل وغيرهم من الكافرين والمنافقين ﴿**قل يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون**

بآيات الله﴾... ﴿**ويسألونك عن الروح**﴾ الإسراء/٨٥. ﴿**سل بني إسرائيل**﴾ البقرة/٢١١ ﴿**فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم**﴾ الأنفال/١ ﴿**لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى**﴾ النساء/٤٣. ﴿**فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها**﴾ الأحزاب/٣٧. ﴿**يسألك أهل الكتاب**﴾ النساء/١٥٣.

* / وآيات نزلت ليست للزمن الماضي ولا المعاصر لتروها ولكنها للمستقبل الذي سوف يأتي دون شك. ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾ القمر/٤٥ الآية مكية وعمر يسأل أي جمع هذا؟.

قال ابن كثير (روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾ قال عمر: أي جمع هذا ؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول! ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾ فعرفت تأويلها يومئذ)[1].

وقد أورد السيوطي في الدر المنثور (عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿**لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾ قالوا يا رسول الله: أي نعيم نُسأل عنه وسيوفنا على عواتقنا والأرض كلها لنا حربٌ يصبح أحدنا بغير غداء ويمسي بغير عشاء ؟ قال: عُني بذلك قوماً يكونون بعدكم، أنتم خيرٌ منهم يُغدّى على أحدهم بجفنةٍ ويراح عليه بجفنة ويغدوا في حلّةٍ ويروح في حلّة، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة ويفشو فيهم السمن)[2].

قرآن ﴿**بالحق نزل ...**﴾ للماضي والحاضر والمستقبل ...

ومنه دون شك ﴿**لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً... فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾ لماذا؟ ﴿**ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة.. وليتبروا ما علوا تتبيرا**﴾ كما سنرى إن شاء الله تعالى.

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٤١٣/٣.

(٢) الدر المنثور للسيوطي ٣٩١/٦ وانظر كتاب الورع عن الإمام أحمد بن حنبل لأبي بكر المروزي تحقيق محمد زغلول ص/١٤٠.

٦- إن كل ما قاله المفسرون في قضية إفساد بني إسرائيل مما كان مخالفاً للحقائق التأريخية الثابتة إنما ينبغي أن يعذرون فيه وقد أثيبوا عليه ولا شك فاهم اجتهدوا قطعاً في فهم المـــراد مـــن هذه الآيات ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام نصوص لم يبلغهم عنها من رسول الله ﷺ شيء وإنما بلغهم عمن أسلم من أهل الكتاب أشياء.

وعدم بيان النبي ﷺ لها لا يعني - قطعاً - إن ذلك إخلال في مهمته التي أخبر الله تعالى عنها في كثير من آياته والتي منها ﴿**ونزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم..**﴾ وإنما ترك هذا البيان لله في الزمن الذي سيجيء محتاجا إليه وهذا من إعجاز القرآن الذي لا يخفى عمن علم وفهم ...

وعـــلى هـــذا الأســـاس فإن التعرّض لتفسير هذه الآيات أو التعامل معها تعاملاً موضـــوعياً وإيجابـــياً في غير ما قاله المفسرون لا يعني مخالفة المفسرين فيما ذهبوا إليه أو الخـــروج عـــنه بـــالمعنى المذموم وإنما هو التفاعل مع هدي القرآن والتعامل مع نصوص الآيات التي أنزلت على النبي محمد ﷺ، بينما هي تناسب زماننا وتطابق حركة الإسلام في الواقع الذي نعيشه اليوم مع أعداء هذا الدين عامة والمفسدون من بني إسرائيل خاصة، هـــذه هي القضية التي ينبغي أن لا تغيب عن أنظار من يتعامل مع القرآن تفسيراً وتحليلاً حسب اعتقادي في زماننا هذا.

إن سورة الإسراء تميّزت عن غيرها من السور المكية إذ أنها جاءت بشيء جديد لم تأت به سورة غيرها فيما يخص مستقبل بني إسرائيل وعاقبة إفسادهم في الأرض.

وإنـــك لتجد في بعض أقوال وتلميحات بعض المفسرين (يحتمل أن يكون معناها كـــذا... ربما نزلت في كذا... ويجوز أن يكون المقصود منها كذا) ما يوحي إلى عدم اطمئنان بعض المفسرين إلى ما وصل إليهم من أقوال وتفسيرات غالبها من الإسرائيليات.

والحقيقة أن هذه الآيات ما جاءت لتخبر عما مضى من الزمان، أو لمعالجة الواقع المعاصـــر لنـــزولها.. وان كانت داخلة في إطار معالجتها له من خلال شمولية النصوص واتساع دائرة المعنى للزمن والمكان المعاشين.. ولكنها في الأغلب الأعم إنما جاءت لترسم المـــنهج الذي ينبغي على الأمة السير عليه في معالجة ومواجهة إفساد بني إسرائيل الذي

سيكون - مستقبلاً - في الأرض. ولتحكم حركة أصحاب هذا الدين من خلال تربيتهم.. وتأهيلهم ليكونوا بالمستوى المطلوب في ﴿**عباداً لنا أولي بأس شديد**﴾ لتحقيق العقوبة الثانية على إفسادهم الأخير في الأرض واستعلائهم فيها في الزمن الذي لم يعاصره المفسرون وما أدركوه.

ولما تقدم أقول...

إن من أهم الأسباب التي جعلتني أعكف على دراسة هذه الآيات المتعلقة بإفسادي بني إسرائيل والتي اضطرتني إلى أن أدرس الروايات التي جاءت بها من ناحية الأسانيد أو الطرق الذي أوردها الإمام الطبري ومن ناحية الأساس التأريخي الذي اعتمدت عليه هذه الروايات والذي يبدو - والله اعلم - أنه مستقى أصلاً من التوراة بصورة أو بأخرى..

قلت من أهم الأسباب.. هي:

١- عدم وجود شيء صحيح عن رسول الله ﷺ في هذا الشأن - وهذا ثابت - إلا حديثاً موضوعا أنكره ابن كثير كما قدمنا.

٢- إن أغلب ما ورد إلينا إنما كان مرفوعا إلى صحابي أو موقوفا على تابعي ومعلوم أن أقوال التابعين - إذا اختلفت - ليست بحجة فكيف إذا اختلفت في التفسير وكان مصدرها النقل عن أهل الكتاب؟.

٣- مخالفة الواقع التأريخي المعاش لكل ما قاله المفسرون وموافقته لكل المعطيات القرآنية والتي تحصلت من خلال دراسة العبارة القرآنية دراسة دقيقة وشاملة ومن خلال التركيز على مطابقة المفردة القرآنية لمعناها في اللغة وفي موقعها من القرآن أيضاً وانطباق الواقع التأريخي الثابت لذلك المعنى الذي جاء به القرآن فعلى هذا برزت معطيات قرآنية ثرّة - بفضل الله تعالى - كما سنرى فيما سيأتي.. إن شاء الله.

المبحث الأول

الإفساد الأول والعقوبة عليه

المطلب الأول:

تحقق مقومات الإفساد الأول.

أولاً: نفي الماضي واقتضاء المستقبل.

ثانياً: العلاقة بين الوعدين.

ثالثاً: صيغ الأفعال ودلالتها.

المطلب الثاني:

تحقق مقومات الوعد الأول.

أولاً: معنى البعث وحتميته.

ثانياً: أهم صفات المبعوثين.

المطلب الأول

تحقق مقومات الإفساد الأول

أولاً: في نفي الماضي ... واقتضاء المستقبل ... في قوله تعالى:

... ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ ...

قال النحاة ومنهم ابن هشام:

إن «إذ وإذا» من حالاتهما أنهما تستعملان في الإخبار عن ظرف الزمان - الماضي والحاضر والمستقبل.

قال ابن هشام إن، إذ - تأتي على أربعة أوجه منها..

أن تكون إسماً للماضي[1].. وفي هذه أيضاً لها أربع حالات... أهمها..

أن تكون- ظرفاً للماضي وهو الغالب.. كقوله تعالى ﴿**إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا**﴾ التوبة/٤٠.

فدل الفعل الذي تلاه على الماضي لفظاً ومعنى..

وقال: «وزعم الجمهور أن - إذ - لا تقع إلا ظرفاً أو مضافاً كقوله تعالى ﴿**واذكروا إذ كنتم قليلاً**﴾ الأعراف/٨٦. ظرف لمفعول محذوف.. أي - واذكروا - نعمة الله عليكم - إذ كنتم قليلاً».

وقد ذكر ابن هشام الأوجه الثلاثة الباقية وقال عقب الحديث عن كل وجه عبارة «والجمهور لا يثبتون هذا القسم» مما يدل على ترجيح الوجه الأول الذي ذكرناه...

وعن بعض استعمالاتها التي قد يعتقد أنه للمضارع..

قال ابن هشام:

«قد تلزم الإضافة إلى جملة إما ...

---

(١) جاء في معني اللبيب «إن - إذ - كلمة تدل على ما مضى من الزمان وهو اسمٌ مبني على السكون وإن - إذا - اسم يدل على زمان مستقبل و لم تستعمل إلا مضافاً إلى جملة». انظر ١/٨١ ١/٨٤.

١ / اسمية كقوله تعالى: ﴿**واذكروا إذ أنتم قليل**﴾ الأنفال/٢٦.

٢ / أو فعليّة فعلها ماضٍ لفظا ومعنى.. نحو ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربه**﴾ البقرة/١٢٤.

٣/ أو فعلية فعلها ماضٍ معنى لا لفظاً نحو ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد**﴾ أي وإذ رفع إبراهيم..

وكذلك ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا**﴾ الأنفال/٣٠.

يعني «إذ مكر بك الذين كفروا..»[١].

وهي لا تأتي للمستقبل إلا إذا دخلت عليها «ما» فتكون «إذ ما» حينئذ أداة شرط تجزم فعلين وهي حرف عند سيبويه بمنزلة «إن الشرطية» وظرف عند المُبّرّد[٢] وغيره.. كقولك: «إذ ما أتيت الرسول فقل له» أي مستقبلاً.

* هذا عن – إذ –...

* أما عن – إذا – فإنها تأتي على وجهين..

الأول – أن تكون للمفاجئة –.

فتختص بالجمل الإسمية ولا تحتاج إلى جواب، ولا تقع في الابتداء، ومعناها الحال – خاصة – لا الإستقبال.. نحو قولك: «خرجت فإذا الأسد بالباب» وقوله تعالى: ﴿**فألقاها فإذا هي حيّة تسعى**﴾ طه/٢٠.

قال ابن هشام:

«ولم يقع الخبر معها في التنزيل إلا مصرحاً به[٣] – أي الحال – نحو ﴿**إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون**﴾ يس/٢٩ – أي حال الصيحة – نحو ﴿**فنزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين**﴾ الشعراء/٣٣ أي وقت إخراجها..

الثاني – أن تكون لغير مفاجأة، فالغالب أن تكون ظرفاً للمستقبل مضمنة معنى الشرط، وتختص بالدخول على الجملة الفعلية – عكس الفجائية –..

---

(١) انظر مغني اللبيب ١/٨٤.

(٢) مغني اللبيب لابن هشام ١/٨٧.

(٣) مغني اللبيب لابن هشام ١/٨٧.

وقـــد اجتمعـــتا في قولـــه تعالى: ﴿ **ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض**[1] **إذا أنتم تخرجون**﴾ الروم/٢٥.

ويكون الفعل بعدها ماضياً كثيراً ومضارعاً دون ذلك[2].

فالفعل – دعاكم – ماضٍ لفظاً مستقبل معنى..

وكذلك قوله تعالى: ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما.. بعثنا**﴾.

فالفعل – جاء – ماضٍ لفظاً مستقبل معنى.

قـــال ابن هشام في بيان أن – إذا – تحصر في المستقبل – غالباً – كما هو مذهب الجمهـــور فقـــال: والجمهور على أن «إذا» لا تخرج عن الظرفية – وأن حتى في نحو: ﴿**حتى إذا جاؤوها**﴾ فإنها تعتبر حرف ابتداء دخل على الجملة بأسرها ولا عمل له..

وقـــال.. وإذا جـــاءت بعـــد القسم فإنها للحال كما في قوله تعالى ﴿**والنجم إذا هـــوى**﴾ الـــنجم/١، لأن القسم هنا إنشائي لا خبري.. وهو قسم الله القديم.. والحال والاستقبال متنافيان[3].

وتقديـــر معناه (إذا هوى النجم فأقسم... ما ضلّ صاحبكم) فهو ليس للمستقبل كما قد يظن..

ولذلك قال الراغب: (إذا يُعبر به عن كلّ زمان مستقبل وقد يضمن معنى الشرط فـــيجزم به.. وإذ يُعبر عن الزمان الماضي ولا يجازى به إلا إذا ضمَّ إليه «ما» نحو «إذ ما أتيت الرسول فقل له)[4] *

---

(١) ويراد به الاستقبال.

(٢) مغني اللبيب ٨٧/١.

(٣) المصدر السابق ٩٤/١-٩٥ بتصرف.

(٤) انظر مفردات الراغب الأصفهاني ص/١٥.

* ولقد جاءت كل من «إذ» و«إذا» في آية واحدة فكانت في أجمل وأروع تعبير وفيه من التصوير الفني ما لا يكفيه صحائف الدنيا وذلك عبر قوله تعالى: (والليل إذ أدبر... والصبح إذا أسفر) الفجر/٣٤. فعبر عن ذهاب الليل الذي مضى أو يكاد ودخوله في حيز الماضي بـــ «إذ» وعن الصبح الذي يكاد يسفر بالإشراق بـــ «إذا» أي سوف يسفر.

وقـول الراغب آنفاً «وقد يضمن إذا – معنى الشرط فيجزم به» يوافق ما قاله ابن هشام آنفاً فالغالب أن تكون ظرفاً مضمنة معنى الشرط..

مـن هـذه المقدمة – النحوية – نستطيع أن نقول أن مجيء «إذا» في قوله تعالى: ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما – بعثنا**﴾ .

إنما لحكمة ومناسبة لها دورها في العطاء القرآني لا يصح إهماله هنا وهو الإخبار عـن المستقبل الواقع لا محالة فقوله: ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما**﴾ قال أهل اللغة الفاء هنا تفيد الترتيب مع التعقيب.. و«إذا» هذه التي هي ظرف للمستقبل ومضمنة معنى الشرط جاء بعدها فعل ماضٍ لفظاً لكنه مستقبل معنى وهو (جاء) فكون هذا الفعل جاء بعد إذا يعني أن المجيء لم يجييء بعد ...

وذلك لأسباب منها:-

١ / إن – إذا – هـنا جاءت ظرفاً للمستقبل – حصراً – كما قال ابن هشام – سابقاً..

٢ / أنهـا ضـمنت معنى الشرط أي إن المجيء بعدها كان مشروطاً بحدوث فعلٍ قبـلها وهـو الإفسـاد فإذا حدث الإفساد جاء الوعد عليه بالعقوبة لا محاله كجواب الشرط..

٣ / أنهـا جاءت مرتبطة بفاء التعريف التي تقتضي التعقيب وان ما قبلها يترتب عليه ما بعدها..

﴿**فإذا جاء وعد أولاهما.. بعثنا عليكم**﴾ تقديرها إن الإفساد الأول منكم إذا وقع فقد ترتب عليه مجيء الوعد بالعقوبة عليه وان الوعد بالعقوبة قد ترتب عليه بعث العباد عليكم ولذلك قال عنه ﴿**وكان وعداً مفعولاً**﴾.

قال الزمخشري: (يعني وكان وعد العقاب وعداً لابد أن يفعل)[1].

وقال عنه القاسمي:

---

(١) انظر الكشاف – للزمخشري ٢/٦٩٤.

(أي ما وعدوا به في المرّة الأولى.. يعني وعد المؤاخذة على أول المفسدتين)[1]

ويؤكد هذا المعنى ابن عاشور حيث يقول في تفسيره عن جواب إذا:

(عطف جملة «فجاسوا» فهو من تمام جواب «إذا» من قوله ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما**﴾ ومن بقية المقضي في الكتاب، وهو ماضٍ لفظاً مستقبل معنى، لأن «إذا» ظرف لما يستقبل وجيء به في صيغة الماضي لتحقيق وقوع ذلك..)[2] ولذلك قال عنه: ﴿**وكان وعداً مفعولاً**﴾.

كما قال الآلوسي في تفسيره: (وكان أي وعد أولاهما ﴿**وعداً مفعولاً**﴾ محتم الفعل)[3].

وخلاصة ما تقدم نقول:.. إنه لو كانت العقوبة على إفسادي بني إسرائيل قد وقعتا في الماضي - قبل الإسلام - لاستعمل القرآن حين الإخبار عنها ما يناسبها من اللفظ الذي يؤدي معناها في زمانها ولاختار الأداة التي تناسب ظرفها مثل «إذ» التي هي مختصة بالظرف الماضي كما يقول علماء اللغة وأهل التفسير.. إذ إن «إذ» لا تأتي للمستقبل إلا نادراً[4] وإنما هي مختصة بالظرف الماضي كما ورد ذلك في القرآن في كثير من إخباره عن الماضي وعن بني إسرائيل بالذات..

مثل قوله تعالى: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم**﴾ البقرة/٣٤.

وقوله: ﴿**وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم**﴾ البقرة/٦٧.

وقوله: ﴿**وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾ البقرة/٥٥.

وقوله: ﴿**وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم**﴾ الأعراف/١٦٤.

وقوله: ﴿**وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها**﴾ البقرة/٧٢. وغيرها كثير..

فلماذا حين أخبر عن فسادهم في سورة الإسراء لم يستعمل «إذ» إذا كان الإخبار عن الماضي؟ ولماذا لم يقل مثلاً: ﴿**وإذ قضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب**﴾ حكاية عن الماضي؟.

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٣٩٠٢/١٠.

(٢) تفسير ابن عاشور ص/٣١-٣٢.

(٣) تفسير الآلوسي ١٨/١٥.

(٤) وذلك في حالة واحدة عندما تدخل عليها «ما» كما ذكرنا من قبل.

إنه ليس الماضي أبداً .. إنما هو الحاضر والمستقبل..

وحين استعمل القرآن «إذا» إنما أراد أن يخبر عن عقوبتهم على فسادهم الأول الذي هم واقعون فيه والذي أصبحت نهايته وشيكة[1] وعن إفسادهم الثاني الذي سيحدثونه في المستقبل البعيد[2] وعن عقوبتهم عليه تلك العقوبة التي أيقن بها الذين أوتوا العلم منهم وحين تقع سيخرون إلى الأذقان يبكون..

أقول حين أخبر القرآن عن فسادهم وعن عقوبتهم عليه مرتين استعمل " إذا " التي هي مختصة بالمستقبل أولاً ...

ولكونها ضُمّنت معنى الشرط ثانياً ...

كما ورد ذلك في كثير من آيات القرآن مثل قوله تعالى: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح.. فسبح بحمد ربك واستغفره**﴾.

فاستعمل إذا هنا للإخبار عن نصر الله وفتحه الذي سيجيء في المستقبل فإذا جاء.. ﴿**فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا**ً﴾ النصر/٣.

وكقوله: ﴿**وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم.. فليستأذنوا**﴾ النور/٥٩.

يعني حين يبلغ الأطفال منكم الرشد - مستقبلاً - فليستأذنوا..

فمجيء الفعل «جاء» بعد «إذا» في قوله تعالى ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما**﴾، وفي قوله ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة**﴾:

(يعني أن المجيء لم يجيء بعد لأنه في المستقبل أولاً).

(ولأنه مشروط بوقوع الإفساد منهم ثانياً).

وفي هذا يقول الشيخ أسعد التميمي إن «إذا - أداة ظرفية تدل على إن الأمر سيقع في المستقبل، ولا علاقة لما بعدها بما قبلها.. فوجود كلمة «إذا» في الآية تدل على أن الإفساد والعلو ثم التدمير الأول آتٍ وأنه لم يمر»[3].

---

(١) كما سيأتي بيانه عند الحديث عن «فجاسوا».

(٢) سيأتي إثبات ذلك عند الحديث عن «ثم» التي تقتضي التراخي في الزمن والبعد فيه.

(٣) زوال اسرائيل حتمية قرآنية - أسعد بيوض التميمي ص/٣٥.

ثانياً.. في العلاقة بين الوعدين:

الناظر في دقة النص القرآني ممن كان له حسّ مرهف في تذوق التعبير القرآني يجد من خلال العطاءات القرآنية التي نتعرض لها إن لهذه النصوص حيوية وحركة تصور حوادث وأحداثاً وترسم مواقف وشخوصاً يتبين من خلال تدبرها كيف أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عند غير الله...

وصدق صاحب الظلال حين يقول: (إن النص القرآني ليس كتاباً للتلاوة ولا للثقافة.. إنما هو رصيد من الحيوية الدافقة وإيحاء متجدد في المواقف والحوادث.. ونصوصه مهيأة للعمل في كل لحظة متى وجد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب.. ووجد الظرف الذي يطلق الطاقة المكنونة في تلك النصوص ذات السرّ العجيب)[1].

وعما نحن بصدده من الحديث عن العلاقة التي يكشفها النص بين الوعدين - الوعد الأول في قوله تعالى: ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما**﴾ وبين الوعد الثاني في قوله تعالى ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة**﴾.

نقول لماذا حين استعمل القرآن عبارة ﴿**وعد أولاهما**﴾ عن الأول منهما لم يستعمل عبارة «وعد ثانيهما» أو «فإذا جاء الوعد الآخر منهما» عند إخباره عن العقوبة الثانية على فسادهم الثاني؟..

نقول إن لذلك أهمية كبيرة.. فإن هناك فارقاً كبيراً بينهما بيّنه أهل اللغة فقالوا: إن كلمة «الآخِر» بكسر الخاء إنما هو ما يقابل به «الأول» أما كلمة «الآخَر» بفتح الخاء هو ما يقابل به «الواحد»[2]..

* فحين تقول - مثلاً - «هذا الأول» فينبغي - حين تخبر عن الثاني - أن تقول «وهذا آخِر» بكسر الخاء..

* أما حين تقول «هذا واحد» فحين تخبر عن الثاني ينبغي أن تقول «وهذا آخَر» بفتح الخاء.

---

(١) المنظور التأريخي في فكر سيد قطب - عماد الدين خليل ص/٩٢ وانظر الظلال ٢١/١٤٠.

(٢) انظر مفردات الراغب ص/١٣.

ولتوضيح ذلك نقول. حين أعطيك قلماً بشكل ولون معين فأقول لك «هذا واحد» فإذا أعطيتك غيره يختلف عنه بالشكل واللون فينبغي أن أقول لك: «وهذا آخَر» أي ثان لا يشبهه أما حين أكون لا أملك إلا قلمين متشابهين في الشكل واللون فحين أعطيك أحدهما أقول: «هذا أولهما» فإذا أعطيتك الثاني فينبغي أن أقول لك: «وهذا الآخِر» أي أنه من عين الأول ومثله..

* ويزيد العلامة ابن منظور هذه الحقيقة توضيحاً حيث يقول: (آخِر - هو الأول والآخر - هو الباقي بعد فناء خلقه - والظاهر والباطن) الحديد/٣.

* قال الليث - الآخِر - نقيض المتقدم والمتقدمة - بالكسر - والآخَر - بالفتح - أحد الشيئين - بمعنى غير - كقولك رجل آخَر - وثوبٌ آخَر.. فالذي في الكسر يكون من جنس الأول وفي الفتح يكون مختلفاً عنه.. والتأخر ضد التقدم.. والتأخير ضد التقديم.. ومؤخر كل شيء خلاف مقدمه.. وقوله تعالى ﴿**فآخَران يقومان مقامهما**﴾ المائدة /١٠٧.

* فسرّه ثعلب فقال: فمسلمان يقومان مقام النصرانيين يحلفان أنهما أختانا ثم لم يرتجع إلى النصرانيين..

* وقال الفرّاء: معناه أو آخرانِ من غير دينكم من النصارى واليهود.. وهذا للسفر والضرورة، لأنه لا تجوز شهادة كافر على مسلمٍ في غير هذا..

ويضيف - والأخرى والآخرة: دار البقاء - صفة غالبة - والآخرُ بعد الأول وهو صفة.. أي أخر كل شيء.. وأتيتك آخِرَ مرتين وآخِرَة مرتين..

* وقال ابن سيده [في آية الإسراء] - وعندي أنها المرّة الثانية من المرتين..

وقد تستعمل للبعيد حسّاً ومعناً ومكاناً وزماناً.. مثل - في حديث ماعز: إن الآخر قد زنى - وهو الأبعد المتأخر عن الخير..

ويقال: لا مرحباً بالآخر.. أي الأبعد..

جاء في الأثر: «إن المسألة آخر كسب المرء» أي أرذله وأدناه ويروى - بالمد - أي إن السؤال آخر ما يكتسب به المرء عند العجز عن الكسب..[1].

---

(١) انظر لسان العرب - لابن منظور ١/٢٩-٣٠.

فحـــين يصف القرآن الوعد الثاني بأنه «وعد الآخِرة» فإنه يريد أن يقول إنه من جنس ونوع الوعد الذي قال عنه ﴿**وعد أولاهما**﴾ وبعبارة أخرى إن العقوبة الثانية التي ســـيوقعها الله بهم بعد إفسادهم الثاني هي من نوع وجنس العقوبة التي أوقعها بهم بعد فسادهم الأول...

ونســـتطيع من خلال عقد مقارنة بين العقوبتين أن نتبين أوجه التشابه في مقوماتها ونتائجها.. من خلال ما رسمته الآيات وحددته نصوص القرآن..

الوعد الأول...	**الوعد الثاني...**
١) بعث عباداً لله أولي بأس شديد.	١) بعث عباداً لله – أمثال الأولين.
٢) جاســـوا خلال الديار – وقتلوهم وأجلـــوا كثيراً منهم وأورثهم الله أموالهم وديارهم.	٢) سيســـيؤون وجوههم بقتلهم وإذلالهم وإخــــراجهم ليس من المسجد فحسب وإنما من الأرض المقدسة كلها.
٣) دخلوا المسجد الأقصى أول مرّة.	٣) سيدخلون المسجد كما دخلوه أول مرّة.
٤) دمّروا وجودهم كقوة.	٤) سيدمرون كل ما علاه اليهود تدميراً.

وحـــين يكون هذا تكون العقوبة على الإفساد الثاني هي من نوع وجنس العقوبة الأولى عـــلى إفسادهم الأول.. وهذه قضية لها أبعادها في الاعتقاد والتصور ومن ثم في المواقـــف والتبعات.. لنا أمة الإيمان على وجه العموم ولنا – مؤمني الكرّة –على وجه الخصوص – فإن هذه القضية تشتمل على حقائق لا يجوز أن تغفل..

بـــل ينبغي أن تكون – جزءاً – من المادّة الحيّة التي ينبغي أن نربّي عليها الأجيال ومنها على سبيل الاختصار:

أولاً– إننا ينبغي أن ندرك إدراكا تاماً أننا في دور الكرّة[1] التي لبني إسرائيل علينا، وأنهم اليوم يركبون موجة الاستعلاء والتجّبر والطغيان في الأرض وقد جعلوا الإفساد في الأرض شريعة للناس..

(١) سنثبت هذا عند الحديث عن الكرة إن شاء الله.

ثانيـاً– إن انتهاء هذه الكرّة التي لهم علينا مرهونة بعودة المؤمنين إلى الله والى أن يكونوا في حالة ﴿**عباداً لنا**﴾ أي إفراد الله بالألوهية والربوبية وأن تكون العبودية لله وحده دون سواه..

إذ إن ذلك هو شرط الإمامة[1] التي ارتضاها الله لعباده ممثلة في أبينا إبراهيم الذي سمّانا مسلمين: ﴿**إني جاعلك للناس إماماً – قال: ومن ذريتي؟ ... قال: لا ينال عهدي الظالمين**﴾ البقرة/١٢٤.

وهو هو الذي أعز الله به أسلافنا الذين استحقوا به شرف النسبة إليه في قوله: ﴿**عباداً لنا**﴾ يوم أن بعثهم الله على اليهود – فجاسوا خلال الديار ثم – دخلوا المسجد – وكان وعداً مفعولاً بالنصر لهم..

ثالثاً– أجمع المفسرون كلهم قاطبة على أن القرائن والمؤشرات كلها تدل على أن من سيتعرض لبني إسرائيل في العقوبة الثانية إنما هم أمثال الذين تعرضوا لهم في العقوبة الأولى وهذه هي أهم حقيقة في هذه القضية.. حقيقة أن الله قدّر وشاء الله أن يكون هناك سابقون مقربون – ثلة من الأولين – وقليل من الآخرين – يُعصب بهم أمر هذا الدين.

ولقد رجّح الإمام ابن كثير أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿**ثلة من الأولين** ﴾ أي من صدر هذه الأمة، ﴿**وقليل من الآخرين**﴾ أي من [أواخر] هذه الأمة.. بعدما ضعّف القول الذي اختاره ابن جرير في أن يكون المراد بالأولين الأمم الماضية وبالآخرين هذه الأمة...

وقال «لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها»[2].

ولقد بين القرآن أن هذه حقيقة لا جدال فيها ولا مراء حين قال:

---

(١) شروط الامامة هو الايفاء بالعهد وهو الايمان بالله وحده رباً والهاً. انظر ما قاله ابن كثير في مختصر تفسيره ١/١٦.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤/٢٨٤.

﴿**هـــو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾ ثم قال بعدها معقباً ﴿**وآخرين منهم**﴾ فكما كان النبي رسولاً منهم ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم**﴾ البقرة/١٥١.

كان المؤمنون في آخر الزمان هم من المؤمنين في أول الإسلام فقال: ﴿**وآخرين منهم**﴾ غـــير أهـــم ﴿**لمـــا يلحقوا بهم**﴾ وحيث أن: ﴿**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾ الجمعة/٢-٤.

إذاً هـــم مـــنهم غير أهم (لمّا) يلحقوا بهم فأثبت أن المتأخرين هم من عين الأولين ولذلـــك استعمل «لما» التي تفيد «نفي الماضي وتقريب الفعل» - فكأن الآية تريد أن تقـــول إنه حين يأتي وقت مجيء الذين هم من الأولين لم يستخدم كلمة «سوف» التي تفـــيد المستقبل البعيد ولا حرف السين الذي يفيد المستقبل القريب وإنما استعمل «لما» الـــتي تفيد نفي الماضي وتقريب الفعل الذي هو «اللحاق بهم» أي بالذين بعث فيهم النبي ﷺ فكانوا من ثم ﴿**عباداً لنا أولي بأس شديد**﴾ فالذين عنتهم الآية بأهم ﴿**آخرين منهم**﴾ وقالت عنهم ﴿**لما يلحقوا بهم**﴾ قد فصلت بينهم فترة زمنية أرخت حبلها «ثم» التي هي لتراخي الزمن والمدَّ فيه.. فهم قادمون لا محالة ليلحقوا بمن كانوا هم السابقين المقربين.. ﴿**ثلـــة من الأولين وقليل من الآخرين**﴾ الواقعة/١٤. ﴿**عباداً لنا..أولي بأس شديد.. فجاسوا خلال الديار.. وكان وعداً مفعولاً..**﴾.

رابعاً- هناك حقيقة لا تقل أهمية عن سابقتها وهي إن مجيء الوعد الذي قالت عنه الآيات ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما - و - إذا جاء وعد الآخرة**﴾ له علاقة وثيقة بأمرين:

الأمر الأول: وقوع الإفساد في الأرض - وهذا ما يسميه أهل اللغة فعل الشرط - له علاقة بمجيء الوعد بالعقوبة عليه - كجواب الشرط.

الأمر الثاني: إن مجيء الوعد له علاقة ببعث العباد.. فإذا ما وقع الإفساد واستعلى وطغى أيقظ الحق الذي نام وسها إذ أن الباطل لا يقوم إلا في غفلة الحق.. فإذا ما صحا الحق بعث الله به أصحابه فكانوا عباداً لله وحده ألو بأسٍ شديد فانزلوا العقوبة بمن طغوا وعلوا على الناس علواً كبيرا فكانوا من المفسدين...

وتلك سنة الحق التي لا تتبدل إنها: ﴿**سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا**﴾ ...

ثالثاً- في صيغ الأفعال ودلالتها:

لقــد وردت عــدة أفعال بعد قوله تعالى ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما**﴾ وبعد قوله تعالى: ﴿**فــإذا جــاء وعد الآخرة**﴾... ومعرفة صيغ هذه الأفعال وظرف كل منها والضمائر التي اشتملت عليها كل هذه مما لابد من الوقوف عليه لبيان ما بها من عطاء قرآني نحن بحاجة إليه.

* ولعــل مما يلفت النظر للوهلة الأولى إن الأفعال الواردة بعد ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما**﴾ كلها جاءت بصيغ (الماضي لفظاً والمستقبل معنى).

أنظــر ... «فإذا جاء» وعد أولاهما «بعثنا» عليكم عباداً لنا.. أولي بأس شديد «فجاسوا» خلال الديار - وكان وعداً مفعولاً.

* والأفعال التي بعد ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة**﴾ جاءت كلها بصيغة (المستقبل لفظاً ومعنى) فانظر ...

﴿**فإذا جاء وعد الآخرة - ليسؤوا - وجوهكم و - ليدخلوا - المسجد كما دخلوه أول مرة و - ليتبّروا - ما علوا تتبيراً**﴾.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى:

* جاءت الأفعال التي بعد «ثم» مضافة إلى الضمير «نا» العائد إلى الله سبحانه أنظر.

﴿**ثم . رددنــا. لكم الكرّة عليهم و. أمددناكم. بأموال وبنين و. جعلناكم. أكثر نفيراً**﴾ .

فالأفعال التي بعد «وعد أولاهما» وبعد «ثم» المضافة إلى الضمير «نا» يقول عنها ابن عاشــور: (أنها للمستقبل وإن جاءت بصيغة الماضي والمعنى: - نبعث - عليكم عباداً لنا - فيجيســون - ونــردّ لكم الكرّة عليهم - ونمددكم - بأموال وبنين - ونجعلكم - أكثر نفيراً)[1].

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ١٥/٣٢.

وأما عن الأفعال التي بعد «وعد الآخرة» فقد جاءت مسبوقة بلام «كي» التي هي للتعليل.. يقول ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية:

(«ولامــات» ليسؤوا، وليدخلوا وليتبروا، للتعليل وليست للأمر لاتفاق القراءات المشــهورة على كسر اللامين الثاني والثالث، ولو كانا لامي أمر لكانا ساكنين بعد واو العطف.. والتقدير: فإذا جاء وعد الآخرة بعثنا ﴿**عليكم**﴾ عباداً لنا ليسؤوا وجوهكم[1] أي لكي يسؤوا وجوهكم.

وذكــر الآلوســي ذلك فقال: (فإذا جاء وعد «المرّة الآخرة» من مرتي إفسادكم «ليســؤوا» متعلق بفعل حذف لدلالة ما سبق عليه.. وهو جواب إذا – أي – بعثناهم ليسؤوا «وجوهكم» أي ليجعل العباد المبعوثون – عليكم في المرّة الثانية – آثار المساءة والكآبة بادية في وجوهكم..)[2].

يقول الإمام الطبري: (وقد اختلف القرّاء في قراءة قوله ﴿**ليسوؤا وجوهكم**﴾ فقرأ ذلك عامة قرّاء أهل المدينة والبصرة ﴿**ليسوؤا وجوهكم**﴾ بمعنى ليسؤوا العباد أولو البأس الشديد الذين بعثهم الله عليكم وجوهكم)..

واستشـــهد قارئوا ذلك لصحة قراءتهم كذلك بقوله تعالى ﴿**وليدخلوا المسجد**﴾ وقالوا ذلك خبر عن الجميع فكذلك الواجب أن يكون قوله ليسؤوا.. وليتبروا..

وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة ﴿**ليسؤ وجوهكم**﴾ على التوحيد بالياء.. وقد يحتمل ذلك وجهين من التأويل.

أحدهما: ما قد ذكرت.

والآخــر: منها.. «ليسؤ الله وجوهكم».. فمن وجه تأويل ذلك إلى «ليسؤ – مجيء الوعــد – وجوهكم» جعل جواب قوله «فإذا» محذوفاً وقد استغنى بما ظهر عنه.. وذلك المحذوف جاء.. فيكون الكلام تأويله.. ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤ وجوهكم**﴾ – جاء.

---

(١) المصدر السابق ١٥/٣٦.

(٢) روح المعاني للآلوسي ١٥-١٩.

ومـــن وجـــه تأويله إلى «ليسوَ الله وجوهكم» كان أيضاً في الكلام محذوف قد اســـتغنى هنا عنه بما قد ظهر منه غير أن ذلك المحذوف سوى جاء.. فيكون معنى الكلام حينـــئذ.. (إذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسوَ الله وجوهكم) فيكون المضمر (بعثناهم) وذلك جواب «إذا» حينئذ..

وقرأ ذلك بعض أهل العربية من الكوفيين (لِنسؤ وجوهكم) على وجه الخبر من الله تبارك وتعالى اسمه - عن نفسه سبحانه[1].

* ويضيف الإمام الرازي بقوله (ليسؤوا - على صيغة المغايبة.. قال الواحدي وهي موافقة للمعنى وللفظ..

أما المعنى - فهو أن المبعوثين هم الذين يسؤونهم في الحقيقة، لأنهم هم الذين يقتلون (ويدمرون علوهم تدميرا).

وأمـــا اللفـــظ - فلأنه يوافق قوله ﴿**وليدخلوا المسجد**﴾ أي في المرّة الثانية كما (دخلوه أوّل مرّة).. والله اعلم.

ثم قـــال: (وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وحمزة «ليسوَ» بالفتح على إسناد الفعل إلى الواحد - وذلك الواحد يحتمل أن يكون أحد الأشياء الثلاثة:

الأول - إمـــا اسم الله سبحانه لأن الذي تقدم هو قوله: ثم رددنا وأمددنا، وكل ذلك ضمير عائد إلى الله تعالى.. والتقدير (ليسوَ الله وجوهكم).

الثاني - إما أن يكون ذلك الواحد هو البعث ودل عليه قوله (بعثنا) والفعل المتقدم يدل على المصدر - والتقدير (ليسوَ البعث وجوهكم).

والثالـــث - أن يكون ذلك الواحد هو الوعد - كما قال الزجاج (ليسوَ الوعد وجوهكم)[2].

وقريء (ليسؤوا) بضمير الجمع.. والضمائر راجعة إلى محذوف دل عليه لام التعليل في قولـــه (ليسؤوا) إذ هو متعلق بما دل عليه قوله تعالى: في ﴿**وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا**﴾...

---

(١) انظر جامع البيان - للإمام الطبري ١٥-٢٥.

(٢) تفسير الرازي ١٥٩/٢٠.

فالتقدير: فإذا جاء وعد الآخرة بعثنا عليكم عبادا لنا ليسؤوا وجوهكم...

وقريء عن عاصم (ليسؤَ) بالإفراد والضمير لله تعالى[1].

وكذلك قرئت على التوحيد والضمير لله تعالى، أو للوعد، أو للبعث المدلول عليه بالجزاء المحذوف[2]...

ويؤيد هذا قراءة الكسائي (لنسؤَ) بنون العظمة.. فإن الضمير لله تعالى لا يحتمل غير ذلك...

وقرأ أُبيّ (لنسؤَن) بلام الأمر ونون العظمة أوله، ونون التوكيد الخفيفة آخره...

وعن عليّ كرم الله تعالى وجهه أيضا (لَنسؤنّ - وليسؤنّ) بالنون والياء أولاً ونون التوكيد الشديدة آخراً.. واللام في ذلك لام القسم.. والجملة جواب القسم سادة مسد جواب إذا..

واللام في قوله تعالى:﴿**وليدخلوا المسجد**﴾ لام كي (تقديرها: ولكي يدخلوا المسجد.. (كما دخلوه) أي دخولاً كائنا كدخولهم إياه أول مرّة)[3].

(وضمير ﴿**كما دخلوه**﴾ عائد إلى العباد المذكورين في ذكر المرّة الأولى بقرينة اقتضاء المعنى مراجع الضمائر)[4].

ويختم الآلوسي القول عن هذه المسألة بقوله: (وظاهر الآية يقتضي اتحاد المبعوثين أولاً وثانياً، ومن لا يقول بذلك يجعل رجوع الضمائر للعباد على حد رجوع الضمير للدرهم في قولك: عندي درهم ونصفه فافهم)[5] *.

---

(١) ابن عاشور ١٥/٣٦ وهذا ما قاله الرازي آنفاً. انظر تفسير ابن الجوزي ٥/١١.

(٢) انظر ما قاله الرازي ٢٠/١٥٩.

(٣) روح المعاني للآلوسي ١٥/٢٠ بتصرف.

(٤) تفسير ابن عاشور ١٥/٣٧.

(٥) روح المعاني للآلوسي ١٥/٢١. وانظر تفسيرات ابن عاشور ١٥/٣٧.

* في كلام الآلوسي هذا ردٌّ على من قال إن القول بأن المبعوثين في المرة الثانية هم من عين المبعوثين في المرة الأولى، ليس بمراد «إذ» أنه خطأ في التقدير كما ترى.

وبذلك يتأصل ما ذهبنا إليه من اتحاد العقوبتين لاتحاد أهم مقوماتها وهم المبعوثون أولاً وثانياً - ولله الحمد.

المطلب الثاني

تحقق مقومات الوعد الأوّل بالعقوبة على الإفساد الأول

أولاً- معنى البعث... وحتميته:

المعطيات القرآنية

أولاً- في قوله تعالى.. ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا﴾.

قلنا إن اللفظ والمفردة القرآنية تحمل بين طياتها معانيها ومجيء كلمة «بعثنا» هنا تلقي من الإيحاء مالا تلقيه كلمة «أرسلنا» مثلاً لو استعملت مكانها..

يقول الراغب: (إن أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه.. يقال بعثته فانبعث.. أثرته وسيّرته..)[1].

والبعث من بعث: بعثهُ بعثاً: أرسله وحده.. وبعث به: أرسله مع غيره.

والبعث: الرسول.. وبعث الجنود إلى الغزو..

والبعث: القوم المبعوثون المشخصون.. ويقال لهم البعث بسكون العين..

والبعث: يكون بعثاً للقوم يبعثون إلى وجهٍ من الوجوه.. وبعثه على الشيء حمله على فعله..

وفي التنزيل ﴿**بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ شديد**﴾.

وفي الخبر أن عبد الملك خطب فقال: بعثنا عليكم مسلم بن عقبة فقتلكم يوم الحرّة...

وانبعث الشيء وتبعث: اندفع، وبعثه من نومه بعثاً، فانبعث أيقظه.. واهبهُ..[2]..

---

(١) مفردات الراغب ص/٥٢.

(٢) لسان العرب لابن منظور ١/٢٣٠.

قال البستاني: (انبعث - مطاوع - بعث - إندفع في السير - أسرع)[1] وتأويل البعث: إزالة ما كان يحبسه عن التصرف والإنبعاث.. وانبعث في السير أسرع..

والبعث في كلام العرب على وجهين:

أحدهما- الإرسال - ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى ﴾ الأعراف/١٠٣.

معناه أرسلنا..

الثاني- البعث: إثارة باركٍ أو قاعد - تقول - بعثت البعير فانبعثت أي - أثرته فثار..

وكذلك البعث - الأحياء من الله للأموات - كما قال تعالى: ﴿**ثم بعثناكم من بعد موتكم**﴾[2] البقرة/٥٦. والراغب يجعله على ضربين.. بشري - وإلهي..

الأول: بشري.. كبعث الإنسان في حاجة.

الثاني: إلهي.. وهو ضربان..

أحدهما- إيجاد الأعيان والأجناس.. وذلك يُخصّ به الباري تعالى و لم يقدر عليه أحد - كقوله تعالى ﴿**فأماته الله مائة عام ثم بعثه**﴾ البقرة/٢٥٩.

الثاني- إحياء الموتى وقد خص بذلك أولياءه كعيسى (ع) وأمثاله - كقوله تعالى ﴿**ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً**﴾ الكهف/١٢ وذلك إثارة بلا توجيه إلى مكان[3].

ويقال «تبعث مني الشعر - أي انبعث كأنه سال.. وقيل أن الباعوث للنصارى كالإستسقاء للمسلمين وهو إسمٌ سرياني»[4].

وفي إحصائية لورود كلمة (بعثنا) في كتاب الله الكريم نجد ما يلي.. إن كلمة (بعثنا) استعملت سبع مرات..

---

(١) منجد الطلاب - للبستاني ص/٧٢.

(٢) لسان العرب لابن منظور ١/٢٣٠.

(٣) مفردات الراغب ص/٥٣.

(٤) لسان العرب لابن منظور ١/٢٣٠.

* خمس منها للأنبياء..

* وواحدة لنقباء بني إسرائيل..

* وواحدة لمعاقبة بني إسرائيل[1]..

فمواضع استعمال «بعثنا» الخمسة التي هي للأنبياء هي:

١) قوله تعالى: ﴿**ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون**﴾ الأعراف/ ١٠٣.

٢) قوله تعالى: ﴿**ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات**﴾ يونس/٧٤.

٣) قوله تعالى: ﴿**ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه**﴾ يونس/٧٥.

٤) قوله تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كلِ قريةٍ رسولاً أن اعبدوا الله**﴾ النحل/٣٦.

٥) قوله تعالى: ﴿**ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً**﴾ الفرقان/٥١.

* وأما التي لنقباء بني إسرائيل فقد جاءت في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿**وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً**﴾ الآية/١٢.

* وآخرها التي جاءت في سورة الإسراء لعقاب بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا**﴾ الآية/٥.

(إذن كلمة «بعثنا» استعملت للأنبياء وما يشبههم و لم تستعمل للكفار أو غير المؤمنين.. أي إن الذين سيبعثون مضافين إلى اسم الجلالة سبحانه وتعالى.. سيكونون من المؤمنين وليسو من الكافرين)[2].

يقول الإمام الرازي في تفسيره لهذه الآية:

(ومعنى بعثنا عليكم.. أرسلنا عليكم[3] ففسّر البعث بالإرسال والله سبحانه لا يرسل إلا من يصطفيه ويختاره من المؤمنين أما من يعبد الأصنام والأوثان فلا ... وصدق الله: ﴿**وما كنت متخذ المضلين عضدا**﴾ الكهف/٥١.

---

(١) زوال إسرائيل حتمية قرآنية – أسعد التميمي ص/٣٦.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) تفسير الإمام الرازي ٢٠/١٥٥.

وبذلك قال الإمام الآلوسي (بعثنا عليكم أرسلنا لمؤاخذتكم)... وقال - قال ابن عطية - (يحتمل أن يكون الله تعالى أرسل إلى ملك أولئك العباد رسولاً يأمره بغزو بني إسرائيل فتكون البعثة بأمرٍ من الله تعالى[1]...

وإنك لتلمح من كلام ابن عطيّة - رحمه الله - أن البعث من الله سبحانه لا ينبغي أن يكون إلا على يد من يختارهم الله من عباده المرسلين أو الذين شرفهم بنسبتهم إليه.. وحيث قد يكون البعث بتهيئة أسباب إيقاع العقوبة عليهم[2].

كما يقول ابن عاشور: (والبعث مستعمل في تكوين السير إلى أرض إسرائيل وتهيئة أسبابه حتى كأن ذلك أمرٌ بالمسير إليهم كما في قوله تعالى: ﴿**ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب**﴾ في سورة الأعراف، وهو بعث تكوين وتسخير لا بعث بوحي وأمر[3]...

ثم أضاف قائلاً - وتعدية «بعثنا» بحرف الاستعلاء لتضمينه معنى التسليط كقوله ﴿**ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب**﴾ الأعراف/١٦٧[4].

فعلى هذا يكون ما قال به المفسرون من أن نسبة البعث إلى بختنصر وسنحاريب وتيطس وأهل بابل وغيرهم من الكافرين والمشركين لا يتلائم مع مدلول النص القرآني كما هو واضح من كلام المفسرين الأجلاء.. إذ إن النص القرآني قد بين صفات ومعالم أثبتها فيمن تعرّض لبني إسرائيل في العقوبة الأولى عليهم بل جعلها خاصة بهم وهي ﴿**عباداً لنا**﴾ و﴿**أولى بأسٍ شديد**﴾ ثم ﴿**جاسوا خلال الديار**﴾ وغيرها.

وفي هذا يقول الدكتور فضل في تفسير هذه الآية:

(ومعنى هذا أنهم حينما يفسدون في المرّة الأولى سيبعث الله عليهم عباداً شرّفهم بالإنتساب إليه وأكرمهم بهذه الخصوصية ﴿**عباداً لنا**﴾.

---

(١) روح المعاني للآلوسي ١٥/١٧.

(٢) سيأتي بيان أن العقوبة على بني إسرائيل ماضية بسنّة لها قانونين.

(٣) قلت: سيأتي إثبات ان ذلك ممكن انظر تفسير الرازي ٢٠/١٥٧.

(٤) تفسير ابن عاشور ١٥/٣٠.

وهـــذه العبارة القرآنية تدل على أن هؤلاء المبعوثين على بني إسرائيل ممن أذاقهم الله طعـــم الإيمـــان، وكـــرّمهم بشرف العبودية فهم - عباداً لنا - من أجلنا يحاربون وبأمرنا يأتمرون).

ويضـــيف.. (وما ذكر في كتب التفسير من أقوال في شأن الذين سُلِطوا على بني إسـرائيل لا يتفق مع الوصف القرآني الدقيق، والحقّ أن هذا الوصف القرآني إنما يصدُق عـــلى أولئك الذين أخلصوا العبودية لله، وربّاهم النبي ﷺ تربية خاصة فكانت نفوسهم قرابيـــنهم، وأناجيلهم صدورهم، هؤلاء الصحابة ﷺ وهم الذين جاسوا خلال الديار ففتشوا ونقّبوا ودخلوا بيوت هؤلاء اليهود.. وعلى هذا تكون تلك المرّة الأولى التي أفسد فـــيها بني إسرائيل في الأرض.. فبعث الله عليهم هؤلاء الصفوة الخيرة ﴿**عباداً لنا أولي بأسٍ شديد**﴾ فنفذوا حكم الله فيهم)[1]...

وفي هـــذا يقـــول الشيخ عبد المعز عبد الستار: (فسلط الله عليهم عباده المؤمنين فـــأجلوا بني النضير وقتلوا بني قريظة وسبوهم ثم فتحوا خيبر ثم منَّ عليهم الرسول ﷺ فاســـتبقاهم عملاء حتى أجلاهم عمر في خلافته وكان وعداً من الله للمؤمنين بالتمكين وقد فعل..

هذه هي المرّة الأولى لا تنطبق أوصافها إلا على أصحاب رسول الله ﷺ.

فهـــم الذين يستحقون شرف هذه النسبة (عباداً لنا) لأنهم الموحدون أتباع عبده الـــذي أُســـرى به.. أما أتباع بختنصر أو سابور أو صحابين أو سنحاريب... الخ. ما اضطربت فيه أقوال المفسرين، فقد كانوا عباد وثن لا يستحقون شرف الإختصاص لله في قوله «لنا»[2]..

قلت:.. ﴿**إي وربي إنه الحق**﴾ ....

وبناءً على ما سبق ذكره أقول:

---

(١) نفحات من الإسراء والمعراج - دكتور فضل حسن ص/١٢٠.

(٢) يراجع بتوسع ما أورده الدكتور محمد سيد طنطاوي في كتابه بنو إسرائيل في القرآن والسنة من كلام الشيخ عبد المعز ٣٧٨/٢.

أولاً/ في العلاقة بين الوعدين إنما هي علاقة ترابط لا انفصام لها إذ إن الوعد الثاني لعقوبة بني إسرائيل إنما هو من جنس وعين ونوع الوعد الأول كما أثبت ذلك المفسرون من خلال تفاسيرهم.

ثانياً/ ومن خلال تطابق المقومات[1] الأساسية للوعدين الأول والثاني.

ثالثاً/ ومن خلال توافق المعنى بل وتأكيده بأنه ﴿**قليل من الآخرين**﴾ هم من أشارت إليهم آية الجمعة ﴿**وآخرين منهم لما يلحقوا بهم**﴾..

رابعاً/ ومن خلال عود الضمائر في الأفعال التي تحدثنا عنها في «يسؤوا - وليدخلوا - وليتبروا» العائدة بإجماع المفسرين على العباد المبعوثين أول مرّة أو على الوعد أو البعث أو العائدة إلى الله سبحانه الذي تأذن بهذا البعث متى شاء.

أقول: ومع هذا فان بعض المفسرين قد قال مصرحا في (بعثنا عليكم.. أي سلطنا عليكم)[2]...

ويقول غيره في: ﴿**بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد**﴾.

في قوله «بعثنا» وجهان:

أحدهما: خلينا بينكم وبينهم خذلاناً لكم بظلمكم.. قاله الحسن.

الثاني: أمرنا بقتالكم انتقاماً منكم[3].

إن هذا لم يكن إلا من بعض المقضي به على بني إسرائيل مما ينفي أي احتمال آخر قال به بعض المفسرين[4] وإنما هو أمر الهي واضح وثابت ... فإنه قدر حتمي كتب عليهم فكان قضاءً لا يرد قد وقع بهم وسيقع عليهم..

وفي ذلك يقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ولكن الله يسلط رسله على من يشاء**﴾ الحشر/٦ إنها في يهود بني النضير[5] بعد ما همّوا بقتل النبي ﷺ فقال لهم

(١) انظر المطلب الأول من هذا المبحث.

(٢) انظر تفسير الإمام النسفي ١٥٣/٣.

(٣) تفسير الماوردي ٤٢٣/٨/٢.

(٤) كقول ابن عطية الذي أورده الإمام الآلوسي انظر ١٧/١٥.

(٥) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٤٧٢/٣.

سلاّم بن مشكم «وهو من يهود بني النضير» قال لهم لا تفعلوا، والله لُيخبرَن بما هممتم به وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه.. كما ذكر ذلك ابن سعد في طبقاته[١]..

وقد نزلت سورة الحشر بأكملها في بني النضير بعد نقضهم للعهد مع رسول الله ﷺ وكـــان هذا هو النقض الثاني لهم في السنة الرابعة من الهجرة.. بعد نقض بني قينقاع للعهد وخيانتهم لرسول الله ﷺ في السنة الثانية من الهجرة[٢]..

وبعد غزوة الخندق - في السنة الخامسة للهجرة - وقد فرّق الله جماعتهم وكسر شوكتهم.

قـــال ابن إسحاق: (قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع - الخيل - والخفّ، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدّة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فاني مرتحل..

قـــال ابن إسحاق: ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة والمسلمون، ووضعوا السلاح...

فـــلما كانـــت الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ كما حدثني الزهري، معتجراً[٣] بعمامـــةٍ من إستبرق على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من ديباج فقال: أو قد وضعت السـلاح يا رسول الله؟ قال: نعم فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامدٌ إليهم فمزلزل بهم..

فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً، فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينّ العصر إلا ببني قريظة.. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.. وقدّم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة.. ومرّ رسول الله ﷺ مع أصحابه بالصورين - موضع - قبل

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٩٩/٣ وانظر سيرة ابن هشام ٢٦٧/٣ وما بعدها.

(٢) انظر فقه السيرة للبوطي ص/٢٤٠ و ٢٧٦.

(٣) الاعتجار أن يتعمم الرجل دون تلح أي لا يلقي شيئاً تحت لحيته.

أن يصل إلى بني قريظة، فقال: هل مرَّ بكم أحد؟ قالوا: يا رسول الله، قد مرَّ بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة، عليها قطيفة ديباج فقال رسول الله ﷺ ذلك جبريل بُعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصوهم ويقذف الرعب في قلوبهم.. ولما أتى رسول الله ﷺ بني قريظة.. وحاصرهم ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب – وكان ما كان من تحكيم سعد بن معاذ فيهم فحكم فيهم فقال: «فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء».. فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة[1]..

قال ابن إسحاق:.. ثم استنزلوا، فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، التي هي سوقها اليوم، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق تخرج بهم إليه أرسالاً وفيهم عدو الله حيي بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم وهم ست مئة أو سبع مئة... وقد قالوا لكعب بن أسد، وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ إرسالاً ... يا كعب ما تراه يصنع بنا ؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون ؟ ألا ترون الداعي لا ينزع وأنه من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل!!... فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ.. وأتي بحُيي بن أخطب عدو الله، وعليه حلّة له فقاحية [2]. وقد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة لئلا يُسلبها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل. فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: «أما والله ما لُمت نفسي عداوتك، ولكنه من يخل الله يُخذل.

ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس: إنه لا بأس بأمر الله.كتابٌ وقدر... وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل...

ثم جلس فضربت عنقه»[3]..

إنها والله لأصدق كلمة قالها أكذب كذوب:

---

(١) أرقعة – السموات.

(٢) قال ابن هشام فقاحية ضرب من الوشى تضرب الى الحمرة.

(٣) انظر السيرة النبوية – لابن هشام ٣/٣٢١-٣٣٣.

كتاب وقدر ... وملحمة كتبها الله على بني إســرائيل ...

وإنها والله لأصدق كلمة قالها أصدق صدوق...

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل – في الكتاب – لتفسدن في الأرض مرتين – ولتعلن علــواً كبيراً.. فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً﴾.

ثانياً: أهم صفات المبعوثين:

أ- إنهم عباد مخلصون لله.

وتتمة لما تقدم نقول.. إن العباد المبعوثين على بني إسرائيل كانوا يتميزون بصفاتٍ خاصة بهم لا تنطبق على غيرهم ومقومات إيمانية لا تجد لها مثيلاً في سواهم.

فحــين ننظر في أول وأهم صفة أثبتها القرآن للمبعوثين على بني إسرائيل في تحقيق الوعدين هي صفة ﴿**عباداً لنا**﴾ نجد إعجازاً كبيراً..

فكلمة – عباد – جمع لكلمة – عبد –.. والعبد من العبودية..

والعــبودية هــي.. إظهــار التذلل.. والعبادة أبلغ منها.. لأنها غاية التذلل.. ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال.. وهو الله سبحانه وتعالى..

ولهذا قال تعالى: ﴿**ألا تعبدوا إلاّ إياه**﴾.

والعبادة ضربان:

عبادة بالتسخير.. وعبادة بالإختيار.

أولاً: عبادة بالتسخير –

وهي الطاعة لله والسجود له تذللاً وعبادة.. وهي أيضاً ضربان:

١) ســجود اختيار – وليس ذلك إلا لمن كلفوا اختياراً كالإنسان، وبه يستحق الثواب كقوله: ﴿**فاسجدوا لله واعبدوا**﴾ النجم/٦٢.

٢) ســجود تســخير – وهو للإنسان والحيوان والنبات والجماد وهي الدلالة الصامتة الناطقة المنبّهة على كونها مخلوقة وأنها خلق فاعلٍ حكيم.

كقوله تعالى: ﴿**والنجم والشجر يسجدان**﴾ الرحمن/٦.

وقولـــــه تعالى: ﴿**ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال**﴾ الرعد/١٥.

وقولـــــه تعالى: ﴿**ولله يسجد ما في السموات وما في الإرض من دابةٍ والملائكة وهم لا يستكبرون**﴾ النحل/٤٩..

ينطوي على النوعين من السجود والتسخير والاختيار..

ثانياً: أما العبادة بالاختيار فهي:

«لـــذوي النطق.. وهي المأمور بها في قوله تعالى: ﴿**اعبدوا ربكم الذي خلقكم**﴾ البقرة/٢١.

وقوله تعالى: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً**﴾ النساء/٣٦.

ثم إن كلمة «العبد» تُطلق على ثلاثة أوجه:

الأول – عـــبد بحكـــم الشـــرع – وهو الإنسان الذي يصح بيعه وابتياعه نحو: ﴿**العبد بالعبد**﴾ البقرة/١٧٨.

وقوله تعالى: ﴿**وعبداً مملوكاً لا يقدر على شيء**﴾ النمل/٧٥.

الثاني – عبد بالإيجاد – وذلك ليس إلا لله.. وإياه قصد بقوله تعالى: ﴿**إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً**﴾ مريم/٩٣.

الثالث – عبدٌ بالعبادة والخدمة –.. والناس في هذا ضربان.

١) عبد لله مخلَصٌ.

وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿**واذكر عبدنا أيوب**﴾ ص/٤١.

﴿**نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً**﴾ الفرقان/١.

﴿**أنزل على عبده الكتاب**﴾ الكهف/١.

﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ الحجر/٤٣.

﴿**أن أسر بعبادي ليلاً**﴾ ص/٧٧.

﴿**فوجدا عبداً من عبادنا**﴾ الكهف/٦٥.

﴿**إلا عبادك منهم المخلصين**﴾ الحجر/ ٤٠.

﴿**سبحان الذي أسرى بعبده**﴾ الإسراء/١

٢) عبد للدنيا وأعراضها.

وهــو المعــتكف على خدمتها ومراعاتها وإياه قصد النبي ﷺ بقوله: «تعس عبد الدينار.. تعس عبد الدرهم.. تعس عبد القطيفة..»[1]. رواه أبو هريرة.

وعــلى هــذا النحو يصح أن يقال ليس كل إنسان عبداً لله بالاختيار فمنهم من يكــون عبداً لغير الله.. والناس كلهم عباداً لله.. بل الأشياء كلها كذلك، لكن بعضها بالتسخير وبعضها بالإختيار فعلى هذا يكون..

أ- جمع العبد الذي هو مسترق... «عبيد»

ومنه قوله تعالى: ﴿**وما أنا بظلام للعبيد**﴾ ق/٢٩.

وقيل جمعه «عِبّداً» أي عبّدت فلاناً إذا أذللته واتخذته عبداً[2]

ومنه قوله تعالى: ﴿**أن عبّدت بني إسرائيل**﴾ الشعراء/٢٢.

(وقرأ بعضهم «وَعُبدَ الطاغوت» بالإضافة «وَعَبدَ الطاغوت» أي خدم الطاغوت)[3].

ب- وجمع العبد الذي هو العابد لله وحده المخلص له في عبادته والذي اختاره الله وشرفه بنسبته إليه وتشرفه به.. «عباد»[4].

ومنه قوله تعالى: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ الحجر/٤٢.

﴿**أن أسري بعبادي ليلاً**﴾ طه/٧٧.

﴿**بعثنا عليكم عباداً لنا**﴾ أي خالصين لنا دون سوانا.. صادقين في ولائهم مخلصين في عقيدتهم ﴿**حنفاء لله غير مشركين به**﴾ الحج/٣١.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله انظر عمدة القاري ١٧١/١٤ /رقم الحديث/١٠٠ وانظر كذلك ٢٣/٤٥/٢٣.

(٢) انظر المنجد للبستاني ص/٤٥٧.

(٣) مختار الصحاح للرازي ص/٤٠٨.

(٤) مفردات الراغب الاصفهاني ص/٣١٩ بتصرف.

ولهـــذا يصح أن يقال.. إن كل الناس عبيد لله ولكن ليس كل الناس عباداً، إذ أن العباد ليسوا إلا أولئك الذين رضوا بالله وحده دون سواه.. رباً، وبالإسلام ديناً.. فعبدوا الله وحده دون أن يشركوا به شيئاً..

مما تقدم نجد إن هناك فارقاً كبيراً بين كلمة «عبيد» وكلمة «عباد» فليس اعتباطاً مجيء ﴿**عباداً لنا**﴾ في سورة الإسراء وإنما هو أمر أريد عن قصد أن يقول القرآن (أن الله قضـــى أن تكـــون عقوبة بني إسرائيل على فسادهم الأول على يد «عباد» يبعـــثهم الله عليهم عندما يحين وقت العقوبة الأولى على إفساديهما المقضي بهما عليهم في الأرض.. فإن في اختيار هذا اللفظ حكمة عظيمة.. فلو نظرنا إلى كلمة «عباد» في القرآن نجد أن هذه الكلمة استعملت في الغالب الأعم على من كان عبداً لله غير المشركين به.. أي إنها استعملت لمن آمن بالله سبحان دون سواه كالأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين لكـــنها قـــد تطلق على غيرهم بنسبة قليلة لا تكاد تذكر إلى ما جاءت به من صيغ المدح والثناء والإضافة إلى الله مباشرة أو إلى ضمير يعود إلى الله من قريب أمر بعيد.

يقول الإمام الرازي: (وفرق بين «العبد» مطلقاً وبين المضاف إلى الله تعالى.. فان الإضافة إلى الشريف تكسوا المضاف شرفاً.. تقول بيت الله فيكون فيه من الشرف ما لا يكـــون في قولك البيت، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿**وعباد الرحمن**﴾ من قبيل قوله: ﴿**إن عبادي**﴾ وكذلك قوله: ﴿**عباد الله..**﴾..)[1].

(وكذلـــك فان التعبير بلفظ العبد في هذا المقام العظيم يدل دلالة واضحة على أن مقام العبودية هو أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلها.. إذ لو كان هناك وصف أعظم منه لعبّر به في هذا المقام العظيم)[2].

فكلمة (عباد – عباده – عبادي – عبادك – عبادنا – عباداً لنا). إنما تشمل أولئك الذين قال عنهم عدو الله إبليس: ﴿**إلا عبادك منهم المخلصين**﴾ الحجر/ ٤٠ وقد عرف

---

(١) انظر تفسير الامام الرازي ٦٣/٢٦.

(٢) أضواء البيان – للشنقيطي ٣٩٨/٣.

هــــذه الحقيقة يوم طرد من رحمة الله.. وطلب الإنظار فقيل له: ﴿**فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلَصين**﴾ ص/٨٣ - بفتح اللام -.

وقـــد قـــال عـــنهم الآلوسي: «هم الذين أخلصهم الله لطاعته.. وعصمهم عن الغواية»[١].

والغواية هي الكفر والضّلال من الغي الذي قال عنه الراغب[٢]: «جهل من اعتقاد فاسد.. قال تعالى: ﴿**وإخوانهم يمدونهم في الغيّ**﴾ الأعراف/٢٠٢ وقال:

﴿**لأزيننَّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين.. إلا عبادك منهم المخلَصين**﴾ الحجر/٤٠

ولذلـــك كـــان الحق أن ينصر الله عباده المؤمنين ويحفظهم منه فقال ﴿**هذا صراط عليّ مستقيم.. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، إلا من اتبعك من الغاوين**﴾ الحجر/٤٢.

إن الذيـــن أكرمهم الله بتمام العبودية له سبحانه، وشرّفهم بكرامة الانتساب إليه وحـــده ســبحانه قـــد أطلق عليهم صفة «عباد» فكانوا في الغالب الأعمّ من الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين المخلَصين.

هـــذا الغالب الأعم الذي جاء في لفظ «عباد» إنما أخذ حكم الصلاح والإنتساب إلى الله على الرغم من مجيء بعضه في مواضع قليلة ما يشير - ربما - إلى غيره.. فإنما هو يأخذ حكم هذا الغالب الأعم كما قال الآلوسي[٣] بذلك وكما دلت على ذلك صور شتى وصيغ متعددة تؤكد هذا المعنى - منها -.

(١) ما كان مباشراً -

كقوله تعالى: ﴿**إلا عباد الله المخلصين**﴾[٤] الصافات/٧٤.

وقوله تعالى: ﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً**﴾ الفرقان/٦٣.

---

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ٢٢٨/٣٢.

(٢) مفردات الراغب /٣٦٩.

(٣) قال الآلوسي «إن معظم الشيء يقام مقام كله» أي فيأخذ حكمه انظر ١٥ /٣٠.

(٤) تكررت هذه الآية في سورة الصافات وحدها خمس مرات.

(٢) ما كان مضافا إلى ضمير الغائب الذي يعود إلى الله سبحانه:

كقوله تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً**﴾ الإسراء /١.

(٣) ومنها ما كان مضافا إلى ياء المتكلم الذي هو الله سبحانه:

كقوله تعالى: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب**﴾ بقرة/١٨٦.

وقوله: ﴿**يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون**﴾ العنكبوت/٥٦.

(٤) ومنها ما كان مضافا إلى نون المتكلم العائد إلى الله «نون العظمة»:

كقوله: ﴿**فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا**﴾ الكهف/٦٥.

وقوله: ﴿**ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا**﴾ الشورى/٥٢.

(٥) ومنها ما كان مضافا إلى كاف المخاطب العائد إلى الله أيضاً..

كقوله تعالى: ﴿**وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين**﴾ ص/٨٣.

وقوله: ﴿**أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ الزمر/٤٦.

(٦) ومنه ما كان مضافا إلى صفة من صفات الخير والبر..

كقوله تعالى: ﴿**وقالوا اتخذ الله ولداً بل عبادٌ مكرمون**﴾ الأنبياء/٢٦.

وقوله تعالى: ﴿**كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين**﴾ التحريم/١٠.

وقوله تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ فاطر/٢٨.

(٧) ومنها ما كان مضافاً إلى الله بلام الاختصاص[1]..

كقوله تعالى: ﴿**بعثنا عليكم عباداً لنا.. أولي بأس شديد**﴾ الإسراء/٥.

وفي إضافة «عبد – وعباد» إلى الله تعالى إنها من باب التشريف والتكريم يقول المفسرون:..

(وفي إضافته تعالى «عبده» لضميره تشريف عظيم ... وكثيراً ما أتى التشريف بلفظ العبد كقوله تعالى: ﴿**نعم العبد – وان عبادي ليس لك عليهم سلطان – واذكر عبدنا إبراهيم..**﴾[2].

---

(١) لم أجد في القرآن كله مثل هذه الصيغة إلا في سورة الإسراء !!.

(٢) انظر النهر الماد من البحر المحيط لابي حيان الأندلسي ص/٢٨١.

ويقول ابن عاشور: («وعَبْد» المضاف إلى ضمير الجلالة هنا هو محمد ﷺ كما هو مصطلح القرآن، فإنه لم يقع فيه لفظ العبد مضافاً إلى ضمير الغيبة الراجع إلى الله تعالى إلا مراداً به النبي ﷺ ولان خبر الإسراء به إلى بيت المقدس قد شاع بين المسلمين وشاع إنكاره بين المشركين فصار المراد «بعبده» معلوماً.. والإضافة إضافة تشريف لا تعريف لأن وصف العبودية لله متحقق لسائر المخلوقات فلا تفيد إضافته تعريفاً[1].

(وفي إحصائية لكلمة «عباداً لنا» نجد إن كلمة «عبد» في القرآن الكريم عامّة للمسلمين وغيرهم..بل لابد من ملاحظة أن كلمة «عبد – و- عباد» المضافة إلى ضمير المتكلم حيث نجد أن كلمة «عبدنا» استعملت خمس مرات للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فقط[2].

- وكلمة «عبادنا» استعملت اثنتي عشرة مرّة للأنبياء - عليهم السلام - والمؤمنين فقط[3]، وزيادة هذه الصيغة بلام الإضافة[4] والنسبة إلى الله تعالى «لنا» يجعل الصيغة دليلاً أو قرينة قوية على أن المبعوثين من المؤمنين ومن نوعية خاصة منهم.. ومما يقوي هذه القرينة ويعطي القرينة المتقدمة شيئاً من القوة أيضاً.. أن الله سبحانه وتعالى استعمل مادة «البعث» في الوعدين لبني إسرائيل، ولكن جعل الصيغة في - وعد التسلط عليهم

---

(١) انظر تفسير ابن عاشور ١٥/١٢ وانظر أضواء البيان للشنقيطي ٣/٣٩٨.

(٢) قلت هي (١) (إن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) البقرة/٢٣ - (٢) (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا) الأنفال/٤١ - (٣) (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) ص/١٧ - (٤) (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا) القمر/٩.

(٣) هي ١(إنه من عبادنا المخلَصين) يوسف / ١٤، ٢ (فوجدا عبداً من عبادنا) الكهف / ٦٥، ٣ (تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً) مريم / ٦٣، ٤ (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) فاطر / ٣٢، ٥ و٦ و٧ و٨ (إنه من عبادنا المؤمنين) الصافات / ٨١، ١١١، ١٢٢، ١٣٢، ٩(لقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) الصافات / ١٧١، ١٠ (واذكر عبادنا إبراهيم واسحاق ويعقوب) ص/٤٥،١١ (نهدي به من نشاء من عبادنا) الشورى /٥٢، ١٢(كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين) التحريم / ١٠.

(٤) قيل هي لام الإختصاص.

«ليبعـــث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب» وعبر عن المبعوثين بـــ «من يسومهم» وقد عرفنا إن هؤلاء المبعوثين هم الوثنيون والمجوس والنصارى وغيرهم[1]...

بينما جعل الصيغة هنا «بعثنا» وهي صيغة استعملها للأنبياء والأوصياء فقط..

فقـــد عبر عن المبعوثين بـــ ﴿**عباداً لنا**﴾ وهو تعبير فريد لم يستعمل ما يشبهه في الإضافة إليه تعالى إلا في الأنبياء والمؤمنين..

نعـــم ورد اســـتعمال «عبادي» لغير المؤمنين أيضاً ولكنه استعمال يجيء دائماً في مقابل دعوى العبودية لغيره تعالى...

إذن: إن الذين سيتولون تدمير اليهود هم من المؤمنين لما مرَّ من الشرح...

وهـــذا التشـــريف والتكريم الإيماني لا ينطبق على البابليين ولا على الرومان لأنهم جميعاً من الوثنين، وينطبق هذا الوصف على رسول الله ﷺ.. وأصحابه الذين جاؤوا إلى المديـــنة ولليهود فيها نفوذ سياسي واقتصادي وكان من أول أعماله ﷺ في المدينة إبرام المعـــاهدة السياســـية بيـــنه وبين اليهود والتي نصّت على أن اليهود جماعة مستقلة وان المســـلمين جماعـــة مستقلة.. فلما غدر اليهود ونقضوا العهد كعادهم ودأبهم سلّط الله عليهم المسلمين فجاسوا خلال الديار اليهودية وتغلغلوا فيها وأزالوهم عن المدينة وخيبر وتيماء، فزال سلطاهم وتمّ تدمير علوهم من خلال معركة بني قريظة وبني النضير ومعارك خيبر الشهيرة».

إن هذا الذي تحصل لدينا إنما يؤكده إننا نجد له رصيداً في النص.. أي إن كل تلك المعـــاني داخلة فيما يحتمله اللفظ القرآني ﴿**عباداً لنا**﴾ على خلاف ما قيل من أقوال قد تضـــاربت واضطربت اضطراباً شديداً.. بحيث لا يمكن أن يحتملها النص القرآني[2] ولا يؤيدها الواقع التاريخي الذي عاشه بنو إسرائيل..

---

(١) سيأتي تفصيل هذا لاحقاً ان شاء الله تعالى.

(٢) قلت لانها مترادفة وليست متقاربة.

مثال ذلك ما أورده الماوردي في تفسيره وتابعه من جاء بعده كابن الجوزي[1] حيث قال: (في قوله تعالى: ﴿**بعثنا عليكم عباداً لنا**﴾ وفيهم خمسة أقوال:

- / أحدها - أنهم «جالوت وجنوده» قاله ابن عباس وقتادة.
- / الثاني - «بختنصر» قاله سعيد بن المسيب واختاره الفرّاء والزجاج.
- / الثالث- «العمالقة» وكانوا كفاراً، قاله الحسن.
- / الرابع - «سنحاريب» قاله سعيد بن جبير.
- / الخامس - «قوم من أهل فارس» قاله مجاهد.

ثم يضيف.. وقال ابن زيد.. سلّط الله عليهم سابور ذا الأكتاف من ملوك فارس[2].

بل حتى الذين لم يجد بنو إسرائيل منهم بأساً قيل عنهم أنهم سُلّطوا على بني إسرائيل..

وفي ذلك يقول الشيخ سعيد حوى في ردِّه على بعض المفسرين الذين قالوا بتسليط سنحاريب على بني إسرائيل: (فلم يكن تسليطٌ في هذه المرحلة كما توهم بعض المفسرين الذين ليس لهم مستند إلا الروايات الإسرائيلية، وهي لا تفيد ما توهموه)[3].

فكيف أمكن أم كيف يعقل أن كل هؤلاء على اختلاف عقائدهم أولاً ؟.. وعلى تباين وتباعد فترات وجودهم في التاريخ ثانياً ؟.. أن يكونوا هم المبعوثين لتحقيق العقوبة الأولى على بني إسرائيل في فسادهم الأول ؟.. فهل كان يعزّ على الله – سبحانه وتعالى عن ذلك – أن يوجد من يستحق هذا الشرف من المؤمنين ؟ كيف وهو يقول سبحانه: ﴿**وما كنت متخذ المضلين عضدا**﴾ الكهف/٥١.

ولقد ردَّ الإمام الرازي على الجبائي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**بعثنا عليكم عباداً لنا**﴾ حيث قال: (أجاب الجبائي عنه من وجهين: الأول: المراد من ﴿**بعثنا عليكم**﴾ هو

---

(١) تفسير ابن الجوزي ٩/٥.

(٢) تفسير الماوردي ٤٢٣/٨.

(٣) انظر الأساس في التفسير - سعيد حوى ٣٠٤٣/٦.

أنـــه تعالى أمر أولئك الأقوام بغزو بني إسرائيل لما ظهر فيهم من الإفساد، فأضيف ذلك الفعل إلى الله تعالى من حيث الأمر..).

فــردّ الـــرازي عليه بقوله: (واعلم أن الجواب الأول ضعيف، لأن الذين قصدوا تخريب بيت المقدس وإحراق التوراة وقتل حفاظ التوراة لا يجوز أن يقال إنهم فعلوا ذلك بأمر الله تعالى..)[1].

قلت: إن الإمام الرازي - رحمه الله - كان محقاً في ذلك ولكن ... إنما قد يجوز أن يكـــون «بإذن الله» تعالى لحكمة يعلمها وعقوبة تأذن بإيقاعها على بني إسرائيل إلى يـــوم القيامة. كلما فسدوا وأفسدوا في الأرض في أثناء هاتين الإفسادتين وحين لم يكن للعـــباد «الذين اختصهم الله تعالى بشرف الانتساب إليه، فكانوا من المخلَصين» وجودٌ متمـــثل بكيان ودولة له قوة وصولة بحيث لا يرضون منهم إلا أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.. كما كان الحال في عهد النبي ﷺ ودولته الفتيّة..

أمـــا حين لم يكن لدولة الإسلام وجود!! وحين لم يكن العباد - وان وُجدوا - مؤهلين إلى أن يقاتلوا اليهود!! فعندئذ لا يسمح الله لسرطان اليهود أن يمتد ولشرّ أعوان الشـــيطان أن ينتشـــر إنمـــا تكفل الله سبحانه أنه ﴿**كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله..**﴾. وإنهم ليفسدون بل ﴿**ويسعون في الأرض فساداً**﴾ المائدة/٦٤..

قال ابن كثير: (أي من سجيتهم أنهم دائماً يسعون الإفساد في الأرض)[2].

ولذلـــك كانت سنة الله فيهم متمثلة في ﴿**وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة - من يسومهم سوء العذاب**﴾ الأعراف/١٦٧ فكان أولئك الظالمون الذين زخر بهـــم التاريخ من الذين أذنَ الله أن يتسلطوا - عبر التأريخ في الماضي والحاضر وربما في المستقبل - على بني إسرائيل كلما فسدوا وأفسدوا..

يقول الرازي:

(١) انظـــر تفســـير الـــرازي ١٥٧/٢٠ لم اذكر الوجه الثاني الذي ذكره الجبائي لعدم الحاجة إليه ويمكن الرجوع إليه في مكانه المشار اليه.

(٢) تفسير ابن كثير ٧٦/٢.

(واعلم أنه تعالى حكى عنهم أنهم لما عصوا سُلِّط عليهم أقواماً قصدوهم بالقتل والنهب والسلب)[1].

وقال صاحب الظِلال حول موضوع التسليط:

(ولقد صدقت النبوة ووقع الوعد، فسلّط الله على بني إسرائيل من قهرهم أول مرة، ثم سلّط عليهم من شردهم في الأرض، ودمرّ مملكتهم فيها تدميراً.. فأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض، فالجزاء حاضر والسنة ماضية: ﴿**وإن عدتم عدنا**﴾.. حتى كان العصر الحديث فسلّطَ عليهم «هتلر» ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة إسرائيل التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات، وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، تصديقاً لوعد الله القاطع، وفاقاً لسنته التي لا تتخلف..)[2].

ثم إذا كان أولئك قد شرفهم الله سبحانه بـ «البعث» و«الإرسال» و«الانبعاث» ليوقعوا وعده سبحانه على بني إسرائيل حين فسدوا الإفساد الأول فماذا يقال للإفساد الثاني الذي بعده والذي تلاه والذي كان حين كفروا بعيسى — وهو أصلاً قد بعث إليهم — مصدقاً لما معهم من التوراة؟ وماذا يقال عن فسادهم حين كفروا بمحمد ﷺ وأعلنوا الحرب عليه؟ وماذا يقال عن إفسادهم واستعلائهم الذي نحن فيه اليوم؟.

والسؤال قبل الأخير.. هل كان لأولِئك جوس - خلال - ديار بني إسرائيل. أم أنه الاجتياح والدمار والخراب؟.

والسؤال الأخير.. هل كانت لبني إسرائيل كرّةٌ ودولة على أيّ واحد من أولئك فكان لهم المدد في الأموال والبنين وكانوا فيها أكثر نفيرا ؟؟..

هذا ما ستبينه لنا المعطيات القرآنية التي ما تزال ثرّة ولما يُقضَ إيحاؤها بعد...

ثم بعد هذا نقول: إنه ربما طرح على مائدة هذا البحث الذي نحن بصدده سؤال يُعترض به علينا...

---

(١) التفسير الكبير للإمام الرازي ١٥٨/٢٠.

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب ٣٠٧/٥-٣٠٨. وانظر المطلب الثاني في المبحث الأول من الفصل الرابع حيث فصّلت هذا الموضوع هناك.

وهـــو.. إنـــه قد وردت كلمة «عباد» في أكثر من موضع يشير ظاهرها إلى أنها ليست بالمعنى الذي تقرر فيما سبق ونعتقده صواباً..

ومثل هذا وارد.. و﴿**الله لا يستحيي من الحق**﴾ ففي القرآن ميزة الإيجاز التي هي من الإعجاز.

لفـــظ واحـــد يجيء في عدة مواضع وفي كل موضع له معنى ما، واستعمال ما.. وذلك لكي يحرّك القرآن العقول والإفهام فتبحث عن المراد من هذا اللفظ وسر اختياره هنا في هذا الموضع بالذات بينما كان اختيار غيره في سواه من المواضع؟.

وللإجابة على هذا التساؤل أقول:

الـــذي علـــيه أهل العلم أن الغالب يأخذ حكم الكل[1]. فإطلاق لفظ العباد على الغالـــب الأعم ينسحب إلى كل الداخلين فيه وان كان هناك من لم يدخل في المراد من الـــنص - ربما - إلا بقرينة ما تعيّن المراد وتخصص المقصود. أما المطلق الذي لم يخصص كلفظ «عباد» في القرآن التي وردت في الغالب الأعم على الأنبياء والصالحين كما رأينا، ووردت كذلك في ثلاث مواضع يدل ظاهرها على غير ما قلناه..

الأول – في سورة المائدة عند قوله تعالى:

﴿**إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**﴾ آية/١١٨.

الثاني – في سورة الإسراء عند قوله تعالى:

﴿**وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً**﴾ آية/١٧.

الثالث – في سورة يس عند قوله تعالى:

﴿**يا حسرة على العباد** ﴾ آية/٣٠.

* فآيـــة المـــائدة يوحي ظاهرها أن عيسى - عليه السلام - يقصد الناس الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله.. بينما المعنى الذي قصده عيسى من العباد هم الحواريين كمـــا هـــو المفهوم من مقتضى النص الذي جاء ضمن الجو العام للآيات بدءاً من قوله

---

(١) انظر ما قاله الآلوسي في تفسيره حول هذا الموضوع في ٢٢٨/٢٣.

تعـــالى: ﴿**وإذ أوحيـــت إلى الحواريـــين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مســـلمون**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم**﴾ الآيات ١١١-١١٨.

فالقرآن هنا يقرر حقيقة لا شك فيها وهي إيمان الحواريين بالله وبرسوله وإقرارهم بهذا ﴿**قالوا آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون**﴾ ...

يقـــول صاحب الظلال: (يذكره بنعمة الله عليه في إلهام الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرســـوله، فإذا هم ملبّون مستسلمون ويشهدونه على إيمانهم وإسلامهم أنفسهم كاملة لله...)[1].

أمـــا قضية عتاب الله لعيسى وسؤاله أمام الملأ الأعلى ﴿**أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله**﴾ إنما هو من باب التعريض بقومه الذين اتخذوه إلها من دون الله بينما هو لم يطلب منهم هذا، إنما كان أول كلمة قالها لهم ﴿**قال إني عبد الله**﴾ مريم/٣٠. ودعوته كلها كانت ﴿**أن اعبدوا الله ربي وربكم**﴾ المائدة/١١٧.

قال الرازي: (والمعنى ما قلت لهم إلا قولاً أمرتني به..)[2].

المهـــم إن الآيات تثبت أن الحواريين الذين آمنوا بالله وبعيسى رسول الله لم يقولوا بألوهية عيسى في حياته وإلا أنكرها عليهم حين كان حياً بين أظهرهم فقد كان شهيداً علـــيهم مـــا دام فيهم.. ﴿**وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم**﴾ ولكن ﴿**فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيبَ عليهم**﴾ يارب، فإن قالوا ذلك فلا ذنب لي ولكن حين كنتُ فيهم فأنـــا شـــهيد بأنهم مؤمنين.. فعن هؤلاء قال عيسى: ﴿**إن تعذبهم فانهم عبادك**﴾ الذين اخترتهم واصطفيتهم وألهمتهم الإيمان ﴿**وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قـــالوا آمنا**﴾ لاعن القوم الذين أشركوه بالله إلهاً في أقانيم ثلاثة، فإن الإشراك ليس ذنباً حـــتى يقول عيسى ﴿**وإن تغفر لهم**﴾ إذ لا يمكن أن يجهل وهو نبي قضيةً من أهم وأكبر

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب ٣/٧١.

(٢) تفسير الرازي ١٢/١٣٥.

قضايا الإيمان وهي ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به**﴾ بينما هو ولا شك يعلم علم اليقين قضية ﴿**إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾ وان كانت كبائر، برحمته وفضله على عباده.. ولو كان عيسى يقصد غير الحواريين الذين أشركوا ما قال ﴿**وإن تغفر لهم**﴾ فان الكافر مخلد في النار والمشرك لن يغفر الله له ولذلك لم يقل ﴿**إنك أنت الغفور الرحيم**﴾ وانما قال: ﴿**فإنك أنت العزيز الحكيم**﴾.

وفي هذا يقول الإمام الرازي: (معنى الآية ظاهر، وفيه سؤال: وهو أنه كيف جاز لعيسى - عليه السلام - أن يقول ﴿**وإن تغفر لهم**﴾ والله لا يغفر الشرك؟)[1].

ثم أورد أربعة أجوبة للجواب على هذا السؤال لا مجال لذكرها إلا اختصاراً.. فأقول: (أن عيسى في خلال حياته شهد لهم بالإيمان وعدم الكفر أو الشرك وأنهم قد نصروه فكانوا من المصطفين الأخيار وكان عليهم شهيداً ما دام فيهم، أما حين توفاه الله ورجع قومه إلى الكفر والشرك فكانوا من الضالين الذين اتخذوه إلهاً من دون الله فهؤلاء أصلاً لم يكن الله ليغفر لهم و لم يكن عيسى عليه السلام ليدعو الله لهم بالمغفرة، وإنما قصد أولئك الذين آمنوا به وأسلموا لله وقالوا: ﴿**إنا نصارى...**﴾ وقالوا: ﴿**... واشهد بأننا مسلمون**﴾.

(روى الحافظ ابن عساكر عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: (وإذا كان يوم القيامة دعي بالأنبياء وأممهم، ثم يدعى بعيسى فيذكّره الله بنعمته عليه فيقر بها فيقول: ﴿**يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك**﴾ ثم يقول: ﴿**أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله**﴾ فينكر أن يكون قال ذلك.. فيأتي بالنصارى فيُسألون فيقولون: نعم هو أمرنا بذلك قال فيطول شعر عيسى - عليه السلام - فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدي الله عز وجل مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب، ويُنطلق بهم إلى النار)*.

---

(١) انظر تفسير الرازي ١٢/١٣٦-١٣٧ فقد بيّن الحكمة من قوله تعالى: (العزيز الحكيم) و لم يقل: (الغفور الرحيم). وانظر كذلك الظلال ٣/٧١.

* انظر مختصر ابن كثير ١/٥٦٤ فقد أخرجه في تفسيره وانظر صفوة التفاسير ١/٣٧٥.

وإننا لنلمح من خلال السياق إشارات نفهم منها أن عيسى - عليه السلام - كان يقصد من خلال إجابته أمراً ما.. في ذلك الموقف الرهيب بين يدي الله سبحانه والذي أخبر عنه في قوله تعالى: ﴿**يوم يجمع الله الرسل فيقول ما أجبتم ؟.. قالوا لا علم لنا...**﴾ كيف ؟ لا علم لهم !!

هل نسوا ما كان لّما رأوا هول الموقف بين يدي الله وقد جُمِعوا.. أم ماذا ؟.

ثم حين يسأل الله عيسى من دون كل الأنبياء غيره ﴿**وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله**﴾ كان مقتضى الكلام أن يقول عيسى (لا لم اقل لهم ذلك) ولكنه قال ﴿**سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق**﴾ كيف لم يذهل عيسى عما قال كما ذُهِل الأنبياء عما أجيبوا من قومهم؟ الموقف رهيب نعم، ولكنه في مجال — ربما — في ما يستحيل في حق الأنبياء أن يقولوا على الله كذباً.. أو ما ليس لهم به حق.. فحين يقول عيسى ﴿**وإن تغفر لهم**﴾ فإنه في هذا المجال الذي له فيه حق وهو مقتضى أنه كان شهيداً عليهم ما دام فيهم — انهم مؤمنون — وأشهدوه أنهم مسلمون: ﴿**قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون**﴾ فلا يأتي هنا ويغير ولو كان الموقف رهيبا.. فانهم كانوا - حين كان بينهم في الدنيا - عباداً لله ونصارى، فاستحقوا في القيامة أن يطلب لهم المغفرة لذنوبهم لا لشركهم إذ انهم لم يشركوه بالله وإنما فعل ذلك مَن جاء بعدهم بعد أن أضلهم بولس - شاؤول - الذي اندسّ بينهم وجعل نفسه رسولاً من عيسى المسيح فادعى أنه لقيه على طريق دمشق وأعطاه انجيلاً (نفى عنه فيه كونه إنساناً وإنما هو إلهاً، فقد كانت ألوهية المسيح إختراعاً ليس عشوائياً، بل هو اختراع محسوب ومضبوط مع خطة طرد المسيحيين من أورشليم إلى طريق الأمم)[1].. ليضلوا.. فضلوا.

ومن أجل ذلك أطلق القرآن عليهم صفة الضالين.

---

(١) يراجع في ذلك كتاب المسيح الدجال - قراءة سياسية في أصول الديانات الكبرى لسعيد أيوب.
وخاصة موضوع - الاختراق - ثغرة جدار المسيحية ص/٣٧ وما بعدها.

وفي هذا يقول ابن عاشور: (والنصارى ضلّوا بعد الحواريين وأساؤا فهم معنى التقديس في عيسى عليه السلام فزعموه ابن الله على الحقيقة، قال تعالى: ﴿**قل يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلو من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل**﴾[1] المائدة/٧٧.

والكلام عن الذنوب ومغفرتها دون غفران الشرك ينسحب هنا إلى ما تعينه الآية في سورة الإسراء وهي قوله تعالى: ﴿**وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً**﴾ /١٧.

إن الذنوب لتصدر من العباد كما تصدر من العبيد لكن مع الفارق، فأن (مصطلح) الذنوب يطلق على أخطاء ترتكب في معصية الله وما نهى الله عنه وهي كما قال الراغب: (تستعمل في كل فعل يستوخم عقباه، ولهذا سمي الذنب تبعة، اعتباراً لما يحصل من عاقبته، وجمع الذنب ذُنُوب، قال تعالى: ﴿**فأخذهم الله بذنوبهم**﴾[2] آل عمران/١١.

قلت: ومنها صغائر ومنها كبائر والله يغفر أيها شاء أو كلاهما إن شاء لمن يشاء كما قال تعالى: ﴿**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم**﴾ النساء/٣١. وقال: ﴿**إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾ الزمر/٥٣.

أما الكفر فإنه ليس كذلك إذ إن (الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة ... والكافرعلى الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثتها)[3].

وكذلك الشرك فإنه في الدين ضربان:

أحدهما: - الشرك العظيم - وهو إثبات شريك لله تعالى، وذلك أعظم من الكفر قال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به**﴾ النساء/٤٨. وقال: ﴿**ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة**﴾ المائدة/٧٢.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١/٢٠٠.

(٢) انظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص/١٨١.

(٣) المصدر السابق ص/٤٣٤.

الثاني: - الشرك الصغير - وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور وهو الرياء والنفاق المشار الآية بقوله: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾[1] يوسف/١٠٦.

فتخصيص الله تعالى هنا إضافة الذنوب إلى العباد دون الكفر أو الشرك أمر مقصود وله دلالة معينة يفهم هذا من إقرانها وإضافتها إلى العباد. فكون الحق سبحانه وتعالى قال (بذنوب) كان أخف من غيرها وإضافته إلى (عباده) الذين هم غير كافرين ولا مشركين وإلا لما أضافهم إليه عن طريق الهاء الذي يعود إلى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿**وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً**﴾.

وكما سبق القول إن الإضافة هنا في (عبده - وعباده - وعبدنا - وعبادنا) إضافة تشريف من الله لعباده فقد صرّح بذلك الإمام الرازي - كما ذكرنا آنفاً- في تفسيره حيث قال: (وفرق بين العبد مطلقاً وبين المضاف إلى الله تعالى فان الإضافة إلى الشريف تكسو المضاف شرفاً...)[2].

فلا يُخرج العباد من دائرة العبودية لله كونهم أذنبوا بل وحتى لو أسرفوا على أنفسهم في ذلك والله تعالى يقول: ﴿**يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾ الزمر/٥٣.

وكما هو معلوم من الدين بالضرورة إن المسلم قد يكون عاصياً أو فاسقاً أو فاجراً.. ولكن لا يكون كافراً أو مشرك وإلا لخرج من دائرة الإسلام.. ومع هذا فنحن لا نقول بحصر ولا قصر لفظ العباد على المؤمنين الذين أخلصهم الله واصطفاهم دون شمول غيرهم في هذا اللفظ ولكن نقول إن دخول هؤلاء كان من باب الأغلب الأعم الذي يأخذ حكم الكل كما قال بذلك الآلوسي: من (إن معظم الشيء يقام مقام كله)[3] فيأخذ حكمه.

---

(١) المصدر السابق ص/٤٥٩-٢٦٠.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٦٣/٢٦ يراجع ما ورد في معنى العباد في بداية هذا المطلب وما قاله الآلوسي في ١٣٠/١٥ وما قاله الشنقيطي في أضواء البيان ٣٩٨/٣١.

(٣) انظر روح المعاني ١٣٠/١٥.

أمـــا الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿**يا حسرة على العباد**﴾ في سورة يس/ ٣٠ فقد ذكر فيها المفسرون كلاماً كثيراً وسأقتصر على ما أورده الإمامان الرازي والآلوسي باختصار حيث كان لهما في هذه المسألة إحاطة وبيان.

قال الرازي: (قال تعالى: ﴿**يا حسرة على العباد**﴾ أي هذا وقت الحسرة فاحضري يا حسرة.. والتنكير للتكثير...).

ثم قال في المسألة الثانية: (من المتحسر..؟ نقول فيه وجوه.

الأول: لا متحسراً أصلاً في الحقيقة، إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب.

الثاني: إن قائل – يا حسرةً – هو الله على الاستعارة تعظيماً للأمر وتهويلاً له.

الثالث: المتلهفون من المسلمين والملائكة، ألا ترى ما حكي عن حبيب[1] أنه حين القتل كان يقول اللهم اهدِ قومي، وبعدما قتلوه وأدخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون فيجوز أن يتحسر المسلم للكافر ويتندم عليه..).

وقال في المسألة الثالثة قريء:

أ /- ((يا حسرةٌ)) بالتنوين.

ب /- ((يا حسرة العباد)) بالإضافة.

ج /- ((يا حسره على العباد)) بالهاء إجراء الوصل مجرى الوقف.

وقال في المسألة الرابعة... من المراد بالعباد ؟ -

نقول فيه وجوه:

أحدهما: الرسل الثلاثة... كأن الكافرين يقولون عند ظهور البأس يا حسرةٌ عليهم يا ليتهم كانوا حاضرين شأننا لنؤمن بهم.

ثانيهما: هم قوم حبيب.

ثالثهما: كل من كفر وأصر واستكبر.

---

(١) حبيب النجار الذي جاءهم من أقصى المدينة يسعى فقال: يا قوم اتبعوا المرسلين.

* وعلى الأول فإطلاق العباد على المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ الحجر/٤٢. وقوله: ﴿**يا عبادي الذين أسرفوا**﴾ الزمر/٥٣.

* وعلى الثاني فإطلاق العباد على الكفار.. وفرق بين العبد مطلقاً وبين المضاف إلى الله فان الإضافة إلى الشريف تكسو المضاف شرفاً.. تقول بيت الله فيكون فيه من الشرف ما لا يكون في قولك بيت).

قلت: كأن الإمام الرازي رحمه الله يريد أن يقول إن استعمال كلمة العباد له دلالةٌ خاصة في المواضع التي جاءت فيها لذلك نجده يقول مضيفاً إلى ما سبق:..

(وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿**وعباد الرحمن**﴾ من قبيل قوله ﴿**إن عبادي**﴾ وكذلك ﴿**عباد الله**﴾[1].

ثم نجد الإمام الآلوسي يؤيد ما ذهب إليه الرازي:

يقول في قوله تعالى: ﴿**يا حسرة على العباد**﴾ الحسرةُ على ما قال الراغب – الغمُّ على ما فات والندم عليه، كأن المتحسر إنحسرت عنه قواه من فرط ذلك أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه، وفي البحر هي أن يركب الإنسان من شدّة الندم ما لا نهاية بعده حتى يبقى حسيراً، والظاهر أن – يا – للنداء و– حسرة – هو المنادى ونداؤها مجاز بتتريلها مترلة العقلاء كأنه قيل: يا حسرة أحضري فهذه الحال من الأحوال التي من حقها أن تحضري فيها..

ثم قال: والمراد بالعباد مكذبوا الرسل ويدخل فيهم المهلكون المتقدمون دخولاً أولياً.. ويضيف: وأخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أنه قال في بعض القراءات ﴿**يا حسرة العباد على أنفسها ما يأتيهم...**﴾ وجوّز أن تكون حسرة الملائكة عليهم السلام والمؤمنين من الثقلين.

وعن الضحاك تخصيصها لحسرة الملائكة عليهم السلام وزعم أن المراد بالعباد الرسل الثلاثة، وأبو العالية فسّر – العباد – بهذا أيضاً.)[2]..

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/٦٣.

(٢) انظر روح المعاني للآلوسي ٢٣/٣.

ثم بعد مناقشة وبحث لغوي يذكر ما يلي (وقيل - يا - للنداء والمنادى محذوف و- حسرة - مفعول مطلق لفعل مضمر و - على العباد - متعلق بذلك الفعل أي - يا هؤلاء تحسروا حسرة على العباد)[1].

وبعد.. فتحمل هذا اللفظ لهذه المعاني يجعلنا لا نسقط أي منها ولا نجزم بأحدها بل نرجح ما كان وارداً في الأغلب الأعم بشرط أن لا يكون مخالفاً لطرائق المفسرين ولا لشروط التأويل الصحيح التي حددها أهل العلم..

يقول ابن عاشور - في المقدمة الرابعة - في تفسيره.. (فغرض المفسر بيان ما يصل الآية أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى... ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم)[2]. ثم يضيف ...

(فطرائق المفسرين للقرآن ثلاثة...

الأول: إما الاقتصار على الظاهر من المعنى الأصلي للتركيب مع بيانه وإيضاحه وهذا هو الأصل..[3].

الثانية: وإما إستنباط معان من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ أو المقام ولا يجافيها الاستعمال ولا مقصد القرآن..[4].

الثالثة: وإما أن يجلب المسائل ويبسطها لمناسبة بينها وبين المعنى، أو لأن زيادة فهم المعنى متوقفة عليها..[5] [6].

أما من ناحية عدم المخالفة لشروط التأويل الصحيح فقد قال صاحب الوجيز في أصول التشريع الإسلامي[7] ما نصه:

---

(١) نفسه ٢٣/٤.

(٢) تفسير ابن عاشور ٤١/١.

(٣) وهذا ما فعلناه مع قوله تعالى (وكفى بربك بذنوب عباده).

(٤) كما مرّ معنا من بيان آية المائدة (إن تعذبهم فانهم عبادك).

(٥) كما مرّ في الآية من سورة يس (يا حسرة على العباد).

(٦) انظر تفسير ابن عاشور - المقدمة الرابعة - ٤٢/١ بتوسع.

(٧) الدكتور محمد حسن هيتو.

(للتأويل الصحيح شروط يجب مراعاتها حتى يصح هي:

أولاً: أن يكون موافقاً لوضع اللغة أو عرف الاستعمال، وكل تأويل خرج عن هذا فليس بصحيح.

الثاني: أن يكون هناك دليل يدل على أن المراد من اللفظ هو المعنى الذي حمل عليه، وأُول الظاهر إليه، فإذا إنعدم الدليل بطل التأويل.

الثالث: يمكن أن يكون دليل التأويل قياسياً، وفي هذه الحالة يشترط به أن يكون جلياً لا خفياً.

الرابع: أن لا يعود التأويل على ظاهر النص بالبطلان)[1].

قلت: فإن كان الذي قلناه مخالفاً لطرائق المفسرين فهل كان في شروط التأويل الصحيح هذه ما يخالف الذي قلناه في شيء؟ قليلاً كان أو كثيراً؟.

اللهم هداك نبغي... والحكمة من النص ضالتنا... فهيئ لنا من أمرنا رشدا...

ب - أولي بأس شديد:

ثانياً- في قوله تعالى:﴿ أولي بأس شديد﴾.

عرفنا إن أهم المقومات التي امتاز بها المبعوثون على بني إسرائيل عقب فسادهم الأول هم كونهم (عباداً لله.. مخلَصين) وهؤلاء بديهيا أن تكون لهم صفات يُعرفون بها... قال القرآن عن أولاها أنهم ﴿**أولي بأس شديد**﴾ كميزة قلّما تجدها في غيرهم.

فماذا يعني البأس ؟.. ولماذا كان شديداً؟.

إن البأس صفة مشتركة قد تجدها في أي شيء يمكن أن يقال عنه أنه ذو بأسٍ شديد كقوله تعالى: ﴿**لينذر بأساً شديداً**﴾ الكهف/٢. وقال عن الحديد: ﴿**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد**﴾ الحديد/٢٥. أما أن يصف صنفاً من عباده بقوله: ﴿**عباداً لنا أولي بأس شديد**﴾ فإنه يعني ولا شك أمراً ما..

---

(١) الوجيز في اصول التشريع الاسلامي - د. محمد حسن هيتو ص/٢٥٢ ط/٣ - ١٩٩٠ - بيروت.

علماء اللغة يقولون: (البأس – هو الشدّة والمكروه.. والبؤس في الفقر.. أما البأس فهو في الحرب والنكاية[1].

وعند ابن منظور أن (البأس – الشدّةُ في الحرب)[2].

ويقول الليث: (البأساء) اسم للحرب والمشقة والضرب..

وابن الأعرابي يقول: (البأس والبَئِس – العذاب الشديد.. ورجل بِئسٌ.. شجاع..)[3].

قال تعالى: ﴿**والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً**﴾ النساء/٨٤،

﴿**فأخذناهم بالبأساء والضراء**﴾ الأنعام/٤٢.

﴿**بأسهم بينهم شديد**﴾ الحشر/١٤.

والبأس غير القوة.. حيث أن (القوة غالباً ما يتقوى بها على القتال من – عدد وعُدة – ولها عدة استعمالات في اللغة كما بيّن ذلك الراغب في مفرداته حيث قال:

- القوة تستعمل تارة في معنى القدرة الإلهية كقوله تعالى: ﴿**إن الله قوي عزيز**﴾ المجادلة/٢١.
- وتستعمل أخرى في معنى البدن كقوله تعالى: ﴿**من أشد منا قوة**﴾ فصلت/١٥.
- وتستعمل ثالثاً في قوة القلب كقوله تعالى: ﴿**يا يحيى خذ الكتاب بقوة**﴾ مريم/١٢.
- وتستعمل رابعاً في المعاون من خارج كقوله تعالى: ﴿**لو أن لي بكم قوة**﴾ هود/٨٠.
- ومنه ما يتقوى به من جند ومال كقوله تعالى: ﴿**نحن أُولوا قوة وأُولوا بأسٍ شديد**﴾ النحل/٣٣.

أي أولي وسائل حربية وجنود[4].

أما البأس فهو الشدة في الجسم والنفس والقلب أو ما يعبّر عنه بـ (القوة الذاتية) أو (الروح المعنوية) في زماننا والتي إن وجدت مجتمعة كان البأس على قدرها زيادة أو

---

(١) انظر مفردات الراغب "ص/٦٦"

(٢) لسان العرب لابن منظور "١٥٢/٢".

(٣) صفوة البيان – مخلوف ص٣٥٩.

(٤) انظر مفردات الراغب " ص/٤١٩".

نقصاناً حتى وإن عدمت أسباب القوة المادية من عدد وسلاح ونحوه.. ولذلك حين وصفهم القرآن بـ (أُولي بأس - قال عنه - شديد) إشارة إلى قوة إيمانهم وصدق يقينهم بالله وثقتهم بنصره.

قال الآلوسي: (إن وصف البأس بالشديد مبالغة.. كأنه قيل ذوي شدة شديدة.. كظل ظليل)[1].

والعجيب أنك تجد هؤلاء العباد الذين وصفهم القرآن في هذا الموضع بـ ﴿**أُولي بأس شديد**﴾ وصفهم في موضع آخر بأنهم ﴿**أشداء على الكفار.. رحماء بينهم**﴾ وتلك حالة فريدة لاتجد لها مثيل عند غيرهم، إذ أنك لايمكن أن تجد صفتين متناقضتين ومتلازمتين في شيء واحد فالصلابة واللين لايمكن أن تجتمعا في شيء واحد إلا إذا كان متميزاً والشديد لا يكون رحيماً إلا إذا كان في حالة ارتقاء إيماني يجعله شديداً على أعدائه رحيما مع إخوانه.. وهذا أفق إيماني رحيب ارتقى القرآن باتباع النبي ﷺ إليه فقال تعالى: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار... رحماء بينهم**﴾ الفتح/٢٨.

بينما تجد على النقيض من هذا موقف الذين كفروا من اليهود حين وصفهم القرآن بأن ﴿**بأسهم بينهم شديد.. تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى**﴾ الحشر/١٤.

ولعل هذا هو أهم أسباب ضعفهم وتمزقهم وبالتالي جبنهم وتخاذلهم مما جعل الذلة مضروبة عليهم والمسكنة وباؤوا بغضب من الله..

ولهذا هم ﴿**يحسبون كل صيحة عليهم**﴾ و﴿**لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون**﴾ ولأنهم جبناء لا يفقهون ﴿**لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر.. بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى.. ذلك بأنهم قوم لا يعقلون**﴾ الحشر/١٣/١٤.

هذا من جهة ومن جهة أخرى إن أي ذي بأس شديد - غير عباد الله المخلَصين - لا يمكن أن يكون رحيما كما كان صحابة رسول الله ﷺ،فإنهم إذا دخلوا قرية

---

(١) انظر روح المعاني - للألوسي «١٥ - ١٧».

أفســدوها. وجعلوا أعزة أهلها أذلة. ثم ترك لك أن تتصور ماذا عسى أن يفعلوا ليقول لك بعدها.. نعم ﴿**وكذلك يفعلون**﴾ النمل/٣٤.

لكــن مــن كانــت أولى صفاهم.. ﴿**عباداً لنا**﴾ وكانوا ﴿**أُولي بأسٍ شديد**﴾ ثم ﴿**جاســوا خــلال الديار**﴾ ديار من بعثوا عليهم فانتصروا عليهم.. لم يقتلوا شيخاً ولا امــرأةً ولا طفــلاً بل إنهم لم يقطعوا شجرة.. إنما هم جاسوا - فقط خلال الديار - يبحثون عمن حمل السلاح لقتالهم أو عمن كمن للغدر بهم في المنعطفات..

يقــول الشيخ عبد المعز في حديثه عن بعض صفات من بُعث على بني إسرائيل في عقوبتهم الأولى:

(هذه المرّة الأولى لا تنطبق أوصافها إلا على أصحاب رسول الله ﷺ..

أ - فهم الذين يستحقون شرف هذه التسمية ﴿**عباداً لنا**﴾ لأنهم الموحدون أتباع عبده الذي أسرى به.

ب - وهم الذين وصفهم الله في كتابه بأنهم: ﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾.

ج / - وهم الذين لم يكلفهم تأديب اليهود إلا أن ﴿**جاسوا خلال الديار**﴾[1].

قلــت: وكل ما قاله ونقله المفسرون - رضي الله عنهم - من أن المبعوثين كانوا جالوت أو بختنصر أو سنحاريب أو غيرهم من البابليين أو الرومان ممن قتل منهم سبعين ألف وساق الباقين أسرى إلى بابل ودمر أورشليم واعتدى على أعراضهم وفتح بطونهم بحــثاً عن الذهب الذي ابتلعوه إلى آخر ما ارتكبوه من فضائع في بني إسرائيل مما يصدق أن يقال عنه أنه اجتياح وليس جوساً..

إذ أن الجــوس يلقــي ظــل الهدوء والسكينة مع الترقب والحذر مما يوحي بالتمكين والسيطرة وأنهم كانوا أولي بأس شديد بحيث لم يستطع أحد أن يجابههم.. وفي (وصف الله سبحانه وتعالى لهؤلاء المبعوثين على اليهود بأولي بأس شديد دون أولي قوة.. له بعدان:

---

(١) مــن مقــال بعــنوان «سورة الإسراء تقص نهاية إسرائيل» للشيخ عبد المعز عبد الستار أورده السيد طنطاوي في كتابه بنو إسرائيل في القرآن والسنة انظر «٢/٣٨٠».

الأول: إن الغرض الأساسي في وعد اليهود بالعقوبة هو بيان أن هؤلاء المبعوثين، سيترلون المكروه الشديد بهم، وهو ما يتناسب مع ذكر البأس.

الثاني: إن عدم ذكر قوة هؤلاء المبعوثين والتي تعني وسائل حربهم وكثرة جنودهم أمر مقصود، لأنهم قد لا يملكون هذه الكثرة ولا يكونون أولي قوة كبيرة، ومع ذلك فهم أولو بأس شديد، وهذا هو حال المسلمين عندما قضوا على إفساد اليهود الأول في صدر الإسلام، وهو حالهم عندما سيقضون عليهم، ويتبرون علوهم الكبير بإذن الله في المرّة الثانية)[1].

قلت: وهذه حقيقة قرآنية بينتها سورة الإسراء وغيرها من السور القرآنية في أكثر من موضع في طرحها للحقائق التي ينبغي أن لا تُغْفَلْ وضربت لها أمثلة كثيرة والتي منها حين أخبرت عن قوم ملكة سبأ.. فهي بعد أن أُلقي إليها كتاب سليمان ﴿**قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري.. ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون..**﴾ طلبت منهم الرأي والمشورة لكنهم ماذا قالوا: ﴿**قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين**﴾ النمل ٣٢/٣٣.

فهم إذاً قد شهدوا على أنفسهم أنهم ليسوا أصحاب رأي نابع من قلوب لها عقيدة.. ونفوس لها مبدأ قد آمنت به... ربما كانوا أصحاب أجسام ضخام وقوة في العدد والعدة.. نعم كانوا يعولون على قوة عدّهم الحربيّة وعددهم الكثير..

فقالوا نحن ﴿**أولوا قوة**﴾.. وبهذه القوة - الرجال والسلاح - التي كانوا يعتقدون أنهم بها ﴿**أولوا بأس شديد**﴾.

وهناك فارق كبير بي البأس الشديد وبين القوة التي تعتمد على العدد والعدة. وفارق كذلك بين البأس الشديد الذي يكون أساسه ومصدره (القوة المعنوية) والتي تزرعها في النفوس والقلوب عقيدة الإيمان والتوحيد الصحيح والتي جاء بها كل الأنبياء وأرسل بها كل الرسل: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحي إليه أنه لا اله إلا أنا فاعبدون**﴾ الأنبياء/٢٥.

---

(١) زوال إسرائيل – أسعد التمتمي «ص/٣٩».

وبين البأس الذي يكون اعتماده على العدد والعدة الظاهرة بحيث لو فقدت القوة الحربية وقل العدد سيفقد البأس شدته، بل ربما لا يبقى هناك بأس أصلاً.. إن الأول هو بأس عقيدي ومعنوي نابع من إيمان الإنسان بربه ومن يقينه بحفظه ومن ثقته بوعده.. لا تستطيع الأحداث أن تزلزله مهما عظمت لأنه موصول بروح من الله سبحانه.. وإنه ليزيد بالقوة الحربية وإعداد الجنود الذين لا يمثلون في حقيقة الأمر إلا أخذاً بالأسباب وإعداداً لقدر الله وتلك قضيّة أُمرنا أن لا نتجاهلها اعتماداً على قدر الله وحده ﴿**وما النصر إلا من عند الله**﴾ وحده - نعم - ولكن لا بد من ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل ترهبون به عدوا الله وعدوكم**﴾ الأنفال/٦٠.

ولذلك تجد أن القران كان دقيقا جداً - كما هي طبيعته - في عرض هذه الحقيقة فحين قال حكاية عن قوم بلقيس ﴿**قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد**﴾ فقدم القوة ثم أتبعها البأس الشديد.. فاعتماد البأس على القوة وحدها أمر غير صحيح، فهب إن القوة ُعدِمت بفقد السلاح والرجال فقد هُدِمَ البأس وفَقَدَ شدَّته.. فهم قوم لا يرتجى منهم خير وذلك ملحوظ من الآية نفسها إذ ما ظنك بقوم ﴿**أولوا قوة وأولوا بأس شديد**﴾ ثم يقولون لامرأة تملكهم ﴿**والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين**﴾ النمل/٣٣.

فحين وصف القرآن - العباد - الذين بعثهم الله على بني إسرائيل بعد فسادهم الأول بأنهم ﴿**أولي بأس شديد**﴾ إنما يشير إلى قوة عقيدتهم.. وصلابة إيمانهم وصدق يقينهم بنصر الله..فضلاً عن إعدادهم - ما استطاعوا - من قوة ومن رباط الخيل الذي أرهبوا به عدو الله وعدوهم.. وكانوا بذلك أولي بأس شديد فاستحقوا نصر الله بعد ما أخذوا بكامل أسبابه.. فجاسوا خلال الديار.. وكان ذلك كما قال الله: ﴿**وعداً مفعولاً**﴾.

ج - يجوسون خلال الديار:

د - يدخلون المسجد مرتين:

ثالثاً- في قوله تعالى: ﴿فجاسوا خلال الديار..﴾...

جاسوا.. خلال الديار.. وهم أولوا بأس شديد.. عبادا لله وحده.. بعثهم الله على بني إسرائيل ليوقعوا قدره فيهم.. عباداً صدقوا الله فصدقهم الله وعده.. إنه كان وعده مفعولاً..

والجوس كلمة لها جرس خاص بها، وهي يتيمة لها قيمة، لم تذكر في القرآن و لم يستخدمها إلا في هذا الموضع: ﴿**فجاسوا خلال الديار**﴾.

* / والجوس.. أصله من (الجسّ) وهو مسّ العرق وتعرف نبضه للحكم به على الصحة والسقم.. وهو أخصّ من الحس فإن الحس تعرّف ما يدركه الحس.

* / والجَسّ تعرّف حالٍ ما.. ومن لفظ الجَسّ أُشتق (الجاسوس)[1].

ومصدر الجوس كما يقول ابن منظور هو (جاس - يجوس - جوسا - وجوساناً).

وقال جاسوا وحاسوا بمعنى واحد.. أي يذهبون ويجيئون.

* / قال الزجاجّ: ﴿**فجاسوا خلال الديار**﴾ أي فطافوا في خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه ؟.

* / وفي الصحاح: جاسوا خلال الديار أي تخللوها فطلبوا ما فيها، كما يجوس الرجل الأخبار يطلبها.. وكذلك الإجتياس، والجوسان: بالتحريك الطوفان بالليل. وكل ما وطئ فقد جيس والجوس.. كالدوس.

* / ورجل جوّاس.. يجوس كل شيء، يجوسه.

* / ورجل يجوس الناس أي يتخطاهم، والجوس طلب الشيء باستقصاء.

* / قال الأصمعي: تركت فلاناً يجوس بني فلان ويجوسهم.. أي يدوسهم ويطلب فيهم.. يجوس.. يتخلل[2].

---

(١) انظر مفردات الراغب «ص/٩٣».

(٢) انظر لسان العرب لأبن منظور «١/٥٣٣».

ولقد تباينت أقوال المفسرين في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿**فجاسوا خلال الديار**﴾ فقال الإمام الطبري: (أي فترددوا بين الدور والمساكن وذهبوا وجاؤوا، يقال فيه جاس القوم بين الديار وحاسوا: بمعنى واحد.. وأضاف: وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول: (معنى جاسوا قتلوا، ويستشهد لقوله ببيت حسان:

ومنا الذي لاقى بسيف محمد فجاس به الأعداء عرض العساكر

وقال: وجائز أن يكون معناه: فجاسوا خلال الديار فقتلوهم ذاهبين وجائين فيصح التأويلان جميعاً[1].

وبنحو هذا قال القرطبي[2] وقال ابن كثير: (فجاسوا خلال الديار.. أي تملّكوا بلادهم وسلكوا خلال بيوتكم أي بينها ووسطها)[3]

أما الإمام الشوكاني فقد قال فيها: (أي عاثوا وترددوا..).

قال الجواهري: الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار أي تخللوها كما يجوس الرجل للأخبار أي يطلبها.. وكذا قال أبو عبيدة..

وقال الفراء: معناه قتلوهم بين بيوتهم)[4].

والإمام الآلوسي يجمل هذا المعنى في قولين فيقول: (والجمهور على إن في هذه البعثة خرّب هؤلاء العباد بيت المقدس ووقع القتل الذريع والجلاء والأسر في بني إسرائيل وحُرِقت التوراة... وعن ابن عباس ومجاهد انه لم يكن ذلك، إنما جاس الغازون خلال الديار وانصرفوا بدون قتال)[5].

ويورد الإمام الماوردي خمسة تأويلات لهذه فيقول: (الآية ﴿**فجاسوا خلال الديار**﴾ فيه خمسة تأويلات:

---

(١) انظر تفسير الطبري «١٥/٢٧».

(٢) انظر تفسير القرطبي «١٠/٢١٦».

(٣) تفسير ابن كثير «٣/٢٥».

(٤) فتح القدير للشوكاني «٣/٢٠٢».

(٥) انظر روح المعاني للآلوسي «١٥/١٨». قلت: والقول الثاني أصح لما تقدم من معنى الجوس.

أحدها: يعني مشوا وترددوا بين الدور والمساكن.. قاله ابن عباس - وقال - وهو أبلغ في القهر.

الثاني: معناه.. فداسوا خلال الديار.

الثالث: معناه.. فقتلوهم بين الدور والمساكن.

الرابع: معناه.. فتشوا وطلبوا خلال الديار.. قاله أبو عبيدة.

الخامس: معناه.. نزلوا خلال الديار.. قاله قطرب[1].

وبنحو هذا قال الإمام ابن الجوزي في تفسيره..[2].

ويصرح الإمام الرازي بهذا التباين في أقوال المفسرين فيقول: (واختلفت عبارات المفسرين في تفسير «جاسوا».

- / فعن ابن عباس: فتشوا..
- / وقال أبو عبيدة: طلبوا من فيها..
- / وقال ابن قتيبة: عاثوا وأفسدوا..
- / وقال الزجاج: طافوا خلال الديار هل بقي أحد لم يقتلوه ؟..
- / وقال الواحدي: الجوس هو التردد والطلب وذلك محتمل لكل ما قالوه [3].

ويوضح الإمام محمد الشنقيطي هذا المعنى فيقول: (فجاسوا خلال الديار - في القاموس - الجوس: بالجيم طلب الشيء باستقصاء مع التردد خلال الديار والبيوت، ففي اللفظ معنى التفتيش والتنقيب خلال الديار.. أي وسطها)[4].

فإذا كان المعنى الأساسي لكلمة (الجوس) هو (طلب الشيء باستقصاء مع التردد)[5] كما قال أهل اللغة والتفسير..

---

(١) تفسير الماوردي ٢/٤٢٤.

(٢) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٥/٨.

(٣) تفسير الإمام الرازي ٢٠/١٥٦.

(٤) التفسير الواضح - محمد حجازي ١٥/٧.

(٥) انظر أضواء البيان - محمد الشنقيطي ١٥/٧.

وجاسوا خلال الديار - أي تخللوها فطلبوا ما فيها، كما يجوس الرجل الأخبار يطلبها.. ولذلك اشتق لفظ (الجاسوس) من لفظ (الجس).

قال تعالى: ﴿ولا تجسسوا﴾ [1] الحجرات/١٢.

فيكون المعنى أنهم لم يجتاحوا الديار أجتياح تدمير وتخريب وقتل واعتداء[2] بل هو كما قال صاحب أضواء البيان وانما هو بإستقصاء مع التردد خلال الديار والبيوت.. ففي اللفظ معنى التفتيش والتنقيب خلال الديار أي وسطها.. وهذا المعنى مفهوم من خلال كلمة «خلال» نفسها وما تلقي من ظلال.

يقول الراغب (الخللُ فُرجة بين شيئين وجمعه خلال.. كخلال الدار والسحاب.. قال تعالى في وصف السحاب: ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ النور /٤٣.

وقوله: ﴿ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة﴾ التوبة/٤٧ أي سعوا وسطكم بالنميمة والإفساد)[3].

فكلمة (خلال الديار).. التي تعني (بين الديار).

وأنت ترى الصورة التي يصورها القرآن لحركة أؤلئك المبعوثين عليهم ليوقعوا بهم وعد الله فيهم.. (فجاسوا.. ولم يقل ليجوسوا) كما قال ليسوؤا.. وليدخلوا.. حين يخبرك عن مستقبل سيقع ولكنه قال (فجاسوا..) أي كأن الجوس كان وأصبح ماضيا وهاهم الرجال - العباد - دخلوا أرضهم وديارهم، وهاهم يتحركون ويذهبون ويجيئون في ديارهم التي تركوها وأخرجوا منها فهي خالية من أي أحد. وخربت بعضها عن عمد.. صورة من صور النصر والعزّة للعباد الذين كانوا أولي بأسٍ شديد.. وهاهم اليوم قد جاسوا خلال ديار اليهود، إنه تصوير إيحائي لما كان وربما لما سيكون.

و(التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، وهو يعبّر بالصورة المحسّة المتخيّلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن

---

(١) انظر لسان العرب ٥٣٣/١ وانظر المفرادت للراغب ص١٠٣ وانظر مختار الصحاح للرازي ص١٠٤.

(٢) كما نقل ذلك أغلب المفسرين.

(٣) انظر مفرادات الراغب ص١٥٣.

النموذج الإنساني والطبيعة البشرية.. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، والحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد.. وإذا النموذج الإنساني شاخص حي.. وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية.. فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة.. فيها الحياة.. وفيها الرحمة.. فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل)[1].

وإنك لترى وأنت تقرأ هذه الآيات حركة الرجال - العباد - الذين يجوسون بين الديار يبحثون عمن تخلف عن الجلاء واختبأ خوفا من القتل وقد كان من المفسدين.

إن القرآن لم يخبر عن معركة - حدثت - رهيبة ومدمرة - كما قيل ويقال- لم يخبر عن جيوش تقاتلت في ملاحم مجنونة سقط ضحيتها سبعون ألفاً وربما أكثر أو أقل في مفازة من الأرض أو داخل الحصون والأسوار ثم كان ما كان من التقتيل والدمار.. ثم دخلوا بعد ذلك يمشون - خلال - الديار دون أن يتعرضوا إلى الديار نفسها.. وكأن الملوك إذا دخلوا قرية لم يفسدوا فيها و لم يجعلوا أعزة أهلها ؟؟؟

بل: ﴿**إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها.. وجعلوا أعزة أهلها أذلة**﴾... كلمة حق بكل ما فيها من معنى.

القرآن لم يقل هذا وإنما أخبر عن حالة من البحث والتحرّي (بين الدور والمساكن وذهبوا أو جاؤوا)[2].. (خلال الديار والبيوت، ففي اللفظ معنى التفتيش والتنقيب)[3].. (فطافوا في خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه؟)[4].. كما قال الزجاج.

وفي ذلك أعظم دليل على أنهم كانوا ﴿**أولي بأسٍ شديد**﴾ فهل سمعت الدنيا عبر التأريخ بجيش من رجال أولي بأسٍ شديد يبحثون بين الديار دون أن يتعرّضوا للديار نفسها..؟

---

(١) التصوير الفني في القرآن - سيد قطب ص١٥.

(٢) كما قال بذلك الطبري انظر ٢٧/١٥.

(٣) كذلك في التفسير الواضح - محمد حجازي ٧/١٥.

(٤) انظر لسان العرب لابن منظور ٥٣٣/١.

ماذا فعل الذين انتصروا على أعدائهم؟ ماذا فعل الغالبون بالمغلوبين؟. أليس ما قالته بلقيس كان حقيقة ﴿**إن الملوك - الذين لم يكونوا عباد الله - إذا دخلوا قرية أفسدوها**﴾ إن العباد المبعوثين لمعاقبة اليهود في الوعد الأول لم يفعلوا هذا.. إنما هم فقط (جاسوا - بحثوا - فتشوا - طلبوا من فيها - وبعد أن قتلوا بعضهم نزلوا فيها، وذلك محتمل لكل ما قالوه[1].. كما قال ذلك الواحدي.

فمن غير الصحابة (ينطبق عليهم هذا الإخبار وهذا التصوير الدقيق لما قاموا به..؟ إنهم لم يفعلوا شيئاً مما قاله المفسرون من أعمال (رهيبة) قام بها الذين دخلوا بيت المقدس من قتل كثير وإراقةٍ للدماء حتى غدت أنهاراً وحرقٍ للهيكل وتدمير أورشليم وخلط تربتها بقناطير الملح حتى لا تنبت زرعاً[2].

ثم إن هناك حقيقة لا تكتمل الصورة إلا بها.. وهي أن (الجوس خلال الديار) هو غير (الدخول إلى المسجد) يعني بعبارة أخرى أن الديار المقصودة في الآية الأولى هي ليست ديار بيت المقدس كما قال أصحاب القول الأول[3]. حيث لم يكن المسجد بيد اليهود أولاً. ولم يكن اليهود يسكنون ديار بيت المقدس يوم دخله - العباد - أصحاب النبي (في خلافة عمر الفاروق. وإنما هي ديار بني إسرائيل من - اليهود - الذين كانوا يعيشون في المدينة والذين تولوا كبر الإفساد الأول في إعلان العصيان ونقض العهود وتأليب الكافرين على رسول الله ﷺ الذي عرفوه وأيقنوا بصدقه ﷺ.

وذلك ملحوظ ومفهوم من خلال الاستقراء القرآني لكلمة (الديار) نفسها والتي هي جمع لكلمة (دار) حيث تجمع على حالتين:

الأولى - دور.. والثانية - ديار.

إن كلمة (دار) مؤنث وقد تذكر.. فإذا ذُكِّرتْ جُمعت على صيغة (دور) أما حال كونها مؤنثة فإنها تجمع على صيغة (ديار)*.

---

(١) راجع ما قاله الإمام الرازي ١٥٦/٢٠.

(٢) انظر تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢٤٢/١ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٠٣/١.

(٣) أغلب المفسرين.

* انظر الفرق بين كلمتي دار وديار في ص/١٩٤ هامش /١.

هذا من ناحية اللغة أما من ناحية الاصطلاح فان القرآن لم يستعمل لفظ الديار إلا في حالــة الخــروج مــنها على جهة الإكراه أو القهر وذلك ما كان واضحاً في كل استعمالات القرآن لها..

فلقــد استعملت كلمة (الديار) في ستة عشر موضعا في القرآن الكريم كله جاءت في الغالب الأعم مقرونة بذكر الخروج منها قهراً أو إكراهاً.. أنظر..

أولاً: مضافة إلى كاف المخاطب في أربعة مواضع منها هي:

١- قوله تعالى: ﴿**وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من - دياركم -**﴾[1] البقرة /٨٤

٢- قوله تعالى ﴿**ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من-دياركم -ما فعلوه إلا قليل منهم**﴾ النساء /٦٦.

٣- قوله تعالى ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من - دياركم - أن تبروهم**﴾ الممتحنة/٨.

٤- قوله تعالى ﴿**إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من - دياركم**﴾ الممتحنة/٩.

ثانياً: مضافة إلى هاء الغائب في عشرة مواضع منها.. وهي:

١ / قولــه تعــالى: ﴿**ثم أنــتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من - ديارهم -**﴾ البقرة/٨٥.

٢ / قوله تعالى: ﴿**ألم ترَ إلى الذين خرجوا من - ديارهم - وهم ألوف حذر الموت**﴾ البقرة/٢٤٣.

٣ / قولــه تعــالى: ﴿**فالذين هاجروا واخرجوا من - ديارهم - وأوذوا في سبيلي**﴾ آل عمران/ ١٩٥.

---

(١) انظر على سبيل المثال تفسير هذه الآية في تفسير ابن كثير ١/١٢١ حيث قال: «أي لا يقتل بعضكم بعضاً ولا يخرجه من منــزله ولا يظاهر عليه».

٤ / قولـــه تعالى: ﴿**ولا تكونوا كالذين خرجوا من – ديارهم – بطراً ورئاء الناس**﴾ الأنفال/٤٧.

٥ / قولـــه تعالى: ﴿**وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في – ديارهم – جاثمين**﴾ هود/٦٧.

٦ / قولـــه تعالى: ﴿**وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في – ديارهم – جاثمين**﴾ هود/٩٤.

٧ / قولـــه تعالى: ﴿**الذين أخرجوا من – ديارهم – بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله**﴾ الحج/٤٠.

٨ / قولـــــه تعـــالى: ﴿**وأورثكم أرضهم – وديارهم – وأموالهم وأرضاً لم تطئوها**﴾ الأحزاب/٢٧.

٩ / قولـــه تعالى: ﴿**هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من – ديارهم – لأول الحشر**﴾ الحشر/٢.

١٠ / قولـــه تعالى: ﴿**الذين أخرجوا من – ديارهم – وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً**﴾ الحشر/٨.

ثالثاً: مضافة إلى نون المتكلم في موضع واحد: قوله تعالى: ﴿**وقالوا وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من – ديارنا –**﴾ البقرة/٢٤٦.

رابعـــاً: لم تـــرد معرفة بلام العهد إلا في موضع واحد هو في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿**بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد، فجاسوا خلال – الديار –**﴾ الإسراء/٥.

(والتعريف في الديار تعريف العهد أي دياركم وذلك جعل أصل (الـــ) عوضاً عن المضاف إليه)[1].

ونســـتطيع أن نقول إن لفظ الديار في قوله تعالى: ﴿**فجاسوا خلال الديار**﴾ جاء يحمـــل معـــنى معيـــناً خاصاً به يقصد من خلال استعماله بالذات (دون استعمال غيره

(١) تفسير ابن عاشور ١٥/٣١.

ككلمة - مساكن - مثلاً أو - بيوت -)[1]. الإيحاء بأن العباد سيجوسون خلال الديار الـــتي كان يعيش فيها اليهود.. والتي شاء الله أن تكون في المكان الذي قامت فيه دولة الإســـلام وكان وجود النبي (فيه معهم.. النبي الأمي الذي قُطع العهد والميثاق مع نبيهم أنه إذا جاء لينصرنّه وليؤمننّ به كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء فســـأكتبها للذيـــن يـــتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر...**﴾ الأعراف/١٥٧.

تلك الديار التي جاسها المسلمون وداسوها ومشوا خلالها يتحرون عمن بقي منهم لم يقتلوه..

أمـــا المسجد الذي دخلوه فلم يكن بأيدي اليهود فكيف يجوسون خلال ديارهم ويدخلون المسجد في نفس الوقت.. ومن هنا تتبين الحكمة من تأخر ذكر المسجد إلى ما بعد الجوس حيث ذكر في الوعد الآخر حين قال تعالى: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكـــم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة**﴾ ولم يذكر في الوعد الأول لأن العقوبـــة كانـــت قد نزلت عليهم يوم بعث الله عليهم عباده المؤمنين فابتدأت في السنة الثانـــية للهجرة بعد خيانة يهود قينقاع[2]. وانتهت بالقضاء على الوجود اليهودي سنة سبع للهجرة بعد غزوة خيبر.

ثم القضاء على الوجود النصراني في غزوة تبوك سنة تسع للهجرة ثم بعث أُسامة بن زيـــد إلى فلســـطين والشام[3] آخر بعوث رسول الله (وكان في جنوده كبار الصحابة رضـــوان الله علـــيهم ولم يتم فتح بيت المقدس إلا في زمن عمر بن الخطاب (ودخول

---

(١) قلت: وقد استعملها القرآن في مواضع وآيات كثيرة معلومة كقوله: (ومساكن ترضونها) التوبة/٢٤، و(اجعلوا بيوتكم قبلة) يونس/٨٧.

(٢) انظر فقه السيرة - للبوطي ص٢٤٠، وانظر ما قلناه من كلام الدكتور فضل/ والشيخ عبد المعز ص١٥٤ فما بعدها.

(٣) انظر سيرة ابن هشام ٣٨٤/٤.

المسجد الأقصى سنة ستة عشر للهجرة.. فحين أخّر الله خبر الدخول إلى المسجد في آية الوعد الآخر إنما لمناسبة تأخر دخول المسلمين إلى تلك السنة وكان ذلك وعداً مفعولاً.

هـ - حتمية تحقق الوعد الأول:

رابعاً: في قوله تعالى: ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾

(كان: عبارة عما مضى من الزمان.. وفي كثير من وصف الله تعالى تنبئ عن معنى الأزلية، قال تعالى: ﴿**وكان الله على كل شيء مقيتا**﴾ النساء/٨٥...وما استعمل منه في جنس الشيء متعلقاً بوصف له هو موجود فيه تنبيه على أن ذلك الوصف لازم له، قليل الانفكاك منه نحو قوله تعالى في الإنسان: ﴿**وكان الإنسان كفوراً**﴾ الإسراء/٦٧. وقوله: ﴿**وكان الإنسان أكثر شيء جدلا**﴾ الكهف/٥٤. وقوله: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ آل عمران/١١٠. فقد قيل معنى كنتم - معنى الحال - وليس ذلك بشيء بل إنما ذلك إشارة إلى أنكم كنتم كذلك في تقدير الله تعالى وحكمه)[1].

فكذلك في قوله تعالى: ﴿**وكان وعداً مفعولاً**﴾ أي في تقدير الله وحكمه..

يقول الإمام الرازي: (وكان وعداً مفعولاً.. أي كان قضاء الله قضاءً جزما حتماً لا يقبل النقض والنسخ)[2] ومجيء الفعل (كان) في صيغة الماضي الذي يراد به الاستقبال حيث إنه (لما كان وعد الله في غاية الثقة أنه يقع عبّر عن مستقبله بالماضي)[3].

(والوعد يكون في الخير والشر، يقال وعدته بنفع وضر وعداً وموعداً وميعاداً.. والوعيد في الشر خاصة.. قال تعالى: ﴿**إن الله وعدكم وعد الحق**﴾ إبراهيم/٢٢.

﴿**وعد الله الذين آمنوا**﴾ المائدة/٩.

ومن الوعيد بالشر قوله تعالى: ﴿**ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده**﴾ الحج/٤٧. وقوله: ﴿**وإما نرينّك بعض الذي نعدهم**﴾ يونس/٤٦..

---

(١) مفردات الراغب ص٤٤٤.

(٢) انظر تفسير الإمام الرازي ٢٠/١٥٦.

(٣) النهر الماد من البحر المحيط - لأبي حيان الاندلسي ١٥/٢٨٣.

ومما يتضمن الأمرين قول الله عز وجل: ﴿**ألا إن وعد الله حق**﴾ يونس/٥٥.

فهذا وعد بالقيامة وجزاء العباد إن خيراً فخير وان شراً فشر..

وقوله تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنوا..**﴾ إلى قوله: ﴿**ليستخلفنهم**﴾ وقوله - ليستخلفنهم - تفسير لِوَعَدَ.. وقوله تعالى: ﴿**وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم**﴾ فقوله - أنها لكم - بدل من قوله: إحدى الطائفتين.. تقديره.. وعدكم الله إن إحدى الطائفتين لكم إما طائفة العير وإما طائفة النفير)[1].

ولقد ذكرت كلمة - الوعد - وما اشتق عنه في القرآن الكريم مئة وتسعة وخمسين مرّة.. موزعة في سوره المكيّة والمدنية كلاهما.

بينما نجد - وفق قانون النسب -[2] إن هذه الكلمة قد وردت في سورة الإسراء وحدها (ست مرات).. وهي نسبة لم تبلغها في أية سورة أخرى غيرها.. هذه واحدة.

والثانية: إن هذه المرات الست التي ذكر فيها الوعد.. قد ذكر فيها الوعد فيما يخص بني إسرائيل خمس مرات.. بينما المرّة السادسة قد ذكر فيها الوعد الذي يخص الشيطان ووعده أولياءَه من الكافرين والمشركين والمنافقين من الذين استفزهم وأجلب عليهم بخيله ورجَلِه وشاركهم في الأموال والأولاد ووعدهم بغرور.. والذين كانوا - دون شك - أغلبيتهم من اليهود إلا من رحم ربك.. وقليل ما هم.

وهذه المرات التي ذكر فيها - الوعد - في سورة الإسراء هي:

١/ قوله تعالى: ﴿**فإذا جاء - وعد - أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا**﴾ الآية/٥.

٢/ قوله تعالى: ﴿**فجاسوا خلال الديار وكان - وعداً - مفعولاً**﴾ الآية/٥.

٣/ قوله تعالى: ﴿**فإذا جاء - وعد - الآخرة ليسؤوا وجوهكم**﴾ الآية/٧.

٤/ قوله تعالى: ﴿**فقلنا من بعده لبني إسرائيل أسكنوا الأرض فإذا جاء - وعد - الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾ الآية/١٠٤.

---

(١) مفرادت الراغب ص٥٢٦-٥٢٧.

(٢) انظر ما قلناه عن قانون النسب في القرآن في المبحث الأول.

٥/ قولـــه تعالى: ﴿**ويقولون سبحان ربنا إن كان – وعد– ربنا لمفعولا**﴾ الآية/١٠٨.

أما المرة السادسة والتي تخص (وعد الشيطان وأولياءه) فهي:

٦/ قولـــه تعالى: ﴿**واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلـــك وشـــاركهم في الأمـــوال والأولاد – وعدهم – وما يعدهم الشيطان إلا غروراً**﴾ الآية/٦٤.

هـــذا كله من جهة ومن الجهة الأخرى يتبين لنا قانون النسبة مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿**وعداً مفعولاً**﴾ إذ أن هذه الصيغة لم ترد في القرآن كلّه إلا ثلاث مرات.. مرّةً واحدة في سورة المزمل ومرتين في سورة الإسراء...

انظر: ١/ قوله تعالى: ﴿**السماء منفطر به كان – وعده مفعولا –**﴾ المزمل/١٨.

٢/ قوله تعالى: ﴿**فجاسوا خلال الديار وكان – وعداً مفعولا –**﴾ الإسراء/٥.

٣/ قوله تعالى: ﴿**ويقولون سبحان ربنا إن كان – وعد ربنا لمفعولا–**﴾ الإسراء/١٠٨.

ومن غير المعقول ولا المقبول أن يكون هذا قد جاء هكذا بصورة عفوية في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... إنه تتريل من حكيم عليم.

يقـــول الشيخ أسعد التميمي: (إن القرآن الكريم لم يستعمل هذا التعبير إلا في هذا الموضع واستعمل تعبيرين قريبين منه:

أولهمـــا: في نفس سورة الإسراء وبعد قوله لبني إسرائيل: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا**﴾ قال تعالى: ﴿**قل آمنوا به أو لا تؤمنوا، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتـــلى علـــيهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون.. سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا**﴾ الإسراء/١٠٨.

وثانـــيهما: في خطابه تعالى لمشركي قريش بعد تشبههم بفرعون وذكر ما حل به فقال تعالى: ﴿**فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا، السماء منفطر به كان وعده مفعولا**﴾ فهو حكاية لقول العلماء[1] في حق القرآن،.. فيبقى استعمالان من قبل الله تعالى لـــ (الوعد المفعول).

---

(١) المقصود بالعلماء من كان عنده علم من صالحي أهل الكتاب. وانظر صفوة التفاسير للصابوني ١٧٩/٢.

أحدهما: إنذار لفراعنة قريش بوعد اليوم الآخر الذي لا يطاق.

الثاني: إنذار لفرعنة اليهود بيوم المسلمين عليهم الذي لا يطاق...)[1].

ممـــا سبق يتبين لنا إن قوله تعالى: [وكان وعداً مفعولا] قد كان وسيبقى (وعداً مفعولا) و(مقضياً لا صارف له)[2].

لأنه من الله أولاً.. ولأنه قضي عليهم به ثانياً.. ولأنه مما تأذن الله به ثالثاً..

إذ أنـــه وعـــد بالعقوبـــة التي تأذن الله بها أن يترلها عليهم كل حين وهذا مما أثبته التأريخ... فليسأل..

وممـــا أثبتـــته سورة الإسراء التي تفردّت بالإنباء عن وعدي العقوبة لبني إسرائيل مستقبلاً - كما رأينا - وكما أثبته القرآن في غير سورة. كما في سورة غافر مثلا التي نزلت بعد سورة الإسراء والتي تكلمت عن الوعد الذي وعد به الذين كفروا بالله وكتبه ورسله وباليوم الآخر.. فقد جاءت الآيات توصي النبي ﷺ بالصبر وتذكره بأن وعد الله حق فإما أن يُرى النبي بعض ذلك الوعد في حياته وإما تسبق عليه الوفاة فإنما هم إلى الله راجعـــون.. وحين يَرِدُ هذا الأمر للنبي ﷺ ولأمته من بعده لا يأتي مرّة واحدة وإنما يرد مـــرتين في نفـــس السورة فيقول تعالى حكايةً عن موسى وإيراث بني إسرائيل الكتاب ولكنّهم جعلوه خلف ظهورهم فَسَيَحِقُّ عليهم وعد الله سبحانه..

﴿**ولقد آتينا موسى الهدى.. وأورثنا بني إسرائيل الكتاب. هدى وذكرى لأولي الألـــباب.. - فاصبر إن وعد الله حق - واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار**﴾ غافر/٥٥.

والثانـــية في الســـورة نفسها قوله تعالى: ﴿**الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رســـلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم، ثم في النار يسجرون، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله، قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين**﴾.

---

(١) زوال إسرائيل حتمية قرآنية - أسعد التميمي ص٤٠.

(٢) تفسير القاسمي ص٢٩٠٣.

ثم يقـــول تعالى: ﴿**فاصبر إن وعد الله حق.. فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون**﴾ /٧٧.

فهل الذي حدث لبني إسرائيل من قتلٍ وسبيٍ وتشريدٍ وذل وإساءة لوجوههم على يده ﷺ ويد الصحابة الذين كانوا بحق ﴿**عباداً لله**﴾ هل كان ذاك من ﴿**بعض الذي نعدهم**﴾؟.

إن القرآن والواقع والتأريخ ليشهدون ولسان حالهم يقول: ﴿**سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا**﴾ أي ما كان وعد ربنا إلا مفعولا.

ويؤكـــد مـــا ذهبنا إليه من أن العقوبة الأولى في الوعد الأول قد وقعت على بني إســـرائيل على يد النبي ﷺ وأصحابه الكرام الذين تمثلت فيهم كل المقومات الأساسية فيمن شرفهم الله بالانتساب إليه في ﴿**عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار**﴾ والتي حدثت على مراحل - كما سنرى إن شاء الله - والتي كانت تمثل الضربة القاضية لإفســـاد بني إسرائيل الأول والممتد من تحريف التوراة وعصيان عيسى ومحاولة قتله إلى تحريف الكلم عن مواضعه وعصيان النبي محمد ﷺ الذي أسلمهم إلى تيه جديد وشتات في الأرض بعد إعلان فسادهم المتمثل في كفرهم بالرسول ونقضهم العهود والمواثيق التي أخذها عليهم مّرةً بعد مرّة وفي رفع السلاح في وجه الحق وتأليب الكافرين عليه..

قلت: يؤكد ما ذهبنا إليه أيضاً أن كل الغزوات والمعارك والمواجهات التي واجه بها الـــنبي ﷺ إفساد اليهود الذين عاصروه إنما جاءت الآيات القرآنية في سورة الإسراء وفي غيرها تنطبق أيما انطباق عليها بدءاً من أول تعرّض لهم في المدينة إلى آخر جلاء لهم من المدينة ومن جزيرة العرب ذلك الجلاء الذي كان قد عزم عليه النبي ﷺ.

فقـــد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: أخبرني عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لأُخرجنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً**»[١].

حتى دخول عمر بن الخطاب وجيوشه المسجد الأقصى في السنة السادسة عشر للهجرة.

---

(١) انظر صحيح الإمام مسلم ١٣٨٨/٣ كتاب الجهاد والسير - باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب رقم الحديث ١٧٦٧.

المبحث الثاني

الإفساد الثاني والعقوبة عليه

المطلب الأول:

تحقق مقومات الإفساد الثاني

أولاً - ثم تقتضي التراخي بين الإفسادين.

ثانياً - رد الكرة وبدء الإفساد الثاني.

المطلب الثاني:

تحقق الكرة واللفيف النافر

أولاً - المدد بالأموال والبنين.

ثانياً - النفير الأكثر.

ثالثاً - فرصة اختبار واختيار.

رابعاً - حتمية تحقق الوعد الثاني.

المبحث الثاني

الإفساد الثاني والعقوبة عليه

المطلب الأول

تحقق مقومات الإفساد الثاني

«ثم»... تقتضي التراخي بين الإفسادين..تلك حقيقة تفرض نفسها.. لأنها حقيقة قرآنية أولاً.. ولأنها حقيقة لغوية ثانياً.. ولأنها حقيقة تأريخية ثالثاً...

ولذا نجد في قوله تعالى: ﴿**ثم رددنا لكم الكرّة عليهم**﴾ الكثير من المعطيات القرآنية..

أولاً: في قوله تعالى: ﴿ثم رددنا﴾.

ثُمَّ.. وثَمَّ.. بفتح الثاء: إشارة إلى المكان، قال تعالى: ﴿**وإذا رأيت - ثَمَّ - رأيت نعيماً وملكاً كبيراً**﴾ الدهر/٢٠.

- / قال الزجاج: والمعنى وإذا رميت ببصرك ثَمَّ.

  وقال: وثَمَّ في المكان إشارة إلى مكان منزاح عنك هناك وهو للتبعيد.

- / قال أبو إسحاق: ثَمَّ في الكلام إشارة بمنزلة هناك، وهو المكان البعيد منك.

  بينما - ثُمَّ - بالضم حرف نسق..

- / قال الليث: ثُمَّ حرف من حروف النسق لا يشرك ما بعدها بما قبلها... إلا أنها تبين الآخر من الأول.

- / قال الزجاج: ثُمَّ لا تكون في العطوف إلا لشيءٍ بعد شيء..[1].

---

(١) لسان العرب - لابن منظور ٣٧٦/١.

ويؤيد الراغب قول الزجّاج فيقول: (ثُمَّ.. حرف عطف يقتضي تأخر ما بعده عما قبله إما تأخير بالذات أو بالمرتبة أو بالوضع..

قال الله تعالى: ﴿**ثُمَّ عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون**﴾[1] البقرة/٥٢.

- / ويقول الرازي (ثُمَّ) حرف عطف يدل على الترتيب والتراخي[2].
- / وابن عاشور يقول: مضيفاً: (ثُمَّ.. تفيد التراخي الرُتَبي والتراخي الزمني معاً[3].

وفي قولـــــه تعالى ﴿**ثُمَّ رددنا لكم الكرّة عليهم**﴾ ما يفيد بأن الكرّة والتي هي (الدولـــة والغلبة) كما يقول جمهور المفسرين أنها أعيدت لبني إسرائيل على من جاسوا خلال ديارهم من العباد الذين بُعثوا عليهم ومن ثم فقد أُمدّوا بأموالٍ وبنين وكانوا فيها أكثر نفيراً.

وممـــا يفهـــم من كلام أهل اللغة أن مجيء (ثُمَّ) في الكلام يقتضي التراخي والبعد الـــزمني كما أن (ثَمَّ) في الكلام تقتضي التراخي والبعد المكاني.. فالتراخي في الزمن بين حادثتين أو حالتين عطفت إحداهما على الأخرى تستوجب التعبير عنها بـــ (ثُمَّ).. أما إذا كانـــت المدّةُ الزمنية بين الحالتين غير متباعد بينهما وغير متراخٍ فيهما فلا يعبر عنها بــــ (ثُمَّ) وإنما بأداة ملائمة لها كالفاء مثلاً كما تقول (جاءني زيدٌ فعمرو) يعني مجيء عمرو كان بعد زيد في مدة لم يتراخ الزمن فيها..

وكمـــا يقول تعالى: ﴿**فدعا ربه أني مغلوب فانتصر.. ففتحنا أبواب السماء بماء مـــنهمر**﴾ القمر/١١. وفتح أبواب السماء بالماء المنهمر وتفجير الأرض به يدل على أن الإجابة كانت مقاربة لحالة التوجه إلى الله وطلب النصر على القوم الكافرين.. ويوضح هذه الحالة قوله تعالى: ﴿**ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون**﴾ الصافات/٧٥.

فالـــزمن بـــين الدعاء والإجابة كان زمنا يسيراً دلّ عليه حرف الفاء الذي يوحي بقرب العهد ومثل هذا تجده في القرآن كثيراً حتى في الأمور التي تكاد تكون مستحيلة إلا

---

(١) انظر مفردات الراغب الأصفهاني ص٨١.

(٢) مختار الصحاح لأبي بكر الرازي ص٨٦.

(٣) تفسير ابن عاشور ١٥/٣٨.

علـى الله سبحانه وتعالى كدعاء زكريا - مثلاً - حينما طلب من الله ولدا يرثه ويرث من آل يعقوب وأن يكون رضيّا.. وبعد ما يدخل على مريم ويجد عندها طعاماً فيسألها فتقول له: ﴿**هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ آل عمران/٣٧.

هـذه الحقيقة كانت - ربما - غائبة عن زكريا الذي بلغ من الكبر عتيا وكانت امـرأته عاقراً، لكنه حين سمع كلام مريم: ﴿**إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ أي بلا أسباب.. تذكّر فدعا مباشرة بعد ما تنبه لشيء كان قد غفل عنه زمنا فقال القرآن بعـبارة دقيقة: ﴿**هنالك**﴾ في تلك اللحظة تنبه زكريا لشيء كان قد نسيه فـ﴿**دعا زكـريا ربه قال ربِّ هب لي من لدنك ولياً**﴾ يقول القرآن: ﴿**فنادته الملائكة**﴾ جاء حـرف الفـاء ليعبر عن قلة الزمن في استجابة الدعاء على العكس من (ثُمَّ) التي تفيد التعـبير عـن زمن امتد وتطاول.. وقد اختلفت تأويلات المفسرين في هذه المدّة تبعاً لاختلافهم في تعيين مرتي العقوبة الواقعة عليهم من العباد الذين جاسوا خلال ديارهم.. فمن جعلها هي المدة بين غلبة جالوت على بني إسرائيل أول الأمر وبين بعث طالوت ملكـاً كما قال بذلك الإمام الطبري[1] حيث قال: (إنه جالوت سلّط عليهم أولاً ثم أديل عليه بعد ذلك وقتل داود جالوت ولهذا قال ثُمَّ رددنا لكم الكرّة عليهم) وبه قال ابن كثير أيضاً[2].

والقرطبي يلمح على وجود الخلاف في ذلك فيقول: (وذلك بقتل داود جالوت أو بقتل غيره على الخلاف فيمن قتله)[3] وبنحو هذا قال الشوكاني والبيضاوي[4].

ويحدد الإمام الآلوسي المدة بمئة سنة فيقول: (وكان بين البعث والردّ على ما قيل مئة سنة.. وقيل: ردُّ الكرة بأن سلّط الله تعالى داود - عليه السلام - فقتل جالوت)[5].

(١) انظر جامع البيان للطبري ٣٠/١٥.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢٥/٣.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٢١٧/١٠ وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢١٨/١.

(٤) انظر فتح القدير للشوكاني ٢٠٢/٣ وأنوار التنـزيل للبيضاوي ١٩٧/٣.

(٥) روح المعاني للآلوسي ١٨/١٥.

والعجيب أنك تجد بعض المفسرين يورد من الأقوال المضطربة والتي لا تتفق في زمن وقوعها التأريخي مع النص القرآني.. فلو أخذنا - على سبيل المثال - الإمام الجليل ابن الجوزي فانه يورد في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ولتفسدن في الأرض مرتين..**﴾ ما يلي:

(وفي من قتلوه من الأنبياء في الإفساد الأول قولان:

أحدهما - زكريا.. قاله السدّي.

والثاني - أشعيا.. قاله ابن إسحاق.

أما المقتول من الأنبياء في الإفساد الثاني فهو يحيى ابن زكريا.. قاله مقاتل. ثم يقول: وكان بين الإفسادين مئتا سنة وعشر سنين)[١].

يعني أن بين قتل زكريا في الإفساد الأول وبين قتل يحيى ابنه في الإفساد الثاني مئتا وعشر سنين تقريباً.. ومن المعلوم أن الكرّة لبني إسرائيل قد حدثت بين الإفسادين أي بعد العقوبة الأولى على الإفساد الأول وبين العقوبة الثانية على الإفساد الثاني...[٢].

ثم نجد الإمام ابن الجوزي حين يصل في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ثم رددنا لكم الكرّة عليهم**﴾ يقول: (وذلك حين قتل داود جالوت وعاد ملكهم إليهم)[٣]. وجالوت قد سبق زكريا بمئات السنين كما هو الثابت تأريخياً.. فهل كانت الكرّة قبل الإفساد الأول؟ وإلا كيف جاء جالوت في الزمن الذي كان بين زكريا ويحيى؟..

هذا الاضطراب في النقل لا نقول عنه سببه ابن الجوزي نفسه رحمه الله لا فهو أسمى من ذلك وأجلّ، ولكن في الروايات الإسرائيلية[٤] التي وصلت إليه ممن كان يعتمد عليها ويأخذها من أهل الكتاب الذين يصرفون معاني الآيات إلى الماضي السحيق كالسُدّي وابن إسحاق، وقد فصّلنا القول في هذا مسبقاً.

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٥/٧-١٠.

(٢) انظر ما قاله الثعالبي في تفسيره لهذه الآية ٢/٣٣١.

(٣) زاد المسير لابن الجوزي ٥/١٠.

(٤) لقد قال ابن كثير عن هذه النقطة «ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز لنا كتابته وروايته» انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٥.

حين نقول إن كل ذلك مما لا يحتمله النص القرآني ولا يوحي به الجو العام للآيات والتي يفهم من سياقها أن الأمر بعيد جداً عما قيل فيه ويقال مما قال به الذين اسلموا من أهل الكتاب فلا شأن للآيات التي وردت في سورة الإسراء بجالوت ولا طالوت وإنما هو الواقع المعاصر لتزول القرآن والمستقبل الذي انطوى بظهر الغيب وهو ظاهر لا محالة لأن ذلـــك من المقضي به على بني إسرائيل، إذ هو كما قال أكذبهم - حيي بن أخطب - كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ولأن ذلك أيضاً مما نزل به القرآن في ﴿**وبالحق أنزلناه وبالحق نزل**﴾ الإسراء/١٠٥.

إن هناك كثيراً من حقائق التأريخ تقف شاهدا على أن جالوت لا شأن له بالكرة ولا داود كذلك ولا حتى زكريا ويحيى.. منها:

أولاً: قضية الصفات التي أثبتها القرآن للعباد المبعوثين لا تنطبق ولا في شيء منها على جالوت وجنوده فهم:

أ / لم يكونوا عباداً لله وإنما كانوا وثنيين يعبدون الأصنام.

ب / إنهم لم يجوسوا خلال ديار اليهود وإنما اجتاحوا بني إسرائيل فدمروا أورشليم وقتلوا بنو إسرائيل.

ج / لم يدخلوا المسجد لأنه لم يكن قد بني بعد وإنما بناه سليمان[1] بن داود وذلك بعد أن قتل داود جالوت..

صحيح أنه كان مبنياً زمن إبراهيم إذ بناه بعد البيت الحرام بأربعين سنة كما ثبت ذلك من حديث أبي هريرة[2] لكن طول المدّة الزمنيّة الفاصلة بين إبراهيم وسليمان مرورا بإســحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وما مرّت على أرض بيت المقدس من أحداث جسام كفيلة بأن تزيل بيت المقدس من الوجود.

وفي ذلك يقول الإمام الآلوسي رحمه الله:

---

(١) انظر مختصر ابن كثير ٣٥٤/٢ الهامش.

(٢) سبق تخريجه انظر ص٤٨ هامش ٣٦. وانظر الآلوسي ١٢/١٥.

(﴿وليدخلوا المسجد﴾ فإن المراد به بيت المقدس.. وداود ابتدأ بنيانه بعد قتل جالوت وإيتائه النبوة و لم يتمّه.. وأتمه سليمان عليه السلام، فلم يكن قبل داود مسجد حتى يدخلوه أول مرة)[1].

أضف إلى ذلك إن كلمة المسجد لم تُطلق عليه إلا بعد نزول القرآن - كما أسلفنا[2] - فمما سبق نخلُص إلى أن فترة الكرّة التي جاءت (ثم) تنبئ عنها هي التي نعيشها اليوم بعد ما تراجع المسلمون عن مكان القيادة والريادة وعادوا القهقرى، فرُدّتْ الكرّة لبني إسرائيل علينا.

د / إنه لم تكن لبني إسرائيل دولة ولا غلبة على من جاسوا خلال ديارهم إلا في هذه المرّة، لأن القرآن يقول: ﴿ثم رددنا لكم الكرّة - عليهم -﴾ والكرّة بإجماع المفسرين هي الدولة والغلبة[3] ولفظ ﴿عليهم﴾ يَحصر من رُدّت عليهم الكرّة فلم تكن هناك كرّة من بني إسرائيل على أحد غير المسلمين الذين جاسوا خلال ديارهم.

يقول أسعد التميمي في تعليقه على هذه الآيات: (التدمير الأول كان إخراج اليهود من الحجاز فخرج قسم منهم إلى (أذرعات) من أرض الشام حتى تبدأ المرّة الثانية من علوهم وفسادهم، ويقول الله تعالى: ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾ يعني أنه تم تدمير العلو الأول في عهد النبي والوحي يترل، وأتمه الصحابة من بعده، وتبدأ الآيات بعد ذلك لتتحدث عن المرّة الثانية في العلو والإفساد، فتخبر الآيات أن الله سبحانه وتعالى سيجعل لليهود الكرّة عليهم، على من؟.. على الذين جاسوا خلال الديار أول مرة، و(الكرة) الدولة والسلطة وحين أراد الله لليهود أن يكرّوا استعمل كلمة (ثم).. وثم كما هو معروف معناها العطف مع التراخي والمهلة.. فهل كرّ اليهود في التاريخ على البابليين

---

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ١٥/١٨.

(٢) جاء في تفسير ابن عاشور ما يلي: «ولذلك انتهى أمر اليهود وانقرض وتفرقوا في الأرض، و لم تخرج أورشليم من حكم الرومان إلا حين فتحها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب سنة ١٦ هجرية صلحاً مع أهلها وهي تسمى يومئذٍ «إلياء» انظر ١٥/١٥ وما بعدها وانظر الأساس في التفسير ٦/٣٠٤٤.

(٣) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٥/١٠ وانظر صفوة التفاسير ٢/١٥٢.

وكانت لهم دولة وسلطة عليهم ؟.. لم يحدث في التأريخ ولن يحدث الآن ولا في المستقبل، حيث أن البابليين قد انقرضوا من الدنيا كأمة وليس لهم مكان يعرفون فيه أو دولة يعيشون فيها، وحاش لله أن لا يصدق القرآن أو يكون خبره غير محقق.. إذن لابد أن تكون الكرّة على أبناء من جاسوا خلال الديار وهم المسلمون أو العرب المسلمون فقد كرّ اليهود على بلاد الشام وفلسطين منهما.. وهذا الذي نعيشه الآن)[1].. ويؤيد الدكتور فضل عباس ما قال به التميمي فيقول: ﴿**ثم رددنا لكم الكرّة عليهم**﴾ أي على هؤلاء الذين جاسوا خلال الديار، لا على أشخاصهم وإنما على ذريتهم من بعد، ويؤيد ما أقول:

أ – كلمة (ثم) وهي للتراخي كما يقول علماء العربية وهذا التراخي يتسع لأزمنة طويلة، ويدرك هذا من قرأ القرآن الكريم.. فكلمة – ثم – إذن تدل على المدّة الزمنية الممتدة بين أولئك الصحابة وبين عصرنا الذي نعيش فيه.

ب – ومن أعجب ما في الأمر وأدل على الإعجاز والإيجاز كلمة (الكرّة).. والكرّة يعبر بها عن الدولة، كما يقول علماء اللغة.. والتاريخ يشهد أنه لم تكن لليهود دولة في تاريخ المسلمين.. والواقع إن هذه الدولة إنما كانت في أيامنا هذه، هذه هي المرّة إذن التي كان لليهود فيها دولة وهذا ما أشارت إليه كلمة (الكرّة)..

ج – ومما يؤكد هذا القول ويرفعه إلى مرتبة الحقيقة قوله سبحانه: ﴿**وأمددناكم بأموالٍ وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً**﴾، أما أمر المال فلا يحتاج إلى شرح وتفصيل، وليس هناك أحد إلا ويدرك تحكم اليهود في أمر المال، وأما البنون فقد ذكروا هنا في الدولة والكرّة...)[2].

وهذه قضية ظهرت حقيقتها لأكثر من عالم ومفكر في مجال الوعي والفكر الإسلامي المعاصر ولعلّ أبرزهم الشيخ عبد المعز عبد السلام إذ يقول في قوله تعالى: ﴿**ثم رددنا لكم الكرّة عليهم**﴾.. رُدت الكرة علينا بعد ألف وثلاثمائة وسبعين سنة من تأديب الله لهم منذ بعث عليهم عباده المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ فجاسوا

---

(١) زوال اسرائيل حتمية قرآنية – أسعد التميمي ص٤١-٤٢.

(٢) نفحات من الإسراء والمعراج د.فضل حسين عباس – الجامعة الأردنية ص١٢٢.

خلال الديار.. بعد هذه المدة - التي أشار الله سبحانه لطولها بقولة (ثم) التي تقتضي في العطف تراخيا في الأجل - رُدّتْ لليهود الكرّة وأُمدوا بثلاث ما أمدوا بمثلها في تاريخهم..

١/ بأموال تتدفق عليهم من أقطار الأرض على ما أرادوا من صعبة وسهلة.

٢/ بنين مهاجرين ومقاتلين ينتخبون لحماسهم وصلاحيتهم لبناء دولتهم.

٣/ وجعلناكم أكثر نفيرا، و لم يكن اليهود في يوم أكثر نفيرا وناصرا منهم اليوم.

كل هذه الأوصاف تؤكد إن الدور الذي نعانيه اليوم هو الكرّة المعنية في الآية، وكل ما ذكره المفسرون بعيد لا تنطبق علية هذه الصفات)[١].

ثانياً: ردّ الكرّة وبدء الإفساد الثاني: في قوله تعالى: ﴿رددنا لكم﴾

كلمة «ردد» من «الرد» وهو الرجوع أو الإرجاع[٢].. «ردهُ» عن وجهه يرده «رداً» صرفه و«رِدة عودة مردود» و«مرداً» مصروف. قال تعالى «فلا مرد له» أي فلا صارف له.. و«الارتداد» الرجوع ومنه «المرتد» و«الردة» اسم منه أي الارتداد[٣].. «والردّ - صرف الشيء ورجعه والردّ مصدر رددت الشيء»[٤].

والرد نوعان..

الأول: صرف الشيء بذاته - يقال «رددته فارتد» كقوله تعالى: ﴿**ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه**﴾ الأنعام/٢٨ وقوله تعالى: ﴿**فرددناه إلى أمه**﴾ القصص/١٣- قوله: ﴿**ثم رددنا لكم الكرة**﴾ الإسراء/٦.

الثاني: صرف الشيء بحالةٍ من أحواله - منه الرد إلى حالة كان عليها كقوله تعالى: ﴿**يردوكم على أعقابكم**﴾ آل عمران/١٤٩ - ومنه قوله تعالى: ﴿**وَدَّ كثيرٌ من أهل**

---

(١) سورة الإسراء تقص نهاية إسرائيل - عبد المعز عبد السلام - انظر بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢٧٧/٢ وما بعدها.

(٢) انظر تفسير ابن عاشور ٣٢/١٥.

(٣) مختار الصحاح - للرازي ص٢١٩ وانظر المنجد للبستاني ص٢٣٨.

(٤) لسان العرب لابن منظور ١١٥٠/١.

الكـــتاب **لـــو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾** البقرة/١٠٩ أي يرجعونكم إلى حال الكفر بعد أن فارقتموه..

«والارتـــداد والردة» الرجوع في الطريق الذي جاء منه، قال تعالى: ﴿**فارتدا على أثارهما قصصاً**﴾ أي فعادا في الطريق نفسه الذي جاءا منه..

لكن «الردة» تختص بالكفر.. كقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عـــن ديـــنه**﴾ المائدة/٥٤ - وهو الرجوع عن الإسلام إلى الكفر ومنه قوله تعالى: ﴿**إن الذيـــن ارتـــدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى**﴾ محمد/٢٥. أي رجعوا إلى الحال الذي كانوا عليه قبل ذلك..

وقوـــله: ﴿**ثم - رددنا لكم الكرة عليهم**﴾ الإسراء/٦ - أي رددنا لكم الدولة والغلبة عليهم)[١] أي بعد ما كانت لهم عليكم...

قال القرطبي: «هي الدولة والرجعة» وكذلك النسفي[٢] وابن الجوزي يقول «أي أظفرناكم بهم - والكرّة معناها: الرجعة والدولة» وبه قال الماوردي[٣].

بينما يفصّل الإمام الثعالبي قوله «رددنا لكم الكرة» فيقول: (جعل «رددنا» [التي هي للماضـــي] موضع «نردُّ» [للمستقبل] لما كان وعد الله في غاية الثقة وأنه واقع لا محالة... فعـــبّر عـــن المستقبل بالماضي... [ثم قال].. وهذه الكرّة هي بعد الجلوة الأولى..[٤] وقال صاحب صفوة البيان: «الكرة: المرّة من الشيء وأصلها الكرّ وهو الرجوع إلى الشيء»[٥]... ويقول الراغب: إن أصل الكرّة هي «العطف على الشيء إما بالذات وإما بالفعل».

فبالذات - كقولك للحبل المفتول «كر» وهو الأصل مصدر وصار اسماً وجمعه «كرور».

---

(١) مفردات الراغب ص١٩٢-١٩٣ وانظر صفوة التفاسير للصابوني ١٥٢/٢.

(٢) تفسير القرطبي «٢١٧/١٠»، وانظر تفسير النسفي «١٥٣/٣».

(٣) انظر زاد المسير لابن الجوزي ١٠/٥ وتفسير الماوردي ٤٢٤/٨.

(٤) الجواهر الحسان - للثعالبي ٣٣١/٢.

(٥) انظر صفوة البيان لمحمد مخلوف ص٣٦٠.

وأمـــا بالفعل - كقوله تعالى: ﴿**فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين**﴾ الشعراء/١٠٢ - ومنه.. ﴿**ثم رددنا لكم الكرة عليهم**﴾[1] الإسراء/٦.

أي بعـــد مدّة أعدنا لكم حالكم الذي كنتم عليه قبل ذلك ﴿**عليهم**﴾ أي: على من جاسوا خلال دياركم...

ثم إن مجـــيء لفظ ﴿**الكرة**﴾ هنا يومي بحقائق مهمة تلوح من ثنايا التعبير القرآني الكريم.. فالكرّة التي هي المرّة من الشيء معطوفة على ما كان قبلها.. أي رجوع الشيء إلى مـــا كـــان قبلاً... كما هو المفهوم من كلام صاحب صفوة البيان وكلام الراغب أيضاً.. فإن هذا يقتضي..

أولاً: أنه حين رُدّت الكرّة لبني إسرائيل على من جاسوا خلال ديارهم من العباد أنـــه كـــان للعباد دولة وغلبة على بني إسرائيل فأُدِيلت وعادت إلى بني إسرائيل وأمدوا بثلاث، بأموال وبنين وجعلوا فيها أكثر نفيرا الإسراء/٦.

ثانـــياً: إن هذه الدولة والغلبة التي كانت للعباد الذين بعثوا عليهم فجاسوا خلال ديـــارهم وكمـــا رأينا إن مقتضى الجوس خلال الديار كان يقتلوا فريقا منهم ويأسروا آخرين ويخرجوا الباقين من ديارهم ومن ثم يجوسون يبحثون عن تحرٍّ واستقصاء هل بقي منهم أحد لم يقتلوه أو لم يخرجوه ومن بعد ذلك دخلوا المسجد أول مرة وكل ذلك إنما كـــان وعـــداً مفعـــولاً فكل هذه الدولة والغلبة التي كانت لهم إنما كان لها «مقومات وجـــود» بحيث إنهم حين فقدوا هذه المقومات فقدت منهم الدولة والسلطة التي كانت لهم وردت الكرّة لبني إسرائيل عليهم.. وهذه المقومات هي:

أولاً: الإقـــرار بالعبودية لله وحده والكفر بكل ما عداه وهذه من أهم خصائص إخلاص العبودية لله سبحانه: ﴿**إلا عبادك منهم المخلصين**﴾ والذين شملهم اختصاص الله لهم في «عباداً لنا» والذين لا يملك الشيطان وأعوانه عليهم سبيلاً ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين**﴾ الحجر/٤٢.

---

(١) مفردات الراغب ص٤٢٨.

وفي هذا يقول صاحب الظلال: والله يستخلص لنفسه من عباده من يخلص نفسه لله ويجردها له وحده ويعبده كأنه يراه.. وهؤلاء ليس للشيطان عليهم من سلطان.. ﴿**هذا صراط علي مستقيم... إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين**﴾ الحجر/٤٢. هذا صراط.. هذا ناموس.. هذه سنّة وهي السنة التي ارتضتها الإرادة قانوناً وحكماً في الهدى والظلال ﴿**إن عبادي**﴾ المخلصين لي ليس لك عليهم سلطان ولا لك فيهم تأثير.. إنما سلطانك على من اتبعك من الغاوين الضالين فهو استثناء مقطوع لأن الغاوين ليسوا جزءً من عباد الله المخلصين[1].

وتلك قضية بينها النبي ﷺ بقوله: (من قال لا إله إلا الله مخلصاً بها قلبه دخل الجنة)[2] ولا يتم خلوص لا اله إلا الله إلا بالبراءة من كل شيء سوى الله سبحانه.. وتلك هي عقيدة الأنبياء والمرسلين على مرّ التأريخ كما هو معلوم..

ثانياً: اتباع النبي ﷺ اتباعاً شاملاً كما أراد الله وكما أمر بحيث أنه جعل اتباع النبي ﷺ شرطاً لمرضاة الله وشرطاً في صحة الإيمان فقال: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾ آل عمران/٣١.

وقد قرن طاعة الرسول بطاعة الله وجعلها شرطاً للإيمان فقال: ﴿**وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين**﴾ الأنفال/١.

ثالثاً: تحكيم شرع الله في كل شؤون الحياة بنفس راضية تمام الرضى دون الإحساس بأي حرج مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً**﴾ النساء/٦٥.

وجعل الذين لا يرتضون حكم الله هم الظالمين: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فاؤلئك هم الظالمون**﴾ المائدة/٤٥.

هذه المقومات التي حققها النبي ﷺ في واقع الحياة إنما كانت هي هي مقومات العهد الذي أعطى بسببه إبراهيم الإمامة على الناس في قوله تعالى: ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم**

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب ٥/٢٠٧.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/٢٢٩ واللفظ له وللنسائي في عمل اليوم والليلة ١١٣٦.

ربه بكلمات[1].. **فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً﴾** البقرة/١٢٤.

قلت: ولعل هذه المقومات هي بعض تلك الكلمات التي استحقت بها هذه الأمة أن تكون بها خير أمة أُخرجت للناس وأن تكون بها الأمة الوسط لتكون شاهدة للناس فتكون بمستوى العهد الذي قال عنه سبحانه وتعالى لإبراهيم: ﴿**إني جاعلك للناس إماماً**﴾ البقرة/١٢٤- وذلك العهدْ الذي قال عنه الربيع بن أنس «عهد الله الذي عهد لعباده - دينه -، يقول لا ينال دينه الظالمين»...

وقال السُدي: ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾ «عهدي نبوتي»[2].

هو دين الله إذاً ومهمة النبوة وتبليغ الرسالة وارتقاء صرح الشهادة وقيادة الناس، وحين تخلت الأمة عن هذا كله عادت القهقرى حين تضعضعت وتبعت أذناب البقر وتركت الجهاد في سبيل الله يوم دبَّ الوهن فيها ونُزِعت منها هيبة الإسلام ونزع من صدور عدوها المهابة منها.. فكانت النتيجة أن ردت الكرّة لبني إسرائيل عليها.. وقد أمدوا بأموال وبنين وكانوا أكثر نفيراً من كل وقت مضى بل وحتى أكثر نفيراً منا...

---

(١) قال الإمام ابن كثير في تفسيره: «لقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها ابراهيم الخليل عليه السلام فروي عن ابن عباس قال - ابتلاه الله بالمناسك.. وقيل هي الخمسة من الفطرة.. وقال عكرمة عن ابن عباس انه قال: ما ابتلي بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿**واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن**﴾ قلت له: وما الكلمات التي ابتلى الله ابراهيم بهن فأتمهن؟ قال: الإسلام ثلاثون سهماً منها عشر آيات في براءة: ﴿**التائبون العابدون**﴾ إلى آخر الآية - وعشر آيات في أول سورة ﴿**قد أفلح المؤمنون**﴾ وعشر آيات في الأحزاب ﴿**إن المسلمين والمسلمات**﴾ إلى آخر الآية فأتمهن كلهن فكتبت له براءة: قال الله تعالى: ﴿**وإبراهيم الذي وفى**﴾..

وعن الربيع بن أنس قال: الكلمات ﴿**إني جاعلك للناس إماماً**﴾ وقوله ﴿**وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً**﴾ وقوله ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾ وقوله ﴿**وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل**﴾ وقوله ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل**﴾ قال: فذلك كله من الكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم.. قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله: إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع قال ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم به. انظر مختصر تفسير ابن كثير ١/١١٦.

(٢) المصدر السابق ١/١١٧.

واليوم كان هذا واقعاً ملموساً يبرز حالة هي في حقيقتها تمثل فرصة اختيار لنا ولهم.. فان عدنا عباداً لله وحده واتبعنا سنة رسوله ﷺ واحتكمنا لدينه وهداه فان الله قادر على أن يرد لنا الكرة عليهم فتكون لنا الدولة والغلبة عليهم... وحين ذاك إن تحققت فينا صفة الإنتساب إلى الله على وجه الإختصاص وصفة البأس الشديد فإن كرم الله علينا بالبعث على بني إسرائيل (لنسوءَ وجوههم.. ولندخل المسجد كما دخلناه أول مرّة ولنتبر كل ما علوه تتبيرا..) وإن أحسنوا هم - وهيهات - فلأنفسهم[1] وإن أساؤوا فلا ينفعهم ما أُمدوا به من مال وبنين وكانوا أكثر نفيرا..

فإنه... ﴿**إذا جاء وعد الآخرة**﴾... معناه إذا يجيء[2] نبعث عليكم.. عباداً لنا... ليسؤوا وجوهكم..

ثم بعد ذلك نجد الأندلسي أبا حيان، يقول في تفسيره لهذه الآية: ﴿**ثم رددنا لكم الكرّة عليهم**﴾ قال: (جعل «رددنا» موضع «نردُّ» إذ وقت أخبارهم لم يقع بعد لكنه لما كان وعد الله في غاية الثقة انه يقع عبَّر عن مستقبله بالماضي)[3].

وبهذا الانسجام والاتفاق مع الثعالبي فيما قال بأن مجيء رددنا بالماضي الذي يراد به الاستقبال[4]..

فحين قراها الصحابة والتابعون لهم «رددنا» وهي - ماض لفظاً - ومضافة إلى الضمير «نا» الذي هو للمتكلم وهو الله سبحانه - والمستقبل معنى - فكانوا يجدون فيها خطاباً لهم ينبئهم عن المستقبل أما نحن اليوم فكأننا حين نقرؤها اليوم «رددنا» نجد أنها تخاطب بني إسرائيل اليوم بواقع الحال وتقول لهم بعد ما ردَّ ت لهم الدولة والغلبة علينا ﴿**وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا**﴾...

---

(١) انظر هذا المعنى في تفسير القاسمي ص٣٩٠٤.

(٢) انظر تفسير الإمام الثعالبي ٣٣١/٢ وانظر تفسير ابن عاشور ٢٢/١٥ وانظر الأساس في التفسير - سعيد حوى ٣٠٤١/٦.

(٣) النهر الماد في البحر المحيط - لأبي حيان الاندلسي ص٢٨٠.

(٤) انظر تفسير الثعالبي ٣٣١/٢.

فحين نتمُّ قراءة الآيات نجد أنها تقول... فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا.. أي المبعوثون عليكم - وجوهكم...

وفي هذا يقول ابن عاشور... (والردُّ: الإرجاع وجيء بالفعل «رددنا» ماضياً جرياً على الغالب في جواب «إذا» كما جاء شرطها فعلاً ماضياً في قوله: ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما - بعثنا**﴾ أي إذا يجيء نبعث...

والكرّة... الرجعة إلى المكان الذي ذهب منه[1].

فكأن الآيات تعني أن بني إسرائيل كانت لهم الغلبة على الناس والظهور عليهم بسبب فسادهم واستكبارهم على الحق وتعاليهم عن هدى الأنبياء فلما فسدوا وأظهروا الإفساد في الأرض بعث الله عليهم المؤمنين فأوقعوا عليهم العقوبة الأولى فأذلوهم وقتلوهم وأخرجوهم من ديارهم وجاسوا خلالها يوم أن تمثلت فيهم أعلى درجات العبودية لله والطاعة له والخضوع لحكمه لكنه بعد إن رجع المسلمون عن هذه الصفات التي هي أهم مقومات العبودية الخالصة والقيادة الرشيدة فدخلهم الشرك والنفاق وأصبحوا في وهن إيماني فتراجعوا القهقري وأعيدت لأعدائهم من اليهود الدولة والغلبة والتسليط كرّة أخرى.. بل إنهم أصبحوا أقوى وأشد مما كانوا عليه يوم فسادهم الأول فقد أمدوا بأموال وبنين وجعلهم الله أكثر نفيراً في فسادهم الثاني هذا.

وما ذهب إليه بعض المفسرين من هذه الكرّة والمدد إنما كانا زمن نبي الله سليمان حين كانت فترة حكمه يطلق عليها الفترة الذهبية في تأريخ يهود نقول إن هذا التأويل لا يستقيم مع ما يوحي به النص القرآني الكريم... ولا الأحداث التأريخية كذلك.

---

(١) تفسير ابن عاشور ١٥/٣٢.

المطلب الثاني

تحقق المدد واللفيف النافر

أولاً: المــدد – الــزيادة في الأموال والبنين في قوله تعالى.. ﴿وأمددناكم بأموال وبنين﴾.

جاء في لسان العرب...

المدد من المدّ: الجذب والمطلُ.. مدَّهُ – يَمدّهُ – مَدّاً: زادَه...

والمادّةُ – الزيادة المتصلة.. قال تعالى: ﴿**ويمدهم في طغيانهم يعمهون**﴾ البقرة/١٥

– معناه يمهلهم.. وطغيانهم غلوهم في كفرهم... وشيء مديد – ممدود...

- / وقال اللحياني – يقال لكل شيء دخل فيه مثله فكثّرهُ: مدَّه.. مداَ..

وأمدَّ له في الأجل: أنساه فيه، ومدهُ في الغي والضلال يمدُّ مداً..

ومدَّ له: أملى له وتركهُ..

وفي التنـــزيل: ﴿**ويمدهم في طغيانهم يعمهون..**﴾ البقرة/١٥. أي يملي لهم..

- / والمدد – ما مدّهم به أو أمدّهم.. سيبويه – والجمع إمداد.
- / والمدد – العساكر التي تلحق بالمغازي في سبيل الله.
- / والإمداد –: إن يرسل الرجل للرجل مدداً..

قال تعالى: ﴿**وأمددناكم بأموال وبنين**﴾ الإسراء/٦.

فالمدد ما أمددت به قومك في حربٍ أو غير ذلك من طعام أو أعوان[١] والراغب يقـــول: إن «أصل المدّ هو الجرّ أي الزيادة ومنه المدّةُ للوقت الممتد.. ومددت عيني إلى كذا، قال تعالى: ﴿**ولا تمدنَّ عينيك**﴾ الحجر/٨٨.

وأمـــددت الجـــيش بمدد والإنسان بطعام. قال تعالى: ﴿**ألم ترَ إلى ربك كيف مدَّ الظل**﴾...

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٣/٤٥٣.

وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب... والمدّ في المكروه..

فمثال المحبوب قوله تعالى: ﴿**وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون**﴾.

وقوله: ﴿**يمددكم ربكم بخمسة آلاف**﴾ آل عمران/١٢٥.

وقوله: ﴿**وأمددناكم بأموال وبنين**﴾ الإسراء/٦.

ومثال المكروه قوله تعالى: ﴿**ونَمُدُّ له من العذاب مداً**﴾ مريم/٧٩.

وقوله: ﴿**وإخوانهم يمدونهم في الغي**﴾ [1] الأعراف/٢٠٢.

ومن معطيات قوله تعالى «وامددناكم» نجد حقيقة تناولها التعبير القرآني لكنها لم تجد حظها في الظهور كغيرها من الحقائق الجديرة بالاهتمام..

إنه ما دام «المدُّ» هو «الزيادة المتصلة بالشيء» وأن «المدد» هو ما تزيد به الجيش في الحرب من عساكر أو طعام كما قال الراغب، فان لبني إسرائيل مدداً كان ولا يزال.. وتلك قضية تتجلى فيها حكمة الله سبحانه فإن بني إسرائيل كما أنهم يختلفون عن غيرهم من الأمم في كثير من المسائل العقيدية والإجتماعية وغيرها فإنهم يختلفون كذلك في المسائل المصيرية - إن صح التعبير - فكلُّ أمةٍ من أمم الكفر والظلال التي سبقتهم وعاصرتهم في الوجود التأريخي والتي أخبر عنها القرآن فإنما تعرّضت لغضب الله تعالى وانتقامه حين كفرت بالله ورسله وكتبه وظلمت نفسها فكان أن أخبر القرآن عنها بقوله: ﴿**ولقد أهلكنا القرون من قبلكم - لما ظلموا - وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين**﴾ يونس/١٣.

وقوله: ﴿**وتلك القرى أهلكناهم - لما ظلموا - وجعلنا لمهلكهم موعدا**﴾ الكهف/٥٩.

فكان سبب الهلاك هو الظلم والكفر... والهلاك هو تدمير الشيء وفناؤه كما قال تعالى: ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾ القصص/٨٨.

ويقال للعذاب والخوف والفقر والشر كما في قوله تعالى: ﴿**كم أهلكنا من قبلهم من قرن**﴾ الأنعام/٦. وكقوله: ﴿**وكم من قرية أهلكناها**﴾ الأعراف/٤ و﴿**فهل يهلك**

---

(١) مفردات الراغب ص٤٦٤/٤٦٥.

إلا القوم الفاسقون﴾[1] الأحقاف/٣٥. فهلاك أمم الكفر والظلال كان بحيث لا يبقي الله منها شيئاً وهذا ما عبر عنه القرآن بتعبير آخر...

وهو - قطع دابر الكافرين والظالمين...

وتلك سنة الله جرت على الأمم التي كفرت بالله وعصت رسله و لم تستجب لهديه وقد حكاها القرآن في مواطن كثيرة..

أحدها: حينما أخبر عن عاد قوم هود فقال: ﴿**وإلى عاد أخاهم هوداً**﴾ الأعراف/٦٥ فحين كفروا أهلكهم فقال: ﴿**وأما عاد فأهلكوا بريحٍ صرصر عاتية، سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأهم أعجاز نخلٍ خاوية، فهل ترى لهم من باقية**﴾ الحاقة/٦-٨.

وقال عنهم بعد هلاكهم: ﴿**وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين**﴾ الأعراف/٧٢.

وكذلك ثمود قوم صالح: ﴿**فأما ثمود فأُهلكوا بالطاغية**﴾ الحاقة/٦٧.

وفي موضع آخر هي الرجفة: ﴿**فأخذقم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾ الأعراف/٧٨.

كما قيل مثل ذلك عن قوم شعيب في الأعراف/٩١ وقيل عن قوم لوط: ﴿**إن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين**﴾ الحجر/٦٦.

وكذلك كان الأمر في كثير من الأمم الكافرة قال عنهم: ﴿**فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين**﴾ الأنعام/٤٥.

تلك سنة الله في الذين خلوا من قبل والتي عومل بنو إسرائيل بغيرها حيث لم يقطع دابرهم وإنما قُطِّعوا هم إلى أمم في الأرض ومزقوا فيها...

وكان لله سبحانه في ذلك حكمة ومشيئة أعيت مذاهبها أولي الألباب فإنه سبحانه كان يستطيع وهو القادر أن يعاملهم بذنوبهم كما عومل غيرهم.. فقال سبحانه:

---

(١) انظر مفردات الراغب ص٥٤٤.

﴿أولم يهدي للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع علـى قلوبهـم فهم لا يسمعون، تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين، وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ الأعراف/١٠٠-١٠٢.

وما أنت واجد في القرآن آية تقول إن بني إسرائيل قطع دابرهم على الرغم من أن كفرهم كان أعتى من كفر غيرهم وما قتل غيرهم أنبياءهم حين قتلوا هم أنبياءهم حتى قيل لهم: **﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾** البقرة/٨٧. حتى قيل إنهم «قتلوا على الصخرة التي في بيت المقدس سبعين نبياً منهم يحيى بن زكريا» فيما أورده القرطبي في تفسيره وابن كثير في بدايته[1].

أقول مع هذا فإن الله لم يقطع دابرهم وإنما جرت عليهم سنّة التقطيع فقال تعالى: **﴿وقطّعناهم إثنتى عشرة أسباطاً أمماً﴾** الأعراف/١٦٠.

وقال بعدها: **﴿وقطّعناهم في الأرض أمماً﴾** الأعراف/١٦٨.

وحين يُسأل عن الحكمة من تقطيع بني إسرائيل في الأرض أمماً وجماعات تعيش حالة الـذل والشـتات يستشف من خلال آيات الإسراء أنه سبحانه قدْ قدّرَ عليهم وقضى أن يجعـلهم في يـوم مـا يمدُّ بعضهم بعضاً بالزيادة والعون في المال والبنين ويجعلهم أكثر من عدوهم نفيراً إلى نُصرة بعضهم بعضاً أو أكثر من أي وقت آخر نفيراً.. فزيادة المال والبنين إذاً مـن المقضـي به عليهم أيضاً وذلك داخل في مفهوم قوله تعالى: **﴿وأمددناكم بأموال وبـنين﴾** فهذا يعني أنَّ إمدادهم سيكون عن طريق زيادة نسلهم وإكثار أولادهم.. فلو أنهم قُطع دابرهم لانقرضوا كما انقرض غيرهم ولكن الله يريد أن يستمر نسلهم حتى يُحقّ الحق بكـلماته ويـترل علـيهم عذابـه ونقمته فيما قدره عليهم من جعل عقابهم على كفرهم وفسادهم وفق سنة خاصة بهم تشتمل على قانونين[2] للعقوبة لهم على فسادهم وانحرافهم..

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٢١٩/١٠ وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٥٠/٢.

(٢) سنتكلم عن قانوني العقوبة المقضي بها على بني إسرائيل لاحقاً إن شاء الله.

أحدهما: قانون ﴿ **بعثنا عليكم عبادا لنا..** ﴾ الإسراء/٥.

والثاني: قانون ﴿**وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب**﴾ الأعراف/١٦٧.

قلت: ولعل تلك هي كلمة الله التي كتبها على بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا – كلمة – سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شكٍ منه مريب**﴾ هود/١١٠. وجاءت الآية ذاتها بنصها في سورة فصلت/٤٥ فانظرها...

إن الكلمة التي سبقت من الله أن لا يأخذ بني إسرائيل بسنةٍ عامة كأهل الكفر السابقين ولا بسنة[١] أهل الإسلام من أمة محمد ﷺ أن لا يسلط عليها عدواً من سوى أنفسها فيستحل بيضتها، بل ليجعل – بني إسرائيل – بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى وان يسلّط عليهم كل أعدائهم من المؤمنين الداخلين في ﴿**عباداً لنا**﴾ ومن غير الداخلين فيها ممن يشملهم قوله: ﴿**من يسومهم سوء العذاب**﴾.

(وهنا نسأل مرّة أخرى: هل أمدّ الله اليهود بأموال وبنين غير هذه المرّة؟ لم نعرف أن ذلك قد حدث، واليهود منذ أن غضب الله عليهم وهم في بلاءٍ متصل وعذاب مستمر، فقبل الإسلام كان عذاب البابليين لهم والرومان، وبعد الإسلام أخرجهم المسلمون من الجزيرة ثم بدأت أوربا تعذبهم في إسبانيا وفي بقية أقطارها حتى جاء المسلمون فأنقذوهم من الأسبان، واستمر العذاب لهم حتى هذا القرن.. ولقد عاش اليهود في ظل دولة الإسلام عبر القرون آمنين مطمئنين، تحفظ لهم دماءهم وأموالهم، ولكنهم لم يحفظوا الجميل... وحتى نرى مبلغ صدق الآية ونرى إعجازها بأعيننا نجد دولة اليهود اليوم تعيش على البنين الذين يأتونها من أطراف الأرض ليمدوها بالجند وفي

---

(١) روى الإمام مسلم حديثاً عن النبي (يقول فيه: «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة.. سألت ربي إن لا يهلك أمتي بالسنّة فأعطانيها.. وسألته إن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها.. وسألت ربي أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها».. انظر صحيح الإمام مسلم – كتاب الفتن وأشراط الساعة ٤/٢٢١٦ رقم الحديث ٢٨٩٠.

هذه الفترة من روسيا بالذات وترى الأموال من دول الغرب[1] تأتيها بمساعدات مذهلة حتى تستمر في عدوانها وطغيانها وجبروتها ثم يقول تعالى: ﴿**وجعلناكم أكثر نفيرا..**﴾ ولذلك فان أكبر قوة عسكرية في الأرض تساند اليهود في حال نفرتها وحربها)[2].

قلت: وما حركة تحديد النسل في بلاد المسلمين إلا من كيد اليهود بهذه الأمة كي يزيدوا هم ويمتدوا ويقل غيرهم.

وفي هذا يقول العلامة أبو الأعلى المودودي مؤكداً: أن (الأهداف التي يرمي إليها الغرب من وراء نشر هذه الحركة في بلاد الشرق فإنما هي سياسية بحتة في حقيقة أمرها)[3].

ثانياً - النفير الأكثر في قوله تعالى: ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾...

إن في قوله تعالى ﴿**وجعلناكم**﴾ معاني عديدة.. حيث أن: «الجعل - أعمّ من الفعل وله عدّة تصريفات - بينها الراغب في مفرداته - منها.

١) إنه يجري مجرى - أوجد - كقوله تعالى: ﴿**وجعل الظلمات والنور**﴾ الأنعام/١.

٢) أنه ما يكون إيجاد شيء وتكوينه منه كقوله تعالى: ﴿**وجعل لكم من الجبال أكناناً**﴾ النحل/٨١.

٣) ما يكون تصيير الشيء على حالة دون حالة كقوله تعالى: ﴿**الذي جعل لكم الأرض فراشاً**﴾ البقرة/٢٢.

٤) الحكم بالشيء على الشيء كقوله تعالى: ﴿**إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾ القصص/٧.

٥) وهو المهم- أنه يجري مجرى صار كقوله تعالى: ﴿**وجعلناكم أكثر نفيراً**﴾ الإسراء/٦.

---

(١) قلت ومن دول العرب أيضاً، انظر ما فعلته حرب الخليج من صب الأموال العربية في خزائن إسرائيل وأمريكا ومن يقف معها.

(٢) زوال إسرائيل حتمية قرآنية - أسعد التميمي ص٤٣.

(٣) انظر حركة تحديد النسل - أبو الأعلى المودودي ص١٦٩.

أي صـــيرناكم أكـــثر نفيراً بعدما كنتم على العكس من ذلك[1]. ولفظ: «أكثر» يعطـــي معنى غير الذي يعطيه لفظ «كثيراً» فان أفعل - كما هو معلوم - للتفضيل أي أكثر مما سبق نفيرا..

قال ابن عاشور: (والتفضيل في «أكثر» تفضيل على أنفسهم، أي جعلناكم أكثر مما كنتم قبل الجلاء، وهو المناسب لمقام الامتنان، وقال جمع من المفسرين أكثر نفيراً من أعدائكم الذين أخرجوكم من دياركم)[2].

وفي هذه المسألة وردت عدّة أقوال للمفسرين.. فمنهم من قال معناه.. «أي أكثرُ عدداً وأنصاراً منهم» أي من أعدائهم قاله ابن الجوزي في تفسيره[3] وهذا مما أشار إليه ابـــن عاشور في قوله السابق وقال بعضهم.. ﴿**وجعلناكم أكثر نفيرا**﴾ مما كنتم - وهو تمييز جمع نفرٍ وهو من ينفر مع الرجل من قومه) قاله الإمام النسفي[4].

وقال الماوردي في قوله تعالى ﴿**وجعلناكم أكثر نفيرا**﴾ وجهان:

أحدهما: أكثر عزاً وجاهاً منهم.

الثاني: أكثر عدداً .. وكثرة العدد تنفر عدوهم منهم[5].

ولقـــد ورد لفظ «نفيرا» وما اشتق عنه في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى منها (نفـــر - ونُفـــر - ونفرا - ونفور - وانفروا - وينفروا - وتنفروا - ونفيرا — ومستنفرة) وهي من النفر - أي الانزعاج من الشيء والى الشيء كالفزع إلى الشيء وعن الشيء - ويقال نفر عن الشيء نفوراً..

قال تعالى: ﴿**ما زادهم إلا نفوراً**﴾ فاطر/٤٢.

---

(١) مفرادت الراغب ص٩٤.

(٢) تفسير ابن عاشور ١٥/٣٣.

(٣) زاد المسير لابن الجوزي ٥/١٠ وانظر صفوة البيان - مخلوف ص٣٦٠.

(٤) انظر مدارك التنـــزيل وحقائق الأقاويل - للنسفي ٣/١٥٣.

(٥) تفسير الماوردي ٢/٤٢٤.

﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله﴾[1] التوبة/٣٨. ونفر إلى الحرب ينفر وينفر نفراً - ومنه يوم النفر.. قال تعالى: ﴿إنفروا خفافاً وثقالاً﴾ التوبة/٤١. ﴿إلا تنفروا يعذبكم﴾ التوبة/٣٩.

والاستنفار - حثُّ القوم على النفر إلى الحرب.. وأيضاً حملُ القوم على أن ينفروا أي من الحرب..)[2].

فعلى هذا: ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ الإسراء/٦.

أي «صيرناكم أكثر فزعاً من غيركم» ولهذا قال ابن الجوزي في تفسيره «أكثر عدداً وأنصاراً منهم»[3] كما سبق بيانه.

ولقد أكد كثير من العلماء والمفسرين أن اليهود لم ينفروا كما نفروا في زماننا هذا.. فلم تكثر أموالهم ولا أولادهم كما كثرت اليوم..

يقول الدكتور فضل عباس في قوله تعالى: ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ (للعلماء فيه تأويلان اثنان.. بيان ذلك أن «أكثر» أفعل تفضيل، فبعض المفسرين يرى معنى الآية أي جعلناكم في هذه المرّة أكثر منكم في المرّة الأولى نفيرا فهم في هذه المرّة أكثر مما كانوا في المرّة الأولى، والرأي الآخر للمفسرين أي جعلناكم أكثر من عدوكم نفيراً وكلا التفسيرين صحيح..

أما على الرأي الأول، فاليهود في المرّة الأولى لم يكونوا إلا في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.. أو حولها، ولكنهم في هذه المرّة جاؤوا من كل صوب، فلم يكونوا من المقيمين في هذه البلاد، بل اجتمعوا من كل جانب ومن أصقاع الدنيا.

وأما على الرأي الثاني فقد كانوا أكثر نفيرا منا نحن، سواء فسّرنا النفير بمعنى النافر الذي يحمل السّلاح، أم فسّرناها بالمؤيد الذي يقف إلى جانبهم، فقد رأينا أن دول

(١) انظر تفسير مجاهد ١/٢٧٩.

(٢) مفردات الراغب ص٥٠١.

(٣) انظر زاد المسير ٥/١٠.

الأرض رأسمالية وشيوعية وقفت كلها معهم حينما أسست دولتهم، وأمدتهم بالسلاح، وأيدتهم بكل أنواع التأييد المادي والمعنوي..[1].

ولذلك فان أكبر قوة عسكرية في الأرض تساند دولة اليهود في حال نفرها وحربها[2].

يقول الشيخ سعيد حوى في الأساس في التفسير: (كما هو الحال الآن إذ تستطيع دولة إسرائيل أن تحشد جيشاً كبيراً وتستنفر العالم من ورائها)[3].

ويزيد الشيخ عبد المعز من جامعة الأزهر المسألة توضيحاً فيقول في ﴿**وجعلناكم أكثر نفيراً**﴾..

(ولم يكن اليهود في يوم ما أكثر نفيراً وناصراً منهم اليوم... ولم يتمتع اليهود في تأريخهم ولا أمة في الأرض غيرهم بمثل ما يتمتعون به من كثرة الناصر لهم والنافر لنجدتهم إذا غضبوا غضبت أمريكا وإنجلترا وفرنسا وأمم الغرب جميعاً وان دعوا أجابهم الظالمون وتنادوا لنصرتهم.. لقد اتفق الشرق والغرب - ولم يتفق يوماً - على إنشاء إسرائيل وتقسيم فلسطين.. وسكتوا - ولم يسكتوا يوماً - على مأساة اللاجئين والمنكوبين والمشردين.. كل هذه الأوصاف تؤكد أن الدور الذي نعانيه اليوم هو الكرّة المعنية في الآية، وكل ما ذكره المفسرون بعيد لا تنطبق عليه هذه الأوصاف...)[4].

ثالثاً: فرصة اختبار واختيار في قوله تعالى.. ﴿إن أحسنتم... وإن أسأتم فلها وعليها..﴾:

الإحسان فوق العدل إذ هو زائد عليه.. فتحري العدل وتحري الإحسان ندب وتطوع وعلى هذا قوله تعالى: ﴿**للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة**﴾ الزمر/١٠ -

---

(١) نفحات من الإسراء والمعراج - د.فضل حسن عباس ص١٢٣.

(٢) زوال اسرائيل - أسعد التميمي ص٤٣.

(٣) الأساس في التفسير - سعيد حوى ٣٠٤/٦.

(٤) انظر بنو إسرائيل في الكتاب والسنة - محمد سيد طنطاوي ٣٧٣/٢ من مقال للشيخ عبد المعز عبد الستار بعنوان «سورة الإسراء تقص نهاية إسرائيل».

ولذلك عظّم الله تعالى ثواب المحسنين فقال: ﴿**ولا نُضيع أجر المحسنين**﴾ يوسف/٥٦ - وقال: ﴿**إن الله يحب المحسنين**﴾ المائدة/١٣- وليس ثمة إحسان من الإنسان لنفسه من أن يتبع ما نُزّل إليه من ربه ولذلك أمر بقوله: ﴿**اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم**﴾ [١] الزمر/٥٥.

والمقصود هنا هو القرآن لأنه نزل مفصلاً وبيناً ومهيمناً على الكتب قبله ولذلك قال: ﴿**ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن**﴾ النساء/١٢٥. فحين خيّر الله سبحانه هنا بني إسرائيل بقوله: ﴿**إن أحسنتم**﴾ اختيار العمل الذي تتبعون به أحسن ما أنزل إليه... وتسلمون وجوهكم لله وتمتثلون أحسن دين أنزله الله فقد ﴿**أحسنتم لأنفسكم**﴾ وبالمقابل إنه و﴿**إن أسأتم**﴾ بإعراضكم عن دين الله ومنهجه وهداه ﴿**فلها**﴾ لأن الإساءة هي ما يعبر بها عن كلّ شيء قبيح - من قول أو فكرة أو عمل - والسيئة هي الفعلة القبيحة وهي ضدّ الحسنة.. قال تعالى: ﴿**بلى من كسب سيئة**﴾ البقرة/٨١. أي فعلةً قبيحةً.. ولذلك فعلاجها أن يأتي الإنسان بعمل يخالفها فقال تعالى: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن - السيئة**﴾ المؤمنون/٩٦.

ادفع بالعمل الصالح الذي هو أحسن العمل القبيح ليزيله كما قال تعالى: ﴿**ويدرءون بالحسنة السيئة أؤلئك لهم عقبى الدار**﴾ الرعد/٢٢. فإذا لم تمح السيئات تراكمت وظهرت على الوجوه لذلك قال ﴿**سيئت وجوه الذين كفروا**﴾ [٢]الملك/٢٧.

فنسب ذلك إلى الوجه من حيث أنه يبين في الوجه أثر القبح والغم والمساءة فإنها تكون من بعض الجزاء المقضي به على الكافرين ولذا قال: ﴿**ليسوؤا وجوهكم**﴾ الإسراء/٧ ليجعل آثار المساءة بادية في وجوهكم من أثر الحزن والكآبة والغم[٣] لما عملتم...

---

(١) انظر مفردات الراغب ص١١٩.

(٢) المصدر السابق ص٢٥٣.

(٣) انظر تفسير زاد المسير لابن الجوزي ٥/١١.

والمعنى العام يوحي - في ظاهره - أن هناك فرصة اختبار متاحة لبني إسرائيل قال عنها المفسرون ومنهم الإمام الآلوسي: (أنه «إن أحسنتم» أعمالكم «أحسنتم لأنفسكم» أي لنفعها بما يترتب على ذلك من الثواب «وإن أسأتم» أعمالكم وفعلتم الإساءة «فلها» أي فالإساءة عليها لما يترتب ذلك من العقاب)[1].

ولكن مما يعجب له القارئ لأغلب التفاسير أن بعض المفسرين يقول إن بني إسرائيل حين تابوا وأصلحوا أعيدت لهم الكرّة على أعدائهم وحين عصوا وأفسدوا ردت عليهم الكرّة من أعدائهم.. والحقيقة أني حاولت كثيراً أن أقنع نفسي بصحة هذا المعنى فلم أقتنع.. إذ متى تاب بنو إسرائيل حتى رُدت لهم الكرّة ؟ إنهم من يوم أن قالوا: ﴿**إنا هدنا إليك**﴾ الأعراف/١٥٦. إلى اليوم لم يذكر التأريخ أنهم تابوا ورجعوا وأصلحوا.. سلسلة طويلة جداً للإفساد والمكر والخديعة والكفر والظلم والقتل وو.. ملأوا صحائف الدنيا حتى تأذن الله سبحانه وتعالى بنفسه أن يبعث عليهم — إلى يوم القيامة — من يسومهم سوء العذاب وحتى جعل صفتهم التي لا تنفك عنهم أنهم كما قال الله تعالى: ﴿**مغضوب عليهم**﴾ تلاحقهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين..

﴿**كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً**﴾ المائدة/٦٤.

﴿**وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون**﴾ المائدة/٦٢.

﴿**وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾ البقرة/٦١.

وضرب الذلة والمسكنة وأنهم باؤوا بغضب من الله ليس له حد يقف عنده وإنما هو مستمر إلى يوم القيامة.. وقوله: ﴿**وكانوا يكفرون بآيات الله**﴾ ليست إخباراً عن الماضي إنما هي صفة لهم لا تنفك عنهم وكذلك قوله: ﴿**وكانوا يعتدون**﴾ والدليل نراه ونسمعه من كفر وإلحاد واعتداء شمل كل مكان وزمان تواجدهم في الأرض والتاريخ...

---

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ١٩/١٥.

إن بني إسرائيل لم يتوبوا إلى الله يوماً وما هم بتائبين وإلا لماذا يقول الله لهم: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة**﴾ يعني وعد المقابلة على فسادهم في المرة الثانية"[1] بعد أن قال ﴿**إن أحسنتم.. وإن أسأتم**﴾ لو كانت فرصة اختبار؟ إن قدرهم معلوم عند الله وما سيكون منهم كائن في علم الله وان كان بالقياس إلى علم البشر لم يكن بعد كما قال صاحب الظلال[2] وإن فسادهم الثاني والعقوبة عليه من المقضي به عليهم،

يقول ابن عاشور: (في قوله تعالى: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة..**﴾ تفريع على قوله: ﴿**وإن أسأتم فلها** ﴾. إذ تقدير الكلام فإذا أسأتم وجاء وعد المرّة الآخرة..

وقد حصل بهذا التفريع إيجاز بديع قضاء لحق التقسيم الأول في قوله: ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما...**﴾ ولحق إفادة ترتيب مجيء وعد الآخرة على الإساءة[3]، ولو عطف بالواو كما هو مقتضى ظاهر التقسيم إلى مرتين فاتت إفادة الترتيب والتفرع... و«الآخرة» صفة محذوفة دل عليه قوله «مرتين» أي وعد المرّة الآخرة.. وهذا الكلام من بقية ما قضي في الكتاب بدليل تعريفه بالفاء)[4].

ثم إن العبرة من النص ليست مساقةً لبني إسرائيل أو إخبارهم بما سيكون منهم..

إنما المقصود بالعبرة هم المؤمنون بهذا الكتاب وبهذا الدين لكي يعرفوا رسالتهم ومهمتهم وليعلموا إن الكرّة حين رُدت إلى بني إسرائيل عليهم لا لأن بني إسرائيل تابوا وأصلحوا كما قيل ويقال ولكن لأنكم أنتم الذين عدتم في الطريق الذي منه جئتم على أساس أن معنى «رد» قد عاد إلى ما كان عليه فحين فقدتم مقومات الإمامة وشروط العهد وظلمتم أنفسكم كان ﴿**ولا ينال عهدي الظالمين**﴾ حقاً واقعاً..

إن كل ما أُمد به بنو إسرائيل من أموال وبنين والنفير الكثير إنما هي أسباب للغلبة والقوة ولو أخذتم بها وأعددتم لهم مع ما تحملون من عقيدةٍ إذاً لأرهبتم بها عدو الله

---

(١) انظر تفسير الماوردي ٢/٤٢٥.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٥/٣٠٦.

(٣) الإساءة الحاصلة منهم وقت الكرة والعلو فيها أي بين الوعدين...

(٤) انظر تفسير ابن عاشور ١٥/٣٥.

وعدوكــم.. إن كل الأسباب الماديّة متاحة للطرفين لا يمنع منها أحد فمن أخذ بها كان له السبق: ﴿**كـلا نمـدُّ هـؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا**﴾ الإسراء/٢٠. هم يطلبون الخير ولو لباطلهم أما نحن فتركنا الأخذ بالأسباب واتكلنا على أن تمطر السماء عدلاً ونصراً وتراجعنا خوفاً وأصبحت قطرة الدم علينا غالية و لم ننصر دين الله ونتمنى أن ينصرنا الله والله قال إن دون ذلك شرطاً....

﴿**إن تنصـروا الله ينصركم**﴾ فكيف ينصر الله قوماً لا ينصرونه بل لا ينصرون حتى أنفسهم؟...

رابعاً – حتمية تحقيق الوعد الثاني ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾:

أ / ليسؤوا وجوهكم..

ب / وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرة..

ج / وليتبروا ما علوا تتبيراً..

إن مـا قلناه في ﴿**فإذا جاء وعد أولاهما**﴾ يمكن أن يقال هنا في حق ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة**﴾ [١].. من أنها تعني المستقبل.

أ / أما قوله تعالى: ﴿**ليسؤوا وجوهكم**﴾..

فقد سبق الحديث عنها أيضاً غير أن ﴿**وجوهكم**﴾ فيها من العطاءات القرآنية التي لابد من التأكيد عليها في هذا المجال.. منها:

١ / إن في لفـظ – ليسوؤا – جاء حرف اللام الذي قال عنه المفسرون إنه لام كـي[٢].. أي لكـي يسوؤا والضمير عائد على المبعوثين في قوله تعالى: ﴿**بعثنا عليكم عباداً لنا**﴾ والتقدير.. ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة – بعثنا عليكم عباداً لنا لكي – يسوؤا وجوهكم**﴾ [٣].

---

(١) انظر المعطيات القرآنية للإفساد الأول في المطلب الأول من هذا الفصل.

(٢) انظر تفسير ابن عاشور ٣٦/١٥. وانظر تفسير الآلوسي ٢٠/١٥.

(٣) انظر تفسير الرازي ١٥٣/٢٠.

٢ / فعل - يسوؤا - مستقبل لفظا ومعنى والتقدير.. ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة - سنبعث عليكم عباداً لنا وسوف - يسوؤن وجوهكم**﴾ ومثل هذا يقال في - لنسؤَ - أي نحن و - ليسؤَ الله - أو - الوعد - أو - البعث وجوهكم..

٣ / فما دام السياق القرآني يتكلّم عن مستقبل دلّ عليه مجيء إذا — أولاً.. ولكي يسوؤا — ثانياً — مقتضى الكلام أن يكون إخبار عن قوم سيأتون فيما بعد.. يخبر عنهم وهم لم يأتوا بعد.. ولكنك تجد السياق القرآني يتحدث — عما سيكون مستقبلاً — مع قوم حاضرين يخاطبهم (بكاف المخاطب) ﴿**ليسوؤا وجوهكم**﴾ وكان مقتضى السياق أن يقول (ليسوؤا وجوههم) هذا يعني إن القرآن في طرحه لقضاياه لا ينحصر في زمن دون آخر وهو كما قلنا آنفاً يخاطب الحاضر بلغة المستقبل.. فإذا جاء - مستقبلاً - وعد إيقاع العقوبة الثانية على الإفساد الثاني سنبعث - عليكم عباداً لنا لكي يسوؤا وجوهكم.. لأنهم منكم.. ولأنهم سيتمون فسادكم..

٤ / إن سوء الوجوه جاء فيه قولان:

الأول — «جعل المساءة عليها، أي تسليط أسباب المساءة والكآبة عليكم حتى تبدوا على وجوهكم لان ما يخالج الإنسان من غمٍّ وحزن أو فرح ومسرّة يظهر أثره على الوجه دون غيره من الجسد»[1]. ولأن الوجه بمعنى الذات وهو مجاز مرسل أو إستعارة تبعية)[2].

الثاني: «قيل الوجوه بمعنى الرؤساء واختير هذا على «ليسؤ وكم» مع أنه أخصر وأظهر إشارة إلى أنه جمع عليهم ألم النفس والبدن»[3].

ب / ﴿**وليدخلوا المسجد.. كما دخلوه أول مرة**﴾..

لا خلاف بين المفسرين في إن «المسجد المقصود في قوله تعالى: ﴿**وليدخلوا المسجد**﴾ هو (بيت المقدس)[4] الذي سميّ فيما بعد (المسجد الأقصى).

---

(١) تفسير ابن عاشور ٣٧/١٥ وانظر تفسير الرازي ١٥٩/٢٠.

(٢) انظر تفسير القاسمي ص٣٩٠٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر زاد المسير لابن الجوزي ١١/١٥ وانظر الآلوسي ٢٠/١٥.

ولكن لابد من الوقوف عند ﴿وليدخلوا المسجد.. كما دخلوه أول مرّة﴾ فقد قال الإمام الآلوسي: (إن الصحيح في نحو.. دخلت البيت أنك تريد دخلت إلى البيت فحذف حرف الجر فانتصب البيت انتصاب المفعول به)[1].

(والدخول نقيض الخروج ويستعمل ذلك في المكان والزمان والأعمال، قال تعالى: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ يوسف/٩٩ - وقال: ﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾ الشورى/٨»[2].

وتحقيقه في محله «كما دخلوه» أي دخولا كائناً كدخولهم إياه «أول مرّة» فهو في موضع النعت لمصدر محذوف، وجوّز أن يكون حالاً أي كائنين كما دخلوه[3] أي أول مرة.. أي:بنفس الحال الذي كان عليه الداخلين أول مرة).

يقول ابن كثير: (كما دخلوه أول مرّة أي في التي جاسوا فيها خلال الديار)[4].

ولاشك أن الدخول حالة تختلف عن الجوس خلال الديار بتحرٍ واستقصاء وهو - الدخول - يختلف عن - التتبير والدمار - الناشئ عن الاجتياح.. إن لكل صورة حركة ولكل حركة مؤداها ولو كانت كلها سواء لما استعمل القرآن في كل مرّة كلمة تلقي ظلال الصورة التي يريد أن يصورها أو يخبر عنها..

فلو كانت الديار المذكورة في الآية هي ديار بيت المقدس فلِمَ لمْ يكتف بكلمة الجوس أو بكلمة الدخول؟ فهل الديار أكرم على الله وعلى العباد من المسجد؟ فلم يدخلوها كما دخلوا المسجد وإنما اكتفوا بالجوس خلالها فقط؟ وإذا كان المقصود بالدخول دخول بختنصر وغيره ممن قتل الآلاف وسبى الذراري والنساء ودمّر وحرق المسجد فكيف يكون الاجتياح والتبتير إذاً؟ ولماذا سمّاه جوس؟ وإذا كان القرآن يقول إنهم في المرّة الثانية سيدخلون المسجد كما دخلوه – أي مثلما دخلوه – أول مرّة ثم

(١) روح المعاني للآلوسي ١٥/٢٠.

(٢) مفردات الراغب ص١٦٦.

(٣) روح المعاني للآلوسي ١٥/٢٠.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣٦٥.

قال ﴿وليتبروا﴾ فهل سيكون الدمار تابعاً للدخول؟ إن الآيات لم تكن لتوحي بهذا الاختلاط أبداً..

إن الجوس خلال الديار شيء.. ودخول المسجد شيء آخر.. يختلف عنهما التتبير والدمار.. ومن ثم سوف لا يتخذ الدخول صفة الجوس الذي يلقي ظل هدوء الحذر وسكينة التيقظ والتحرّي باستقصاء كما قال المفسرون[1] بحثاً عمن كمن أو لم يقتلوه.. فالجوس حدث هناك في ديار بني إسرائيل و لم يحدث معه – في نفس الوقت – دخول للمسجد إذ أن المسجد لم يكن من ضمن الديار وإلا لشمله الجوس أو لشمل الدخول الديار ولذلك لم يذكر أول مرّة وإنما اكتفى القرآن بالإخبار عن الجوس خلال الديار فقط وقال بعدها ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾ وإنما ذُكر الدخول متأخراً في الوعد الثاني...

مما يوحي أن الدخول الأول حدث في غير وقت الجوس ثم حين أخبر عن الدخول الثاني قال عنه ﴿كما دخلوه أوّل مرّة﴾ وأولّ مرة لم يكن فيه قتال وإنما دخلوه فاتحين أعزةً قادرين فكذلك سيكون الدخول الثاني فاتحين أعزةً قادرين لا يمسّهُ الدمار ولا الخراب ولا التتبير إذ أن التتبيز سوف لا يشمله وإنما سيصيب ما علاه اليهود من أي شيء سواء كان ذلك الشيء مادياً أو معنوياً فكل أبنية اليهود من عمارات ومستوطنات وحصون داخلة في معنى ﴿ما علوا﴾ أو كان معنوياً من ظلم وطغيان وعقائد وأفكار ومذاهب اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو ما كان شاملاً للاستعلاء العسكري إلى غير ذلك مما يحمله لفظ (العلو).

ثم أن المساءة التي ستصيب وجوه اليهود كما قال المفسرون إنها بسبب ما يُلاقونه من دمار كل شيء أعلوه وهم يحلمون باليوم الذي يرون فيه المسجد الأقصى وقد دُمِّرَ حجراً.. حجراً.. بل وهم عازمون على ذلك لكي يبنوا على أنقاضه هيكل سليمان المزعوم..

فلو كان دمار المسجد مشمولاً لما كان سبب إساءة وجوه اليهود بل لتهللت وجوههم فرحاً بدماره، إن إساءة وجوه اليهود ستكون بشيئين:

---

(١) راجع تفسير القرطبي ٢١٦/١٠.

<u>أولاهما:</u> بدخول - العباد - المسجدَ مرّةً أخرى وفي هذا دلالة على استخلاصه من أيديهـــم وعودته إلى حضيرة الإسلام كما أُعيد أولَّ مرّة يوم «الفتح العمري للمسجد والمـــرّة الثانـــية هي هذه التي نحن على أبوابها فسيدخل المسلمون المسجد فاتحين للمرّة الثانية»[1]. إن شاء الله تعالى..

<u>ثانيهما:</u> بتتبير كل ما علوه في الأرض سواء كان مادياً أو معنوياً وضياع ما أنفقوا لأجله الأموال والبنين وكانوا -.لأجله - أكثر نفيراً..

أمـــا المسجد فباقٍ ببقاء الله له وسيدخله العباد كما دخلوه أول مرة لأن ذلك مما يقتضيه ظاهر الآية كما كان

(ظاهـــر الآية يقتضي إتحاد المبعوثين أولاً وثانياً، ومن لا يقول بذلك يجعل رجوع الضـــمائر للعـــباد على حد رجوع الضمير للدرهم في قولك: عندي درهم.. ونصفه فافهم)[2]. كما قال الآلوسي.

ج / ﴿**وليتبروا ما علوا تتبيراً..**﴾.

والتتـــبير مـــن التبار.. وهو الهلاك.. وتبرّه تتبيرا كسرّه وأهلكه. قال تعالى: ﴿**إن هـــؤلاء متبرٌ ما هم فيه**﴾ الأعراف/١٣٩. - أي مكسرٌ مهلكٌ، وتبرهُ كسرّهُ وأذهبه.. وفي التنـــزيل العزيز ﴿**ولا تزد الظالمين إلا تباراً**﴾ نوح/٢٨.

قال الزجّاج معناه إلا هلاكاً... ولذلك سمّي كلُّ مكسّر تبراً.

وقوله تعالى: ﴿**وكلاً تبرّنا تتبيراً**﴾ الفرقان/٣٩ - قال التتبير.. التدمير[3]..

وقال الراغب: التبر الكبير.. الإهلاك، يقال تَبَرَهُ وتبّرَهُ،

قال تعالى: ﴿**وليتبروا ما علو تتبيراً**﴾ الإسراء[4].

---

(١) زوال إسرائيل حتمية قرآنية - أسعد التميمي ص٤٤.

(٢) انظر روح المعاني للآلوسي ٢١/١٥.

(٣) لسان العرب لابن منظور ٣٠٩/١.

(٤) انظر المفردات للراغب ص٧٢.

وقال الزجّاج: (يقال لكل شيء ينكسر من الزجاج والحديد والذهب.. تبر)[1].

وقال الثعالبي في قوله تعالى: ﴿**وكلاً تبرنا تتبيراً**﴾ الفرقان: ٣٩.

وتبرَّ معناه (أفسد بغشم وركوب الرأس)[2].

فتدمير ما علاه اليهود تدميراً يوحي بأن كلّ ما علاه اليهود سوف يكون بعد هذا التدمير ميؤساً منه فكلمة «تتبيراً» تعني أن علوهم تكسرّ وتفتت فلا أمل لهم في عودته أو الانتفاع بشيء منه.

يقول الماوردي في ﴿**وليتبروا ما علوا تتبيراً**﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: أنه الهدم والدمار.

الثاني: أنه الهدم الإخراب.. قاله قطرب و﴿**عسى ربكم أن يرحمكم**﴾ يعني مما حلّ بكم من الإنتقام منكم[3].

أي: أرجوا ربكم أن يرحمكم[4].. بعدما حلّ بكم وإلا ﴿**فإن عدتم.. عدنا**﴾.



(١) زاد المسير لابن الجوزي ٥/١١.

(٢) جواهر الحسان - للثعالبي ٢/٣٣٢.

(٣) تفسير الماوردي ٢/٤٢٥.

(٤) انظر مفردات الراغب.



مستقبل بني إسرائيل من خلال سورة الإسراء

المبحث الأول

وإن عدتم عدنا بين الرحمة والعقوبة

المطلب الأول:

الرحمة في العـودة

المطلب الثانـي:

وإن عدتم عدنا قانوناً عقوبة لبنـي إسرائيل

المبحث الأول

وإن عدتم عدنا بين الرحمة والعقوبة

المطلب الأول

الرحمــة في العــودة

المعطيات القرآنية في قوله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا﴾.

لقد انطوى في قوله تعالى: ﴿**وإن عدتم.. عدنا**﴾ من الإعجاز القرآني ما لو كشف عــنه الحجــاب لكــان نبراساً ومشعل هداية لأمةِ الإسلام عموماً - ولمؤمني الكرّة - خصوصاً الذين يتلمسون الطريق الصحيح والذي بدت بعض معالمه لبعض السائرين فيه.

وقــبل أن نتحدث عن هذا النص القرآني العظيم الذي جعل المخاطبين به - كائنا من كانوا - أمام اختيارين لا ثالث لهما[1]:

وهي دعوة الله إليهم في رجاء رحمته سبحانه والتوبة إليه من فسادهم والعودة إلى العبودية إليه دون سواه.. وذلك في قوله تعالى: ﴿**عسى ربكم أن يرحمكم**﴾.

فإن (عسى) هنا كما قال الراغب الأصفهاني:.. تعني (طمع وترجي) بمعنى (اطمعوا وارجــوا رحمة الله) ولقد عتب الراغب على المفسرين فيما ذهبوا إليه في هذا المجال فقال: (وكــثير من المفسرين فسّروا (لعل - وعسى) في القرآن باللازم[2] كما ذكر ذلك ابن الجوزي في تفسيره حيث قال: (وعسى من الله واجبة)[3].

---

(١) سيأتي بيانهما بعد قليل.

(٢) أي في حقه تعالى....

(٣) انظر زاد المسير ١١/٠.

وقـــالوا الطمع والرجاء لا يصح من الله تعالى.. وفي هذا منهم قصور نظر - كذا قـــال - وذاك إن الله تعـــالى إذا ذكر ذلك يذكره ليكون الإنسان منه راجياً.. لا لأن يكون هو تعالى يرجو.. فقوله تعالى: ﴿**عسى ربكم أن يهلك عدوكم**﴾ الأعراف/١٢. أي كونوا راجين في ذلك، وقوله تعالى: ﴿**فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده**﴾ المائدة/٥٢. أي كونوا راجين أن يأتي الله بالفتح أو أمرٍ من عنده.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**عسى ربكم أن يرحمكم**﴾ أي أرجو ربكم أن يرحمكم[١].

ولهذا نجد الإمام الرازي يفسرها - بلعلّ.. فيقول في تفسيره: (والمعنى: لعلّ ربكم أن يرحمكم.. ويعفوا عنكم بعد انتقامه منكم يا بني إسرائيل..)[٢].

يقـــول صاحب الظلال: وذلك (بعد ما صدقت النبوة ووقع الوعد ويضيف.. ثم يعقـــب الســـياق على النبؤة الصادقة والوعد المفعول، بأن هذا الدمار قد يكون طريقاً للرحمة: ﴿**عسى ربكم إن يرحمكم**﴾ إن أفدتم منه عبرة)[٣].

بيـــنما يحصـــرها صاحب الأساس في تفسيره بقوله: ﴿**عسى ربكم أن يرحمكم**﴾ بالدخول في الإسلام..)[٤].

ويقـــول الآلوسي: ﴿**عسى ربكم أن يرحمكم**﴾ بعد البعث الثاني إن تبتم وانزجرتم عـــن المعاصـــي ﴿**وإن عدتم عدنا**﴾ للإفساد بعد الذي تقدم منكم ﴿**عدنا**﴾ للعقوبة.. فعاقبـــناكم في الدنـــيا بمثل ما عاقبناكم به في المرّتين الأوليتين وهذا من المقضي لهم في الكتاب أيضاً، وكذا الجملة الآتية. والتعبير بــ(إن) للإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يعودوا.. ﴿**وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا**﴾ قال ابن عباس وغيره أي سجناً)[٥] يحصرون فيه.

وقال صاحب أضواء البيان: (إن بني إسرائيل قضي إليهم في الكتاب أهم يفسدون في الأرض مرتين، وأنه إذا جاء وعد الأولى منهما: بعث عليهم عباداً له أولي بأس شديد

---

(١) انظر مفردات الراغب الأصفهاني ص/٣٣٥.

(٢) انظر تفسير الإمام الرازي ٢٠/١٥٩.

(٣) في ظلال القرآن - سيد قطب ٥/٣٠٨.

(٤) الأساس في التفسير - سعيد حوى ٦/٣٠٤٠.

(٥) روح المعاني للآلوسي ١٥/٢١.

فاحـــتلوا بلادهم وعذبوهم.. وأنه إذا جاء وعد المرّة الآخرة: بعث عليهم قوماً ليسؤوا وجوههم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرّة، وليتبروا ما علوا تتبيراً...

وبـــيّن أيضاً: أنهم إن عادوا للإفساد المرّة الثالثة فإنه جل وعلا يعود للانتقام منهم بتسليط أعدائهم عليهم: وذلك في قوله تعالى ﴿**وإن عدتم عدنا**﴾[1].

قلت: وما أجد فيما قاله الشنقيطي غير الحق الذي هو أحق أن يتبع..

ويضـــيف الإمام الرازي إلى ما سبق قوله: (فإن عدتم مرة أخرى إلى المعصية عدنا إلى صب البلاء عليكم في الدنيا مرّة أخرى)[2].

ويؤكـــد ابن عاشور على أن هذه العقوبة محصورة في الدنيا فهو يقول: (والمعنى: بعـــد أن يرحمكم ربكم ويؤمنكم في البلاد التي تلجأون إليها إن عدتم للإفساد عدنا إلى عقـــابكم، أي عدنـــا لمثل ما تقدم من عقاب الدنيا.. وجملة ﴿**وجعلنا جهنم للكافرين حصـــيرا**﴾ عطف على جملة ﴿**عسى ربكم أن يرحمكم**﴾ لإفادة أن ما ذكر قبله إنما هو عقاب دنيوي وأن وراءه عقاب الآخرة..

وفـــيه معنى - التذييل - لأن التعريف في ﴿**الكافرين**﴾ يعم المخاطبين وغيرهم.. ويومـــئ هـــذا إلى أن عقابهم في الدنيا ليس مقصوراً على ذنوب الكفر بل هو منوط بالإفساد في الأرض وتعدي حدود الشريعة)[3].

قلت: ... على أن للقضية بعداً آخر..

وذلك بقول ينفرد به الإمام الماوردي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وإن عدتم عدنا**﴾ حيث يقول: (فيه تأويلان: ...

أحدهما: إن عدتم إلى الإساءة عدنا إلى الانتقام..

الثاني: إن عدتم إلى الطاعة عدنا إلى القبول.. قاله بعض الصالحين..)[4].

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٤٠٧/٣ وانظر تفسير ابن الجوزي ١٢/٥.

(٢) تفسير الإمام الرازي ١٦٠/٢٠.

(٣) تفسير ابن عاشور ٣٩/١٥.

(٤) تفسير الماوردي ٤٢٥/٢.

قلـــت:... يؤيد ما ذهب إليه الماوردي في التأويل الأول قول صاحب الأساس في التفسير في هذا الموضع حيث قال: (ففي الآيات بشارة للمسلمين في قوله تعالى: ﴿**وإن عدتم.. عدنا**﴾ فهذا وعيد من الله لهم إنه سيسلط عليهم في كل مرة يفسدون في الأرض وتكون لهم الغلبة على المسجد الأقصى)[1].

قلت: وفي كلام الماوردي السابق نظر لأمرين:

الأول: أنه مما يحتمله اللفظ والنص القرآني العام..

الـــثاني: أنه من قبيل التعليل لما قبله.. فإن التعبير بـــ (العودة) في: ﴿**وإن عدتم – عدنا**﴾ جاء بعد ﴿**عسى ربكم أن يرحمكم**﴾

فالتقدير.. أرجو ربكم أن يرحمكم- بعد توبتكم عن المعاصي والكف عن الفساد. وإن عدتم إلى الإيمان والإسلام – عدنا إليكم بالرحمة والمغفرة وهذا هو المفهوم من قول الماوردي الثاني... (وكذلك إن عدتم إلى الإساءة والفساد عدنا إلى الإنتقام منكم...

والحاصل.. إن الله تعالى يدعوهم إلى التوبة والرجوع وطلب الرحمة منه بالاستقامة على الدين الحق بعد ما رأوا تحقق الوعدين الأول على الفساد الأول، والوعد الثاني على الفســـاد الـــثاني والعلو فيه فعسى أن يزول منهم سوء الوجوه الذي غدا ميزة لهم بعد دخول المؤمنين المسجد الأقصى مرّة أخرى كما دخلوه أول مرّة وبعد تتبير علوهم تتبيراً كبيراً.. فكأن القرآن ينقل – كما قال صاحب الظلال: (صورة للدمار الشامل الكامل الذي يطغى على كل شيء، والذي لا يبقى على شيء...)[2].

ثم هـــا هو الذل والانكسار الشديد ين يبدوان واضحين على وجوه من بقي منهم حيـــث ﴿**ســـيئت وجوه الذين كفروا**﴾ الملك/٢٧. وقد نكسوا رؤوسهم حياءاً وذلة وصـــغاراً.. فيقال لهم: ﴿**عسى ربكم أن يرحمكم.. وإن عدتم.. عدنا.. وجعلنا جهنم للكافرين – منكم – حصيراً**﴾ الإسراء/٨.

---

(١) انظر الأساس في التفسير – سعيد حوى ٣٠٤١/٦.

(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب ٣٠٧/٥.

المطلب الثاني

وإن عدتم - عدنا - قانونا عقوبة لبني إسرائيل

لقـــد كان في قوله تعالى: ﴿**وإن عدتم – عدنا**﴾ من الإنذار والترهيب والتحذير – ما فيه – لأمة فقدت كل شيء.. فساءت وجوهها بما فقدت بعدما ملكت كل شيء فصـــعّرت خدها وتولت باركان الأرض تفسد فيها مرتين وعلتْ فيها – عن أمر الله – وعلى الناس – علواً كبيراً...

فــإن قولـــــه تعالى: ﴿**وإن عدتم عدنا**﴾ قد اشتمل على قانون الهي خاص ببني إسرائيل لعقوبتهم على فسادهم – المستمر في هذه الدنيا.. أما في الآخرة فقد أخبرنا الله عنه بقوله: ﴿**وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً**﴾ الإسراء/٨.

وهـــذا القانون الإلهي الذي تحدث عن (مضامينه) القرآن في أكثر من موضع هو أشبه ما يكون بسلاح ذي حدين، كل حدٍ له موضع وزمان وهذا القانون إنما وضع بناءً عـــلى سنة خاصة – أيضاً – ببني إسرائيل يؤاخذون بها على فسادهم في الأرض تختلف – كما قلنا سابقاً – عن سنة باقي الأمم في المؤاخذة.. وهذه السنّة هي (سنّة التقطيع في الأرض) كما قال تعالى: ﴿**وقطّعناهم في الأرض أمما**﴾.

وهـــي بحد ذاتها (لعنة) من الله لهم عوقبوا بها ويعاقبون على مدار الزمان على ما كـــان منهم... وهذه اللعنة تلازمهم كظلهم إلى يوم القيامة لا محيص لهم عنها ولا فرار لهـــم منها مهما حاولوا الخلاص منها أو الإنفكاك عنها.. حتى ضرب القرآن بهم المثل فقـــال عن الكافرين: ﴿**أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت.. وكان أمر الله مفعولا**﴾ النساء/٤٧ – وأصحاب السبت هم اليهود كما هو معلوم...

وقبل أن نتحدث عن هذا القانون الخاص ببني إسرائيل نودّ أن نبين قضيتين:

القضـــية الأولى: إن الله ســـبحانه وتعالى قدّر على بني إسرائيل لعنةً أبدية كتبها علـــيهم لا تفـــارقهم ولا ترفع عنهم إلى يوم القيامة كما أخبر القرآن في كثير من آياته كقوله تعالى: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية**﴾ المائدة/١٣.

وقوله: ﴿**قل هل أونبئكم بشرٍ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه**﴾ المائدة/٦٠ - حتى وصل الأمر إلى أُهم لعنوا على لسان بعض أنبياءهم كقوله تعالى: ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم**﴾ المائدة/٨٧.

والقضية الثانية: تتعلق بأسباب هذه اللعنة وهي أخلاق اليهود التي اقتضت هذه اللعنة الأبدية.. ولّما كانت أخلاق اليهود غير قابلة للتغيير والتبديل فإن هذه اللعنة كذلك غير قابلة للزوال تبعاً لذلك تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ الرعد/١١.

هذه الأخلاق التي تنبع من داخل نفوسهم التي جبلت على الذل والمسكنة والغرور والجبن والتكبر وسوء الأدب، والعجيب أنك تجد هذه الأخلاق موجودة فيهم على اختلاف أزمانهم وأماكن وجودهم فاليهودي اليوم في القرن العشرين يحمل نفس أخلاق اليهودي الذي عاصر النبي ﷺ وهذا أيضاً يحمل نفس الأخلاق التي كان يحملها الذين آذوا موسى ولا تجد اختلافاً في أخلاق يهود المشرق عن أخلاق يهود المغرب تلك حقيقة لا تحتاج إلى برهان..

أقول هذه الأخلاق التي تنبع من داخل نفوسهم هي التي كانت أسباب دوام اللعنة عليهم.. هذه اللعنة التي كانت هي الأساس لهذا القانون الإلهي الذي أُخذوا به وفق السنة التي عوملوا بها..

وهذه السنّة هي - كما قلنا - سيف ذو حدين لها مجالان في التطبيق.. إذا فسدوا في أنفسهم وأفسدوا بين الناس.

المجال الأول: القانون الخاص - حين يفسدون في الأرض مرتين يطغون فيها على الناس ويستكبرون عن قبول الحق والهدى وهاتان المرتان اللتان أخبر بها القرآن في السورة التي سميت باسمهم (سورة بني إسرائيل) قال عقب كل منها ﴿**بعثنا عليكم عباداً لنا**﴾ ولكن في الأول (فجاسوا خلال الديار ودخلوا المسجد) وفي الثانية على تقدير (بعثناهم عليكم ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد)[1] فكأن القرآن حدد هوية المبعوثين عليهم

---

(١) انظر تفسير ابن عاشور ٣٦/١٥.

عقب هاتين الإفسادتين بأنهم ﴿**عباداً لنا**﴾ على جهة الاختصاص لله تعالى لهم صفات خاصة يتميزون بها عن غيرهم..

صنف من الناس استحقوا فضل نسبتهم إلى الله سبحانه وشرف العبودية له وحده دون سواه كما تمثلت في الأنبياء والصالحين من أتباعهم والذين خصص القرآن انتسابهم بـ (يا عبادي - عبادنا - عباداً لنا)... فهؤلاء جعلهم للبعث على بني إسرائيل بعد مرتي إفسادهم المقضي بهما عليهم في الأرض.. وقد رأينا كيف نال هذا الشرف سيدنا رسول الله ﷺ والذين معه من أصحابه حينما تحققت فيهم صفة (عباداً لنا ـ أولي بأس شديد - فجاسوا خلال الديار - ودخلوا المسجد أول مرة - وكان وعداً مفعولاً) بالنصر لهم وتحقق الوعد الأول بالعقوبة على فساد بني إسرائيل الأول والله يعلم من سينال شرف البعث على بني إسرائيل في الوعد الثاني الذي نحن بانتظاره وهو كائن لا محالة إن شاء الله.

المجال الثاني: القانون العام - حين يفسدون في الأرض ويطغون على الناس في زمن أو ظرف أو مكان لا يوجد فيه أمثال هؤلاء العباد أو لم يكن قد اكتمل بناؤهم بعد عند ذلك يبعث الله عليهم صنفاً ثانياً من الناس عبّر عنهم القرآن بـ (من) في قوله تعالى: ﴿**وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة مَنْ يسومهم سوء العذاب**﴾ الأعراف/١٦٧ هذا الصنف من المبعوثين عام لم يستحق فضل النسبة إلى الله و لم يستحق شرف العبودية له وحده وإنما هم عبيدٌ لغيره فكان الإطلاق في ﴿**ليبعثن عليهم ... من يسومهم سوء العذاب**﴾ ولعل منهم جالوت وبختنصر وسنحاريب والرومان وهتلر وغيرهم.. ممن لم تكن تنطبق عليهم صفات العباد المخلَصين إلى الله سبحانه.. فكأن القانون مهيأ والظالمون حاضرون يبعثهم الله عليهم - عند فسادهم كل حين[1].

وما مضى من عطاءات في الفصل الثالث كان بياناً - شافياً - للمجال الأول من قانون العقوبة المقضى به على بني إسرائيل حول الإفسادتين اللتين كثر الحديث عنهما في كتب التفسير والتاريخ دون أن يكون فيه ما يشفي العليل.

---

(١) يقول صاحب الظلال (فأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية ﴿**وان عدتم عدنا**﴾ انظر الظلال ٣٠٨/٥.

ولتأصيل ما قلناه حول المجال الثاني من قانون العقوبة المقضي به على فساد بني إسرائيل أجدني مضطر لتناوله بشيء من التفصيل لبيان ما فيه من إعجاز قرآني وإيحاء متفجر نتم ما بدأناه..

يقول الإمام الرازي: في ﴿**وإن عدتم عدنا**﴾ يعني إن بعثنا عليكم من بعثنا، ففعلوا بكم ما فعلوا عقوبة لكم وعظة لتنتفعوا به وتتزجروا به عن ارتكاب المعاصي، ثم رحمكم فأزال هذا العذاب عنكم فإن عدتم مرّة أخرى إلى المعصية عدنا إلى صب البلاء عليكم في الدنيا مرة أخرى.

قال القفّال: وإنما حملنا هذه الآية على عذاب الدنيا لقوله تعالى في سورة الأعراف خبراً عن بني إسرائيل: ﴿**وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب**﴾[1] الأعراف/١٦٧.

فكلمة (تأذن) من أذن - أي استمع - كقوله ﴿**وأذنت لربّها وحقت**﴾ الانشقاق/٢. ويستعمل ذلك في العلم الذي يتوصل إليه بالسماع نحو قوله: ﴿**فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله**﴾ البقرة/٢٧٩. والإِذن والأذان لما يسمع ويعبر بذلك عن العلم إذ هو مبدأ كثير من أهل العلم فينا، قال تعالى: ﴿**إئذن لي ولا تفتني**﴾ التوبة/٤٩. و﴿**وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم**﴾ الأعراف/١٦٧. وآذنْتُهُ بكذا وآذَنْتُهُ بمعنى - أعلمته - والمؤذن كل من يعلم بشيء نداءً. قال تعالى: ﴿**ثم أذّن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون**﴾ يوسف/٧٠. ﴿**وأذّن في الناس بالحج**﴾ الحج/٢٧ - وقوله تعالى: ﴿**وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله**﴾ المجادلة/١٠- قيل معناه بعلمه.

لكن بين العلم والأذن فرق، فإن الأذن أخصّ ولا يكاد يستعمل إلا فيما فيه مشيئة به راضياً منه الفعل أم لم يرض به، فإن قوله: ﴿**وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله**﴾ يونس/١٠٠ - فمعلوم إن فيه مشيئة أمره)[2]..

---

(١) انظر تفسير الإمام الرازي ٢٠/١٦٠.

(٢) انظر مفردات الراغب ص/١٤.

وفي هذا يقول الدكتور أحمد الكبيسي: (إن هذه الكلمة ﴿**تأذن**﴾ لم ترد في القرآن إلا مرتين... والمرتان جاءتا في مجال الحديث عن اليهود..

الأولى: هذه في سورة الأعراف.

والثانية: في سورة إبراهيم على لسان سيدنا موسى - عليه السلام - مخاطباً اليهود بقوله: ﴿**وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد..**﴾ إبراهيم/٧.

بينما نجد أن القرآن الكريم استعمل مع غير اليهود كلمات أخرى مثل: [قضى - وحكم - وأراد - ...]

كقوله تعالى: ﴿**وقضينا إليه ذلك الأمر**﴾ الحجر/٦٦.

وقوله تعالى: ﴿**والله يحكم لا معقب لحكمه**﴾ الرعد/٢١.

وقوله تعالى:﴿**وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له**﴾ الرعد/١١.

واستعمل مع اليهود ﴿**قضينا**﴾ أيضاً في غير مجال اللعنة فقال: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل**﴾ الإسراء/٤.

ولكن لماذا وردت كلمة ﴿**تأذن**﴾ خاصة في حق اليهود خاصة وفي مجال اللعنة الأبدية عليهم خاصة..؟

إن الحكم والقضاء، والأمر من الله تعالى قد يقع على أساليب مختلفة فهو قد يقع علناً، وقد يقع سراً بين الله وبين أحد رسله..

مثل قوله: ﴿**وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين**﴾ الحجر/٦٦.

وهو قد يقع فعلاً وقد يشاء الله تبديله أو عدم تنفيذه: ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**﴾ الرعد/٣٩.

وفي هذا يقول النبي ﷺ: «**لا يردّ القدر إلا الدعاء**»[1].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد انظر المستدرك للحاكم ١/٤٩٣ كتاب الدعاء وأخرجه الترمذي في سننه باب الدعاء أيضاً انظر ٤/٤٤٨ برقم /٢١٣٩.

وعـــن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لا يغني حذر من قدر والدعـــاء يـــنفع ممـــا نزل ومما لم يترل، وإن البلاء ليترل فيلقاه الدعاء فيعتلجان** أي – يتصارعان ويتدافعان – **إلى يوم القيامة**»[1].

وقال علي كرم الله وجهه: (ادفعوا أمواج البلايا بالدعاء)...

ولكي لا تكون لعنةُ الله على بني إسرائيل مما يدفع بأي دافع فقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿**وإذ تأذن ربك**﴾ وهذا إعجاز قرآني يتحدى اليهود، ويعني...

إن الحكم الذي حكم الله به على اليهود باللعنة الأبدية إنما هو حكم يتسم بما يلي:

أ / بـــالإعلان على الناس يجب أن يعلمه الجميع، وأن يعيه كل المسلمين، وهذا يستنبط من اشتقاق كلمة ﴿**تأذن**﴾ من الإعلام والإعلان كما بينا...

ب / أنـــه حكـــمٌ مُحكَـــم التنفيذ فلا يُدفع ولا يندفع على مرّ العصور وإلى يوم القيامة... وهذا ما حدث وما يزال يحدث، ويبقى حادثاً إلى أن يرث الله الأرض ومن علـــيها... وهذا مستنبط من التأكيد باللام الداخلة على جواب القسم ﴿**ليبعثن**﴾، لأن عبارة ﴿**وإذ تأذن**﴾ جارية مجرى القسم في كونه جازماً ومؤكداً عليه واجب العلم به، وواجـــب التنفيذ كما يقول الإمام الرازي[2]... وهذا أول وجه من وجوه الإعجاز في هذا المقطع من الآية وفيه التحدي الواضح...

المقطع الثاني: قوله تعالى: ﴿**ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة**﴾ إعجاز قرآني آخر أثبتته الحـــوادث والأحـــداث، ويعني أن هذه اللعنة التي كتبها الله على اليهود، مصدرها من خارج اليهود أنفسهم، وذلك بتسليط الغير عليهم.

وهـــذه خصيّصة من خصائص اللعنة على اليهود على خلاف سنة الله في بقية خلقه حيـــث جـــرت سنة الله في غير اليهود على نحو قوله تعالى: ﴿**أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض**﴾[*] الأنعام/٦٥.

---

(١) رواه البزار والطبراني والحاكم زقال – صحيح الإسناد، انظر المستدرك للحاكم ٤٩٢/١ كتاب الدعاء.

(٢) انظر تفسير الإمام الرازي ٤١/١٥.

* انظر ما جاء في تفسير هذه الآية في عمدة القارئ في كتاب التفسير ٨٤/٤٩/٢٥.

وفي قوله ﷺ: «**وعدني ربي ألا يسلّط على أمتي عدواً من سوى أنفسهم يجتاح بيضتهم**»[1].

وفي حديث آخر: «**سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**»[2].

﴿**وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها**﴾ النمل/٩٣.

فلم يحدث أن إقتتل اليهود فيما بينهم كما حدث للمسلمين، والنصارى وغيرهم، وإنما كان البطش والفناء يأتي اليهود من غيرهم، وهذا أشد إذلالاً وإرغاماً وهذا ما حدث فعلاً على امتداد التأريخ القديم والحديث المعاصر..

المقطع الثالث: ﴿**من يسومهم سوء العذاب**﴾...

فلم تستعمل كلمة ﴿**يسومهم**﴾ إلا مع اليهود كما في هذه الآية من سورة الأعراف ووردت بصيغة ﴿**يسومونكم**﴾ في ثلاثة مواضع أخرى كلها في بني إسرائيل فقط. هي:

١/ في سورة البقرة قوله: ﴿**يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم**﴾ /٤٩.

٢/ في سورة الأعراف قوله: ﴿**يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم**﴾ /١٤١.

٣/ في سورة إبراهيم - قوله: ﴿**يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم**﴾ /٦.

واشتقاق الكلمة من (السوم) وهو الذهاب في ابتغاء الشيء فهو لفظ لمعنىً مركّب من الذهاب والابتغاء، جيء به في...

قوله تعالى: ﴿**يسومونكم سوء العذاب**﴾ على وجهه الأكمل...

ومنه قيل (سيم فلان الخسف ويسام)[3] أي يضام ويهان...

(ومعنى ذلك إن الله سبحانه يسلّط بعض عباده، من يطلب اليهود خاصة بسوء العذاب خاصة أيضاً....)[4].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الفتن برقم/٢٨٨٩ - انظر ٤/٢٢١٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن صحيح مسلم ٤/٢٢١٦ رقم الحديث /٢٨٩٠ - ط/فؤاد عبد الباقي.

(٣) انظر مفردات الراغب ص/٢٥٠.

(٤) الإعجاز القرآني - أحمد الكبيسي ص/٣٥.

والعجيب أن في هذه المواضع الأربعة التي استعمل القرآن فيها صيغة ﴿**يسومونكم**﴾ استعمل معها صيغة ﴿**سوء العذاب**﴾ إذ أن هناك فارق كبير بين (العذاب) المجرّد وبين (سوء العذاب).

وفي هذا يقول الدكتور أحمد في معرض حديثه عن الإعجاز القرآني لهذا اللفظ:

فلقـــد عاقب الله سبحانه وتعالى بعض عباده بأنواع من العذاب والموصوف بشتى الأوصاف (عذابٌ - اليم - مهين - غليظ - عظيم - محيط - مقيم).

و لم يوصف العذاب بالسوء إلا بعذاب بني إسرائيل...

وهذا يعني إن من العذاب ما يكون مطلقاً، ومنه ما يكون موصوفاً بوصف الألم، أو الشـــدة، أو الغلظـــة، أو الإهانـــة، أو الخزي، ونحو ذلك. وعندما تجتمع كل هذه الأوصـــاف في عذابه فانه يكون حينئذ (سوء العذاب). ويضيف فضيلته سائلاً: فما هو وجه سوء العذاب الذي تأذن به الله لعنةً على بني إسرائيل.

ويجيـــب: إن ذلـــك يشمل الحديث عن (شعب) هذه اللعنة التي تحتمت على بني إسرائيل...

فيقول: (عندما يفصل لنا القرآن معنى - سوء العذاب - فيشير إلى أن الله سبحانه وتعالى جعل العذاب السيئ ينقسم إلى أقسامٍ ثلاثة..

أ / عذاباً نفسياً.. بالذل والمسكنة.

ب/ عذاباً اجتماعياً.. بالشتات والتشرد.

ج / عذاباً جسدياً.. بالقتل والإبادة بين الحين والحين).

أولاً - العذاب النفسي - الذل والمسكنة:

فقد قال تعالى: ﴿**إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا**﴾ الأعراف/١٥٢.

ويقـــول تعـــالى: ﴿**لـــن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون**﴾ آل عمران/١١١.

ويقـــول: ﴿**ضـــربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس وبـــاؤوا بغضبٍ من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾. آل عمران/١١٢.

فالذلـــة، والمهانـــة، والشعور بالحقارة هو سمت اليهودي في تلك الحالات النادرة والقصيرة في بعض أجزاء التأريخ التي تكون لليهود نوع غلبة على سواهم.. فهم في أوج انتصـــاراتهم يســـتدرون عطـــف العالم وتأييد القوى المؤيدة لهم بالإعلان على ضعفهم ومذلـــتهم واضـــطهادهم... وما ذلك إلا لشدّة الشعور بالذلة التي عبّر الله عنها بقوله: ﴿**ضربت عليهم الذلة**﴾.

قـــال الرازي: (المعنى جعلت الذلة محيطة بهم ومشتملة عليهم، فهم فيها كمن يكون في القبة المضروبة أو ألصقت بهم كما يضرب الطين على الحائط)[١].. والذلة في النفس من الغـــير.. والمســـكنة في الحال من أنفسهم فاليهودي - رغم غناه - يظهر المسكنة والفقر والرثاثة في المسكن والملبس والمطعم، هو أثر من آثار الشعور بالمسكنة المضروبة عليهم.

وقـــال الرازي أيضاً: (وقد عدّ العلماء هذا من باب المعجزات لأنه ﷺ أخبر عن ضـــرب الذلة والمسكنة عليهم ووقع الأمر كذلك ولا يزال واقعاً فكان هذا أخباراً عن الغيب فيكون معجزاً)[٢].

وقولـــه تعالى: ﴿**أينما ثقفوا**﴾ أي أينما وجدوا سواء في بلاد الإسلام أو في غيرها كما هو واقع فعلاً.

وقولـــه تعالى: ﴿**إلا بحبل من الله وحبل من الناس**﴾ آل عمران/١١٢.

أخبر القرآن الكريم إن الذل والمسكنة لا يزولان عن اليهود إلا في حالتين:

الحالة الأولى: الدخول في الإسلام وهذا هو الحبل من الله...

الحالة الثانية: الدخول في العهد مع المسلمين... وهذا هو الحبل من الناس....

---

(١) انظر تفسير الرازي ١٩٥/٨.

(٢) انظر تفسير الرازي ١٩٥/٨.

قلت: ﴿**وباؤوا بغضب من الله**﴾ حتى سرى ذلك فيهم فكان صفة لازمة لهم لا تنفك فكانوا ﴿**المغضوب عليهم**﴾ ولذلك فقد ﴿**ضربت عليهم المسكنة**﴾ وكل هذه المساوئ والمخازي وما يترتب عليها من لعنة وذلة ومسكنة كان ﴿**ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق... ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾ آل عمران/١١٢.

يقول...أحمد الكبيسي: (وهذا إعجاز قرآني آخر، يفسره قوله تعالى من سورة المائدة: ﴿**ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين**﴾ المائدة/٦٤.

ويقول: ﴿**ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون**﴾ المائدة/٣٢.

(أي مسرفون في الفساد)[1].

ثانياً - العذاب الاجتماعي - وهو الشتات:

من ضمن ما يحمله النص ﴿**من يسومهم سوء العذاب**﴾ عذاب التمزق والضياع والتفرّق في قوله تعالى: ﴿**وقطّعناهم في الأرض أمماً**﴾ الأعراف/١٦٨.

وهو إخبار عن الغيب في الزمن كله كما يقول الإمام الرازي: (أي قلما توجد أرض مسكونة إلا وفيها يهود يعيشون كتلة واحدة معزولين عن بقية أهل تلك الأرض)[2].

يقول الدكتور أحمد: فقد ضرب الله سبحانه وتعالى بين اليهود وبين الأمم التي يساكنوها قطيعة نفسية فرضت عليهم صداماً دائماً مع الغير... صداماً أخلاقياً واقتصادياً واجتماعياً.. ويضيف... (وفي قوله تعالى ﴿**أمماً**﴾ إعجاز قرآني أثبته الواقع من حيث أنهم يعيشون في كل بقاع الأرض كتلة مجتمعة في السكن والعمل والقيادة.. والأمة هي الجماعة كما قال تعالى في اليهود: ﴿**وإذا قالت أمة منهم**﴾ الأعراف/١٦٤ - أي جماعة.. وهم بذلك قادرون من وراء ستار على توجيه السياسة العالميّة والتصدي لمن ناوأهم أو اعترضهم في هدف أو منفعة، فإذا ما تمّ لهم ذلك أمعنوا في الأرض التي هم

---

(١) الإعجاز القرآني - أحمد الكبيسي ص/٣٩.

(٢) انظر تفسير الإمام الرازي ٤٢/١٥.

فيها اعتداءاً على الشعب الذي هم في ضيافته وتغليب مصلحتهم على مصالحهِ حتى يسلمهم هذا الوضع - من التعالي والتجبر والعدوان - إلى النوع الثالث من شعب (سوء العذاب).

ثالثاً - العذاب الجسدي - القتل والإبادة:

فقد سلّط الله على اليهود وبعث عليهم من يسومونهم سوء العذاب الجسدي بعد العذاب النفسي والعذاب الاجتماعي ... وذلك بالقتل والإبادة ... فهم لا يجتمعون في بلد إلا كي يبادوا تحقيقاً للعنة الأبدية بسوء العذاب، كما فعل بهم الآشوريون، والفرس والأسبان والفرنسيون والإيطاليون والإنكليز على امتداد التأريخ والألمان أخيراً ... وهي تلوح في الأفق في أمريكا حسب تقديرات كيسنجر كما رواها عنه صاحب كتاب (من يستطيع الكلام في أمريكا).

وحيث تبقى اللعنة عليهم على يد المسلمين (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود... الحديث)[1] وليس هذا التجمع الاستثنائي ليهود العالم في إسرائيل إلا هذا.. إن شاء الله تعالى...

ويختم حديثه بقوله: ﴿**وإن عدتم عدنا**﴾ أي إلى تسليط عباداً لنا آخرين أولي بأس شديد أيضاً)[2].

بقي لدينا شيء نعود به على بدء هذه الآية الكريمة ألا هو (إن) التي لها في اللغة عدة حالات منها...

١ / إن الشرطية.

٢ / إن الثقيلة.

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله: هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود» انظر صحيح مسلم ٤/٢٢٣٩/ برقم/٢٩٢٢ وانظر عمدة القارئ فقد أخرجه البخاري في باب قتال اليهودي في ١٤/١٩٩/ برقم/١٣٦.

(٢) الإعجاز القرآني أحمد الكبيسي ص/٤٢-٤٣.

٣ / إن المخففة من الثقيلة.

٤ / إن النافية.

٥ / إن المؤكدة للنافية.

والذي يهمنا هنا أنها جاءت هنا - للشرط - أي إن رجوتم الرحمة فإن الرحمة منا مرهونة ومشروطة بعودتكم إلينا طائعين.. وفي هذا تأكيد على ما قرّره عليهم حين أعاد لهم الكرّة وأمدهم بالمال والبنين وجعلهم أكثر نفيراً فقال لهم: ﴿**إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم**﴾ لأن قاعدة الخير هي: ﴿**وما تقدموا لأنفسكم من خير... تجدوه عند الله**﴾ البقرة/١١٠.

ومثل هذا المعنى يقال في الشر والسوء ﴿**وإن أسأتم**﴾ أيضاً لأنفسكم فقال: ﴿**فلها**﴾. وعلى هذا فحين يقرر القرآن هذه الحقيقة إنما يريد أن يقول: إن قاعدة التغيير في قوله: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ الرعد/١١. فتغيير النتيجة مشروط بتغيير أسبابها فكذلك قوله تعالى: ﴿**وإن عدتم عدنا**﴾ هي قاعدة من قواعد التغيير - ربما - كانت تناسب بني إسرائيل أكثر من غيرهم ولكنها على كل حال مشروطة بعودتهم، فان عادوا إلى الإفساد عاد الله عليهم بإنزال العقوبة عليهم وإن عادوا إلى الله بالتوبة عاد الله عليهم بالإحسان وهكذا.. وهذا مما يؤكد القانون الذي تحدثنا عنه والخاص ببني إسرائيل في حال الإحسان والإساءة والله تعالى أعلم.

المبحث الثاني

الجمع اللفيف وعلاقته بالوعد الآخر

المطلب الأول:

علاقة الجمع اللفيف بالوعد الآخر

المطلب الثاني:

المنهج الأقوم في التصدي لاستعلاء الفساد

المبحث الثاني

الجمع اللفيف وعلاقته بالوعد الآخر

المطلب الأول

علاقة الجمع اللفيف بالوعد الآخر

المعطيات القرآنية في قوله تعالى: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾

المســـألة الأخيرة التي اضطربت فيها أقوال المفسرين مسألة وعد الآخرة وجمع اللفيف الذي في نهاية السورة.. في قوله تعالى: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾.

فقد ذكروا في ﴿**وعد الآخرة**﴾ هنا عدّة أقوال نوردها على سبيل الاختصار...

★ / الجمهـــور على أنها يوم القيامة وبهذا قال الطبري والسمرقندي والماوردي وابن الجوزي والقرطبي والآلوسي[1].

★ / غير أن الماوردي أورد في معنى (وعد الآخرة) هذه ثلاثة أقاويل:

إحداها: وعد الإقامة... وهي الكرّة الآخرة - قاله مقاتل.

الثاني: وعد الكرّة الآخرة في تحويلهم إلى أرض الشام..

الثالث: نزول عيسى - عليه السلام - من السماء قاله قتادة)[2].

والـــذي نميل إليه هو القول الثاني من أقوال الماوردي من إن المقصود بـــ ﴿**وعد الآخرة**﴾ هنا هو وعد الكرّة الآخرة في تحويلهم إلى أرض الشام ...

وذلك لعدة أسباب:

---

(١) انظـــر الطبري ١٥/١٧٦ والسمرقندي لوحة/٣٠٥ والماوردي ٢/٤٦١ وابن الجوزي ٥/٩ والقرطبي ١٠/٣٣٨ والآلوسي ١٥/١٨٧.

(٢) انظر تفسير الإمام الماوردي ٢/٤٦١.

* / منها ما كان يشملها التعبير القرآني نفسه.

* / ومنها ما كان رصيده الواقع التاريخي.

* / ومنها ما كان على شكل قرائن تؤكد على أن المعنى المراد هو ما اخترناه..

السبب الأول: إن كلمة الوعد في سورة الإسراء جاءت بمعنى: (وعد العقوبة على إفسادي بني إسرائيل) ... كما قدّمنا سابقاً[1].

لكــن بقي أن نؤكد هنا على مسألة نتمُّ بها ما انتهينا إليه هناك وهي الصيغة التي جــيء بها هنا في ﴿**وعد الآخرة**﴾ إذ أن هذه الصيغة لم ترد في القرآن كله إلا في سورة الإسراء وجاءت مرتين:

الأولى: في بداية السورة حين قال تعالى: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم**﴾.

والثانية: هنا هي قوله: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾.

والخطاب موجه إلى بني إسرائيل في الموضعين بلا خلاف.

ومــا أدري إن كــان المقصود به يوم القيامة لِمَ لَمْ يستعمل القرآن لفظاً صريحاً كالساعة مثلاً أو يوم القيامة أو اليوم الآخر... الخ لماذا لم يقل القرآن مثلاً (فإذا جاءت الصاخة جئنا بكم لفيفاً) لماذا استعمل القرآن هنا بالذات لفظ ﴿**وعد الآخرة**﴾..

ثم ألــيس ردّ المعنى في اللفظ العام أو المشترك إلى أقرب مذكور من قواعد التفسير ولــن تجــد لفظــاً أقرب من هذا ولا أشبه به من قوله تعالى: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم**﴾.

السبب الثاني: إن الخطاب هنا موجه إلى بني إسرائيل على جهة الخصوص والنداء إليهم بتسميتهم: ﴿**وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾ ... فلا يدخل غيرهم في هذا النداء الذي خصص لهم.. وما أجد في الــنص إشــارة أو ما يلمح إلى أن الخطاب يشمل غيرهم حين قال المفسرون في معنى ﴿**لفيفاً**﴾ أي (جميعاً مختلطين أنتم وعدوكم)[2].

---

(١) انظر ما قلناه عن الوعد في المبحث الأول من الفصل الرابع ص/١٧٧ وما بعدها.

(٢) انظر تفسير القاسمي ص/٤٠٠٧.

واستعمال هذا اللفظ الفريد في هذا الموضع فيه من الإعجاز القرآني العجيب والذي - ربما - لا يؤدي مؤداه أي لفظ آخر.. فمن خلال ما قاله المفسرون وعلماء اللغة فيما يحمله من معان يتبين لنا بعض وجوه ذلك الإعجاز... فأنظر.

* / من المفسرين من قال إن معنى ﴿**لفيفاً**﴾ أي جميعاً. وبذا قال الطبري عن ابن عباس وقتادة والضحاك والسمرقندي ومجاهد وابن الجوزي وابن كثير والآلوسي[١].

ومن المحدثين الشيخ سعيد حوى في أساسه[٢].

* / ومنهم من قال إن ﴿**لفيفاً**﴾ فيها تأويلان:

أحدهما: مختلطين لا تتعارفون - قاله رزين.

الثاني: جئنا بكم من جهات شتى، قاله ابن عباس وقتادة مأخوذ من لفيف الناس)[٣].

* / وقال عن معناه صاحب صفوة البيان: (اللفيف اسم جمع لا واحد له من لفظه، ومعناه (الجماعة من قبائل شتى)[٤].

* / ويقول ابن عاشور (واللفيف الجماعات المختلطون من أصناف شتى) [٥].

* / أما صاحب لسان العرب فيفسر هذا اللفظ أيما تفسير فيقول:

(جمع لفيف: مجتمع ملتف من كل مكان. واللفوف - الجماعات. واللفيف - القوم يجتمعون من قبائل شتى ليس أصلهم واحد.. وجاؤوا ألفافاً أي لفيفاً..

واللفيف - ما أجتمع من الناس من قبائل شتى...

قال أبو عمرو: اللفيف.. الجمع من أخلاط شتى فيهم الشريف والدنيء والمطيع والعاصي والقوي والضعيف.. قال الله عز وجل: ﴿**جئنا بكم لفيفاً**﴾ أي أتينا بكم من كل قبيلة.

---

(١) انظر الطبري ١٧٧/١٥ والسمرقندي ٣٠٥ وتفسير مجاهد ٣٧١/١ وانظر زاد المسير ٩٥/٥.. وابن كثير ٦٧/٣ وانظر الآلوسي ١٨٦/١٥.

(٢) حيث قال: (أي جميعاً إلى فلسطين) انظر الأساس في التفسير ٣٠٤٤/٦.

(٣) انظر تفسير الماوردي ٤٦١٢.

(٤) انظر صفوة البيان - حسنين مخلوف ص/٣٧٤.

(٥) تفسير ابن عاشور ٢٢٩/١٥.

وفي الصحاح: (أي مجتمعين مختلطين.. يقال للقوم إذا اختلطوا - لفٌّ - ولفيف وقال أبو حيان الأندلسي (﴿**لفيفاً**﴾ أي منضماً بعضكم إلى بعض)[1].

* / واللف.. الحزب والطائفة.. من الالتفاف، وجمعه ألفاف والتف الشيء تجمع وتكاثف..

* / قال الجوهري: (لففت الشيء لفاً ولفّفته.. شدد للمبالغة وفلان لفيف فلان أي صديقه)[2].

* / ويورد الإمام ابن الجوزي قولين غير السابق أحدهما للفرّاء والآخر للزّجاجّ فيقول: (وقال الفراء: لفيفاً ــ أي من هاهنا ومن هاهنا..

وقال الزجاج: اللفيف ــ الجماعات من قبائل شتى)[3].

أقول وأسأل: هل رأي التأريخ يوماً جماعات من قبائل شتى ليس أصلهم واحد... جاؤوا من جهات شتى، وهم مختلطون من أصناف شتى، فشكلوا جمعاً عظيماً من أخلاط شتى، فيهم الشريف والدنيء والمطيع والعاصي والقوي والضعيف، من ها هنا وها هنا، فشكلوا أحزاباً وجماعات، منظماً بعضهم إلى بعض، فكان منهم مجتمع مختلط هم وأعدائهم، إلى أرض لم تنم عنها عيون الأفاعي لأنها مباركة ومقدسة وفي زمان واحد كزماننا؟ حملوا ذهب الأرض من كل الدنيا وجاؤوا وقد تركوا الحضارة والتقنية الحديثة إلى أرض يحجب ماؤها عن الزيتون لتسقى به أشجار الغرقد على كل التلال وخلف الأسوار والحصون.. فكانوا أكثر نفيراً منا وأكثر منهم فيما مضى.. فزعاً ونفيراً ؟. اللهم لك الحمد فقد أريتنا ذلك ولعلّها من بعض آياتك.

السبب الثالث: الذي جعلنا نرجح هذا القول هو ما يتطلبه أو ما تحتمه علينا الوحدة الموضوعية للسورة، ومن ضرورة التناسق بين بداية السورة وخاتمتها ومحور موضوعها الرئيسي.

---

(١) النهر الماد من البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ص/٤٨٤.

(٢) انظر لسان العرب لابن منظور ص/٣٨١.

(٣) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٥/٩٥.

إن الدارس لـ«جو» الآية في محيط إيحاءها حول مضمون تعابيرها يجد أن المقصود من قوله تعالى: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾ بعيد كل البعد عما قال به أغلب المفسرين من أن المقصود به هنا بـ ﴿**وعد الآخرة**﴾ يعني يوم القيامة.. وإنما هو المعنى المقصود به في قوله: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم**﴾ المذكور في بداية السورة، ولأن السورة جاءت لتنبئ عن الوعد الذي وعد الله بني إسرائيل على فسادهم في الأرض مرتين.. كما رأينا آنفاً فحين قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿**فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه.. ومن معه جميعاً.. وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾ الإسراء /١٠٣-١٠٤.

قال أهل التفسير بالمأثور في تفسير هاتين الآيتين ما ملخصه.

١/ إن معنى الاستفزاز من فرعون لموسى وقومه هو الإخراج من أرض مصر إما بالقتل أو بالإبعاد.

٢ / اختلفوا في المقصود من (الأرض) في قوله: ﴿**يستفزهم من الأرض**﴾ فقال بعضهم هي أرض مصر.. وقال البعض الآخر هي الأردن وفلسطين ومصر.

٣ / وكذلك اختلفوا في (الأرض) التي في قوله: ﴿**اسكنوا الأرض**﴾ فقال بعضهم هي أرض الشام وقال آخرون هي فلسطين وقيل أرض وراء الصين أو هي أرض مصر والشام..

٤ / وقالوا عن معنى (وعد الآخرة) هي: يوم القيامة.

٥ / وقالوا عن معنى (لفيفاً) أي: جميعاً أنتم وأعدائكم.

وقد فصلّنا القول في ذلك آنفاً ...

ومن جهة نظر أصحاب القول الثاني ممن يقولون بأن وعدي العقوبة على بني إسرائيل هما ليسا قبل الإسلام وإنما بعده لهم نظرة أخرى في تفسير هذه الآية أكثر موضوعية وشمولية ومطابقة للواقع.

ولتوضيح هذه القضية التي أجد أن لها أهمية كبيرة في تأصيل كل ما سبق التوصيل إلـــيه أورد مـــا قاله المفسرون حول هذا الموضوع باختصار في قوله تعالى: ﴿**فأراد أن يستفزهم من الأرض**﴾.

يقول القرطبي: (أي أراد فرعون أن يخرج موسى وبني إسرائيل من أرض مصر إما:

١/ بالقتل.

٢ / بالأبعاد.. فأهلكه الله عز وجل) [(١)].

وقال ابن كثير. (أي يخليهم منها أو يزيلهم عنها) [(٢)].

ويـــورد الإمـــام ابن الجوزي قولين في قوله: ﴿**فأراد أن يستفزهم**﴾ فيقول: (وفي معنى – يستفزهم – قولان..

أحدهما: يستأصلهم.. قاله ابن عباس.

الثاني: يستخفهم حتى يخرجوا.. قاله ابن قتيبة.. ويضيف..

* وقال الزجاج: جائز أن يكون استفزازهم إخراجهم منها بالقتل أو بالتنحية..) [(١)].

* ويفســـر الإمام الآلوسي ﴿**يستفزهم**﴾ بأن (أصل الاستفزاز الإزعاج) وكنى به عن إخراجهم من الأرض (أي مصر التي هم فيها) (أو من جميع الأرض ويلزم إخراجُهم من ذلك قتلهم واستئصالهم وهو المراد) [(٢)]

* وقـــال القاسمي كذلك (أي يفزعهم ويزعجهم بما يحمله على خفة الهرب فرقا منه... أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل و الاستئصال) [(٣)].

* ويبين الماوردي أخيراً أن (في معنى ﴿**يستفزهم**﴾ وجهين:

أحدهما: يزعجهم منها بالنفي عنها. قاله الكلبي.

---

(١) ينظر تفسير القرطبي ١٠ / ٣٣٨.

(٢) ينظر تفسير ابن كثير – ٣ / ٦٧.

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٥/٩٥.

(٢) روح المعاني للآلوسي ١٥/١٨٦.

(٣) تفسير القاسمي ص/٤٠٠٧.

الثاني: يهلكهم فيها بالقتل)[1].

.. من مجموع كل ما سبق نخلص إلى قولين قصدهما المفسرون:

الأول: إبعاد فرعون لموسى ومن معه من بني إسرائيل من أرض مصر التي كان يحكمها خشية أن ينتشر دين موسى بين قومه ويؤمنوا به فلا يبقى له من ملكه شيء.

الثاني: معنى الاستفزاز هو قتل موسى ومن معه من المؤمنين به واستئصالهم من الأرض والقضاء عليهم خشية انتشار دينه ودمار ملكه ... ونحن نرجح السبب الثاني وهو إرادة إهلاك موسى ومن معه بالقتل والاستئصال من الأرض وليس مجرد الاكتفاء بإبعادهم أو إزعاجهم بالنفي عن أرض مصر كما قال بعض المفسرين ... وقد بنينا هذا الترجيح على عدّة أمور.. هي:

أولاً: إن معنى الاستفزاز كما يقول أهل اللغة هو (الانزعاج) تقول (فزني فلان أي أزعجني)[2].

وقد كني به هنا عن القتل لما في القتل من الانزعاج الكثير) وقد أريد به هنا القتل والاستئصال كما قال بذلك الإمام الآلوسي وغيره من المفسرين[3].

ثانياً: لو كان قصد فرعون من استفزاز موسى هو إبعاده عن أرض مصر باستخفافهم ليخرجوا هرباً، يريد نفيهم عنها لما كان هناك داع إلى أن يتبعهم بجنوده مصبحين أو على أبعد احتمال أنه حين رأى من انفلاق البحر وعبور موسى ومن معه إلى الجانب الثاني أن لا يدخل في ذلك الموقف الرهيب خشية أن ينطبق عليه البحر ولعاد أدراجه بعد ما علم أن موسى لا يحارب وحده وإنما بتأييد الله له من خلال الآيات التي جاء بها ومن خلال وقوف شقي البحر لأجل أن يعبر هو وبنو إسرائيل ولقال ما دام قد عبر وانتهى فقد أمنت شره.

---

(١) انظر تفسير الماوردي ٢/٤٦١.

(٢) انظر مفردات الراغب ص/٣٧٩.

(٣) انظر روح المعاني للآلوسي ١٥/١٨٦ وانظر ابن الجوزي ٥/٩٥.

أن دخـــول فـــرعون خلف بني إسرائيل دليل على إصرار فرعون في القضاء على موسى ومن معه بالقتل والإبادة لأنه يعلم وتلك ميزة الطغيان في كل زمان ومكان انه لا يمكن أن يقر له قرار وفي الأرض من يقول لا اله إلا الله !! ان قبساً واحداً كفيل بأن ينير ظـــلمات كثيرة فكيف لو كان ذلك مشعلاً من كلمة التوحيد انه أما أن يقضي الباطل على حملة الحق وإلا فلا أمان له ولا اطمئنان...

وكل ذلك واضح من التصوير الفني الجميل الذي تجده في هذه الآيات ﴿**وأوحينا إلى موســـى أن أســـر بعـــبادي إنكم متبعون فأرسل فرعون في المدائن حاشرين إن هؤلاء لشرذمة قليلون، وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون... فأتبعوهم مشرقين، فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون، قال كلا..إن معي ربي سيهدين، فأوحينا إلى موســـى أن اضرب بعصاك البحر... فأنفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وأزلفنا ثم الآخرين، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين**﴾ الشعراء /٥٢-٦٦.

إنهـــا لم تكن يوماً صرخة في واد أو نفخة في رماد وإنما هي طبائع الاستبداد...لا يرضـــى الـــباطل إلا أن يزهق الحق كي تخلو له الأرض ... وصدق الله: ﴿**يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾ التوبة/٣٢.

ولقـــد أبرز القرآن هذه الحقيقة في كيد المشركين واليهود برسول الله ﷺ ومحاولة اســـتفزازه من الأرض في السورة نفسها عند قوله تعالى: ﴿**وإن كادوا ليستفزونك من الأرض... ليخرجوك منها... وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً**﴾ الإسراء /٧٦.

فلقد أورد المفسرون فيها عدّة أقوال نذكرها باختصار شديد لأهميتها هنا... قال الإمـــام الجلـــيل ابـــن الجوزي في تفسيره: (قوله تعالى: ﴿**وإن كادوا ليستفزونك من الأرض**﴾ في سبب نزولها قولان:

أحدهمـــا: إن رســـول الله ﷺ لما قدم المدينة، حسدته اليهود على مقامه بالمدينة، وكـــرهوا قـــربه، فقالوا: يا محمد أنبيٌّ أنت؟ قال: نعم، قالوا: فوالله لقد علمت ما هذه بأرض الأنبياء وإن أرض الأنبياء الشام، فإن كنت نبياً فائت الشام، فنزلت هذه الآيـــة،

قاله أبو صالح عن ابن عباس[1]..

وقال سعيد بن جبير: هِمّ رسول الله ﷺ أن يشخص عن المدينة، فترلت هذه الآية... وقال عبد الرحمن بن غنم: لما قالت اليهود هذا، صدّق ما قالوا، وغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك، نزلت هذه الآية[2]...

الثاني: أنهم المشركون أهل مكة همّوا بإخراج رسول الله ﷺ من مكة فأمره الله بالخروج وأنزل هذه الآية إخباراً عما همّوا به، قاله الحسن ومجاهد...

وقد علق الإمام ابن الجوزي على هذين القولين بقوله: (فعلى القول الأول، المشار إليهم... اليهود... والأرض: المدينة..

وعلى الثاني: هم المشركون، والأرض: مكة). ثم قال: (وقيل: المراد به ها هنا: القتل، ليخرجوه من الأرض كلها.. روي عن الحسن) [3].

والذي يهمنا في هذا الموضع معرفة المقصود بـ (الاستفزاز)؟.

أهو الإخراج من البلد؟ أم القتل..؟ فيكون إخراجاً من الأرض.. لنعرف من ثم..

* هل المقصود بالأرض البلد الذي كان يعيش فيها النبي ﷺ حين نزلت هذه الآية أو التي كانت تعنيها الآية...؟.

* أم الأرض هنا المقصود بها الجنس... أي كل الأرض؟.

اضطربت أقوال المفسرين في تعيين المراد وقد يحق لهم ذلك فإن هذا يحدث عندما تَرِد عدّة روايات لسبب نزول آية ما، كهذه الآية مثلاً.

فلقد أورد الواحدي في (أسباب الترول) ثلاثة أقوال عن سبب نزول هذه الآية.

* **الأول**: عن ابن عباس..

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٥/٦٩ وقد علق على هذا الخبر بقوله: (قال الحافظ ابن كثير في التفسير ٣/ ٥٣ وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك) هامش رقم/٢.

(٢) قال الإمام ابن الجوزي (قال الحافظ ابن كثير بعد ان ذكر خبر عبد الرحمن بن غنم عن البيهقي: وفي هذا الاسناد نظر، والأظهر ان هذا ليس بصحيح فان النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود وإنما غزاها امتثالاً لقوله ((يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار)) انظر تفسير ابن الجوزي ٥/٧٠.

(٣) انظر زاد المسير – لابن الجوزي ٥/٦٩-٧٠ وانظر مختصر ابن كثير ٢/٣٩١.

* **والثاني**: عن عثمان في اليهود..

* **الثالث**: عن مجاهد وقتادة والحسن انهم أهل مكة[1].

فأي هذه الأقوال هو الصحيح ؟؟

ويحدث هذا الاضطراب عندما لا يُستَقرَئ التأريخ إستقراءاً صحيحاً كما قدّمنا من قبل ففي هذا الموضع نجد الإمام الآلوسي في معرض تفسيره لهذه الآية يقول:

(وكان الاستفزاز بما فعلوا من حصره ﷺ في الشعب والتضييق عليه ﷺ)... ثم يقول: ووقع ذلك بعد نزول الآية - كما في البحر - وصار سبباً لخروجه ﷺ مهاجراً)[2].

فكـيف يكون هذا؟ إذا كانت الآية مدنية[3] وهجرة النبي ﷺ حدثت بسبب إخراج الكفار له بما فعلوا من حصره والتضييق عليه فكيف يقول (ووقع ذلك بعد نزول الآية؟).

وإذا كانت الآية مكيّة نزلت بعد حادثة الإسراء التي كانت قبل الهجرة بسنة على الخلاف في ذلك وحادثة حصره ﷺ في الشعب حدثت في بداية الدعوة كما هو ثابت تأريخياً[4] فكيف يقول ووقع ذلك بعد نزول الآية وصار سبباً لخروجه ﷺ مهاجراً؟ وقد آليـت عـلى نفسي أن ابحث هذه القضية ... فوجدت أن النبي ﷺ قد تعرّض لمحاولة الإخراج من مكة سواء عن طريق الكيد والتبييت لإخراجه بالقوة أم عن طريق التضييق وقـد أخـبر القرآن بهذا صراحة بقوله تعالى: ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾ الأنفال/٣٠.

وكـان هـذا إخـباراً عمّا مكروه في دار الندوة.. ثم تحقيق هذا المكر عن طريق التضـييق ومحاولـة قتله ﷺ بدلالة الآية نفسها وبدلالة قوله تعالى: ﴿**إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا...**﴾ التوبة/٤٠.

---

(١) انظر أسباب النـزول للواحدي ص/٢٢٠.

(٢) انظر روح المعاني للآلوسي ١٥/١٣٠.

(٣) من المعلوم ان هذه الآية مختلف في نزولها أهي مكية أم مدنية والآلوسي قال إنها مدنية، انظر ١٥/١٣٠.

(٤) كـان وقت حصار المشركين لرسول الله ﷺ ومن معه في الوقت الذي هاجر فيه المسلمون إلى الحبشة - انظر البداية والنهاية لابن كثير ٣/٨١.

وقولـــــه تعالى: ﴿**وكأين من قرية هي أشدُّ من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم**﴾ محمد/١٣.

أقول فأن كلتا المحاولتين قد وقعتا للنبي ﷺ من كفار مكة قبل الهجرة.. ثم إن كلتا المحاولـــتين وقعـــتا كذلك له من اليهود في المدينة يوم طلبوا منه الخروج إلى الشام كما ذكرنا آنفاً وحين حاول يهود بني النضير إلقاء صخرة على النبي ﷺ.

قال ابن إسحاق: (وخلا بعضهم وهمّوا بالغدر، وقال عمرو بن جحاش النضري: أنـــا أظهـــر على البيت فأطرح عليه صخرة وكان رسول ﷺ واقفاً إلى جنب جدار من بيوهم)[١] وكذلك في محاولتهم سمّ النبي ﷺ المعروفة.

والذي أُريد أن أخلص إليه.. هو أن النبي ﷺ تعرّض لمحاولة القتل والإخراج حين كان في مكة وتعرّض لهما أيضاً يوم كان في المدينة فأيهما كان المقصود بالاستفزاز أهو الإخراج ؟ أم القتل ؟ وللإجابة عن هذا السؤال أقول:..

إن معرفة العقوبة التي قدّرها الله للإستفزاز تُعينُ على معرفة المقصود بالاستفزاز.. فالآية تقول.. ﴿**وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها.. وإذاً لا يلبثون إلا قليلاً... سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا**﴾ الإسراء/٧٦.

فالعقوبـــة إذاً كما قال الآلوسي هي: (وعيد لهم بإهلاك مجموعهم من حيث هم مجموع)[٢].

وقال عنها ابن الجوزي (لاستأصلناهم بعد خروجك بقليل)..

وقال بعد ذلك: قال الزجاج: (لم يلبث العذاب أن يترل بهم)[٣].

أقول: وقد ثبت الإخراج من كفار مكة للنبي ﷺ يوم كان بمكة كما بينا قبل قليل بدلالـــة القـــرآن وشهادة الواقع وكما ثبت ذلك في المدينة فلم يترل العذاب و لم يكن الاستئصال كما قال المفسرون...

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢٦٧/٣.

(٢) انظر روح المعاني للآلوسي ١٣٠/١٥.

(٣) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٧٠/٥-٧١.

فدّل ذلك على أن المقصود بالاستفزاز هو القتل الذي لم يقع ولكنه - كاد أن يقع لولا أن الله عصمَ نبيّه من الناس - كاد - التي قال عنها الآلوسي:

(تدل على مقاربته.. لا على حصوله)[١] - أي الفعل - وهذا ما حدث فعلاً عندما ﴿**كادوا**﴾ أن يقتلوه ﷺ تنفيذاً لمكرِهم في دار الندوة ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك**﴾ وقد فعلوا ذلك ووقفوا ببابه يحملون سيوفاً صارمة ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل...

ومثل هذا (كادوا) أن يقتلوه بصخرةٍ - يوم أن كان بين ديار اليهود.. ولقد عبّرت الآية أصدقَ تعبير في أجلى تصوير حين قالت: ﴿**وإن كادوا... ليستفزونك من الأرض**﴾ - أي كادوا أن يقتلوك - ﴿**ليخرجوك منها**﴾ - بالقتل - وليس بالأبعاد والإخراج من مكة أو من المدينة...

وقد أشار الإمام ابن الجوزي في تفسيره إلى هذا بقوله: (وقيل: المراد به ها هنا: القتل، ليخرجوه من الأرض كلها... وقال روى ذلك عن الحسن)[٢].

وهو ما أوردهُ الآلوسي في تفسيره كذلك بقوله: (وحكى الزجاج إن استفزازهم ما أجمعوا عليه في دار الندوة من قتله ﷺ...

والمراد من الأرض وجه البسيطة مطلقاً، ثم أضاف وقال أبو حيان.. المراد على هذا الدنيا...)[٣].

وبهذا يكون التوافق واضحاً وأصيلاً بين قوله تعالى: ﴿**فأراد أن يستفزهم من الأرض**﴾ أي يقتلهم ويستأصلهم من الأرض، وبين قوله تعالى: ﴿**وإن كادوا ليستفزونك من الأرض**﴾ أي يقتلوك ويستأصلوك من الأرض.

وفي هذا يقول صاحب الأساس في التفسير (فأراد أن يستفزهم من الأرض بقتلهم واستئصالهم... وأصل الاستفزاز من الأرض الإخراج، والقتل خروج للروح من الأرض).

---

(١) انظر روح المعاني ١٣٠/١٥.

(٢) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٦٩/٥.

(٣) انظر روح المعاني للآلوسي ١٣٠/١٥.

وقال في موضعٍ آخر مبيناً سبب تأخر ذكر قوله تعالى: ﴿**فأراد أن يستفزهم من الأرض**﴾ أنها فسّرت الآية الأولى[١]...إذ الاستفزاز هنا هو القتل، فصار معنى تلك الآية وأنهم كادوا ليقتلوك.. ليخرجوك من الأرض، وإذن يستأصلهم الله بعدك لو فعلوا)[٢].

قلــت: وهذا هو الصحيح... وإلا لو كان المعنى هو - الإخراج والإبعاد - الذي وقــع والذي قال عنه بعض المفسرين أنه لم يقع من كفار مكة... وإنما بأمر الله له كما نقل الإمام ابن الجوزي عن قتادة قوله: (همّ أهل مكة بإخراجه من مكة ولو فعلوا ذلك ما نوظروا ولكن الله كفهم عن إخراجه حتى أمره بالخروج)[٣]..

فسبحان الله.. كيف وقد قال تعالى صراحة: ﴿**وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك**﴾ محمد/١٣.

قلــت: ولكنه حين لم يقع القتل الذي كان هو المقصود بالاستفزاز من الأرض لم يقع الهلاك والاستئصال الذي هو عقوبة من يقتل أنبياء الله...

وبــناء على هذا نقول... بما أنه قد ثبت أن الاستفزاز معناه: القتل وهو الخروج مــن الأرض - أي بــالموت مــن الدنيا... كان معنى (الأرض) في قوله: ﴿**فأراد أن يستفزهم من الأرض**﴾ وفي قوله تعالى: ﴿**وإن كادوا ليستفزونك من الأرض...**﴾ هي (الأرض مطلقاً) أي - وليس كما قيل أنها مصر أو الشام أو...

ولقــد رجّح هذا القول صاحب الأساس في التفسير وقد كان موفقاً في ترجيحه هــذا حيــث يقــول: (أننا نرجّح أن التفسير الصحيح لقوله تعالى: ﴿**وقلنا من بعده**﴾ أي: مــن بعد موسى ﴿**لبني إسرائيل اسكنوا الأرض**﴾ كل الأرض متفرقين ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾ أي..جميعاً إلى فلسطين)[٤].

وبناء عليه أيضاً ...

---

(١) أي قوله تعالى: ((وإن كادوا ليستفزونك من الأرض)).

(٢) انظر الأساس في التفسير - سعيد حوى ٦/٣١٣١-٣١٣٣.

(٣) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٥/٦٩.

(٤) الأساس في التفسير - سعيد حوى ٦/٣٠٤٤.

فإنه حين نُتمُّ قراءة الآيات ﴿**فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً...**﴾.

نجـــد أن معـــنى الأرض الثانية هو ذات المعنى في الأرض الأولى إذ المراد بها جنس الأرض وليس كما قيل إنها أرض الشام ومصر[1].

أو أنها الشام[2] أو هي مصر[3] أو هي كما قال ابن الجوزي فيها ثلاثة أقوال...

أحدها: فلسطين والأردن، قاله ابن عباس.

الثاني: أرض وراء الصين، قاله مقاتل.

الثالث: أرض مصر والشام... [4].

وقد اعتمدت هذا القول إضافةً إلى ما سبق - على أمرين هما:

الأول: ما قال به أهل العلم في التفسير في رد المعنى إلى اقرب مذكورين قد تحقق هنا دون إخلال بالمعنى كما ثبت لدينا.

الـــثاني: إن الله تعالى قصّ علينا في سور أخرى خبر بني إسرائيل وأنهم لم يسكنوا أرض مصـــر حيث توجه بهم موسى إلى الأرض المقدسة بعد إغراق فرعون ومن معه... ولا هي الأرض المقدسة التي حُرّمت عليهم بعد ما أبو أن يدخلوها حين قال لهم موسى: ﴿**يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا**﴾ المائدة/٢١... فقالوا: ﴿**إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها**﴾ المائدة/٢٢.

ثم قيل لهم: ﴿**فإنها محرمة عليهم**﴾ المائدة/٢٦.

فكيف يسكنون أرضاً صدر الأمر الإلهي بتحريمها عليهم[5] عقوبة لهم...

---

(١) كما قال القرطبي في ١٠/٣٣٨.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٥/١٧٦.

(٣) انظر تفسير الآلوسي ١٥/١٨٦.

(٤) انظر تفسير ابن الجوزي ٥/٩٥.

(٥) قلـــت ربما كان التحريم تحريم استحقاق للأرض لعدم ايفاءهم بالعهد لا تحريم سكنى وحتى السكن لو حدث فمؤقت فلا يلبثون ان يخرجوا منها مقهورين... والله أعلم.

إن العقوبة التي قدرها الله لبني إسرائيل هي ما ذكرناها آنفاً[1] من أن الله قد جعلهم أمماً ممزقة تعاني الشتات في الأرض ــ كل الأرض ــ بين الشعوب فقال تعالى: ﴿**وقطّعناهم اثنتي عشر أسباطاً أمماً**﴾.. الأعراف/١٦٠ وقال تعالى: ﴿**وقطّعناهم في الأرض أمماً**﴾ الأعراف/١٦٨. وهذا ما يؤيده الواقع عبر الزمان في كل مكان.

فالأرض التي أمروا بسكناها هي الأرض مطلقاً على شكل أمم تعاني الشتات والذلة بين الأمم ﴿**ملعونين أين ما ثقفوا**﴾ الأحزاب/٦١.

وتبرز الحكمة من وراء ذلك عند إكمال الآية إذ يقول القرآن: ﴿**وقلنا من بعده**﴾ - أي من بعد إغراق فرعون - ﴿**اسكنوا الأرض**﴾ - أي كل الأرض - ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾.

فهي إذا مدة انتظار يسكنون فيها في كل الأرض حتى يجئ وعد الآخرة - وعد العقوبة الثانية على إفسادهم الثاني واستعلائهم فيه عند ذلك سنجيء بكم من كل الأرض - لفيفاً، جماعات من قبائل شتى، وأمماً مختلطين بعضكم مع بعض،.. أصنافاً شتى، من ها هنا ومن ها هنا، منضماً بعضكم إلى بعض، على شكل جماعات من قبائل شتى... تنفرون لتنصروا الباطل الذي اجتمعتم عليه واستنفرتم له وكنتم لنجدته أكثر نفيراً له مما مضى... تحقيقاً لوعد الله الذي قضاه وتطبيقاً لقدره الذي أنزله عليهم بالحق وبالحق نزل...

﴿**فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾...

﴿**ليسؤَ. أو. لنسؤَ. أو. ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أولّ مرة... وليتبروا ما علو تتبيرا...**﴾.

ويوم يكون ذلك سيخر الذين أوتوا العلم من قبله للأذقان سجداً يبكون ويقولون: سبحان ربنا... سبحان ربنا... ﴿**إن كان وعد ربنا لمفعولاً...**﴾.

---

(١) راجع المطلب الثاني من المبحث الأول في هذا الفصل.

المطلب الثاني

المنهج الأقوم في التصدي لاستعلاء الفساد

قال تعالى... ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾.

إن هذا القرآن الذي أنبأ المؤمنين بإفسادي بني إسرائيل في الأرض واستعلائهم فيها لم يتركهم هكذا دون أن يرسم لهم... منهج للتصدي - لاستعلائهم في هذا الإفساد.

فلئن كان هذا القرآن قد أخبر بما قضى الله على بني إسرائيل سواء بما كانوا سيحدثونه من فساد في الأرض مرّتين أو بما سيلاقونه من عقوبةٍ على هذين الإفسادين!!

فإن الله قد بعث المؤمنين وهداهم إلى كيفيّة إنزال العقوبة عليهم في

الوعد الأول بالجوس خلال الديار، ومن ثَم دخول المسجد حتى من قبل أن يحدث وقال عنه ﴿**وكان وعداً مفعولاً**﴾...

وفي الوعد الثاني الذي قضى الله أنه سيبعث عليهم - أيضاً - عباداً له أولي باسٍ شديد (ليسؤوا وجوههم) و﴿**وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً**﴾ وذلك داخل فيما قضاه الله عليهم - كما صرّح بذلك بعض المفسرين[١]... وكان وعداً مفعولاً ...

ولكن كيف ومتى؟ وهنا ينبغي أن نقف ونبحث ...

أما متى... فأن ذلك مرهون بعودة المسلمين إلى الله وتحقيق صفة العبودية الخالصة لـه سبحانه وامتثال أمره ونهيه وتحكيم شريعته التي لا يؤمنون إلا بتحكيمها بكل الرضا فيها والتسليم لها بحيث يكون الدين كله - في الأرض - لله وحده دون سواه ... عند ذاك تنتهي فترة الكرّة التي لهم لتبدأ فترة إيقاع العقوبة عليهم وفق سنّة الله التي لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً...

---

(١) كابن عاشور حيث قال في تفسيره (وهذا الكلام من بقية ما قضي في الكتاب بدليل تعريفه بالفاء) انظر ١٥/٣٥.

أمـــا عـــن كيف فإن ذلك مما ينبغي أن تتكاتف كل الجهود لتحقيق المنهج الذي رسمته سورة الإسراء في التصدي لهذا الإفساد... وتحطيم ذلك العلو...

وتحقـــيق تلك العقوبة والذي كان هذا القرآن يهدي - في كل حين - للتي هي أقوم... في مجال تحقيقها كما ينبغي.

ولعـــل ممـــا تجدر الإشارة إليه هو إطلاق صفة العموم في قوله تعالى: ﴿**للتي هي أقـــوم**﴾ والتي أشار إليها الإمام الآلوسي في تفسيره في هذا الموضع بقوله: (فـــ للتي - صفة لموصوف حُذِف اختصاراً وقدّرهُ بعضهم (الحالة) أو (الملة) وأيما قدرت لم تجد مع الإثـــبات ذوق الـــبلاغة الذي تجده مع الحذف لما في الإبهام من الدلالة على أنه جرى الوادي وطمَّ على القرى)[1].

وقبل أن نعرض أقوال المفسرين ... نقف عند أهل اللغة لنرى ماذا يقولون: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾.

يقـــول الراغب: (إنّ وأَنّ: ينصبان الاسم ويرفعان الخبر والفرق بينهما أنّ - إنّ - يكون ما بعده جملة مستقلة...)[2].

﴿**هذا القرآن**﴾ هذا مكونة من مقطعين... (ها) و (ذا).

يقول ابن منظور (ها) بفخامة الألف - تنبيه - وبإمالة الألف - حرف هجاء -.

وهي بلا معنى سوى الافتتاح حيث تفتح العرب بها كلامها تقول (هذا أخوك - يعني - ها إن ذا أخوك).

وتقول (ها أنتم هؤلاء) تجمع بين التنبيهين للتوكيد وقد تكون تلبية...

قال الأزهري: يكون جواب نداء، يمد ويقصر... قال الشاعر...

لا بل يجيبك حين تدعو باسمه...... فيقول: هاءَ، وطالما لبى[3].

(١) روح المعاني للآلوسي ١٥/٢٢.

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني ص/٢٧.

(٣) لسان العرب لابن منظور ص/٧٥٦ ولم يبين من صاحب الشاهد.

ويقـــول الراغب: إن (ها... للتنبيه في قولهم هذا وهذه وقد ركب - مع - ذا - وذه - وأولاء حتى صار معها بمترلة حرف منها...

وها في قوله تعالى: ﴿**ها أنتم**﴾ استفهام...

ويضيف: وها... كلمة في معنى الأخذ، وهو نقيض هات أي إعط، يقال (هاؤم) كقوله تعالى: ﴿**هاؤم اقرؤا كتابيه**﴾[1] الحاقة/١٩....

وأمـــا - ذا - فيقول عنها ابن منظور: (ذا يكون بمعنى هذا.. ومنه قوله: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده**﴾...

أي من هذا الذي يشفع عنده...؟

* وقال: - ذا - يوصل به الكلام ...

* قـــال ابن سيده في موضع آخر: (ذا إشارة إلى المذكر يقال (ذا وذاك) وقد تُزاد اللام فيقال (ذلك) ومنه قوله تعالى: ﴿**ذلك الكتاب**﴾ البقرة/٢...

قال الزجاج: معناه هذا الكتاب.

* وقد تدخل على - ذا (ها) التي للتنبيه فيقال:... هاذا..)[2].

﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾.

يقول ابن عاشور: هذا (استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى الغرض الأهم في السورة وهو تأييد النبي ﷺ بالآيات والمعجزات وإيتاؤه الآيات التي أعظمها آية القرآن...)[3].

وقـــد (أُخبِروا بأن في القرآن ما يعصمهم عن الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل إذ هو يهدي للطريق التي هي أقوم مما سلكه بنو إسرائيل...

و﴿**التي هي أقوم**﴾ صفة لمحذوف دل عليه - يهدي - أي للطريق التي هي أقوم، لأن الهداية من ملازمات السير والطريق، أو للملة الأقوم...

---

(١) انظر مفردات الراغب ص/٥٤٨-٥٤٩.

(٢) لسان العرب لابن منظور ص/١٠٤٧.

(٣) تفسير ابن عاشور ٣٩/١٥.

والأقوم: تفضيل القويم... والمعنى: أنه يهدي للتي هي أقوم من هدى كتاب بني إسرائيل الذي في قوله: ﴿**وجعلناه هدى لبني إسرائيل**﴾[1].

أما أهل التفسير فيكادون يتفقون في معنى هذه الآية ...

يقول الإمام الطبري: (إن هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ يرشد ويسدد من اهتدى به ﴿**للتي هي أقوم**﴾ ... يقول: للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله الذي بعث به أنبياءه وهو الإسلام)[2].

وبنحوه هذا قال السمرقندي وابن الجوزي والرازي والقرطبي وابن كثير والثعالبي[3].

وكذا الآلوسي حيث يبين ﴿**إن هذا القرآن**﴾ الذي آتيناكه، هذا متعلق بصدر السورة كما مرت الإشارة إليه، وفي الإشارة هذا تعظيم لما جاء به النبي المجتبى ﷺ ﴿**يهدي**﴾ أي الناس كافة لا فرقة مخصوصة منهم كدأب الكتاب الذي آتيناه موسى عليه السلام ﴿**للتي**﴾ أي للطريقة التي ﴿**هي أقوم**﴾ أي أقوم الطرق وأسدّها أعني ملّة الإسلام والتوحيد...

فللتي صفة لموصوف حذف اختصاراً وقدّره بعضهم الحالة والملة)[4].

ويفصل المعنى أكثر صاحب الأساس في التفسير إذ يقول: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾ أي للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدّها أو للملّة التي هي أقوم، أو للطريقة التي هي أقوم في كل شيء، في العقائد، والأخلاق، والسلوك، والعبادات، والتشريع.

ويضيف: وقد بينت الآية خصيصة من خصائص القرآن هو أنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل، مع التبشير والانذار، وهذا مظهر من مظاهر إعجازه.

---

(١) المصدر السابق ١٥/٤٠.

(٢) تفسير الطبري ١٥/٤٦.

(٣) انظر تفسير السمرقندي ص/٢٩٠ وزاد المسير لابن الجوزي ٥/١٢ والرازي ٢٠/١٦١ والقرطبي ١٠/ ٢٢٥ وابن كثير ٣/٢٦ والثعالبي ٢/٣٣٢.

(٤) انظر الآلوسي ١٥/٢٢ وانظر أضواء البيان للشنقيطي ٣/٤٠٩.

إذ تحدث عن كل شيء... فهدى فيه إلى أقوم ما يمكن أن يكون فيه بإسلوب التبشير والإنذار، فأي كتاب يمكن أن يكون كذلك؟

وكيف يكون كذلك لولا أنه من عند الله...؟)[1].

قلت: إنني أرى ... إن هذه الخصيصة التي يتحدث عنها صاحب الأساس - رحمه الله - هي ضالة المؤمنين - اليوم - فهم يعتقدونها إجمالاً ولا يتخذونها منهجاً، وهم اليوم أحوج ما يكونون لهذا المنهج الذي يتصدون به ومن خلاله لفساد بني إسرائيل واستعلائهم في الأرض والذي كان - كما نرى اليوم - وفق منهج مرسوم... ويسيرون عليه بعزم لا يعرف الكلل... ودقة لا يشوبها الخلل ويبذلون فيه الجهد الذي لا يعرف الكسل سخّروا فيه القوى والطاقات واستنفروا من استطاعوا من أعوانهم بإعلامهم وصحافتهم ودعاياتهم ووعودهم حتى نفذوا في أغلب المؤسسات الدولية العالمية وشاركوهم بأموالهم وأولادهم خداعاً وغروراً...

إنه منهج للإفساد قد رسمه كتّاب التوراة وصنّاع التلمود ونظام للاستعلاء في الأرض فصّلت مراحله ومضامينه - جماجم المكر اليهودية في (بروتوكولات) غدت - كما هو معروف - قيد التنفيذ..

إن المؤمنين بهذا القرآن - اليوم - ينبغي أن يستجيبوا إلى دعوة الحق في ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾ في علاج واقع المسلمين اليوم من جهة...

وفي التصدي لاستعلاء إفساد بني إسرائيل - اليوم - من جهة أخرى...

فإن هذا القرآن جاء يحمل بين ثناياه - هذا المنهج الذي يهدي للتي هي أقوم... هكذا... بهذا الحذف الذي أقرّه المفسرون والذي قالوا عنه أنه حذف اختصاراً وتقديرهُ للحالة أو الملّة التي هي أقوم من غيرها... سواء في العقائد والأخلاق والسلوك والعبادات والتشريع كما ذكر ذلك صاحب الأساس في التفسير[2].

---

(١) انظر الأساس في التفسير - سعيد حوى ٣٠٤٦/٦.

(٢) راجع الآلوسي ٢٢/١٥ والأساس ٣٠٤٦/٦.

وكما فصله صاحب الظلال في تفسيره حيث يقول: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هـــي أقوم**﴾... هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أقوامـــاً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

- / يهـــدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.
- / ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، بين مشاعره وسلوكه، بـــين عقـــيدته وعملــــه، فإذا هي بكلّها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، مـــتطلعة إلى أعلى ومستقرة على الأرض... وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة...
- / ويهـــدي للـــتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصر والاعتدال وحدود الاحتمال.
- / ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض أفراداً وأزواجاً، وحكومات وشـــعوباً ودولاً وأجناساً، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنئان ولا تبصر منها المصالح والأغراض، الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كـــل أرض وفي كـــل جـــيل فـــيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال والاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.
- / ويهـــدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام)[1].

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب ٥/٣٠٨-٣٠٩.

فهل أدرك اليهود هذا؟.

وهل عرفوه؟...

لا شـــك في هذا وهم الذين أخبر الله عنهم أن ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾ البقرة/١٤٦.

إنما الذي يحز في النفس أن الذين يجهلون هذا هم أغلب المسلمين...



الخاتمة

النتائج... والتوصيات:

أولاً- النتائج:

وخلاصة ما تقدم نستنتج حقائق عدّة أجملها فيما يلي اختصاراً.

١ / اقتصار السور المكيّة – غالباً – بالإخبار عن فساد بني إسرائيل الماضي ومعالجة السور المدنية – غالباً – لإفساد بني إسرائيل المعاصر للنبي ﷺ وتفرّد سورة الإسراء بالإنباء عن إفساد بني إسرائيل مستقبلاً ورسم المنهج الأقوم للتصدي له.

٢ / كذب ادعاء اليهود أهم من سام وحده وإنما هم أخلاطٌ من قبائل وأمم شتى كانوا مقطّعين في الأرض وقد جِيء بهم لفيفاً لتحقيق الوعد الآخِرِ بهم بعد إفسادهم الذي نعاصره اليوم.

٣ / عدم حصر فسادهم في جريمةٍ ما وإنما برفضهم الاهتداء بهدى الله، واتباع أنبياءه، وتطبيق ما جاء في كتبه، واتخاذهم من دون الله وكيلا سبحانه، فضلّوا وأضلّوا فبعث الله عليهم من جاس خلال ديارهم ودخل المسجد الذي كان رمز وجودهم وأعادته إلى حضيرة الإسلام.

٤ / إن أغلب ما قاله المفسرون الأجلاء – إن لم يكن كلّه – في تحديد وقتي الفساد ومن بعث عليهم فيهما إنما كان أصله الروايات الإسرائيلية المنقولة إليهم من أهل الكتاب عن طريق كثير من التابعين الذين اعتمد أغلب المفسرين على أقوالهم في تفسير الآيات الواردة في صدر سورة الإسراء.

٥ / كان الإعتماد على الروايات الضعيفة – سنداً ومتناً – السبب الأول في إهمال بعض القواعد التفسيرية التي قعّدها المتقدمون وبالتالي عدم إعطاء النص القرآني والمفردة القرآنية حضها من الاهتمام والتقدير.

٦ / إن استعمال القرآن لمفردة معينة دون غيرها له أهمية كبرى في اختيار معنى - أو معانٍ - معينة يراد من خلالها إبلاغ - وحي ما - في - زمن ما - لقوم يؤمنون... كالعباد - والجوس - والكرّة - والوعد - واللفيف... الخ.

٧/ إن الفساد شيء والإفساد أعم منه وأشمل فالفساد ما كان خاصا بحيث لا يكون الفعل متعديا إلى غيره أي أن الفاسد قد يكون فساده منحصر فيه وعليه بينما الإفساد هو تعدّي الفعل إلى الغير بحيث أن المفسد لا يكتفي بفساده وإنما يسعى جاهدا أن يفسد غيره وذلك ملحوظ من دقة التعبير القرآني في قوله تعالى [وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسِدُنّ في الأرض مرتين] ولم يقل - لتَفسُدنّ - فإن في كسر السين معنى الإفساد للغير وفي ضم السين معنى الفساد الشخصي - إذا صح التعبير.

٨ / إن الفساد غير العلو فيمكن أن يتحقق الأول دون الثاني.. بينما الثاني لا يتحقق إلا بالأول وذلك عندما يتعاظم الفساد فيكون إفسادا.. ومن ثم فإن العلو لا يكون إلا أساس الإفساد في الأرض هذا من جانب ومن الجانب الآخر فإن - الإفساد والعلو - شيء والوعد عليهما شيء آخر.. فإن الأول رفض الاهتداء واستحباب العمى عليه والبغي في الأرض ومحاربة الحق والثاني هو إيقاع العقوبة عليه بمجيء الفتح من الله حين يكون أصحاب الحق أهل لذاك أو بأمر من عند الله بإجماع المفسرين.

٩ / إن البعث له مقومات أبرزها - تحقيق العبودية الخالصة لله كشرط للإمامة وأن النصر له أسباب - أبرزها - الثقة بالله واتخاذه وكيلاً والاستعداد الكامل لأعدائه فإذا عدمت المقومات وتركت الأسباب فلا إمامة ولا نصر وإنما هي ردةٌ من ناحيتين - تراجع منا إلى ما كنا عليه قبل البعث... وكرّة علينا لهم فيها مدد في الأموال والبنين والنفير الكثير.

١٠ / بروز المعنى المقصود من خلال النص بعد تحقيق اللفظ لغوياً ومطابقته للواقع مما يساعد على الفهم الصحيح للعبارة القرآنية كما هو الحال في الجوس والدخول فان الأول للديار والثاني للمسجد وبالتالي فإن ما ذكره المفسرون لم يكن جوساً ولا دخولاً وإنما هو اجتياح ودمار...

١١ / التأكـــيد عـــلى دخول المسجد في الوعدين له أهميته في بيان وتحديد هذين الوعدين وكل قول لم تؤيده حقائق التأريخ فمردود... وحصر كيفيّة الدخول في ﴿**كما دخلوه**﴾ يؤشر إلى كيفية الدخول الثاني من حيث الأسباب والمقومات الواجب توفرها والاستعداد الكامل لتحقيق ذلك.

١٢/ ردّ الكرّة لهم علينا لا لفضلهم ولا لأفضليّتهم وإنما ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾ و﴿**إن تنصـــروا الله ينصركم**﴾ وكما قال أكذبهم حييّ (من يخذل الله يخذل) وبالتالي فنهاية الكرّة مرهونة بعودتنا إلى الله.

١٣ / أُمدّوا بأموال وبنين ليحقّ قول الحق في إمهال الظالمين ثم أخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر ﴿**أيحسب أن ما نمدهم به من مالٍ وبنين نسارع لهم في الخيرات - كلا - بل لا يشـــعرون**﴾ فحين يأتي وعد الله ﴿**فساء صباح المنذرين**﴾ وحين يترل وعد الآخرة على من جيء بهم لفيفاً.. ستسوء وجوههم ويُتّبّر كل ما علوه... تتبيراً .

١٤ / النفير من الفزع من الشيء والى الشيء وما نفر بنو إسرائيل في أيام سليمان كمـــا قـــال المفسرون ولِمَ ينفرون وعند سليمان من الجنود من يغوصون له ومنهم من يصـــنعون له ما شاء ومنهم من يطيرون له عبر الآفاق ليأتوه بالملوك وعروش الملوك... واليوم كانوا - بحق - أكثر نفيراً.

١٥ / وإن عـــدتم عدنا - قانون الهي أساسه ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا مـــا بأنفسهم..**﴾ وأن الله يمدّ كلا من هؤلاء وهؤلاء من عطائه ليرى غيرة الناس على الحـــق فإذا غار الناس انتصر لهم وإذا لم يغاروا غار هو عليه وانتقم منهم فجعل بأسهم بينهم بعدما يلبسهم شيعاً ليذيق بعضهم بأس بعض.

١٦ / رحمـــته سبحانه وسعت كل شيء... فعسى.. أي أرجو ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا.. وإن أسأتم فإن جهنم كانت - في الآخرة - للكافرين.. حصيراً... أما في الدنيا.. لنبعثن عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ـــ أو ـــ من يسومكم سوء العذاب.

١٧ / عـدم صلاحية المنهج القائم على أساس استقراء التوراة أو محاكمة القرآن إلى التأريخ الذي مهما قيل عن قدمه وصلاحيته فإن القرآن كان وما يزال وسيبقى الكتاب الذي يهدي للتي هي أقوم وهداية هذا القرآن للتي هي أقوم أمرٌ قررهُ القرآن وبيّنه النبي ﷺ وأثبته الواقع التأريخي.

ثانياً- التوصيات:

١ / الاعتصام بحبل الله الذي ليس غيره متين وتدبره وعدم الانشغال عنه بغيره.

٢ / التعامل مع النصوص بموضوعية في السلوك لتحكم حركة الحياة وفق ما تقتضيه مهمّة الخلافة عن الله في الأرض.

٣ / الاهتمام بمناهج تدريس الأديان وتدريب طلبة العلم على فهم النصوص ودراستها وتفسيرها وفق الضوابط الموضوعة لهذا العلم الجليل.

٤ / الاهتمام بقضية العصر - استعلاء فساد اليهود - اهتماماً كافياً يتناسب مع خطورة هذه القضية وكيفية التصدي لها.

٥ / إعادة النظر في المواضع المتعلقة بدراسة تأريخ وعقائد اليهود... وضرورة عرضها وفق المستجدات الحاصلة اليوم ووفق طرائق البحث الصحيحة والتحليل الدقيق لفهم النصوص التي أُجملت في موضع وفصّلت في مواضع أخرى.

٦ / حث الأقسام الشرعية على دراسة الخطط والمناهج التي اعتمدها اليهود في - غسل أدمغة المسلمين - للتصدي لها أو الوقاية منها ومن أجل إخراج عنصر علمي متخصص ومتمّرس في هذه القضايا وبما يُسهم في خدمة المشروع الحضاري لهذه الأمة والدفاع عنه عن طريق بناء جيل إيماني فريد لبعث الأمة من جديد.

وما ذلك على الله بعزيز.

الباحث

ملحق رقم/١

جدول بأسماء السور المكيّة التي ورد فيها الخبر عن بني إسرائيل وزمنه حسب الترتيب النزولي

التسلسل	اسم السورة	ترتيب النزول	زمن الخبر	الآيات
١-	المزمل	٣	ماض	١٦-١٥
٢-	المدثر	٤	مستمر	٣١
٣-	الفاتحة	٥	مستمر	٧
٤-	الأعلى	٨	ماض	١٩
٥-	الفجر	١٠	ماض	١٤-١٠
٦-	البروج	٢٨	ماض	١٩-١٨
٧-	ص	٣٨	ماض	٤٠-١٧
٨-	الأعراف	٣٩	ماض	١٠٧-١٠٣
٩-	الفرقان	٤٢	ماض	٣٦-٣٥
١٠-	مريم	٤٤	ماض	٣٥-٥٠/٣٨-٢
١١-	طه	٤٥	ماض	٧٩-٩
١٢-	الشعراء	٤٧	ماض	٦٨-١٠
١٣-	النمل	٤٨	ماض	٤٤-٧
١٤-	القصص	٤٩	ماض	٨٢-٧٦/١٥-٣
١٥-	الإسراء	٥٠	معاصر ومستقبل	١٠٤-١٠١/٨-٢
١٦-	يونس	٥١	ماض	

١٧-	هود	٥٢	ماض	٩٦-١١١
١٨-	يوسف	٥٣	ماض	١-١١١
١٩-	الأنعام	٥٥	معاصر للنبي	٩١-٩٤
٢٠-	الصافات	٥٦	ماض	١١٢/١١٤
٢١-	سبأ	٥٨	ماض	١٤/١٠
٢٢-	غافر	٦٠	ماض	٥٤/٢٣
٢٣-	فصلت	٦١	ماض	٤٥
٢٤-	الشورى	٦٢	ماض	١٤/١٣
٢٥-	الزخرف	٦٣	ماض	٦٧/٤٦
٢٦-	الدخان	٦٤	ماض	٣٧/١٧
٢٧-	الجاثية	٦٥	ماض	١٧/١٦
٢٨-	الأحقاف	٦٦	ماض ومعاصر	١٢/١٠
٢٩-	الذاريات	٦٧	ماض	٤٠/٣٨
٣٠-	الكهف	٦٩	ماض	٦٠-٨٢
٣١-	النحل	٧٠	معاصر ومستمر	١١٨
٣٢-	إبراهيم	٧٢	ماض	١٤/٥
٣٣-	الأنبياء	٧٣	ماض	٨٢/٧٨/٤٨/٩١/٨٩
٣٤-	المؤمنون	٧٤	ماض	٥٠/٤٥
٣٥-	السجدة	٧٥	ماض	٢٥/٢٣

٣٦-	الحاقة	٧٨	ماض	٩/١٠
٣٧-	القارعة	٨١	ماض	١٥/٢٦
٣٨-	العنكبوت	٨٥	معاصر ومستمر	٤٦/٤٧

١- السور التي ذكر فيها ما يخص بني إسرائيل إحدى وثلاثون سورة من مجموع (٣٨) سورة[١].

٢- السور التي ذكر فيها ما يخص بني إسرائيل وما كان معاصراً للنبي ﷺ خمس سور وهي (الإسراء /الأنعام /الأحقاف /النحل /العنكبوت)[٢].

٣- تفردت سورة الإسراء بالإنباء عن مستقبل فساد بني إسرائيل دون غيرها من السور المكية[٣].

---

(١) انظر الجدول آنفاً.

(٢) انظر تسلسل الجدول رقم ((١٥/١٩/٢٨/٣١/٣٨)).

(٣) انظر تسلسل الجدول رقم ((١٥)).

جدول بأسماء السور المدنية التي ورد فيها الخبر عن بني إسرائيل وزمنه حسب الترتيب النزولي:

التسلسل	اسم السورة	ترتيب النزول	زمن الخبر	الآيات
١-	البقرة	٨٧	معاصر للنبي	٤٠/١٢٣/١٤٦/١٥٩/ ١٦٢/١٧٤/١٧٦/٢١١ /٢١٣/٢٤٣/٢٥٣
٢-	آل عمران	٨٩	معاصر للنبي	١٩/٢٥/٣٥/٣٧/٤٢/ ٨٣/٩٣/١٠٠/١٠٥/ ١١٠/١٢٠/١٢٧
٣-	الأحزاب	٩٠	معاصر للنبي	٢٦/٢٧/٤٤/٥٦/١٥٠
٤-	النساء	٩٢	معاصر للنبي	١٦١/١٧١/١٧٣
٥-	الحديد	٩٤	معاصر للنبي	١٦/٢٧/٢٩
٦-	البينة	١٠٠	معاصر للنبي	١/٦
٧-	الحشر	١٠١	معاصر للنبي	٢/٦/١١/١٥
٨-	الصف	١٠٩	ماضي ومعاصر	٥/٩/١٤
٩-	الجمعة	١١٠	معاصر للنبي	٥/٨
١٠-	المائدة	١١٢	ماضي ومعاصر للمستقبل	١٢/٢٦/٣٢/٤١/٥٣/ ٥٧/٨٦/١١٠/١١٩
١١-	التوبة	١١٣	معاصر ومستقبل	٢٩/٣٥

١- السور التي تحدثت عن فساد بني إسرائيل المعاصر للنبي ﷺ (١١) إحدى عشر سورة من مجموع (٢٩) تسع وعشرين سورة مدنية.

٢- لم تـــتحدث إلا ســـورة واحـــدة عن فساد بني إسرائيل في الماضي مع الإشارة إلى الحاضر وهي سورة الصف[١].

٣- ســـورتان فقط ذكر فيها الإخبار في الزمن المعاصر للنبي والمستقبل بشكل عام هما سورتي المائدة والتوبة[٢].

(١) انظر التسلسل رقم /٨.

(٢) انظر التسلسل رقم/١٠-١١.

ملاحظة خاصة بالملحق الثاني:

حاصل ما قاله المفسرون حول تعيين الإفساد الأول والثاني ومن بعث عليهم فيهما وفق ما ورد من أقوال مأخوذة عن أهل الكتاب أو مستقاة من التأريخ ونصوص التوراة... مع بيان تسلسل الأنبياء الموافق لتسلسل من تعرض لهم من الملوك... موضحاً المراحل المهمة التي مر بها بنو إسرائيل عبر التأريخ... وكذلك ما تحصل لدينا من بيان مرتي الإفساد وفق ما أوحت به المعطيات القرآنية ومرحلة الاستعلاء الكبير الذي ذكر في النص ويؤيده الواقع.

أ – تسلسل الأنبياء الذين بعثوا إلى بني إسرائيل والذين ذكرهم القرآن الكريم ابتداءاً بموسى وهارون وانتهاءً بعيسى آخر أنبيائهم.

ب – الأحداث التي مرت ببني إسرائيل من يوم أن كانوا بمصر وحتى القضاء عليهم على يد النبي ﷺ وأصحابه الذين تحققت فيهم مقومات العباد.

ج– تسلسل الملوك الذين تعرضوا لبني إسرائيل ابتداءً من فرعون ومن جاء بعده وصولاً إلى الرومان ثم تعرض النبي ﷺ والصحابة والقضاء عليهم.

د – المراحل التي مرّ بها بنو إسرائيل من يوم إن كانوا بمصر وإلى يومنا هذا.

هـ- المخطط التوضيحي للإفسادين الأول والثاني كما قال به المفسرون الأقدمين ومن تعرض لهم فيهما. وفيه دلالة على عدم صحة ما ذهبوا إليه حيث جاءت المعطيات القرآنية وحقائق التاريخ تخالفه وبشدة.

و – المخطط التوضيحي للإفسادين الأول والثاني كما أوحت به المعطيات القرآنية والذي أكدته الأحداث التأريخية.

ز – الفترة الزمنية التي تمثل ظهور الإسلام بعد القضاء على الوجود اليهودي ودخول المسلمين المسجد الأقصى في خلافة عمر رضي الله عنه وانتشار الإسلام.

ح – المخطط الذي يوضح استعلاء بني إسرائيل اليوم وقد تحققت كل مقوماته ونهايته على يد العباد بعدما يبعثون عليهم مرة أخرى لكي يسؤوا وجوه اليهود ويدخلوا المسجد الأقصى مرة أخرى ويتبّروا كل ما علوه تتبيرا.

ط – نماذج وصور من إفسادهم الماضي.

ي - نماذج وصور من إفسادهم المعاصر للنبي ﷺ.

ك - نماذج وصور من إفسادهم المعاصر.

المصادر والمراجع

كتب التفسير:

١ / جـــامع البيان - محمد بن جرير الطبري ط/٢ - ١٩٥٤م - مصطفى الباب - بمصر.

٢ / تفسير القرآن الكريم - نصر الدين السمرقندي - مطبعة الإرشاد بغداد- ١٩٨٦م.

٣ / تفسير الماوردي - علي حبيب الماوردي - ط/١ - ١٩٨٢م - مطابع مقهوي - الكويت.

٤ / الكشـــاف - لأبي القاســـم الزمخشري، حقائق التتريل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. ط/ دار الفكر بيروت.

٥ / المحرر الوجيز - عبد الحق بن عطية ط/١ - ١٩٨٣م - الدوحة.

٦ / زاد المسير في علم التفسير - أبي الفرج ابن الجوزي ط/١ المكتب الإسلامي للنشر - ١٩٦٥م.

٧ / التفسير الكبير للفخر الرازي ط/٢ دار الكتب العلمية.

٨ / الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ط/ المكتبة العربية - ١٩٦٧م - دار الكتاب العربي.

٩ / أنوار التتريل - للبيضاوي ط/١٣٣٠هـــ - مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع بيروت.

١٠ / النهر الماد من البحر المحيط - أبن حيان الأندلسي - ط/١ ١٩٨٧م - دار الحيان - الكنب الثقافية.

١١ / تفسير إبن كثير لأبي الفداء ابن كثير ط/١ دار أحياء الكتب العربية - دمشق.

١٢ / مختصـــر تفسير ابن كثير ط/٧ تحقيق واختصار محمد علي الصابوني - دار القرآن الكريم - بيروت ١٩٨١.

١٣ / الجواهر الحسان في تفسير القرآن - عبد الرحمن الثعالبي.

١٤ / تفســـير مجـــاهد - مجاهد بن جبر - تحقيق عبد الرحمن الطاهر - مجمع البحوث الإسلامية - إسلام أباد.

١٥ / الدر المنثور - عبد الرحمن السيوطي - ط/١ - ١٩٨٣م - دار الفكر - بيرو.
١٦ / تفسير الجلالين - المحلي والسيوطي - عالم الكتب ببيروت.
١٧ / فتح القدير للشوكاني ط/١ ١٣٥هـ - مصطفى البابي بمصر.
١٨ / روح المعاني للإمام الآلوسي ط/٢ دار أحياء التراث العربي - بيروت.
١٩ / في ظلال القرآن - سيد قطب ط/٧ - ١٩٧١م - دار أحياء التراث - بيروت.
٢٠ / التحرير والتنوير الطاهر إبن عاشور - الدار التونسية للنشر.
٢١ / أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين الشنقيطي - عالم الكتب - بيروت.
٢٢ / صفوة البيان لمعاني القرآن - حسنين مخلوف - ط/٣ - ١٣٣٧هـ - مصر.
١٣ / صفوة التفاسير - محمد علي الصابوني - ط/٥ - ١٩٨٦م - دار القلم - بيروت.
١٤ / الأساس في التفسير - سعيد حوى /١/١ - ١٩٨٥ - دار السلام - القاهرة.

علوم القرآن:

١ / الفهـــرس الموضوعي لآيات القرآن - محمد مصطفى - ط/٢ - ١٩٨٤م - مطبعة الخلود - بغداد.
٢ / المعجم المفهرس لألفاظ القرآن - محمد فؤاد عبد الباقي - دار أحياء التراث العربي - بيروت.
٣ / معجم غريب القرآن من صحيح البخاري - فؤاد عبد الباقي - ط/٢ دار المعرفة - بيروت.
٤ / تأويل مشكلات القرآن - ابن قتيبة، ط/٣ - ١٩٨١ - المكتبة العلمية - بيروت.
٥ / الإعجاز والإيجاز - أبي منصور الثعالبي - ط/٢ - ١٩٨٣م - دار الرائد العربي - بيروت.
٦ / أسباب النزول - الواحدي - ط/ ١٣١٦ - عالم الكتب - بيروت.
٧ / لباب التقول في أسباب النزول - للسيوطي - ط/ الدار التونسية للطبع.

٨ / التفسير والمفسرون - محمد حسين الذهبي - ط/١ - ١٩٦١م - دار الكتب الحديثة - القاهرة.
٩ / البرهان في علوم القرآن - بدر الدين الزركشي - ط/٣ - ١٩٨٠م - دار الفكر - بيروت.
١٠ / مقدمة في أصول التفسير - إبن تيمية - ط/٢ - ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
١١ / دراسات في التفسير ورجاله - أبو اليقطان - ط/ ١٤٠٦٣هـ - ١٩٨٦م - دار الندوة - بيروت.
١٢ / القرآن معجزة ومنهاج - محمد متولي الشعراوي - ط/١ - ١٩٨٤م - دار الندوة - بيروت.
١٣ / تطور تفسير القرآن - محسن عبد الحميد بيت الحكمة جامعة بغداد ١٩٨٩م.
١٤ / إعجاز القرآن - مصطفى صادق الرافعي - ط/٩ - ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م - دار الكتاب العربي • بيروت.
١٥ / تحت راية القرآن - مصطفى صادق الرافعي - ط/٧ - ١٩٧٤م -دار الكتاب العربي - بيروت.
١٦ / الإعجاز القرآني - بحوث المؤتمر الأول للأعجاز القرآني المعقود ببغداد ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
١٧ / الظاهرة القرآنية والعقل - علاء الدين المدرس - ط/١ - ١٩٨٦م - مطبعة العاني - بغداد.
١٨ / تأملات في آيات القرآن - إبراهيم النعمة. ط/١ - ١٩٨٥ - مطبعة الزهراء - الموصل.
١٩ / التصوير الفني في القرآن - سيد قطب - ط/ ١٩٦٦.
٢٠ / الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم وابن حزم الأندلسي - مكتب الشرق الجديد - بغداد.

٢١ / القرطبي ومنهجه في التفسير القصبي محمود زلط - المركز العربي للثقافة والعلوم - بيروت.
٢٢ / جواهر التفسير - أحمد الخليلي - ط/١ - ١٩٨٤م مكتبة الاستقامة - عمان.
٢٣ / منهج الأمام محمد عبده في التفسير - عبد الله محمود شحاته - رسالة ماجستير - ١٩٦٣م - القاهرة.

التأريخ والسيرة والرجال:

١ / البداية والنهاية - إسماعيل ابن كثير - ط/٣ - ١٩٨٧م دار الكتب العلمية - بيروت.
٢ / تأريخ الأمم والملوك - لابن جرير الطبري - ط/ ١٩٧٩م دار الفكر - بيروت.
٣ / الكامل في التأريخ - إبن الأثير - دار بيروت - ١٩٦٥م.
٤ / الأوائل - أبي بكر عاصم النبيل ط/١ - المكتب الإسلامي - بيروت.
٥ / السيرة النبوية - ابن هشام - ط/١ ، ١٩٨٨م - مكتبة المنار - الأردن.
٦ / السيرة النبوية - أحمد زيني دحلان - ط/ ١٩٨٣م - المكتبة الأهلية - بيروت.
٧ / فقه السيرة - محمد سعيد رمضان البوطي - ١٩٧٣م - دار الفكر.
٨ / دراسة في السيرة - عماد الدين خليل - ط/١٠ - ١٩٨٦م - دار النفائس - بيروت.
٩ / ميزان الاعتدال في نقد الرجال - الذهبي - ط/١ - ١٩٦٣م دار أحياء الكتب العربية - دمشق.
١٠ / تهذيب التهذيب - ابن حجر العسقلاني - ط/١ - ١٣٢٥هـ دار أحياء - بيروت.
١١ / تذكرة الحفاظ - الذهبي - دار الكتاب العلمية - بيروت.
١٢ / الضعفاء والمتروكين. تحقيق عبد العزيز السيروان - ط/١ - ١٩٨٥ - دار القلم بيروت.
١٣ / طبقات إبن سعد. طبعت دار بيروت للطباعة والنشر /١٩٥٨ بيروت.

١٤ / أعلام الساجد - محمد بن عبد الله الزركشي - تحقيق الشيخ المراغي ط/١ ١٣٨٤ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية -

١٥ / تقريب التهذيب - ابن حجر العسقلاني /عادل رشد - ط/١ - ١٩٩٧ مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٦ / تحرير التقريب التهذيب / د. بشار عواد /سعيد الأرنؤوط - ط/١ - ١٩٩٧م مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٧ / كتاب الجرح والتعديل لأبن أبي حاتم /١/١ - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٨ / شذرات الذهب في أخبار من ذهب ط/ دار الكتب العلمية - بيروت.

١٩ / صفوة الصفوة لابن الجوزي ط/١ - ١٩٦٩م مطبعة الأصيل حلب.

٢٠ / طبقات الحفاظ - جلال الدين السيوطي - ط/١ - ١٩٨٣م دار الكتب العلمية - بيروت.

السنة والحديث:

١ / فتح الباري لابن حجر العسقلاني ط/١ - ١٩٨٩ - دار الكتب العلمية بيروت.

٢ / عدة الباري في شرح صحيح البخاري طبعة دار الفكر - بيروت.

٣ / إرشاد الجامع - بشار عواد ط/١ ١٩٨٦ مطبعة الأوقاف والشؤون الدينية - بغداد.

٤ / المسند الجامع - بشار عواد ط/١ ١٩٨٦ مطبعة الأوقاف والشؤون الدينية - بغداد.

٥ / مختصر صحيح البخاري - تحقيق ناصر الدين الألباني - ط/٢ - ١٩٨١م - المكتب الإسلامي دمشق.

٦ / جواهر البخاري - شرح العسقلاني - مصطفى محمد عماره - ١٣٤١هـ - المكتبة التجارية الكبرى.

٧ / صحيح الإمام مسلم - مسلم بن الحجاج - ط/١ - ١٩٥٥م تحقيق فؤاد عبد الباقي - دار الكتب العربية.

٨ / سنن الإمام الترمذي - محمد بن سورة الترمذي - ط/١ - ١٩٣٧م - تحقيق أحمد شاكر - دار الكتب العلمية.

٩ / الترغيب والترهيب - زكي الدين المنذري - ط.١٩٨٨م - دار الفكر - بيروت.
١٠ / الجامع الصغير - لجلال الدين السيوطي - ط/٤ - دار الكتب العلمية - بيروت.

اللغة والأدب:

١ / المفردات في غريب القرآن - الراغب الأصفهاني - ط/ دار المعرفة - بيروت.
٢ / لسان العرب المحيط - العلامة ابن منظور - دار لسان العرب - بيروت.
٣ / القاموس المحيط - للفيروز أبادي ط/ ١٩٧٨م - دار الفكر بيروت.
٤ / مختار الصحيح - محمد عبد القادر الرازي ط/ ١٩٨١ - دار الكتاب العربي - بيروت.
٥ / منجد الطلاب - فؤاد البستاني - ط/٣١ - دار المشرق - بيروت.

الكتب التأريخية:

١ / المنظور التأريخي في فكر سيد قطب - عماد الدين خليل - ط/١ - ١٩٩٤م - دار القلم.
٢ / في التأريخ الإسلامي - عماد الدين خليل ط/١٩٨٥م - مطبعة الزهراء - الموصل.
٣ / في التفسير الإسلامي للتأريخ - نعمان السامرائي - ط/١ - ١٩٨٥م - مكتبة المنار - الأردن.
٤ / كتاب الورع - أحمد بن حنبل - ط/١ - ١٩٨٦م - دار الكتاب العربي - بيروت.
٥ / اليهود في القرآن - صلاح أبو إسماعيل - ط/٢ - ١٩٩٠م - جمعية الشيخ عبد الله النوري - الكويت.
٦ / تأريخ فلسطين القديم - ظفر الإسلام خالد - ط/١ - ١٩٧٣م - دار النفائس - بيروت.
٧ / - تاريخ الديانتين اليهودية والمسيحية - سعدون الساموك - رشدي عليان ط/ ١٩٨٨ - جامعة بغداد.

كتب عامّة:

١ / حركة تحديد النسل - أبو علي المودودي - ط/١ /١٩٦٥م - دار الفكر - بيروت.

٢ / العبادة وحقيقة العبودية - إبن تيمية - ط/ ١٩٨٩م - مكتب تعز للنشر - تقديم عامر الشيخلي.

٣ / نفحات من الإسراء والمعراج - فضل حسن عباس - ط/١٩٨٧م - دار البشير - عمان.

٤ / مكائد يهودية - عبد الرحمن حنبكة - ط/١ - دار القلم - دمشق.

٥ / المخططات التلمودية الصهيونية اليهودية في غزو الفكر الإسلامي المعاصر - ط/٢ / ١٩٧٤م دار الإعتصام.

٦ / مسائل إبن حزم الأندلسي - ج/٣ - تحقيق إحسان عباس - ط/١ - ١٩٨١م - المؤسسة العربية للنشر.

٧ /زوال إسرائيل حتمية قرآنية - سعد التميمي - ط/١٩٨٨م

٨ / برتوكولات حكماء صهيوني - ترجمة محمد خليفة التونسي ط/٤ - ١٩٦١م - دار الكتاب العربي - بيروت

٩ / المفسدون في الأرض - س - ناحي - ط/١ - ١٩٦٥م - مطبعة الانشاء — دمشق.

١٠ / المسيح الدجال - سعيد أيوب - ط.١٩٨٩م - دار الاعتصام - القاهرة

١١ / الوعد الحق والوعد المفتري - سفر الحوالي ط١/١٩٩٢ - دار الدعوة للطبع والنشر - الإسكندرية

١٢ / أين الخلل - يوسف القرضاوي - مؤسسة الرسالة

١٣ / الإسلام على مفترق الطرق - محمد أسد - ترجمة عمر فروغ - ط/٤ - ١٩٦٢م - دار العلم للملايين

١٤ / الإسلام والدعوات الهدامة - أنور الجندي ط/١ - ١٩٧٤م - دار الكتاب اللبناني - بيروت

١٥ / - خطر اليهودية العالمية - عبد الله التل - ط/١٩٦٤ - دار القلم - بيروت.

١٦ / أحجار على رقعة الشطرنج - وليام غاي كار - ترجمة سعيد الجزائري ط/١ - ١٩٧٠ - دار النفائس للطباعة والنشر - بيروت.
١٧ / النبؤة والإعجاز في القرآن والسنة - علاء الدين المدرس - دار الكتب العالمية - العلمية - بغداد.
١٨ / بنو إسرائيل في القرآن والسنة - محمد سيد طنطاوي - ط/٢ - ١٩٧٣ - مكتبة الأندلس - ليبيا.
١٩ / سقوط العلمانية - أنور الجندي - ط/١ - ١٩٧٣ - دار الكتاب اللبناني - بيروت.
٢٠ / وعد الله ليس لبني إسرائيل - محمد عبد اللطيف - ط/١٩٧١ - الحقبة المصرية للتأليف والنشر.
٢١ / في الأدب الإسلامي المعاصر - محمد حسن بريغش - ط/٢ - ١٩٨٥ - مكتبة المنار - الزرقاء.
٢٢ / الفكر الإسلامي - تقويمه وتجديده - محسن عبد الحميد - ط/١ - ١٩٨٣ - مكتبة دار الأنبار.
٢٣ / التبشير والاستعمارية في البلاد العربية - مصطفى الخالدي - عمر فروخ - ط/١ - ١٩٥٣ - المكتبة العلمية - بيروت.
٢٤ / الرؤية العربية لليهودية - مهنا يوسف حداد - ط/١ - ١٩٨٩ - منشورات ذات السلاسل - الكويت.
٢٥ / الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام - عبد الله التل - ط/١ - ١٩٧١ - دار الإرشاد - بيروت.
٢٦ / مفصل العرب واليهود في التاريخ - احمد سوسه - ط/.
٢٧ / بروتوكولات حكماء صهيوني - عجاج نويهض - ط/١ - ١٩٨٤ - دار الجيل - عمان - جزئين.
٢٩ / القدس - المخططات الصهيونية - الاحتلال والتهويد - سمير جرجيس - ط/١ - ١٩٨١ - الدراسات الفلسطينية.

٣٠ / مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها - ليلى سعد الدين - ط/١ - ١٩٨٤ - دار الفكر - عمان.
٣١ / تفسير حزقيال - رشاد فكري - ط/ - كنيسة الاخوة - ١٩٨٣ - بيروت.
٣٢ / اليهودية - احمد شلبي - ط/٣ - ١٩٧٣ - مكتبة النهضة المصرية.
٣٣ / المسيحية - أحمد شلبي - ط/٣ - ١٩٧٣ - مكتبة النهضة المصرية.
٣٤ / تاريخ الكنيسة - جون لوريمر ط/دار الثقافة - ١٩٨٢.
٣٥ / حكمة الغرب - برتاندراسل - ط/ دار المعرفة - ١٩٨٣.
٣٦ / حقيقة التبشير - احمد عبد الوهاب - مكتبة وهبة.
٣٧ / دراسات في الكتب المقدسة - موريس بوكاي - ط/ ١٩٧٨ - دار المعرفة.
٣٨ / الصهيونية وقضية فلسطين - عباس محمود العقاد - ط/ المكتبة العصرية.
٣٩ / قصة الحضارة - دل ديورانت - طبعة جامعة الدول العربية - القاهرة.
٤٠ / الإسراء والمعراج - محمد متولي الشعراوي.
٤١ / تاريخ اللغات السامية - إسرائيل ولفنسون - ط/١٩٨٠ دار القلم - بيروت.
٤٢ / الصهيونية والماسونية - عبد الرحمن سامي - طبعة دار الفكر - بيروت.
٤٣ / كتاب - الله - عباس محمود العقاد - طبعة دار الفكر - بيروت.
٤٤ / الأسفار المقدسة - علي عبد الرحمن وافي - طبعة دار الجيل -بيروت.
٤٥ / تاريخ الآلهة - فاروق الدملوجي - ط/٣ - العبرية.
٤٦ / الثقافة العربية - عباس محمود العقاد - ط/ طبعة دار القلم - بيروت.
٤٧ / قصة العقائد - سليمان مظهر - ط/١ - ١٩٨٤ - الوطن العربي - بيروت.
٤٨ / التراث الإسرائيلي - صابر طعيمة - ط/١٩٧٩ - دار الجيل - بيروت.
٤٩ / اليهود في القرآن - عفيف عبد الفتاح طبارة - دار القلم - بيروت.
٥٠ / حول إعادة تشكيل العقل المسلم - عماد الدين خليل - ط/١ - كتاب الامة - قطر.
٥١ / الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي الإسلامي - يوسف القرضاوي -١٩٨٨.

❁ ❁ ❁

CONCLUSIONS AND RECOMMENDATIONS

In the name of Allah, the beneficent, the merciful

Praise to be Allah & be upon Mohammed his messenger. One could be exclaimed that a matter of the children of Israel and the consequences of their corruption in this earth for a period of twelve (12) hundred years without being studied or to salive the real differences which falls in which are against which Allaha likes, from the beginning of that day when the famous scholar Ibn tarear when tackled in his explanations in which he mentioned different stories or narration which were most of them have a very weak support.

Historical facts came appeasing their structure as well.

For that what the old scholars have brought, was taken as a whole or part of them as has been narrated or some of the support were omitted from the new scholars who were followes them or gave their own opinion in the explanation of verses the very well known narration's. They brought nothing new, but it is something wan't satisfy their enthusiasisem (brand).

As a whole this study for this problem from a different point of view as a study of the narration's and their confirmation from the correctness point of view or Nat in the study of history and its facts and the position of the corruption of Israel in the study of singularity of verses of the Quaran and the position of their use in Quaran and their meaning in the use of frank and their clear language at the Arab and the collection of scholar's saying and the scholar of language in the explanation of a single verse in the study of a single history and position of conflation between Islam and the children of Israel and their role in its war and the initiation of the devil forces for the sake of finishing his messengers who they were found written in their scepters (toehold testament and the bible) and after that what has happened to them from a killing strikes on the hand of Mohammed followers who were complete surrenders (submitter) to Allah, they were with a strong effects rooming their

lands and invade Al - Alsque as a controllers. Children of Israel were melted down and were distributed here and there in the earth. They were humiliated, weak, very sorry and they were striking in the dark places with complete humiliation, no fighting day and night, playing bad games, following the devil until they were able to introduce weakness in the heart of believers & push them away from most important leadership rules when the believers went back & deluging day. In that day, the skulls of Jews muck were conspired putting spades of demolishing and destroying to defeats the earth newly and in this sense, they came back as they were supplied three factors which were not existing before (moneys from every where, Youngster supporting their bad claims and they were filled down every to be proved at the end of this Universe). From these facts where many points were exposed clearly. As in the following:

1. The verses in the beginning of Isra'a Sura dose not explain an old corruption by the son's of Israel, but it explain their future corruption as mentioned by Quaran & prophetic hadith (peace be upon him) & all of Muslims scholars.
2. There is tow corruption and one prejudice accompany one of the corruption, this mentioned in Quaran & History never mentioned any prejudice for Son's of Israel before.
3. Those who humiliate Son's of Israel in their first corruption were Mohammed (peace be upon him) and his believer, whose their criteria's were sincerely for Allah and purely prying for their Eritrea, in addition to be a strong invaders for the Son's Israel lands & enter the Mosque. There fore the criteria's of Muslims invaders in the second corruption must be similar to that of the first invaders.
4. Today recurrence of similar corruption of Son's of Israel while they are riding the mave of prejudice on the earth and they were intended apply their power on the whole earth population, by their new rules. Son's of Israel never struggles unless the have well controlled village or from behind walls, also they look all together, but actually their hearts completely disrupted.
5. For these reasons we as believers must be ready to face them by being sincere and pure believer of Allah. And Storage invaders.

Dose Muslims Knows that ?...

Isra'a sure pronounced that to:

First: Son's of Israel that if the last corruption appointment came Allah will collect them from every where to genie their fate, from our believer's who will invade their laved, disrupt their buildings (espeually suluaman skeletan), & Kill all Jews and dean the earth from them.

Second: To Muslims believers your Quaran learn you how to be straight regarding the treatment of son's of Israel corruption & other corruption, because Quaran give us the truth because its giving by the truth.

Third: For the whole population on the earth that the right & truth has been appeared and the darkness have been exhausted because darkness always exhausted.

Researcher:

Amer Naif Hamad Al - Zobaei

المحتوى

الموضوع رقم الصفحة